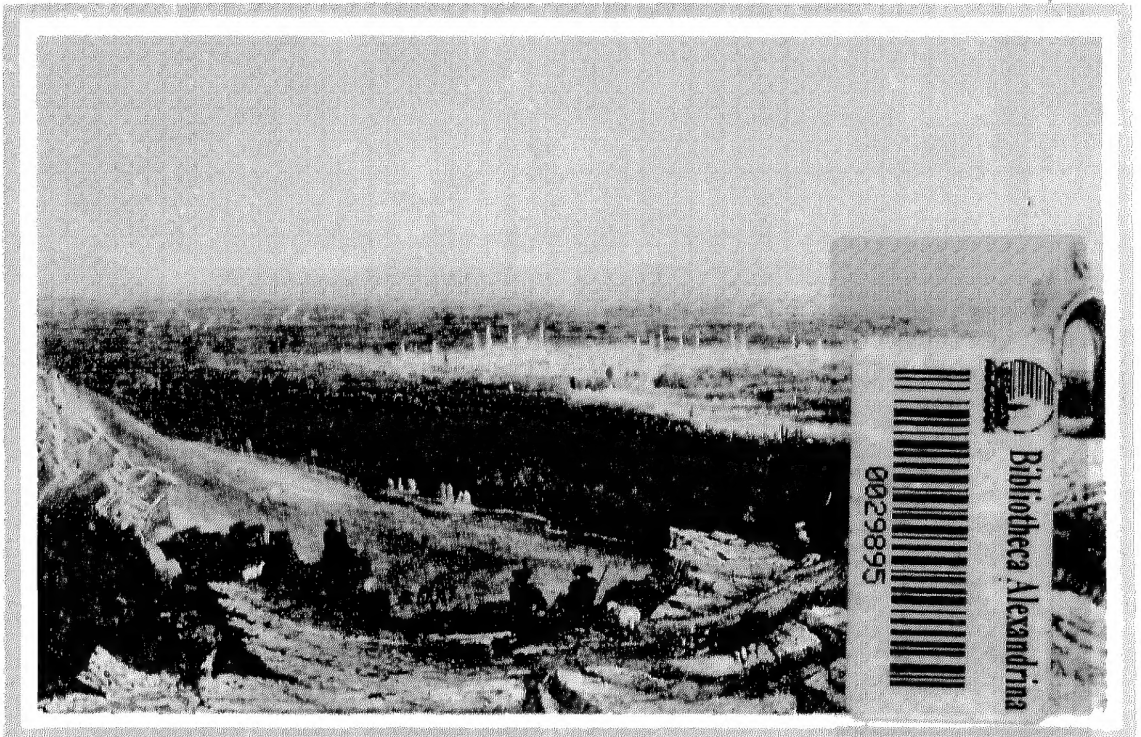


د. يوسف جميل نغيسة

مجتمع مدينة دمشق

١١٨٦ - ١٢٥٦ هـ

١٧٧٢ - ١٨٤٠ م



الجزء الأول



للدراسات والترجمة والنشر

دمشق — اوقستراة المزة

هاتف ٢٤٤١٢٦ — ٢٤٣٩٥١

تلكس ٤١٢٠٥٠

ص. ب: ١٦٠٣٥

العنوان البرقي

طلاسداز

TLASDAR

ربيع الدار مخصص

لصالح مدارس ابناء الشهداء في القطر العربي السوري

مجتمع مدينة دمشق

١١٨٦ - ١٢٥٦ هـ
١٧٧٢ - ١٨٤٠ م

جميع الحقوق محفوظة
لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

الطبعة الأولى
١٩٨٦

د. يوسف جميل نعيمة

مجتمع مدينة دمشق

في الفترة ما بين

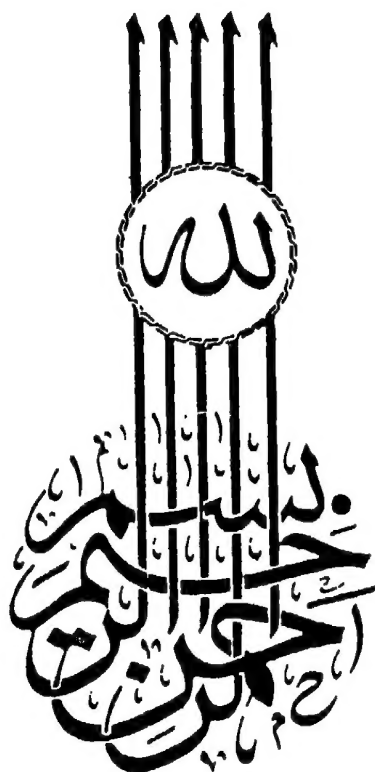
١١٨٦ - ١٢٥٦ هـ

١٧٧٢ - ١٨٤٠ م

في جزئين

الجزء الأول

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار



الهدوء

إلى أمتي العربية ... موطن اعتزازي وموئل رجائي
إلى قوافل الشهداء ... شعاع النور في ظلمة القهر ... الذين شمخت بهم
شجرة الحرية

أشعل هذه الشمعة
علّ باهت نورها يُضيء محراب حبيهم عرفانا، ووفاءً.

د. يوسف نعيسه

تقديم

بقلم الدكتور محمد خير فارس

تناول الدكتور نعيسه في بحثه القيم، مجتمع دمشق في فترة من أخطر الفترات في تاريخ السلطة العثمانية بعامة، وفي تاريخ ولاية دمشق بخاصة . تمتد هذه الفترة بين ١٧٧٢ - ١٨٤٠، أي بين التدخل المصري الأول بقيادة علي بك المملوكي الذي اغتصب السلطة في مصر، وبين التدخل المصري الثاني في بلاد الشام بقيادة ابراهيم باشا ١٨٣١ - ١٨٤٠. وإذا كانت آثار التدخل الأول سلبية، إذ زادت في الفوضى التي كانت ضاربة أطناها، فإن آثار التدخل الثاني كانت خطيرة وعميقة على مختلف الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. ولم تنته هذه الآثار بانتهاء الحكم المصري بل استمرت تتطور بإيجابياتها وسلبياتها، بفضل سياسة التنظيمات الخيرية التي بدأت الدولة العثمانية بتطبيقها، بتأثير الهزائم التي لحقت بها داخلياً

وخارجياً ، وبفضل الضغط الأوروبي الذي كان يطمح في الحصول من وراء هذه السياسة على تسهيلات لنشاط الرعايا الأوربيين في الدولة و ضمانات قانونية .

تأثرت الدولة العثمانية بعامة وبلاد الشام بخاصة ، بعدد من الأحداث الهامة الداخلية والخارجية فعلى الصعيد الداخلي ، وبسبب ضعف السلطة المركزية العثمانية ، ازدادت أهمية القوى المحلية ، ومارس الكثير من حكام الولايات استقلالاً فعلياً ، وأسس بعضهم أسراً حاكمة وراثية .

استقل المماليك في بغداد حتى ١٨٣٠ ، وبلغ المماليك في مصر ذروة نفوذهم في عهد علي بك الكبير وأبي الذهب في آخر القرن الثامن عشر . واستقل محمد علي في مصر وشرع في بناء دولة عصرية فيها .

واستقلت الأسرة القرمنلية في طرابلس ١٧١١ — ١٨٣٥ ، والأسرة الحسينية في تونس ١٧٠٥ — ١٩٥٧ ودايات الجزائر ١٦٧١ — ١٨٣٠ . وسيطر المملوك أحمد باشا الجزائر على ولاية صيدا ودمشق بموافقة السلطان حيناً وورعاً عنه حيناً آخر . وكان حكمه في دمشق محنة لأهلها حيث أذاقهم الأمرين . وظهرت الحركة الوهابية في نجد تنسف ايديولوجياً شرعية السلطة العثمانية ، وتحرم السلطان ، بسيطرتها على الأماكن المقدسة في الحجاز ، أهم ألقابه « حامي الحرمين الشريفين » وتهاجم العراق والشام دون أن تلقى رادعاً ، وتوجه لولاية دمشق ضربة اقتصادية هامة بمنعها وصول قافلة الحج الشامي . وتضطر الدولة إلى الاستعانة بوالها القوي محمد علي الذي نجح في القضاء على

الحركة الوهابية وسيطر على معظم شبه الجزيرة العربية، ولكن عمل لحسابه الخاص .

ولم تكن الأحداث الخارجية أقل أهمية من الأحداث الداخلية . توالى هزائم الدولة الخارجية ، فقد هزمت أمام روسيا مرتين من ١٧٦٨ — ١٧٩٢ واضطرت إلى تقديم تنازلات اقليمية هامة . واجتال الفرنسيون مصر ١٧٩٨ ولم يخرجوا منها عام ١٨٠١ إلا بفضل المقاومة الوطنية المصرية والتدخل الانجليزي . وقامت الثورات القومية في الصرب واليونان ، وسحق الانطول العثماني في نافارين ١٨٢٧ ، وهزمت الدولة مرة أخرى أمام روسيا ١٨٢٩ — ١٨٣٠ . واحتلت فرنسا الجزائر دون أن يبدي السلطان حراكاً .

وكان أخطر الأحداث الخارجية والداخلية على ولاية دمشق واعمقها تأثيراً في مختلف جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية حدثان التقياً في بلاد الشام في آن واحد تقريباً وأكمل أحدهما عمل الآخر . الحدث الأول الثورة الصناعية التي ظهرت بادىء الأمر في انجلزه في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ثم انتقلت إلى القارة الأوروبية منذ بداية القرن التاسع عشر وبدأ تأثيرها يظهر واضحاً في الدولة العثمانية بعامة وولاية دمشق بخاصة في أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر . والحدث الثاني الحكم المصري لبلاد الشام ١٨٣١ — ١٨٤٠ الذي أنهى عزلة مدينة دمشق وفتحها أمام الأجانب أو حاول تطبيق الاصلاحات التي تمت في مصر في شتى

المجالات . وبالرغم من انسحاب المصريين السريع من بلاد الشام بضغط أوروبي هائل فإن السياسة التي باشرها ابراهيم باشا في سورية استمرت بفضل التنظيمات الخيرية .

اتبع الدكتور نعيسه في دراسته لهذه الفترة المنهج التقليدي ، فلم يكتف برصد المتغيرات وربطها بمسبباتها ، بل عاد إلى الجذور وأوغل بذلك فأثقل على نفسه . ولكنه قدم للقارئ العربي سفرأً ضخماً رسم فيه لمدينة دمشق ومؤسساتها وعناصرها الاجتماعية الفاعلة لوحة بانورامية جذابة .

المقدمة

عندما تناولت بالبحث مجتمع مدينة دمشق ما بين سنة ١٧٧٢ م - ١٨٤٠ م ، قصدت من ذلك دراسة فترة من تاريخ دمشق تعتبر إرهاباً لمتغيرات واسعة وعميقة لم تشمل دمشق فحسب بل شملت المنطقة بأسرها في جميع مناحي حياتها .

وإن معظم الدراسات التي ظهرت ، سواء ما كان منها عربياً أو أجنبياً كان عاماً ، أو شاملاً لفترة زمنية طويلة ، أو تناول جغرافية واسعة ، مما حرمننا من معرفة خصائص مجتمع كل مدينة ومنطقة على حدة بدقة . كما حرمننا من معرفة الظروف المحلية التي لعبت دورها آنئذ في تطورها ، ناهيك عن ظروف الإمبراطورية الداخلية والظروف الدولية أيضاً .

ولقد قام باحثان إنجليزيان هما : هاملتون جب وهارولد باورن بدراسة بعض النواحي الاجتماعية والإدارية وغيرهما في الدولة العثمانية مثل دراستهما للأسرة

والقرية والبدو والصناعة والتجارة والمدينة والجيش والحكومة والادارة والفلاحين والزراعة ، وأسميا كتابهما «Islamic Society and the West» . وما نشره منه كان في مجلدين . قام بترجمة المجلد الأول منهما الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى في القاهرة في اكتوبر/تشرين ثاني سنة ١٩٧٠ م في حين لم يزل المجلد الثاني دون ترجمة .

وأهم الباحثين الذين قاموا بجهد كبير في هذا المجال وقدموا لنا دراسات رصينة ومتعمقة هو الأستاذ الدكتور عبد الكريم رافق أستاذ التاريخ الحديث في جامعة دمشق ، وبرز ذلك في كتبه المتعددة بالإضافة إلى مقالاته وكتاباتة المختلفة التي نشرها في المحافل والمجلات العلمية والأجنبية . ويعود إليه الفضل في توجيه أنظار الباحثين إلى سجلات محاكم دمشق الشرعية وذلك من خلال ما كتبه عنها وما استقاه من معلوماتها . ومن كتبه التي نشرها كان كتابه :

«The Province of Damascus: 1723-1783»

ولقد تناول فيه أوضاع دمشق في ظل الولاة من آل العظم في تلك الفترة ، ورصد فيها أهم المتغيرات التي طرأت على دمشق . ثم كتابه الثاني الذي كان أعم وأشمل من الكتاب الأول وتناول فيه أوضاع المشرق العربي في ظل الدولة العثمانية بدءاً من سنة ١٥١٦ إلى سنة ١٧٩٨ م وسماه « بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون ١٥١٦ — ١٧٩٨ » وهو أهم كتبه . أما كتابه الثالث فهو « العرب العثمانيون من سنة ١٥١٦ إلى ١٩١٦ م » وفيه يزيد على ما ورد في كتابه الثاني برصده أحداث الوطن العربي من حملة نابليون إلى سنة ١٩١٦ م وأبرز ما ورد فيه دراسته لمظاهر انحطاط الدولة العثمانية والنفوذ المحلي

والأسر الحاكمة سواء المملوكية أو العربية في الاقطار العربية المختلفة التي تقع ضمن الامبراطورية العثمانية سواء في المشرق أو المغرب ، وحركات الاصلاح في الدولة العثمانية وحكم الطغاة فيها والتدخل الأجنبي في الوطن العربي والحركات الودية المختلفة التي قاومت الاستعمار وجاءت طباعة هذا الكتاب في سنة ١٧٤ م .

ومن بعد الدكتور رافق قام الأمريكي النشأة — جورج خوري — بدراسة أوضاع ولاية دمشق ما بين سنة ١٧٨٣ — ١٨٣٢ وقدم بحثه ذاك تحت عنوان : «*the province of Damascus, 1783-1832*» إلى جامعة ميتشجان لنيل درجة الدكتوراه عنه . وانصب اهتمامه فيه على رصد المتغيرات السياسية والاقتصادية بالدرجة الأولى في تلك الولاية وأهل النواحي الاجتماعية ولم يحاول الخوض في المتغيرات التي حصلت في عهد ابراهيم باشا المصري بكاملها .

وهكذا وجدت نفسي أمام موقف صعب قد تقصر عن تحقيق أهدافه امكاناتي ، إلا أنه من جهة أخرى يغري الباحث لما لتلك الفترة من بالغ الأهمية . ففيها كانت الدولة العثمانية تترنح تحت الضربات الخارجية والداخلية وتحيم عليها سحب التخلف الداكنة امتداداً لعصور الانحطاط في وقت كانت أوربا فيه تتصاعد قوتها الفكرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية . دوراً بعد آخر حتى أصبح مصير الدولة العثمانية في التمزق والتجزئة قاب قوسين أو أدنى . ولم يمنعها من الوقوع في مهاوي الكارثة سوى اختلاف الدول الأوربية القوية فيما بينها على ذلك .

لقد أدرك المتنورون من السلاطين هذه الحقائق فسعوا لرأب الصدع وتلافي

أسباب الانحطاط والضعف فأجرى بعضهم في القرن الثامن عشر ، بعض الإصلاحات إلا أنها لم تكن كافية إلى الدرجة التي تجنبها الانهيار ، كما لم تشمل جميع مرافق الحياة فيها مما دفع السلاطين في القرن التاسع عشر للسعي مرة أخرى إلى الإصلاح ، إلا أن الظروف والصعاب التي جابهت بعضهم كانت كبيرة فاقت طاقتهم فعجزوا عن مجابهتها ولعب عامل الزمن دوراً أساسياً في ذلك ، وحسبنا هنا أن نلمح أهم الظروف والعوامل التي تسببت في ضعف الدولة العثمانية ، وأهم الأحداث الداخلية والخارجية التي عجلت في عملية التغير التي شهدتها المنطقة بعد هذه الفترة ، سواء من الناحية الإيجابية أو السلبية

فعلى المستوى العسكري كان الجيش العثماني بنظمه وتسليحه متخلفاً عن الجيوش الأوربية إلى درجة خطيرة فبرز ذلك في ميادين القتال ، ولم يتسبب بهزائم الدولة العثمانية فحسب بل تسبب في نشر الفوضى والاضطرابات في أرجائها ، وأصبح غبثاً على أمنها واقتصادها بدلا من أن يكون درعاً يحميها ويصد عنها عاديات الجيوش الأوربية وأعداءها ، ويقمع الفتن والتفردات الداخلية .

وعلى مستوى الانتاج كانت الزراعة هي الأساس في انتاج الدولة العثمانية ، ونتيجة لتفسخ النظم الاقطاعية رغم قيام المحاولات العديدة لإصلاحها ، تدهور الانتاج الزراعي بشكل مستمر وساءت أحوال الفلاحين ، ناهيك عن استخدامهم جهودهم في زراعة الأرض بأدوات بدائية موروثة وعجزهم عن مكافحة الآفات الزراعية المختلفة التي أصابت محاصيلهم ، واستهلاكهم لمعظم ما أنتجوه من غلال واغتصاب ما تبقى من انتاجهم على يد المستغلين من الاقطاعيين والجنود والحكام والتجار وغيرهم^(١) . وعجز الدولة عن حمايتهم مما أدى

(١) — لوتسكي — فلاديمير . تاريخ الأقطار العربية الحديث . ص ٢٧ دار التقدم موسكو .

إلى هجرهم للأراضي بسبب تلك المظالم ، فتقلص عدد القرى والمساحات المزروعة واندفعت جموعهم نحو المدن بحثاً عن الأمن والرزق وشكلوا بذلك عبئاً جديداً على اقتصاد المدن مما زاد في استفحال أزماتها .

وعلى المستوى الخارجي قامت في أوروبا الثورة الصناعية باعتمادها على طاقة البخار في الصناعة بديلاً عن طاقة الإنسان والحيوان ، في وقت كانت فيه أقاليم ، الدولة العثمانية تعتمد على الطرائق القديمة في الانتاج حيث شكلت طاقة الإنسان العنصر الاساسي فيه ، في حين كانت أوروبا تعتمد على الآلة التي فاقت طاقة الإنسان أضعافاً مضاعفة ، وانتقل الانتاج في أوروبا من نظام المعامل اليدوية (المانيفاتورة) إلى الانتاج الآلي . وفاضت كمية انتاجهم عن حاجتهم مما دفعهم للعزوف عن السفن الشراعية الصغيرة في النقل وأحلوا محلها السفن التجارية الكبيرة التي تتحرك بطاقة البخار بديلاً عن الشراع . وساعدها ذلك على الاجار في مختلف الظروف ليلاً ونهاراً وفي كل فصول السنة ، ودخلت موانئ المنطقة في طور جديد في المجال الاقتصادي انعكس ذلك على الحياة الاجتماعية نفسها .

كما اختلفت طريقة تعامل الأوربيين في مجال التجارة مع مدن بلاد الشام والدولة العثمانية خصوصاً عند شرائهم المحاصيل المحلية مهما اختلفت أنواعها وكمياتها (الحبوب — الزيت — الحرير — القلي) وأصبحوا لا يشترون سوى المواد الخام التي تحتاجها معاملهم وباعوا منتجاتهم بالمعادن الثمينة (فضة أو ذهب) لأن كمية وأسعار المنتجات المحلية لم تعد تغطي قيمة البضائع الأوربية . وبذلك انقضى عصر المقايضة مما اثر على السكان من ناحيتين :

الأولى : كساد المنتجات المحلية لعدم قدرتها على المنافسة .

الثانية : اضطرارهم لدفع ثمن البضائع الأوربية نقداً ثميناً^(١) . فأدى ذلك إلى سحب هذه المعادن من الامبراطورية العثمانية قبل وجودها . فأدخل الغش في سك النقود بخلطها بمعادن خسيصة وأدى ذلك إلى التضخم النقدي فارتفعت الأسعار وزاد الغلاء وتعطلت مصالح وحرف ، وانتشرت المجاعات في أكثر من مكان من الامبراطورية العثمانية .

وتكدست لدى الأوربيين رساميل ضخمة واكتسبوا خبرة كبيرة في التجارة وتنظيم الأجور . واستغل الأوربيون الامتيازات التي حصلوا عليها داخل الامبراطورية العثمانية وحولوها إلى تسهيلات لتجارتهم (يمكن سحبها متى شاءت السلطات العثمانية) إلى اتفاقيات وحقوق مسلم بها لا يمكن نزعها ، وبفضل هذه الامتيازات أعفي الأشخاص الأوربيون من الضرائب ، كما استثنيت حمايتهم المحليون [البراءتية] من سلطة المحاكم العثمانية وحفظت ممتلكاتهم من المصادرة ، واستمر العمل بنظام الامتيازات حتى القرن العشرين فتشكلت ركيزة من ركائز الاستعمار وعرقلت تطور الرأسمال الوطني في الأساس ووضع التجار المحليون في موضع غير متكافئ في الحقوق مع التجار الاجانب ، فكان التاجر الأوربي يدفع رسماً للدولة العثمانية ٣٠٪ من قيمة البضاعة في حين كان التجار المحليون يدفعون رسماً ما بين ٧ — ١٠٪ كما أن التجار الأجانب لا يدفعون عن بضائعهم إلا رسماً واحداً ولمرة واحدة في حين كان التجار المحليون يدفعون الرسم مرات عديدة في المقاطعات المختلفة من الدولة العثمانية^(٢) . فوفر ذلك مكاسب هامة على حساب الأقتصاد المحلي .

(١) رافق ، عبد الكريم ، العرب والعثمانيون ص ٤٢٤ و ص ٤٢٥ .

(٢) انظر : لوتسكي ، فلاديمير — المرجع السابق ، ص ٢١ و ص ٢٢

وفي هذه الفترة تزايدت هزائم الدولة العثمانية فلم تعد تحصل على الغنائم والثروات من البلدان المفتوحة بل على العكس أصبحت تدفع تعويضات الحرب للدول الأوروبية المنتصرة ، وكان على الشعب أن يدفع تلك المغارم والتعويضات فأثقل كاهله بالضرائب والأتاوات . وشكل ذلك ارباكات اقتصادية لا حد لها ، وزاد في الطين بلة ، ضعف السلطة المركزية إذ انزوى السلاطين في قصورهم بين الحريم وتركوا ممارسة السلطة للصدر العظام ، ودب الصراع بين الكرزلاز آغا والصدر الأعظم وانعكس ذلك سلباً على الادارة المركزية والولايات وزادت المكائد بين الطامعين في المناصب ، فأسهم ذلك في نشر الفوضى وانقطاع حبل الأمن في كل مكان . وانعكس ذلك بشكل أساسي على الحواضر والقرى ، وازداد شره الاقطاعيين والحكام نتيجة لنمو العلاقات البضاعية النقدية ولطبيعة التجارة الخارجية فشيدوا القصور في دمشق وغيرها من حواضر الامبراطورية واستورد التجار مواد الترف من كافة أنحاء المعمورة ودفعوا أثمانها معدناً ثميناً ، وزاد الحكام من استغلال الفلاحين ليسدوا متطلبات حاجياتهم المرفهة ، وأدى ذلك إلى الصدام فيما بينهم على ابتزاز الفلاحين مما أدى إلى اهمالهم للأرض وأصبحت بعض أجزائها أدغالاً مغطاة بالأشواك وتحولت إلى أرض موات . وأصبح أكثر من نصف مساحة الأراضي الصالحة للزراعة في عداد الأرض الموات .

وصارت المجاعات ظاهرة يتكرر وقوعها مع الزمن ، وأدى ذلك إلى مزيد من الخراب وزاد في الكيل اعتداء البدو على الحواضر " .

وشجع ضعف السلطة المركزية في استانبول الطامعين من الولاة والأسر

(١) انظر : لوتسكي — فلامبيير — المرجع السابق ص ٢٧ وص ٢٨ .

المحلية على الاستغلال والتمرد ، فبرز المماليك في مصر والعراق والاسرة القرمانيية في ليبيا والحسينية في تونس وظاهر العمر في فلسطين ومن بعده أحمد باشا الجزائر والقوى المحلية في بعض المدن الشامية .

وبلغت الاضطرابات في البلاد ذروتها في ٢/حزيران/١٧٧١ م/١٨ صفر ١١٨٥ هـ عندما زحفت قوات علي بك الكبير من مصر إلى بلاد الشام بقيادة مملوكه محمد بك أبي الذهب ، ورغم انسحابه من دمشق في ٥ ربيع الأول من نفس العام إلا أن ذلك كان بمثابة تطور خطير في بلاد الشام وكان من أهم نتائجه فقدان ولاية الشام سيطرتهم المحلية^(١) إلى فترة طويلة من الزمن ، كما انتقلت المبادرة السياسية إلى ولاية صيدا ، ونتج عن ذلك ضرر كبير لمدينة دمشق على مختلف المستويات .

وفي المناطق الشمالية تعرضت الدولة العثمانية إلى هزائم متكررة أمام الروس ، وتوجت هزائمها باجبارها على توقيع معاهدة/كوجوك قينارجة/في سنة ١٧٧٤ م والتي أعطت الروس مكاسب اقليمية كبيرة على حساب الامبراطورية العثمانية فامتلكوا حصن كيرتش ويني قلعة وكنينبورن وكابادوا . وأعلنت القرم وكوبان استقلالهما عن تركيا تمهيداً لضمهما إلى روسيا وحصل بعد ذلك في سنة ١٧٨٢ م . كما حصل الروس على حرية الملاحة في البحر الأسود والمضائق لأغراض تجارية .

واستطاع الروس بعد نشوب الحرب مع العثمانيين من جديد (١٧٨٧ - ١٧٩٢) م أن ينتزعوا أيضاً مكاسب أخرى طبقاً لمعاهدة ياسي في

(١) انظر : رافق ، عبد الكريم . بلاد الشام ومصر ، ص ٣٧٢ وص ٣٧٤ وص ٣٨٧ وص ٣٨٨ .

٩ كانون اثني ١٧٩٢ م فبسطوا سيطرتهم على شواطئ البحر الأسود الشمالية وامتدت حدودهم إلى نهر الدنيستر^(١) .

ولقد تجدد اهتمام الدول الأوربية في هذه المنطقة ، فبعد استقلال الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٧٧٦ م عن التاج البريطاني ، رأى الانكليز في الممتلكات العثمانية وخاصة في مصر وبلاد الشام ما يعوضهم عن خسارتهم فيها ، كما تجدد اهتمام الفرنسيين بمناطق المتوسط واشتد صراعهما على الهند على اعتبار أن الممتلكات العثمانية الواقعة شرق وجنوب المتوسط أفضل معبر إلى الهند ، درة المستعمرات البريطانية . فنزلت القوات الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت في الاسكندرية في أول تموز سنة ١٧٩٨ م . زحفت القوات على بلاد الشام وتوقفت عند أسوار عكا بفضل صمود حمايتها من العثمانيين والفرنسيين الملكيين والدعم البحري الانكليزي ، وانتشر الطاعون بين صفوف القوات الفرنسية ، مما أجبر نابليون على الانسحاب إلى مصر . ورغم فشل الحملة الفرنسية على بلاد الشام إلا أنها دفعت بتلك البلاد مع الغرب على حين غرة إلى دوامة الأحداث التي كانت تهمز أوروبا في نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر مع أنها أقاليم نائية عن الامبراطورية العثمانية وأدرك الانكليز خطورة مطامح الفرنسيين على مصالحهم فصمموا على مقاومتها بكل السبل .

ومن جهة أخرى فإن الحملة الفرنسية على فلسطين لم تترك آثاراً عميقة في سورية كما تركتها في مصر ، إلا أن العمليات الحربية التي اندلعت في سورية قد عقدت الوضع الداخلي وأفضت إلى استعار الصراع مجدداً بين الاقطاعيين أنفسهم وبين ولاية دمشق وصيدا .

(١) لوتسكي : المرجع السابق ص ٣١ . رافق بلاد الشام ومصر ص ٣٠١ .

ولم تسترح الدولة العثمانية بعد خروج الفرنسيين بل جوبهت بخاطر جديد جاءها هذه المرة من الجزيرة العربية وتمثل بحركة محمد بن عبد الوهاب الذي دعا للعودة بتعاليم الاسلام إلى صفائها الأول . ويعني ذلك أن السلطان العثماني لم يعد زعيماً للأمة الاسلامية وساعدت الوهابيين في ذلك انكسارات السلطات العسكرية المتلاحقة أمام الدول الأوربية ، مما دل على عدم كفاءته للدفاع عن دار الاسلام وتأتي خطورة ذلك على الدولة العثمانية من كون هذه الدعوة تشكل تحدياً للعثمانيين من العرب المسلمين دعاة الاسلام الأول وأن الحركة الوهابية بدعوها إلى العودة إلى تعاليم الاسلام إنما كانت تحمي ذكريات عظمة العرب الأولى وما قدموه للاسلام . ولهذا اعتبرت الحركة الوهابية رد فعل عربي في القرن الثامن عشر لإرجاع زمام المبادرة والقيادة في البلاد الاسلامية إلى العرب^(١) .

ولم يقتصر خطر هذه الحركة على تهديد الوجود العثماني في الحجاز والجزيرة العربية بل سعى هؤلاء إلى توحيد البلدان العربية على اساس تعاليمهم الدينية إلا أن قواتهم وامكانياتهم قصرت عن تحقيق ذلك ، ورغم ذلك قاموا بالاغارة على فلسطين وبلاد الشام والعراق ومناطق الفرات في القرن التاسع عشر ؛ ففي نيسان سنة ١٨٠١ م هاجموا مدينة كربلاء ونهبوا كنوزها وهزموا حملة والي بغداد بعد ذلك .

وفي سنة ١٨٠٣ م ظهروا في جوار حلب ، وفي سنة ١٨٠٤ م شنوا غاراتهم على الزبير والبصرة إلا أنهم دحروا بقوات واليهما سليمان الصغير ، وفي نفس العام ظهروا في البطاح الواقعة ما بين معان وحلب ، وفي سنة ١٨١٠ م

(١) انظر : رافق ، عبد الكريم . بلاد الشام ومصر ص ٣١١

سنة ١٢٢٥ هـ ظهوروا في حوران . ويقول حسن آغا العبد في أحداث ١٢٢٥ هـ « اشتدت الأخبار في الشام بأن عرب الوهاية وصلوا إلى مزيريب ... فعمل ركة يوسف باشا والي الشام وطلع نحو مزيريب .. فحرقوا بعض ضيع الوهاية نواحي حوران ونهبوا بعض قراها فأول ما سمعوا بيوسف باشا ترفعوا » (١) .

وكانت أخطر أعمالهم ضد الدولة العثمانية سيطرتهم على الأماكن المقدسة في (مكة والمدينة من الحجاز) ، ففي سنة ١٨٠٤ م ١٢١٨ - ١٢١٩ هـ استولوا على المدينة المنورة وفي سنة ١٨٠٦ م ١٢٢٠ - ١٢٢١ هـ عادوا فاستولوا على مكة وفي ذلك يقول عثمان بن بشر أن الأمير سعود قد أمر فراج بن شرعان العتيبي بالتصدي لعبد الله باشا (العظم) أمير قافلة الحج الشامي ومنعه من دخول المدينة المنورة خوفاً من تواطئه مع شريف مكة لضرب الوهايين فرجع عبد الله العظم ومن تبعه من المدينة إلى أوطانهم » (٢) .

وفي سنة ١٨٠٦ م ١٢٢٠ - ١٢٢١ هـ عاد الوهايون واستولوا على مكة المكرمة ونهبوها وضموا الحجاز إلى دولتهم مما زاد في احراج السلطان العثماني ، إذ لم يبق له ما يثبت أنه زعيم المسلمين بتوقف قافلة الحج بعد أن منعوا معظم الحجاج من أداء مناسك الحج ، ولم يكتف الوهايون بذلك بل زادوا في تحديدهم للسلطان بأن قام أميرهم سعود بمراسلة السلطان سليم الثالث وطالبه

(١) العبد ، حسن آغا — تاريخه ص ١٥٠ .

(٢) انظر : عنوان المجد في تاريخ نجد . ج ١ . ص ١٢٧ وص ١٢٨ .

ولمذكر عثمان بن بشر الخنيلي أيضاً أن الدولة الوهاية في سنة ١٢٢٥ هـ — شملت : العارض . والجنوب ووادي الدواسر والاحساء ونواحيه وعمان وجميع أهل نجد وأهل التهام والحجاز واليمن والمدينة المنورة وما حولها انظر : عنوان المجد في تاريخ نجد . ج ١ . ص ١٤٥ .

بالامتناع عن ارسال الحمل من دمشق والقاهرة إلى مكة قائلاً «ان ذلك ليس من الدين في شيء»^(١) .

لقد ساعد الحركة الوهابية على نموها كونها ظهرت في منطقة آهلة بالسكان في هضبة نجد المعزولة بصحارى ورمال يصعب الوصول إليها بسهولة . إذ لا تخترقها سوى طرقات قليلة كوادي سرحان القادم من سورية وطريق القوافل التجارية القادم من الخليج العربي إلى الحجاز^(٢) .

وفي سنة ١٢٢٣ هـ — تناقص عدد قافلة الحج ولم يحج في هذه السنة من أهل الشام ومصر والعراق والمغرب وغيرهم سوى شريحة قليلة من أهل المغرب لا اسم لهم .

ولم يكن باستطاعة العثمانيين تجنيد جيش كبير لمحاربة الوهابيين والقضاء عليهم بعد فشل ولاية دمشق وبغداد في التصدي لهم ، وازداد موقف السلطان حرجاً وفقد جانباً عظيماً من هيئته وسمعته الدينية فلم يجد مناصاً من دحر الحركة مهما كلف الثمن ، فوجد في محمد علي باشا واليه على مصر خير أداة لتنفيذ تلك المهمة^(٣) .

وكان من أهم أسباب اختيار السلطان محمد علي باشا هو زج القوات المصرية في مجاهل الصحراء بحيث تتكبد خسائر كبيرة وإذا ما خرجت منتصرة من حربها فستكون مهينة الجناح يستطيع السلطان العثماني الاجهاز عليها

(١) انظر : الرافعي ، عبد الرحمن بك . تاريخ الحركة القومية . ج ٣ ص ١٢١ .

2 - See: Holt, P.M.Egypte are the fertile crescent 1522.1922 P 145.

(٣) . الخليل ، عثمان بن بشر ، عنوان المجد في تاريخ نجد . ج ١ ص ١٤١ .

فيتخلص من الوهايين ومن طموحات محمد علي في الاستقلال والتوسع في وقت واحد .

أما محمد علي باشا فقبل بالمهمة لأنه رأى فيها ما يمكنه من السيطرة على تجارة البلاد وخيراتها ومن ثم تحويلها إلى مفتاح للسيطرة على سورية والعراق . وأن الوهايين هم الخصوم الحقيقيون الذين سيقفون دون محمد علي وتحقيق هذه المطامع .

انطلقت الحملة بقيادة طوسون في ايلول سنة ١٨١١ م براً وبحراً وفي تشرين الثاني سنة ١٨١٢ م استعاد المدينة المنورة من الوهايين . وفي كانون الثاني سنة ١٨١٣ م استعاد مكة المكرمة والطائف وجدة وسيطر على كل الحجاز^(١).

وفي سنة ١٨١٥ م ١٢٣١ - ١٢٣١ هـ اجبر طوسون عبد الله السعودي على توقيع معاهدة^(٢) معه ، إلا أن محمد علي باشا رفضها ، واستأنف المصريون الحرب بقيادة ابراهيم باشا في سنة ١٨١٦ م / ١٢٣١ - ١٢٣٢ هـ وزحفت قواتهم في عمق الجزيرة العربية متجهة نحو عاصمة الوهايين في نجد للقضاء على دولتهم ، مستخدمين في ذلك اسلوب الابادة مما دفع بالقبائل العربية للجوء إلى الواحات النائية واستطاع المصريون في سنة ١٨١٧ م / ١٢٣٢ - ١٢٣٣ هـ من السيطرة على الرس وبريدة وعنزة ودخلوا

(١) لوتسكي ، فلاديمير ، المرجع السابق . ص ١٠٢ .

(٢) كان من بنود معاهدة الصلح تعهد عبد الله بن سعود أن يكون تابعاً للسلطان العثماني كما وعد بالخضوع للوالي المصري على المدينة المنورة وتأمين سلامة الحج وإعادة الكنوز المنهوبة إلى مكة والتخلي عن البدع الدينية كما وعد بالسفر إلى استانبول . انظر : لوتسكي . المرجع السابق . ص ١٠٤ .

نجد في أوائل سنة ١٨١٨ م / ١٢٣٣ - ١٢٣٤ هـ واستولوا على شقرا في ٦ نيسان سنة ١٨١٨ م ثم اقتربوا من الدرعية العاصمة في ٥ ايلول سنة ١٨١٨ م وسقطت بيدهم بعد حصارها مدة خمسة أشهر. تحولت خلالها إلى أنقاض وأسر الأمير عبد الله بن سعود وأرسل إلى القاهرة ومنها إلى استانبول حيث قطع رأسه في كانون الأول سنة ١٨١٨ م وأكمل المصريون اخضاع بقية أجزاء الجزيرة العربية .

إلا أن المصريين انشغلوا بعد ذلك في قمع الثورة اليونانية واحتلال سورية ، فقام الوهابيون باستعادة قوتهم وسيطروا على نجد . ولكن المصريين قاموا بارسال جيش بقيادة خورشيد باشا فاستعادوا سيطرتهم في سنة ١٨٢٨ م وأخذ الأمير فيصل أسيراً إلى القاهرة . ولكن وجود المصريين في مناطق الخليج قد أساء إلى علاقتهم مع المستعمرين الأنكليز مما اضطرهم في سنة ١٨٤٠ م / ١٢٥٥ - ١٢٥٦ هـ لسحب قواتهم من الجزيرة العربية كلها فاستعاد الوهابيون سيطرتهم عليها " مرة أخرى .

ورغم استعادة السلطان السيطرة الأسمية على الجزيرة العربية وعلى الأماكن المقدسة إلا أن السيطرة الفعلية كانت لمحمد علي باشا ولم تنته مشكلة الوهابيين حتى برزت مشكلة أكبر بدت في ثورة الصرب والثورة اليونانية . والتي أخذت أبعاداً دولية أجبرت السلطان العثماني في النهاية على الرضوخ لمطالب الدول الأوروبية في منح اليونان استقلالها . مما شكل سابقة خطيرة بالنسبة للدولة العثمانية التي تتألف من عناصر قومية متعددة .

وكان ينظر إلى الثورة اليونانية على أنها ثورة قومية اعتمدت على المشاعر

الدينية^(١) لتحريض الشعب اليوناني على القتال ضد العثمانيين ، ولكسب ود الشعوب الأوربية إلى جانبهم . برهنت الثورة على ضعف الدولة العثمانية بدلالة أنها لم تستطع قمعها دون الاعتماد على قوات محمد علي باشا . كما أدت هذه الثورة إلى تفاقم الأوضاع الأوربية وكادت تؤدي إلى صدام بين الدول الأوربية نفسها لتضارب مصالحها . ففرضت في سنة ١٨٢٠ استقلال اليونان على السلطان تفادياً للصدام فيما بينها . ونتج عن ذلك فيما بعد أن ازدادت أهمية محمد علي باشا كما ازداد التدخل الأوربي في شؤون الدولة العثمانية .

وقطف الروس أشهى الثمار من جراء الثورة اليونانية وعلى حساب الدولة العثمانية . وأصبحت اليونان في ذلك العام دولة ملكية وراثية .

وفي نفس العام كانت فرنسا قد أتمت احتلالها للجزائر وسلختها عن الدولة العثمانية في وقت لم تكن قد التقطت أنفاسها ثم جاءتها ضربة أخرى في العام الثاني ١٨٣١ م تمثلت في زحف قوات محمد علي باشا إليها على مصر على بلاد الشام شاقاً بذلك عصا الطاعة وظهر منذ البداية تفوق القوات المصرية ذات التنظيم والتسلح الجيدين وذات الخبرة العالية في مجال القتال ، اكتسبتها من قتالها في السودان والجزيرة العربية واليونان . في حين كانت قوات النظام الجديد في الدولة العثمانية لم يكتمل تنظيمها وإعدادها بعد . وغدا انهيار الدولة العثمانية مرة أخرى محتماً فيما إذا لم تتدخل الدول الأوربية وتمنع محمد علي باشا من تحقيق أهدافه^(٢) .

(١) يقول حسن آغا العبد في أحداث سنة ١٢٣٦ هـ « كان قيام الطائفة الكفرة الروم في اسلامبول وسائر الممالك وصار إلى الناس شدة زائدة وكان قيامهم من أعظم الحوادث واستولوا على المرة وعدة مطارح من بلاد الاسلام على ما بلغنا ثم نصر الله الاسلام واستحصلوا منهم البلاد ... وأرسل السلطان محمود خان ... عساكر المجاهدين برأً وحرأً واستقام الجهاد على المورة إلى وقتنا الحاضر » انظر : تاريخه . ص ١٦٦ و ص ١٦٧ .

2 - See: Miller W. opit. P.106.

وكان رد فعل السلطات العثمانية بطيئاً فلم تبدأ المواجهة مع الجيش المصري إلا بعد ستة أشهر من زحفه على بلاد الشام . وكانت أولى المواجهات بينهما في آذار سنة ١٨٣٢ م كما لم يعلن السلطان عزل محمد علي باشا عن مصر إلا في ٢٣ نيسان سنة ١٨٣٢ م^(٢) واستغل المصريون عامل الزمن أفضل استغلال فسارعوا الخطى إلى فلسطين ووصلوا إلى عكا وحاصروها في تشرين الثاني سنة ١٨٣١ م وسقطت بيدهم في ٢٧ أيار سنة ١٨٣١ م^(٣).

وأرسل المصريون في نفس الوقت قادتهم لاختضاع القدس ، وأعلنوا فيها رفع القيود التي فرضت على أهل الذمة . مما أكسبهم تأييد المسيحيين ودعمهم العسكري خاصة في جبل لبنان . كما سرت أوروبا من ذلك^(٤).

وفي نفس الوقت كانت بقية الجيش المصري تندفع شمالاً فسحقت قوات تجمع الباشوات التسعة في حمص واستولت بعد معركة الزراعة على حماه وحلب واتجهت نحو عمر بيلان الجبلي الذي يشكل المفتاح الى قلب الامبراطورية العثمانية . وجرت معركة أخرى بين الطرفين في ٢١ كانون الأول سنة ١٨٣٢ م قرب قونية . وسحقت القوات العثمانية مرة أخرى . وفتح الطريق أمام الزحف المصري فوصلت طلائعهم إلى بروسة وأصبحت استانبول تحت الخطر .

وأدرك السلطان خطورة الموقف وأنه لا منقذ له سوى الدول الأوربية . وتباينت مواقف هذه الدول على ضوء مصالحها . فالفرنسيون وقفوا إلى جانب المصريين ورفضوا تقديم المساعدة للسلطان . في حين وقف الروس إلى جانبه خوفاً

1 - See: Miller.W.op.cit.P.106.

(٢) لوتسكي ، فلاديمير . المرجع السابق ص ١٢٦ .

(٣) رافق ، عبد الكريم . العرب والعثمانيون ص ٤٠٤ وص ٤٠٥ .

من انتصار محمد علي وإقامته دولة فنية على أنقاض الامبراطورية العثمانية مما يؤدي إلى اصابة مصالحهم بأفدح الأخطار . أما الانكليز فكان موقفهم حرجاً فهم لا يريدون انتصار محمد علي وإقامة دولته الفتية القوية على أنقاض الدولة العثمانية ، كما لا يريدون للروس تحقيق مكاسب من خلال تدخلهم إلى جانب السلطان تؤثر على مصالحهم ، وقد يحققون حلمهم بتقسيم الامبراطورية إلى شطرين أولهما شمالي تحت سيطرة الروس وآخر جنوبي تحت سيطرة محمد علي . لهذا حاولوا حسم الخلاف والأبقاء على تمامية أراضي الامبراطورية العثمانية (١) .

وعندما طلب السلطان العثماني محمود الثاني المعونة من الروس أدخلوا أسطولهم إلى البوسفور وأنزلوا قواتهم إلى البحر في ٢٣ آذار سنة ١٨٣٢ م على الشاطئ الآسيوي ، كما أرسلوا قوات إضافية برأ عن طريق الدانوب باتجاه العاصمة العثمانية . مما أفزع الفرنسيين والانجليز فقاموا بمظاهرة عسكرية بحرية مشتركة بالقرب من سواحل مصر ، وقاموا من جهة أخرى بالضغط على السلطان وأجبروه على توقيع معاهدة كوتاهية في ١٤ أيار سنة ١٨٣٢ م مع المصريين ، وتنازل بموجبها محمد علي عن مصر والجزيرة العربية والسودان وكريت .

وهكذا تم تعيين محمد علي باشا حاكماً على فلسطين وسورية وكيلكيا ، على أن يجلو عن الأناضول ويعترف بسيادة السلطان .

وفي هذه الأجواء العاصفة بقي مجتمع دمشق على حالته الموروثة من عهود الانحطاط وقد تأثر بها بدرجات متفاوتة كونه جزءاً من الامبراطورية ، كما لعبت

(١) لوتسكي ، فلاديمير المرجع السابق ص ١٢٧ وص ١٢٨ .

ظروفه المحلية دوراً خاصاً . فعلى المستوى العقائدي سادت فيه روح التعصب^(١) التي كانت امتداداً للحروب الصليبية رغم بعد الفترة الزمانية بينهما . ولم تكن الدولة العثمانية بعيدة عن تغذية مثل هذه الروح إذ لا رابطة تربطها بمسلمي دمشق سوى الرابطة الدينية .

وعلى المستوى الفكري ونظرة المجتمع للحياة وأسلوبه في معالجة مشاكلها ، كان في ذلك امتداداً لعصور الانحطاط . فلم يكن للبرهان العلمي والبحث عن القوانين التي تقبع وراء الظواهر الطبيعية من أثر على عقول الناس . فالخرافات تغلف العقول ، وتفسر ظواهر الطبيعة بها ، فإذا السماء انشقت ذات ليلة وهبط جسم غريب منها أو شوهد مذنّب سابح في كبد السماء فسروه بما سيحصل في المستقبل . ويورد البديري الخلاق مثلاً على ذلك في أحداث سنة ١١٥٧ هـ/ ١٧٤٥ م أن نجماً له ذنب طلع من جهة الغرب ثم صار يطلع من جهة الشرق وذنبه إلى الغرب . وقد رافق ذلك ظهور « الطاعون »^(٢) حسب زعمه . وكسوف الشمس يفسر بزعة إيمان الشعب ففي سنة ١١٧٠ هـ/ ١٧٥٧ م كسفت الشمس ورؤيت النجوم نهراً « ولا كانت هذه الأمة تعتبر »^(٣) أما شح السماء بالمطر فسببه في رأيهم الظلم الذي كان سائداً في مجتمع دمشق^(٤) .

(١) يقول صاحب حسر اللثام عن نكبات الشام « كان التعصب الديني آخذاً مركزاً عظيماً عند الناس في ذلك الحين حتى تجاوز القوم شرائط الدين وعدوا كل من كان خارجاً عن مذاهبهم كافراً ... فعمت الفوضى وصار الحكم للهمجية » . مجهول . ص ٣٦ ، الطبعة الأولى مصر سنة ١٨٩٥ م .

(٢) حوادث دمشق اليومية . ص ٢٦ وص ٥٧ وص ٥٨ .

(٣) حوادث دمشق اليومية ص ٢٠٣ .

(٤) العبد ، حسن آغا . المصدر السابق . ص ٦١ .

كما نلاحظ آتخذ الخلل في كفتي ميزان الحقوق والواجبات . فالفلاحون رغم أنهم كانوا القوة الأساسية المنتجة في مجتمع دمشق إلا أنهم كانوا محتقرين ولم يأتوا في السلم الاجتماعي إلا بعد المغاني والمومسات^(١) . كما قتل الكثيرون لاتفه الأسباب ودون محاكمة وسلبت أموال البعض بنفس الأسلوب . وكتب أخباري هذه الفترة مليئة بمثل هذه الأحداث فمثلاً حسن آغا العبد يورد في أحداث ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ - ١٨٠٤ م ان والي دمشق أحمد باشا الجزار أرسل جنوده بقيادة الشيخ طه الكردي لفرض الاتاوات على تجار دمشق وحرفيها وأعيانها وعجز البعض عن أداء ما فرض عليه من المال « فمن العذاب كان يقول نهار غد يدفع ذلك فيرفعوا عنه العذاب ، وثاني يوم يأخذوه تفكجية وجوخدارية آغا القول ويدوروا فيه البلد فيبيع ما يملكه من كل وجزء كذلك بالبخس وما يوفي الجرم فيندار يشحد من الخلق والناس ناظرين إليه بأعينهم فما أحد يقول شيء^(٢) » .

أما الآفات الزراعية كالجراد فيعالج بماء السممر^(٣) ، لجلب طير السممر فيقضي عليه في اعتقادهم . كما أن العقوبات نفسها لم تتصف بالانسانية فهناك التجريس والتغريق بماء بردى والبسمرة أو التعليق بكلاب حتى يموت جوعاً وعطشاً أو سلخ جلد الانسان وحشوه كالبو والخوزقة والتوسيط وكذلك تشويه جسد الاحياء بصلم الآذان وفقء العين وقطع اللسان وجذع الانف^(٤) .

(١) البديري ، حوادث دمشق اليومية . ص ٣٩

(٢) تاريخه ص ١٠٢ . ثم انظر أحداثاً مماثلة في تاريخ حسن آغا العبد ص ٦٩ و ٨٣ و ٩٣ و ٩٦ .

(٣) البديري ص ٨١ .

(٤) العبد ، حسن آغا — تاريخه ص ٥٧ وص ١٦١ ، والبديري الخلاف ص ١٧٣ وص ٣١ وص ١٧٩ .

وص ٥٧ وابن طولون مفاكهة الخلال ج ١ ص ٣٨٥ .

وعولج بعض المرضى المجانين بالتعذيب لاختراج الشياطين من أبدانهم حسب زعمهم واستخدموا المنديل لكشف السارقين والمفقودات^(١) وراج سوق المنجمين والدجالين وادعوا معرفة الغيب والحظ^(٢) وساد الاعتقاد بمقدرة الصالحين في قبورهم بدفع البلاء وشفاء المرضى وقضاء الحاجات فأغدقوا بالنذور عليها^(٣). وقصدوا المتصوفة ورجال الدين للاستخارة والفأل الحسن فكتبوا الحجابات والرقى للطالين. ويذكر المرادي أن أبا بكر الدسوقي المتوفى سنة ١١٩٢ هـ/ ١٧٨٠ م كان يكتب التائم والتعاويذ للمرضى وغيرهم^(٤) واستخير رجال الدين بعدد من اهتمامات المجتمع، كالسفر وعودة الغائب والزواج. وتسمية الوليد وعقد الصفقات التجارية وتوجيه أبواب البيوت وشباييكها قبل الشروع بينهاها^(٥). إبعاداً للشر والحسد. ووصل بعض رجال الدين إلى درجة من التقديس في أعيان المجتمع فاعتبروا أن السماء تفرح لفرحهم وتحزن لفقدهم. فعندما مات حيدر الحسين آبادي «ظهرت أمور خارقة لوفاته فاشتدت الريح وأرعدت السماء وأبرقت واحمرت الدنيا واسودت بالغبرة الآفاق فكانوا يرون أن ذلك حزناً على فقده»^(٦).

ورغم أن هذه الظواهر كانت عامة ومستمرة على امتداد فترة دراستنا في دمشق إلا أننا مع ذلك نلاحظ تفاوتاً في تأثيرها، على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية. ويمكن تقسيم ذلك إلى ثلاث مراحل:

- (١) القاسمي، محمد سعيد، قاموس الصناعات الشامية ج ٢ ص ٢٢١ وص ٢٣٢.
- (٢) القاسمي أيضاً ج ١ ص ١٥٧. ثم ج ٢ ص ٤٧٢.
- (٣) ابن بدران، عبد القادر. منادمة الاطلال .. ص ٥٣.
- (٤) سلك الدروج ١ ص ٥٣ ص ٧٣ — ترجمة أبي يزيد الحلبي واسحق الكيلاني.
- (٥) الصايغ، المقرب في حوادث الحضرة والعرب. صورة لمخطوطة. ص ٤١ أ وص ٤١ ب.
- (٦) سلك الدرر. ج ٢ ص ٧٧.

الأولى : وتقع ما بين ١٧٧٣ - ١٨٠٧ م / ١١٨٦ - ١٢٢١ هـ
والمرحلة الثانية وتقع ما بين : سنة ١٨٠٧ - ١٨٣١ م
/ ١٢٢١ - ١٢٤٦ هـ أما المرحلة الثالثة والأخيرة فتقع ما بين : سنة
١٨٣١ - ١٨٤٠ م / ١٢٦٤ - ١٢٥٦ هـ ولهذا التقسيم مبرراته المنطقية
على ضوء المتغيرات التي حصلت في كل واحدة منها على المستوى الداخلي
والخارجي .

ففي المرحلة الأولى : تعرضت دمشق لهجوم محمد بك أبي الذهب ورغم
بقاء مجتمعها على حاله السابقة بطبيعة عزلتها من مؤثرات الغرب من جهة
ولكونها مركزاً دينياً وعلمياً متميزاً ، ولأن قافلة الحج الشامي كانت ترفدها بمعين
اقتصادي هام عدل من تأثيرات الظروف الدولية والداخلية السلبية التي أحدثت
بالدولة العثمانية ، والتي انعكست بدورها على أخواتها من مدن بلاد الشام
الساحلية والداخلية . ولكن حملة أبي الذهب في سنة ١٧٧١ م قد عدلت من
المعادلة السياسية التي كانت قائمة بين ولاية دمشق وصيدا فانتقل التفوق
السياسي إلى ولاية صيدا وكان لهذا التبدل مبرراته المنطقية . فنمو قوة المماليك في
مصر وطموحاتهم لاستعادة السلطة المملوكية على مصر وبلاد الشام ودعمهم لولاية
صيدا ودخولهم جميعاً في تحالفات مع الروس ضد الدولة العثمانية قد أعطاهم نوعاً
من القوة والنفوذ انعكس ضعفاً على ولاية دمشق وفي هذه المرحلة نمت الحركة
الوهابية في الجزيرة العربية وسيطرت على مدينتي الحجاز المقدستين (مكة
والمدينة) وضايقت الحجاج ومنعهم من أداء المناسك وفرضت شروطاً مهينة على
أمراء قافلة الحج مما أدى إلى تقلص قافلة الحج وتوقفها نهائياً في سنة ١٨٠٧ م / م

١٢٢٢ هـ^(١) فتوقف معها الرشد الاقتصادي الكبير الذي كانت تمتاح منه تجارة دمشق وبدأت القوى السياسية فيها تتصارع على ما تبقى من موارد الرزق مما زاد في انهك المجتمع لأن تلك الصراعات كانت دموية أزهقت الأرواح وسلبت ودمرت الممتلكات والأرزاق وخلقت الخراب الاقتصادي والتفسخ الاجتماعي فازداد سلب (وبلص) المستضعفين على يد الحكام ، وشعر السكان المحليون بوطأة الغرباء في دمشق .

ولم تتمكن السلطة المركزية المهلهلة . بسبب الخن التي واجهتها . من وضع حد لتلك الاضطرابات رغم أهمية دمشق بالنسبة لها . وجل ما قام به السلاطين أن أكثروا من عزل الولاة فقصرت بذلك مدة بقائهم في مناصبهم ونتج عن ذلك أن أهملوا كل اصلاح والتفتوا إلى تأمين مصالحهم الخاصة على حساب المصلحة العامة . وأدرك السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) خطورة الوضع وضرورة اصلاح الإدارة المركزية وإدارة الولايات وإقامة الجيش الجديد . إلا

(١) يذكر حسن آغا العبد أن الدولة العثمانية كلفت ابراهيم باشا الحلبي بقيادة قافلة الحج في سنة ١٢١٩ هـ/ ١٨٠٤ - ١٨٠٥ م «أخذ الحج وراح ووصل إلى مكة والمدينة فلحق الوهابي أخذ مكة وحاصر المدينة حج الحج ذلك بالغلاء والقحط والخوف وقلت المياه وما صار لا يبيع ولا يشراء إلى الحج والبازركان وجاء ابراهيم باشا بالحج سالمين ثم عزل في سنة ١٢٢٠ هـ/ ١٨٠٥ - ١٨٠٦ م وفي ٨ شهر رجب سنة ١٢٢٠ هـ أرسلت الدولة من الروم باشا إلى طرف الشام ونزل في تكية المرجة لأجل يحافظ على المدينة لأجل الوهابي واستقام هذه المدة إلى أن يطلع مع الحجاج ومدوه من اسلامبول بأموال كثيرة ... وارتفعت الأسعار في دمشق وقامت الخلق من الغلاء على القاضي ورجوه ونهبوا بعض أشياء من المحكمة ... وجرت الصدامات بين المذلية والقبالي قول وفي سنة ١٢٢١ عندما وصلت قافلة الحج على بعد مسير أربع ساعات من المدينة المنورة أرسل الوهابيون من يبلغ الحجاج بأن يرسلوا لهم الخمل والمدافع والزنبركات والمهتارخانة من أجل السماح لهم بمتابعة المسير باتجاه مكة لاداء مناسك الحج «فما أمكن عبد الله باشا هذا الأمر لأنه ذل عليه وعلى الدولة . وهذا الأمر ما سبق فرجع هو والحجاج سوى» انظر : تاريخ حسن آغا العبد ص ١١٨ ص ١١٩ ص ١٢٠ ص ١٢١ ص ١٢٤ ص ١٢٥

أنه جوبه بمعارضة قوية من الانكشارية والعلماء على حد سواء . وأجبر على التخلي عن الإصلاح وعزل من منصبه وقتل سنة ١٨٠٧ م .

أما المرحلة الثانية التي تمتد من (١٨٠٨ — ١٨٣١) م فقد تأثرت دمشق بشكل غير مباشر بما جرى في استانبول ومصر رغم بقائها مغلقة في وجه الغرب وحصلت في الامبراطورية أحداث هامة لم تؤثر على دمشق فحسب بل أثرت على وضع الامبراطورية برمتها . ففي هذه المرحلة استطاع السلطان محمود الثاني الاستفادة من أخطاء سليم الثالث بتطبيق الإصلاح بادخال الطرائق الغربية . كما تمكن من القضاء على الحركة الوهاية بواسطة محمد علي باشا وتشكيل أولى وحدات النظام الجديد ، وتمكن من القضاء على أرباب الانكشارية إلا أنه مع ذلك جوبه بنكسات خطيرة حيث نشبت ثورة اليونان وسقطت نيابة الجزائر بيد الفرنسيين .

وفيه استعادت قافلة الحج الشامي سيرها إلى الديار المقدسة بعد توقفها واستعادت معها تجارة دمشق نشاطها في هذا المجال . وعلى المستوى السياسي بقيت المبادهة بيد ولاية صيدا ولم يستطع ولاية دمشق استعادتها رغم محاولاتهم الكثيرة . واضطهد أتباع الطريقة البكطاشية حماة الانكشارية الذين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير بين سكان المدن البسطاء . وألغيت هذه الطريقة بأوامر سلطانية واضطهد أتباعها . أما الطوائف الحرفية التي كانت مرتبطة بالانكشارية فقد أعيد تنظيمها على نحو جذري ... وحاولت السلطة المركزية في استانبول إحكام قبضتها على دمشق شأن بقية الولايات التابعة لها . وزادت اجراءات الإصلاح من تدمير المدن لأن تنفيذها تطلب نفقات كبيرة وقع عبؤها على عاتق الحرفيين إلى مدى كبير ، وعلى صغار التجار ، فانخفضت الاجور وارتفعت

الضرائب وتحويل التذمر إلى كراهية للسلطان شخصياً واتهم بالكفر وأنه « حسب ادعائهم » متآيد في السكر بمعية الوجهاء في الوقت الذي كان فيه أطفال الحرفيين يموتون جوعاً . وأنه كان يعيش حياة الرفاه والترف في حين يخيم البؤس على أكوخ البؤساء . ودعت الطريقة البكطاشية إلى التمسك بآداب التقشف البسيطة الصارمة والاحتفاظ بالفضائل القديمة وبأدوات الانتاج اليدوية القديمة وكانت دعواتها مقرونة بالمواظب والدعوة للتمرد على السلطان .

إلا أن اصلاحات السلطان العثماني لم تكن المسؤولة عن بؤس الحرفيين رغم ما فرضته من ضرائب مرتفعة عليهم ، بل أن ما أثر عليهم هو قيام الثورة الصناعية في أوروبا وتأثيرها عليهم على النحو الذي ذكرناه آنفاً .

وأن طبيعة الاصلاح لم تكن مفهومة من قبل العامة ، ولعبت دعاية دراويش البكطاشية والمتضررين بالاصلاح دوراً سلبياً أدى إلى نشوء حركة تمرد واسعة النطاق شملت معظم أقاليم الامبراطورية العثمانية . وبرزت بشكل خاص في دمشق وحلب ، وفي سنة ١٨٢٥ حدثت اضطرابات كبيرة في دمشق نتيجة لاصدار فرمان حول تداول العملة وصدرت « التهديدات بقتل الحاكم وبإبادة جميع الموظفين مما ضمن للشعب اصدار أمر بابقاء جميع النقود قيد التداول حتى وصول أمين صندوق من استانبول . ثم أعقبها انتفاضات في نابلس والقدس ، وكان أهمها وأخطرها انتفاضة دمشق مرة أخرى سنة ١٨٣١ نتيجة لشرع الوالي الجديد وبأمر من السلطان باعداد قوائم بالمعامل الحرفية وبالحوانيت في دمشق لفرض ضرائب جديدة (ضريبة الصليان) كما صدرت أوامر باجراء احصاء للسكان بهدف تجنيدهم في الجيش الجديد .

وصدرت أوامر بالغاء نظام التيمار (الاقطاع العسكري) الذي كان

دعامة الدولة في أول عهدها وأصبح وبالأعلى عليها فيما بعد . بعد أن فسد نظام السباهية وانهار نظام التجار وعجز عن سد متطلبات الدولة في المجالات العسكرية ، مما أدى إلى صدور أمر السلطان بإلغاء السباهية مع أوجاق الانكشارية سنة ١٨٢٦ م وتحولت بذلك الاقطاعات إلى أراضي للدولة وجمعت ضرائبها لتمويل الجيش الجديد أيضاً . واتخذ السلطان اجراءاً مماثلاً في مجال تنظيم الأوقاف بعد أن فسد أمرها وكثر تحويل الملك إلى وقف أهلي أو ذرى تهرباً من المصادرة . إلا أن الدولة بتنظيمها للأوقاف قد حرمت العلماء الذين كانوا نظاراً ومتولين عليها من دعامة قوتهم وزاد من سلطة الحكومة المركزية^(١) . وكان من الطبيعي أن تزيد هذه الاجراءات من حنق جميع المتضررين بها في دمشق . فتغلظت أكبادهم على السلطة خاصة وأن سليم باشا قد جاءها بغرض اجراءات الإصلاح في دمشق كما جرى في استانبول وكان لا بد لهؤلاء من الدفاع عن مصالحهم ففقدوا مؤتمر الربوة ونظموا التمرد في دمشق ضد الوالي وأدى ذلك إلى مقتله .

إلا أن دمشق لم تقطف ثمار نصرها وسرعان ما زحفت قوات ابراهيم باشا المصري عليها . ودخلت فلسطين وبلاد الشام تحت سلطة محمد علي باشا في سنة ١٨٣٢ م وبقيت حتى سنة ١٨٤٠ م وكان لهذه الفترة سماتها المميزة عن الفترات السابقة . فطرح محمد علي باشا بديلاً عن الرابطة الدينية الرابطة القومية العربية لإقامة مملكته . ولقد كتب بالمرستون في سنة ١٨٣٣ م قائلاً : ان محمد علي « هدفه الحقيقي هو تكوين مملكة عربية تصمم كل الأقطار التي تتكلم بلغة

(١) رافق ، العرب والعثمانيون ص ٢٧٨

الضاد»^(١) وهذا شيء جديد بالنسبة لبزود الشام منذ الفتح العثماني وحتى ذلك التاريخ إذ أن المشاعر الدينية كانت متفوقة على المشاعر القومية .

كما أبلغ البارون بوال كومت الممثل الفرنسي لدى ابراهيم باشا حكومته الفرنسية بأن ابراهيم باشا لا يخفي مقاصده في بث الوعي القومي . واحياء الأمة العربية وغرس شعور وطني أصيل عند العرب . كما بث بنشاط فكرة البعث القومي في نداءاته المتكررة لابناء بلاد الشام ، وكان يذكرهم بأجسادهم العربية .

إلا أن الأوضاع لم تكن قد اختمرت بعد لتوحيد الأمة العربية فالبرجوازية العربية في سورية كانت ضعيفة جداً في حين كانت الاقطاعية مستحكمة . والاقطاعات بيد عناصر غير عربية في معظمها أو لا تتحسس بالمشاعر القومية العربية ، ناهيك عن كون طرح الرابطة القومية بديلاً عن الرابطة الدينية لم يكن سوى مطية للوصول إلى الهدف المنشود وهو الاستقلال عن جسم الامبراطورية العثمانية وإقامة مملكة محمد علي باشا الذي لم يكن عربياً ولا يتقن العربية .

ومن جهة أخرى فإن ما قام به ابراهيم باشا من اجراءات واصلاحات قد شكلت الخطوة الأولى في طريق التغيير الكبير الذي شمل دمشق فيما بعد هذه الفترة . فاهتم بالزراعة وأوقف تدهورها وحدد الضرائب التي تجبى من الفلاحين وحرّم الابتزازات الاقطاعية التعسفية وأعفى الأرض البكر المحروثة من دفع أي نوع من الضرائب لمدة طويلة وسعى لتأمين استقرار البدو في الأراضي المهجورة والصالحة للزراعة وانتقلهم إلى حالة الاستقرار . وهكذا نشأت قرى جديدة في مناطق دمشق وحلب وأعيد تعمير قرى مهجورة . فالتسعت في الستين الأوليين من الاحتلال المصري مساحات الأراضي المزروعة ، وزادت في حوران وحدها عن

(١) لوتسكي المرجع السابق . ص ١٣١ .

٧ آلاف فدان ، وقام بمكافحة الجراد الآفة الزراعية الخطيرة وكلف الجيش المصري بهذه المهمة .

وعلى صعيد التجارة والصناعة قام بالغاء جباية الضرائب بصورة تعسفية وأضحى في وسع التجار والحرفيين الاطمئنان على سلامة أموالهم فانتفى باعث الخوف لديهم من السلب والنهب والابتزاز حيث تحدد عليهم ما يدفعونه من ضرائب ، وغدوا يستطيعون التصرف بحرية بجميع ما يتوفر لديهم من قيمة زائدة فتمكنوا من التداول بتلك القيم بجرأة وتحويلها إلى رأسمال ، بعد أن كانت تتلف أو تحبأ بعيداً عن أنظار الباشوات والعوانية .

وحددت الرسوم الجمركية بدقة ونتيجة لهذه السياسة التي لاءمت اتجاه التطور الاقتصادي في المدن السورية بصورة محسوسة ، وإلى جانب تطور التجارة الخارجية كتب القنصل الروسي بارزلي يقول : (ان الحرية التي فتحتها السلطة العربية للتجارة بعثت الحياة جديدة في المدن السورية ... وأصبحت مكاناً للتبادل التجاري بين المنتجات المحلية والأوربية ...)^(١) .

وقام المصريون بفرض الأمن على الطرقات المختلفة وخاصة طريق دمشق — بغداد — فتوسعت تجارة الترانزيت (العبور) ونقلت الأقمشة الانكليزية إلى أراضي ما بين النهرين وايران والبضائع الهندية والايرائية عبر سورية إلى دمشق وأوربا ... وهذا بدوره أدى إلى زيادة دخل بعض الفئات الاجتماعية مما أدى إلى صعودها في السلم الاجتماعي .

وقام المصريون بتنظيم الادارة في بلاد الشام وكيليكيا ، فقسموها إلى ست مديريات ، وعينوا في كل مدينة نواباً للسلطة المركزية ومتسلمين ، يخضع إليهم

(١) لوتسكي . المرجع السابق ص ١٣٣ .

مباشرة شيوخ القرى المجاورة . وتحت رئاسة كل متسلم شكل مجلس استشاري أو مجلس شورى عين أعضاؤه من بين الملاكين المحليين وعهد إلى هذه المجالس بوظيفة المحاكم المدنية وحصرت السلطة القضائية العليا بيد ابراهيم باشا مباشرة .

كما أجريت اصلاحات في حقل التعليم ، ففي سنة ١٨٣٤ م انشئت أول دار للطباعة ، وفي العام نفسه وضع ابراهيم باشا الأساس للتعليم المدرسي الجديد ، فأنشئت المدارس الابتدائية في جميع أنحاء سورية والمدارس الثانوية في دمشق وحلب وانطاكية . وكان التعليم باللغة العربية وأسست هذه المدارس على النسق المصري مع انضباط (حري صارم) . وارتدى الطلاب البدلة الرسمية وسكنوا في الاقسام الداخلية وأطعموا مجانياً . كما بثوا الوعي القومي العربي بين الطلاب” .

وحرر أهل الذمة من القيود المهينة وأدى التسامح الديني الذي طبقه ابراهيم باشا إلى نمو فكرة المساواة بين الطوائف ، وصعبت العودة إلى التمييز الطائفي بعد خروجه من سورية . كما شجع الرسائل التبشيرية إلى فتح المدارس بكثرة فبدأ التعليم بالانتشار في بلاد الشام” . هذا بالإضافة إلى ادخال الطرق الحديثة في المعالجة الطبية كالطب الوقائي الذي لم تعرفه دمشق من قبل مما خفف من خسائرها البشرية في الجائحات الوبائية التي كانت تقضي على أعداد هائلة من السكان فتشل الحياة العامة ويصاب الاقتصاد بأفدح الاضرار وأدخل القناصل الغربيين إلى دمشق ومعهم بعض التجار الأوربيين وعائلاتهم فافتتحوا القنصليات فيها وبدأوا يمتدكون مع أبنائها وينقلون المؤثرات الغربية إليهم . وهكذا أصبحت

(١) لوتسكي . المرجع السابق . ص ١٢٢ .

(٢) رافق ، عبد الكريم . العرب والعثمانيون ، ص ٤١١ .

دمشق بلداً مفتوحاً بعد أن كان مغلقاً في وجه الغرب وموثراته ، مما جعل هذه المرحلة بمثابة إرهاب ص لمرحلة قادمة هامة سوف يبدأ فيها الغزو الأوربي على نطاق واسع وعلى مختلف الأصعدة والمستويات .

ولقد حاولت في بحثي هذا التعرف على الوضع الاجتماعي لمدينة دمشق في هذه الفترة بمراحلها المختلفة ورصد المتغيرات العديدة التي طرأت على هذا المجتمع وظواهرها المختلفة فبسطتها في فصول ستة . حيث يشكل الفصل الأول : مدخلاً لهذا البحث من حيث كونه دراسة تتعلق ببيئة مجتمع دمشق آنئذ ، نظراً للعلاقة والتأثير المتبادلين بين المجتمع والبيئة . ويشمل دراسة مدينة دمشق وموقعها وأسماءها وسورها وحاراتها وسكانها وشوارعها وأسواقها ومتنزهاتها وحماماتها وبيمارستاناتها : والطب ومدارسه ، وبردى وسقاياتها ، والتكايا والزوايا والفنادق والقيساريات والجانانات والزيارات والمقابر الطائفية وهندستها وكيفية دفن الموتى محاولاً من خلال العرض رصد المتغيرات التي طرأت عليها في فترة دراستنا هذه .

أما الفصل الثاني فعالجت فيه شرائح المجتمع الدمشقي المختلفة من حاكمين ومحكومين .

وسيلاحظ القارئ تداخلاً في تلك الشرائح من حيث عملها ونشاطاتها المختلفة ، ومع ذلك حاولت التمييز بين تلك الشرائح الاجتماعية من حيث دورها في السلطة . ففي مجال الهيئة الحاكمة حاولت القاء الضوء على أهم الشخصيات والفئات الاجتماعية المكونة لها مثل : الوالي والدفتردار والكاخيا والمتسلم وضباط الجيش والانكشارية وثكناتها وتسليحها وتموينها وطريقة قتالها وقرقت بين صنفين منها القائي قول والبرلية باعتبارهما أهم شريحتين عسكريتين في دمشق آنئذ وعرجت

بالبحث على جند المرتزقة أداة السلطات الخاصة ومحتت في أصنافها المختلفة كالسكبان واللاوند والدالاتية والمغاربة وأبناء العراق بمدنه المختلفة والتفنجكية والهوار وغيرهم ، ثم قوات الإقطاع « السباهية » التي شكلت شريحة من القوة العسكرية في دمشق آنئذ ، رغم أن دورها العسكري كان أقل بكثير من دورها الاجتماعي والاقتصادي . ثم تناولت بالبحث القوات الرديفة التي شكلت جانباً من القوى المسلحة في دمشق وكانت في معظمها محلية ، ومحتت في هذا الفصل أيضاً محاولات السلطان سليم الثالث ومحمود الثاني إدخال الإصلاحات إلى جسم الدولة العثمانية وانعكاس ذلك على مجتمع دمشق . ثم عرجت بالبحث في الشطر الثاني من هذا الفصل على أهم شرائح المجتمع الدمشقي كتجار دمشق والحرفيين وطوائفهم والبنى التنظيمية لتلك الحرف والتخصص الحرفي ووضع الفلاحين وملكية الأرض وما أدخل عليها من تبديلات ثم وضع البدو في أطراف دمشق وحوران ، وعلاقتهم بأبناء دمشق وسياسة السلطان العثماني تجاههم ، ووضع أهل الذمة (النصارى واليهود) والاقليات الأجنبية التي برزت في العهد المصري خاصة بقناصلهم وحماياتهم وعلاقتهم بمجتمع دمشق .

أما الفصل الثالث فيبحث في أهمية دمشق السياسية والدينية ، والمدارس ودور العلم ومناهج التعليم ومراحله ومواده ، والاجازات والشهادات العلمية ، والمكتبات والمراكز الثقافية ، والمدرسين والموظفين الدينيين ، والطرق الصوفية ، والمفتين ، والأشراف ، وأوقاف دمشق ودورها الاجتماعي ، وضروب الخيل للسلطان على أموالها وممتلكاتها .

وفي الفصل الرابع تناولت بالبحث الاسرة ، وهي الخلية الأولى للمجتمع

الدمشقي . كما حاولت رصد أهم الامر البارزة في دمشق وقتئذ . ثم تناولت الأسرة الفلاحية والأسرة الواسعة وهندسة البيت الشامي ، والقصور في دمشق وبيوت الريف وحرمة البيوت وقديستها ، وحياة الاسرة ونشاطها داخل البيت ثم المرأة الدمشقية — حجابها وعملها ، وظاهرات الانحراف والمنحرفين والرشوة والسرقة والسطو والبص وتناولت بالدراسة المخدرات ومعاقرة المسكرات والشذوذ الجنسي وظاهرة العهر محاولاً تقصي أسباب الشذوذ والانحراف في مجتمع دمشق وموقفه منها .

وفي الفصل الخامس تناولت أيضاً أزياء دمشق ومدلولاتها الاجتماعية والاقتصادية وأهمية ذلك آنئذ . وقد تناولت أزياء الهيئة الحاكمة ، وأزياء العامة داخل البيت وخارجه ، ثم زي المرأة وزينتها وحليها — وأزياء أبناء الريف ، وزي المرأة الريفية وحليها وزينتها والأدوات المستخدمة في ذلك ، ثم زي أهل الذمة (نصارى ويهود وسامرة) وزي البدوي والبدوية ، وأنواع القماش والفراء المستخدم في ذلك .

أما الفصل السادس فتناولت فيه نشاطات المجتمع المختلفة كالافراح والاتراح والأعياد وطقوسها المختلفة باختلاف طوائف مجتمع دمشق « مسلمون وأهل الذمة » ثم الاحتفالات الرسمية والخاصة ، والتسلية بأنواعها وأدواتها ، والملاهي .

ولقد آثرت في البحث منهجاً راعيت فيه الظاهرة الاجتماعية والمتغيرات التي طرأت عليها بحسب التسلسل الزمني ، رغم أن تلك التطورات كانت بطيئة وأحياناً معدومة ، إذا ما قورنت بالظواهر السياسية ، التي اتصفت في تلك الآونة

بسرعة التبدل . والحقيقة التي لا مناص من ذكرها أن البحث في تاريخ المجتمع أمر
مُشاق وبالغ الصعوبة . فمتى كان البحث الجاد سهلاً هيناً ؟ إلا أن الصعوبات
تهون أمام الدأب والصبر خاصة إذا ما توج الجهد بكشف جانب من الحقيقة
التاريخية أو معظمها .

وبعد فإنني أقدم جهدي هذا وكي أمل في أني قد وفقت إلى إضافة لبنة
صغيرة في صرح كبير ينتظر جهد الباحثين لدراسة تاريخ وطننا العزيز . فإن
أخطأت وقصرت فحسبي أنني حاولت ولي أجر المجتهدين الساعين وإن أصبت
فإن أجري على الله .

د . يوسف نعيسة

دراسة في مصادر البحث

تنقسم مصادر هذ البحث إلى عدة أقسام :

١- الوثائق وتنقسم بدورها إلى ثلاث فئات هي :

أ - سجلات محاكم المدن الشامية المختلفة في العهد العثماني .

ب - الفرامانات والأوامر السلطانية العثمانية المرسلة إلى ولاية دمشق وقضاتها .

ج - الصور الضوئية للأبناء العثمانية في تلك الفترة .

٢- المصادر المخطوطة : منها ما كان مخطوطاً أو صوراً لمخطوطات .

٣- المصادر المطبوعة : وهي عبارة عن كتب تراجم وكتب أخبارية أو كتب تراجم وأخبار معاً . أو كتب رحلات لعرب وأجانب ، وبعض تقارير القناصل ووكلائهم .

٤- المراجع الحديثة : والتي اعتمدت بدورها على تلك المصادر والوثائق أو على مصادر ومراجع لم تتح لي ظروف الإطلاع عليها فاعتمدت في ذلك على من سبقني وعاد إليها في أبحاثه .

أما سجلات محاكم المدن الشامية^(١) فكانت مختلفة وجلها لحاكم دمشق في هذه الفترة .
 وعدت إلى سجلات القسمة العسكرية والبلدية أو القسمة العربية أو المدنية كما تسمى في
 بعض الأحيان وقام بالإشراف عليها غالباً نواب القاضي العام في دمشق .
 وتأتي أهمية هذه السجلات بشكل عام من كونها تحوي معظم المسائل الاجتماعية
 والاقتصادية والإدارية التي أثارت خلافاً أو أفضت إلى اتفاق ، فهي سجل لحوادث الزواج
 والطلاق والبيع والشراء والوصية والإرث والتركات والألقاب الاجتماعية المختلفة . التي كانت
 سائدة آنذاك . على مختلف المستويات الاجتماعية . كما أنها سجل لعمليات الآجار والاستئجار
 والأراضي والخصومات والسرقات وتعيين القضاة وتنقلاتهم ، وموظفي المحاكم والدولة والجند
 وأعيانهم . وطوائف الحرف بأنواعها المختلفة وما يتعلق بها ، والوظائف الدينية والعلمية المختلفة
 ووضع أهل الذمة والغرباء والبدو والأزنياء والنقد والبيوت وهندستها ، وأزقة دمشق ودخلاتها
 وشوارعها وأسوارها وأحيائها المختلفة ومنشآتها العامة والخاصة والقرى المحيطة بها ، إلى غير
 ذلك مما لا غنى للباحث في تاريخ دمشق وبلاد الشام . في العهد العثماني من العودة إليها
 كمصدر هام .

(١) يبلغ ماهر محفوظ من سجلات محاكم دمشق المختلفة في دار الوثائق التاريخية في دمشق التابعة بدورها
 للمتحف الوطني فيها /١٥٥٣/ سجل . تبدأ أحداثها من ٢١ شعبان ٩٩١ هـ كما في السجل رقم واحد
 منها ، إلى آخر أحداثها ، وتنتهي في ٢٢ شوال ١٣٣٢ هـ كما ورد في السجل الأخير ذي الرقم ١٥٥٣ ،
 واختلف عدد صفحاتها ما بين سجل وآخر ، فأقلها ١٠٠ صفحة وأكثرها ٥٩٠ صفحة ، واختلفت
 مساحة أوراقها بين كبيرة وصغيرة . أما سجلات محاكم حلب فيبلغ عدد المحفوظ منها في المكان المذكور
 ٦٢٨ سجل وتبدأ أحداث السجل الأول منها في ٢ شعبان ٩٤٢ هـ وتنتهي أحداث الأخير منها في ٢٨
 رمضان ١٢٤٩ هـ . وتتوزع هذه السجلات على محاكم حلب الشرعية والقسمة العسكرية والبلدية والمدنية .
 واختلف عدد صفحات مجلداتها ، فأقلها ٢٣٠ صفحة وأكثرها ٨٠٧ صفحة . أما سجلات محكمة حماه
 فعندها ٦٤٠ سجل محفوظ في دار الوثائق المذكورة ، وتبدأ أحداثها في ١٢ شوال ٩٤٢ هـ وتنتهي آخر
 أحداثها في ١٢ شوال ١٢٩٦ هـ . واختلف عدد صفحات سجلاتها ، فأقلها ٦٤ صفحة وأكثرها ٨٧٧
 صفحة . انظر سجل رقم ٢٥٠ و ٣٠٩ . محاكم دمشق ، ثم سجل رقم ٦٢٧ و ٤٦١ . محاكم حلب ، ثم
 سجل رقم ٥٤ ورقم ٢ لمحكمة حماه . كلها في دار الوثائق التاريخية في دمشق .
 أما ما حفظ من سجلات محكمة حمص في المكان المذكور فعندها ٢٢ مجلداً وتبدأ أحداثها سنة ١٢٠٢ هـ
 وتنتهي ١٢٢٧ هـ . أما سجلات المحكمة التجارية بدمشق وعددها ١٥٢ سجلاً وفي خارج فترة بحثنا حيث
 تبدأ سنة ١٣٠١ هـ وتنتهي ١٣٤٧ هـ أما سجلات محكمة غزة فلا يوجد منها في دار الوثائق التاريخية سوى
 سجل واحد يقع في ٤٦٠ صفحة وأحداثها تبدأ في ١٩ جمادى الأولى ١٢٧٣ وتنتهي في ٢٨ جمادى الثاني
 ١٢٧٧ هـ .

وكتبت معظم هذه السجلات باللغة العربية وبعضها باللغة العثمانية ومخطوط مختلفة . بعضها مقروء والبعض الآخر يجد الباحث في البداية صعوبة في قراءتها ، كما أن بعضها مخروم الأول أو مخروم من الآخر أو من كليهما معاً: وتجاوب الباحث في بعض الأحيان صعوبة تحديد عائدة السجل . ولقد قامت دار الوثائق بتجليدها وترقيم صفحاتها وسجلتها في سجلات خاصة بها . إلا أنها قد وقعت في بعض الأخطاء في هذا المجال ، كأن تذكر سجلاً يعود إلى محكمة الميدان في حين أنه أحد سجلات المحكمة الكبرى وهكذا . كما أخطأت في تحديد بداية أحداث السجل ونهايتها ، ومن جهة أخرى قام كتاب المحكمة في بعض الأحيان باستعمال السجل الواحد بطريقتين معكوستين ، كأن يسجل أحدهم الأحداث إلى منتصفه ثم يترك عدة ورقات بيضاء ويعود ليبدأ بالسجل من آخره مما أدى إلى الوقوع في الخطأ المذكور .

واعتمدت على بعض مخطوطات المكتبة الظاهرية في دمشق ومكتبة مجمع اللغة العربية الكائن قبالتها في المدرسة العادلية الكبرى ، إلا أن عددها كان قليلاً ومن أهمها « المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية » لابن كنان وهو عبارة عن صورة للمخطوط الأصل ثم « النفع الفرجي في الفتح الجته جي » لجعفر البرزنجي وهو عبارة عن صورة (ميكرو فيلم) . أما الكتاب الأول المواكب الإسلامية فيتح في المواكب الرسمية والدينية التي كانت تقام في تلك الفترة في دمشق بالإضافة إلى ما تنتجه دمشق من خضار وفواكه مختلفة ، وأكثر إفادتي كانت من قسمه الأول . ويعالج المخطوط الثاني فترة كاملة من تاريخ دمشق وهي فترة الوالي عبد الله باشا الجته جي وفتكه بقوى اليرلية في الميدان وصدامه مع البدو على طريق الحج ، في موقع القطرانة وكان مؤلفه شاهد عيان لتلك الأحداث فأفدت منه في بحث قافلة الحج الشامي والقوى اليرلية في دمشق وأوضاعها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . أما المخطوط الثالث فكان لأخباري لأذقاني الأصل هو فتح الله بن أنطون الصايغ وعنوانه « المقرب في حوادث الحضرة والعرب » . وشملت صفحاته ثلاثة فصول تطرق الأول منها إلى الحياة الاجتماعية لدى البدو في بلاد الشام . أما الفصل الثاني فيتناول فيه وضع مدينة اللاذقية وجبال العلويين ووضع السكان السياسي والاجتماعي والاقتصادي . ويعرج الفصل الثالث على ذكر الاحتلال المصري لبلاد الشام وبعض الإصلاحات التي قام بها إبراهيم باشا فيها . وفي مكتبتي صورة للمخطوط الأصل أكرموني بها الأستاذ الفاضل الدكتور عبد الكريم

رافقاً^(١) فجزاه الله خيراً . هذا بالإضافة إلى الوثائق التي قام بنشرها الدكتور أسد رستم عن الحكم المصري لبلاد الشام وجاءت تحت عنوان « الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا » .

ومن أهم المصادر المطبوعة التي اعتمدت عليها في بحثي هذا كتب التراجم والاختبارين لهذه الفترة ويأتي على رأسها كتاب « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر » لمحمد خليل المرادي مفتي الأحناف في دمشق ونقيب اشرافها المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١ م^(٢) . ويتألف كتابه هذا من أربعة أجزاء طبع في المطبعة الأميرية في بولاق سنة ١٣٠١ هـ دون دراسة أو تحقيق وفيه تراجم لشخصيات مختلفة من دمشق وبلاد الشام والافطار العربية والإسلامية ورجال الدولة العثمانية بما فيهم السلاطين العثمانيين . واتبع المؤلف التسلسل الأبجدي بحسب الأسم الشيعي وحاول ذكر سنة الولادة والوفاة . وتضمنت التراجم معلومات هامة عن نواحي الحياة المختلفة في دمشق وبلاد الشام والدولة العثمانية . كما اعتمدت على كتابه الثاني الذي هو عبارة عن تراجم للمفتين في دمشق وجاء تحت عنوان « عرف البشام فيمن ولي فتوى الشام » تناول فيه ترجمة ٧٣ مفتياً في دمشق والكتاب يقع في خمسة فصول أورد في الفصل الأول ما يتعلق بالفتوى من حيث تاريخها وآدابها ورجالها وترجم بعد ذلك لتسعة من المفتين من القرن العاشر (٩٢٢ هـ) وردت في الفصل الثاني كما وردت ترجمة أربعة عشر مفتياً في القرن الحادي عشر وهي التراجم من ١٠ — ٢٣ ، ثم ترجم في الفصل الثالث لثلاثة عشر مفتياً من القرن الثاني عشر وهي التراجم من ٢٤ — ٣٦ . كما ترجم لنفسه في الفصل الخامس والأخير . وأضاف المحققان لهذا الكتاب وهما الأستاذان ، محمد مطيع الحافظ ورياض عبد الحميد مراد ذيلين إلى الكتاب الأول منهما يتعلق بالمفتين بدءاً من الفتح العثماني لدمشق سنة ١٥١٦ م / ٩٢٢ هـ يذكران واحداً وخمسين مفتياً منهم حتى سنة ١٣٠٥ هـ . أما في الذيل الثاني فيذكران تمة المفتين في دمشق وعددهم عشرة مفتين إلى سنة ١٣٨٤ هـ .

أما كتاب التراجم الثاني الذي اعتمدت عليه فهو كتاب الشيخ عبد الرزاق البيطار

(١) ولقد استرعى انتباه لامتارين هذا الكتاب عندما زار بلاد الشام سنة ١٨٣٢ / ١٣٢٢ هـ وقام بترجمته إلى الفرنسية وتقديمه إلى المكتبة الملكية في باريس .

(٢) انظر : البيطار ، عبد الرزاق . حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر . ج ٣ . ص ١٤٠٥ . ثم العبد ، حسن آغا . تاريخه . ص ٢٠ .

الذي عاش ما بين ١٢٥٢ — ١٣٢٥ هـ والذي أسماه « حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ». وقام بنشره حفيده الشيخ بهجة البيطار ، وهو من منشورات الجمع العلمي العربي بدمشق ويقع في ثلاثة أجزاء . نشر هذا الكتاب على دفعتين الجزء الأول منها نشر في سنة ١٢٨٠ هـ / ١٩٦١ م أما الثاني والثالث فقد نشر في سنة ١٢٨٣ هـ / ١٩٦٣ م ، واعتمد المؤلف في بعض معلوماته على ما ورد في « سلك الدرر » كما ترجم لمعاصريه من الرجال وتختلف الترجمة بين شخص وآخر ، ما بين عدة أسطر وعدة صفحات . بلغة عربية فصيحة مستخدماً أسلوب السجع في بعض الأحيان والمحسنات اللفظية التي كانت سائدة في عصر المؤلف ، وتراجمه شملت السلاطين ورجال الدين على اختلاف وظائفهم ومناهجهم وبعض الولاة والمتصوفين والتجار ، ولم يترجم إلا لمرأتين هما « رقية بنت سليم إبراهيم المتوفاة سنة ١٢١٧ هـ ومريم بنت محمد العقاد المولودة في حلب سنة ١١٥٦ هـ »^(١).

أما كتاب التراجم الرابع الذي اعتمدت عليه فهو أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ومنتصف القرن الرابع عشر ١٢٠١ — ١٢٥٠ هـ « الطبعة الثانية » وهو للشيخ محمد جميل الشطي فقيه الحنابلة في دمشق وإمامهم في جامع بني أمية وخطيب المدرسة الباذرائية ، ويتألف الكتاب من قسمين : الأول منهما يترجم للرجال من ١٢٠١ هـ إلى سنة ١٣٠٠ هـ أما الثاني فيترجم للرجال حتى أواخر أيام المؤلف وكان عدد صفحاته ٢٧٠ صفحة ورتبت التراجم بحسب حروف الهجاء وبدأ بترجمة الشيخ إبراهيم البيطار وهو جد الشيخ عبد الرزاق البيطار . ومن مزايا هذا الكتاب فهرسته بحسب وفیات المترجمين وباعتبار أسمائهم . ويقوم أيضاً بتحديد وظيفة المترجم أو حرفته مثل : الفقيه — المرشد — المصنف — العالم الكبير — الوالي — الطبيب — القاضي — المفتي — شيخ القراء — محدث — كبير — شيخ الشام — محدث — نقيب الأشراف — أمين الفتوى — الامام — الخطيب المؤرخ — الفلكي — الشاعر — المتصوف — المجذوب — المؤذن شيخ المؤذنين — الخ ... ولقد اعتمد على من سبقه من مؤلفي التراجم كما ترجم لمن عاصره من الرجال .

هذا بالإضافة إلى كتاب تراجم وأخبار للشيخ عبد الرحمن الجبرتي المتوفى في مصر ١٢٣٦ هـ / ١٨٢١ م « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » وهو في ثلاثة مجلدات ويحدد المؤلف ما ورد في كتابه بقوله : « يبحث في معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم

(١) انظر : ج ٢ . ص ٦٣٥ . ثم ج ٣ . ص ١٥١٦ .

وعاداتهم وصنائعهم وأنسابهم ووفياتهم وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والقراء والملوك والسلاطين وغيرهم والغرض منه التعرف على الأحوال الماضية». كما يقول: «إن في التاريخ علم تدرج فيه علوم كثيرة لولا ما ثبتت أصولها ولا تشعبت فروعها من طبقات القراء والمفسرين والمحدثين وسير الصحابة والتابعين وطبقات المجتهدين وطبقات النحاة والحكماء والأطباء وأخبار الأنبياء وأخبار المغازي وحكايات الصالحين ومسامرة الملوك من القصص والأخبار والمواعظ والعبر والأفعال وغرائب الأقاليم وعجائب البلدان»^(١) وانصب اهتمامه في هذا المجلد على التراجم للملوك مصر والدولة الأيوبية والجراسية والعثمانية والولاة ورجال الدين وغيرهم. أما المجلد الثاني فهو عبارة عن سجل إخباري لأشهر الأحداث بدأ من سنة ١٢٠١ هـ إلى شهر صفر ١٢١٩ هـ. ونهج في المجلد الثالث نهجه في المجلد الثاني فيسجل فيه الأحداث إلى سنة ١٢٣٦ هـ/ ١٨٢١ م، ولم يتم كتابته حيث مات بعد هذا التاريخ: وعلى الرغم من أن هذا الكتاب قد انصب في معظمه على أحداث مصر والدولة العثمانية إلا أنه أورد معلومات هامة تتعلق ببلاد الشام ودمشق. فهو بذلك مصدر هام للباحث في تاريخ هذه الفترة. ومن كتب الإخباريين الهامة التي عدنا إليها في بحثنا «حوادث دمشق اليومية» للشيخ أحمد البديري الحلاق الذي عمل حلاقاً وجراحاً في دمشق، وكان يرصد أحداثها يومياً ويسجلها بدءاً من سنة ١١٥٤ — ١١٧٥ / ١٧٤١ — ١٧٦٢ م وعلى امتداد واحد وعشرين عاماً. وقام العالم الدمشقي محمد سعيد القاسمي بتنقيحه مما أضاع شيئاً من أصالته. وبقي هذا المؤلف مخطوطاً حتى قام الدكتور أحمد عزت عبد الكريم أستاذ التاريخ الحديث في جامعة عين شمس بدراسته وتحقيقه ونشره في سنة ١٩٥٩ م. ولم تكن «حوادث دمشق اليومية» محاولة من مؤلفه في كتابة تاريخ دمشق في هذه الفترة. فهي مهمة كانت أكبر من إمكاناته وامكانيات معظم الإخباريين من أمثاله.

إلا أنه مع ذلك يصور لنا حياة الناس في دمشق يومياً، فيما يتعلق بالنواحي الاجتماعية والإدارية والاقتصادية والسياسية والدينية والعسكرية والمعاشية وغيرها. ومن خلاله يمكن التعرف على وضع الجند وأصنافهم وعلاقتهم فيما بينهم، وعلاقتهم مع السلطة العثمانية ومع الشعب في دمشق والفلاحين وغيرهم. كما يمكننا من التعرف على بعض أوضاع الولاة والقضاة والمفتين ورجال الدين والأشراف والبدو، وأخبار قافلة الحج والاحتفالات المختلفة

(١) انظر: المجلد الأول، ص ٦ و ص ١٠.

الدينية والرسمية، وأخبار الطرق الصوفية وطوائف الحرف، وبنات الهوى والغواني وعقلية أبناء عصره، فهو غني بمعلوماته التي تفتقر إليها كتب الإخباريين الآخرين، ولا نجد مثيلاً له إلا كتاب الإخباري الآخر الذي جاء من بعده في مدينة دمشق وهو حسن آغا العبد في كتابه «قطعة من تاريخ حسن آغا العبد» حيث قمت بتحقيقه ونشرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي في دمشق سنة ١٩٧٩م وتبدأ أحداث هذا الكتاب في سنة ١١٨٦هـ وتنتهي في سنة ١٢٤١هـ / ١٧٧٢ - ١٨٢٦م. وتأتي أهمية هذا الكتاب من كون مؤلفه عاصر الأحداث التي سجلها في دمشق وغيرها. وشارك في معظمها كما شارك في حراسة قافلة الحج الشامي وفي تعمير القلاع على طريقه، واستلم مناصب إدارية في ولاية دمشق، ونهج في كتابه أسلوب البديري، فكانت معلوماته متنوعة شملت نواحي شتى من حياة مجتمع دمشق، كالنواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على امتداد خمسة وعشرين عاماً. وما يؤخذ عليه أنه قد أقل من سرد أحداث السنوات الأولى من كتابه في حين أفاض نسبياً في ذكر أحداث السنوات التالية مما أفقد كتابه التوازن. وما وصلنا من كتابه كان مخروم الأول لذلك نشر على أنه قطعة من تاريخه وليس تاريخ بكامله. لكنه مع ذلك يبقى مصدراً هاماً. وهناك كتابا إخباريين مجهولين يُعتقد أنهما من أبناء دمشق المسيحيين، كان عنوان أولهما، «حوادث الشام ولبنان» وردت فيه بعض المعلومات عن أهم أحداث دمشق وبلاد الشام ما بين ١١٩٢ - ١٢٥٧هـ - ١٧٨٢ - ١٨٤١م ورصدت فيه الخلافات التي جرت بين الأرثوذكس والكاثوليك وموقف السلطة منهما، ثم ذكر تزايد خطر الحركة الوهابية وسيطرتها على مكة والمدينة ومضايقتها لقافلة الحج الشامي. ثم حملة إبراهيم باشا على سورية واحتلالها دمشق حتى خروجه منها. ثم أخبار متفرقة عن جبل لبنان وبيروت. أما الكتاب الثاني فمؤلفه أيضاً مجهول وجاء تحت عنوان «مذكرات تاريخية» وقد رصدت فيه أحداث دمشق على امتداد عشر سنوات بدءاً من سنة ١٨٣١ - ١٨٤١م ووردت فيه أخبار تطبيق النظام الجديد في دمشق على يد محمد سليم باشا وموقفها من محاولته فرض ضريبة الصليان وثورتها عليه ومقتله، ثم أخبار الحكم المحلي في دمشق. وأخبار حملة إبراهيم باشا على بلاد الشام واحتلاله دمشق والثورات والأحداث المتفرقة التي وقعت في عهده، ثم إصلاحاته ومدى انعكاسها على أوضاع دمشق المختلفة. ولقد أفدت منه في بحث فترة حكم إبراهيم باشا المصري. وقد نُشر الكتابان المذكوران في لبنان دون دراسة أو تحقيق وقام أحمد غسان سيانو بنشرهما من جديد في دمشق ووقع في أخطاء كبيرة لا مجال لذكرها هنا.

ثم رجعت إلى كتاب «منتخبات التواريخ لدمشق» لمحمد أديب تقي الدين الحصني الذي يقع في ثلاثة أجزاء وقدم للكتاب الدكتور كمال سليمان صليبي وقام بنشره في ١٢٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م ، ونهج فيه مؤلفه نهج الكتب العامة المتنوعة فلم يصب اهتمامه على فترة محددة وإنما حاول أن يرصد تاريخ دمشق من الفتح الإسلامي حتى عهده ، ورصد أوضاع الأوقاف فيها إبان العهد العثماني وترجم لمشاهير الأسر الدمشقية^(١) وقد أسماه في البداية « غاية المرام في منتخبات تاريخ دمشق الشام » واختصرت تسميته على ما ذكرناه آنفاً ورجعنا فيه إلى أحوال دمشق العلمية والاجتماعية في العهد العثماني^(٢) كما رصدنا من خلاله أوضاع أسر دمشق المختلفة .

وهناك كتب الرحلات لعرب وأجانب الذين زاروا المنطقة وأقاموا فيها لبعض الوقت وكتبوا عن مشاهداتهم فيها وأهم كتب الرحلات العربية كتاب ابراهيم الحيارى الذي زار دمشق في القرن الثامن عشر وألف كتاباً أسماه « تحفة الأدباء وسلوة الغرباء » رصد فيه خطط " ام ومتنزهاتها وبعض نواحي الحياة الاجتماعية فيها . ومن كتب الرحلات العربية كتابا المصريين عبد الجواد القاياتي وعبد الرحمن سامي بك اللذين زارا دمشق في أواخر القرن التاسع عشر فألف الأول منهما كتاباً أسماه « نفحة البشام في رحلة الشام » ثم ألف الثاني كتابه « القول الحق في بيروت ودمشق » ولقد رصدنا في كتابيهما بعض معالم دمشق وبعض النواحي الاجتماعية فيها فاستخلصنا منهما ما أفادنا في بحثنا .

أما كتب الرحالة الأجانب وتقارير القناصل ووكلائهم وأزواجهم فكانت عديدة منها ما رصد بعض نواحي الحياة في دمشق وبلاد الشام ومنها ما رصد دقائق الأمور فيها ، وخاصة ما يتعلق بالمواكب والاحتفالات والحرف والصناعات والإدارة والقضاء وغيرها . ولا شك أن معظمهم كان مرسلأ لهذه المهمة من سلطات بلاده الرسمية لمعرفة دقائق الأمور عن مناطق الطموح الاستعماري . ويأتي على رأس هؤلاء الفرنسي (فولني) الذي شملت رحلته مصر وبلاد الشام وألف كتاباً عن ذلك طبع في ثلاثة أجزاء بالحجم الصغير في باريس عام ١٨٢٣ م قام برحلته ما بين ١٧٨٣ — ١٧٨٥ م ورصد خلالها ما استطاع من أوضاع مصر وبلاد الشام الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية في ظل الدولة العثمانية ، مما جعل كتابه هذا يلقي اهتماماً .

(١) . انظر : الباب السابع عشر منه ص ٨٠٤ وص ٩١٦ .

(٢) . انظر : الباب الثالث منه ما بين ص ٢٩٧ وص ٣٥١ .

ثم كتاب مستر براون «رحلات في أفريقيا ومصر وسوريا» ما بين سنة ١٧٩٢ — ١٧٩٨ م والذي طبع في لندن عام ١٧٩٩ م ، ورصد فيه المشاهدات في مصر وبلاد الشام وفلسطين وصعيد مصر ولبنان والمناطق الساحلية إلى اللاذقية فحلب ودمشق . وبه معلومات هامة عن وضع والي صيدا أحمد باشا الجزار . وكذلك الضرائب والمغارم التي كان يفرضها على الشعب . كما رصد في كتابه وضع الاشراف والانكشارية في حلب ووصف بعض النواحي الحياتية الهامة في دمشق ، والتي وردت في الفصل الخامس والعشرين من كتابه ، ويركز اهتمامه على وصف قافلة الحج الشامي في دمشق ، ويتكلم عن تجارتها وحرفها وسكانها وطباعتهم وتقاليدهم فيها والضرائب وأسعار السلع وقوافل التجارة . كما يصف رحلاته المتفرقة التي قام بها من دمشق إلى بعلبك ثم رحيله إلى حلب فانطاكية . وهناك كتاب بوركهاردت سمي : «BURCKHARDT TRAVELS» التي قام بها في أوائل القرن التاسع عشر ما بين سنة ١٨١٠ و ١٨١٧ م وزار خلالها لبنان وحمص وفلسطين وحلب ووادي العاصي ، ثم جاء إلى دمشق عن طريق جبال لبنان في سنة ١٨١٢ م ومنها زار بحيرة طبريا في أواخر شهر نيسان وأوائل أيار من نفس العام . وقام بزيارة إلى البادية ومنها ذهب إلى مصر عن طريق سيناء فوصلها في ربيع سنة ١٨١٦ م . وقد أفادني في معرفة أوضاع حوران وآثارها وبدوها وبدو سيناء ، وتنتهي أحداث رحلته في سنة ١٨١٧ م .

ثم كتاب اليكس راسل المسمى «The Natural History of ALEPPO» ورغم أن هذا الرجل قد عاش فترة في حلب وصب جل اهتمامه على رصد الناحية الادارية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية بشيء من التفصيل ، إلا أنه أفادنا في وصفه لبلاد الشام ابان جائحات الطاعون في سنة ١٧٤٢ و ١٧٤٣ و ١٧٤٤ م . وما تركت من آثار مدمرة على النواحي الاقتصادية والاجتماعية والبشرية . كما يصف خطط مدينة حلب وقواها السياسية وطوائفها الدينية الاقتصادية والاجتماعية والبشرية . وطوائفها الدينية ومعالمها الحضارية والطبيعية وأزياءها وأفراحها وأتراحها . وقد نشر هذا الكتاب في لندن سنة ١٧٩٢ م .

هذا بالاضافة إلى كتب بعض الاجانب التي ألفوها نتيجة لمشاهداتهم الشخصية في دمشق وما جاورها من المدن الشامية ومن أهمها كتاب بورتسر المسمى «FIVE YEARS IN DAMASCUS» ويقع في مجلدين رصد فيه مشاهداته فيما بين سنة ١٨٤٩ — ١٨٥٥ م وقام برحلات قصيرة شملت لبنان وحمص ومنها إلى تدمر في

سنة ١٨٥١ م ولقد أفدت من كتابه في معرفة طبوغرافية دمشق وأسواقها ونشاطها الاقتصادي والصناعي ومعالمها وسكانها وبعض الظواهر الاجتماعية فيها . ووصف حالة الطرق العامة والأمن عليها .

وهناك كتاب آخر (لإيزابيل بورتن) التي كانت تعيش مع زوجها القنصل البريطاني في دمشق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأسمت كتابها :

«The inner life of Syria Palestine and the Holyland»

وهو بمثابة مذكرات يومية تحدثت فيه عن لبنان وفلسطين ودمشق ، فوصفت معالم الحياة المختلفة في دمشق كالبازارات والنشاطات المختلفة فيها ، والزيارات والمقاهي والحمامات ووجوه التسلية ومظاهر الفن كالرقص والموسيقى والغناء ، وجمارك دمشق والضرائب المختلفة وبنية السكان فيها ، ومذاهبهم وقومياتهم ، وحياة الأسرة داخل الحرمك ، ثم السلامك والطوائف المسيحية واليهودية وكنائسهم وبيعهم وتنتهي أحداث كتابها في سنة ١٨٧٥ م :

ومن أهم رسائل وتقارير القناصل الاجانب ووكلائهم التي عدت إليها رسائل القنصل العام البريطاني المستر « جون باركر » والتي قام بنشرها ابنه « ادوار باركر » بعد أن قام بجمع تقارير ورسائل والده من مصادر مختلفة ونشرها في مجلدين تحت عنوان : « Syria » « Egypte under the last five Sultans of Turkey » . أما والده فكان سفيراً لبلاده في استانبول في عهد السلطان سليم الثالث ومصطفى الرابع وعمود الثاني وعاصر الاصلاحات في عهد السلطان عبد المجيد وعبد العزيز ورصد المتغيرات على الساحة العثمانية ، وكان مكلفاً بمهمة رسمية من حكومته في حلب ، وورد في رسائله إلى السير سبنسر سميث وسيدني سميث على أنه عين وكيلاً عاماً لشركة الهند الشرقية وقنصلاً لشركة الشرق في ١٨٠٣ م ويتحدث في رسائله تلك عن حياته الخاصة والعائلية في حلب واستقباله لليدي أستير ستانهورب الانكليزية التي زارته فيها . ويتكلم أيضاً عن أوضاع حلب وجبل الدروز . كما يتكلم عن أوضاع دمشق إبان الطاعون الذي حصل فيها سنة ١٨٢١ م . وتناولت تقاريره نواحي الحياة المختلفة في حلب وبلاد الشام . وأخبار رحلته من حلب إلى تدمر ثم أخبار عودته إلى وطنه : وورد في كتابه أخبار تعيينه قنصلاً لبلاده في الاسكندرية سنة ١٨٢٥ م ، وحروب الروس مع الدولة العثمانية ، وأخبار الحملة المصرية على بلاد الشام ، وتدخل الدول الأوربية ، والاصلاحات التي قام بها ابراهيم باشا في بلاد الشام . فالكتاب كما

ترى غني بمعلوماته إذ شملت معظم نواحي الحياة في مصر وبلاد الشام على امتداد النصف الأول من القرن التاسع عشر مما لا غنى عنه للمهتم بدراسة تاريخ بلاد الشام والمنطقة في هذه الفترة .

كما عدت أيضاً إلى تقارير أجنبيين رسميين عاشا في مصر ثم في بلاد الشام في ظل الاحتلال المصري وهما الانجليزي (جون باورنج) والفرنسي (بوال كومت) .

أما الأول منهما فقد أرسل من قبل اللورد بالمرستون السكرتير الرئيسي لشؤون الخارجية في الحكومة البريطانية وكان مرتبطاً به ويرسل تقاريره إليه ، ومن أهم هذه التقارير ما أرسله في ١٧ حزيران سنة ١٨٣٩ م :

Report on the Commercial Statistics of syria

سجل فيه احصاءات عن سورية في أواخر عهد ابراهيم باشا المصري ، وشملت تلك الاحصاءات نواحي الحياة المختلفة في بلاد الشام وأوردت أرقاماً عديدة في مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية المختلفة فيها . إلا أنه من الواجب أخذ الأرقام بشيء من الحذر خاصة وأن مثل هذه الاحصاءات لم تكن متوفرة بدقة آنذ . لكنها مع ذلك تمكنا من القاء بعض الضوء على الواقع الاقتصادي والاجتماعي في بلاد الشام في تلك الفترة . وقام بنشر هذا الكتاب ولیم جلو وأبناؤه في لندن سنة ١٨٠٤ م .

أما الكتاب الثاني فهو عبارة عن تقارير البارون بوال كومت إلى حكومته الفرنسية حيث عاش في ظل الحكم المصري وكان على صلة بالسلطات المصرية مما أتاح له رصد الأحداث يوماً بيوم وكتابة تقاريره إلى حكومته . وقام بنشر هذه التقارير جورج دوان . واطلعت على بعضها منشورة في بعض المراجع العربية والاجنبية .

هذا بالاضافة إلى عشرات المصادر والمراجع العربية والاجنبية يراها القارئ مبثوثة في صفحات الكتاب وثبت المصادر والمراجع . ولا أنكر أنه قد غابت عني بعض المصادر والمراجع التي لم أستطع الوقوع عليها في المظان والمكتبات التي عدت إليها .

الفصل الأول

دمشق
ومنشأتها العمرانية

دمشق لحظة تاريخية

المنظر العام للمدينة — دمشق في أواخر القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر — سور دمشق — حارات دمشق — سكان دمشق — شوارع دمشق وطرقاتها — أسواق دمشق — متنزعات دمشق — حمامات دمشق — الليمارستانات في دمشق — الطب ومدارسه في دمشق — بردى والسقايات في دمشق — التكايا — الزوايا — الفنادق والقيساريات والحانات والوكالات — هندسة الحانات — المقابر الطائفية وهندسة القبور وكيفية دفن الموتى .

دمشق لمحة تاريخية

— تعددت أسماء هذه المدينة عبر تاريخها الطويل ، وأخذت تسميات مختلفة بقي العديد منها إلى وقتنا الحاضر . وكانت هذه التسميات متأثرة بمن حكمها : وأول تسمية لها الشام — دمشق — جلق ، ثم جيرون ، والعدراء ، وإرم ذات العماد ، وبيت رامون ، أو عين الشرق كله ، ثم باب الكعبة ، ثم فسطاط المسلمين^(١) . إلا أن أكثر هذه الأسماء اشتهاراً عبر تاريخها هو دمشق أو دماسكو أو Damascus ويذهب المؤرخون مذاهب شتى في تأويل هذا الاسم ، وأقرب التأويل للمنطق هو أنه من أصل لودي آرامي أي كلداني أو سرياني قديم . فقد ذكرته آثار معبد الكرنك في القرن ١٧ ق م ، وكتابات تل العمارنة في القرن ١٥ ق م ، وقائمة تحوتمس باسم دماسكو أو تمسقوفي بالكتابة الهيروغليفية ، وتعني الزهرة المثمرة تسمية بغطتها الزهرة المثمرة وعنها أخذها اليونانيون والأوروبيون فيما بعد^(٢) .

-
- (١) انظر : دائرة المعارف الإسلامية — المجلد التاسع . ص ٢٦٥ وما بعدها — كلمة دمشق — الترجمة .
(٢) انظر : (سفر التكوين) الاصحاح ١٤ . آية ١٥ ويظهر هذا الاسم في العينة مفصلاً في قصة ابراهيم عليه السلام . ثم انظر . مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد الأول — ج ٩ . ص ٣٤٦ و ٣٤٦ لعام ١٩٢١ . ثم دائرة المعارف الإسلامية المجلد ٩ ، ص ٢٦٥ — كلمة دمشق — الترجمة ، ولقد أنفادني العالم الأثري الإيطالي باولو ماتيه الذي قام بزيارة جامعة دمشق كلية الآداب قسم التاريخ عشية اكتشافه لرقم مكتبة ملك مدينة إبله أنه ورد اسم (دمشق) في العديد من الرقم الفخايلة المكتشفة والتي وصل تعدادها إلى ما يزيد عن ١٦ ألف رقيم .

ومدينة دمشق أقدم مدن الأرض المسكونة بعد أريحا^(١). شهدت هذه المدينة أحداثاً نشيطة على امتداد أربعة آلاف سنة ولديها إرث تاريخي ضخم كونها جزءاً هاماً من أعظم الامبراطوريات عبر التاريخ^(٢) فحضارتها تعود للشعوب التي مرت عليها فمنهم اللواديون والآراميون والفينيقيون والحثيون والعبرانيون والآشوريون والبابليون والميديون «الفرس» واليونان والرومان والعرب ومن جاء بعدهم من الأمم الأخرى^(٣) وبقيت أنقاض العديد من أبنية هذه الأقوام ومنشآتهم التي شيدوها دفينة تحت ترابها أو ماثلة للعيان حتى وقتنا الحاضر. وقبض لدمشق عبر تاريخها حكام تساهلوا مع سكانها في تركهم على عاداتهم فامتزجت العادات الفينيقية باليونانية والرومانية امتزاجاً تدل عليه الأساطير القديمة. ولما تنصر اليونان والرومان نقضوا الحضارة الوثنية وهدموا هياكلها العظيمة وحطموا تماثيلها واستبدلوها بالحضارة المسيحية وعصبتها القبائل العربية المنتصرة من غسان وقضاعة وإياد^(٤).

حررت دمشق من الحكم البيزنطي على يد العرب المسلمين في شهر رجب من عام ١٤ للهجرة سبتمبر سنة ٦٣٥ م وفي سنة ٤١ للهجرة/٦١٦ م استطاع معاوية بن أبي سفيان أن ينشئ الخلافة الأموية فجعلها عاصمة لدولته. واستمرت دمشق هكذا إلى أن سقطت الدولة الأموية فسقطت هي بدورها بيد القائد العباسي في غرة رمضان سنة ١٣٢ للهجرة الموافق ٢٨ أبريل/نيسان ٧٥٠ م وأصبحت قصبة ولاية عباسية. وكان الخلفاء العباسيون في كثير من الأحيان، يعينون المقرين منهم والياً عليها، فيكتفي هذا بإرسال نائب عنه ليقم فيها، فأصابها ما أصابها من الإهمال.

والخليفة العباسي الوحيد الذي حاول أن يعيرها اهتماماً هو المتوكل، حيث أقام فيها سنة ٢٤٤ للهجرة الموافقة ٨٥٨ م لفترة قصيرة، إلا أن ذلك لم يكن كافياً لإعادة الازدهار إليها. وعندما بدأت الدولة العباسية بالتمزق إلى دويلات وظهرت الدولة الطولونية في مصر سنة ٢٦٤ هـ/٨٧٨ م وقعت دمشق في قبضة أحمد بن طولون مستقلة عن دار الخلافة في بغداد وبعد أفول نجم هذه الدولة سنة ٢٨٢ هـ/٨٩٦ م ظهر القرامطة على أبوابها على شكل

(١) انظر: مجلة القدس. العدد ٢٠. ص ١٠٦. ١٩٨٠/١/٢٠ رجب ١٤٠١ هـ.

2- See: Porter, J.L «Five Years in Damascus» VOL. 1.P. 26.

(٣) كالسلاجقة والفاطمين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين.

(٤) انظر: المملوك، عيسى، مقالة في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق — المجلد الأول. ج ٩

ص ١٨ ص ١٩. عام ١٩٢١.

غارات تخريبية شنها عليها حتى قضى جند الخليفة عليهم . وعندما كان الاخشيديون يحكمون مصر في القرن الرابع للهجرة كانت دمشق ولاية تحف بها المخاطر ولا يستتب الأمر فيها لمن يملكها . وعندما انهارت دولة الاخشيديين على يد الفاطميين الشيعة استولى عليها الفاطميون سنة ٣٥٨ للهجرة ٩٩٩ م ، وحكم الفاطميون دمشق بعد ذلك قرناً لم تكن فيه أسعد حالاً من السابق . وخرجت دمشق عن طاعتهم لتعرض إلى حريق على يد القرامطة . وبعد ذلك بقرن من الزمان سادها الشغب والاضطراب إلى أن جاء القائد أئز السلاجوقي سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٨٦ م فانحسر ظل الحكم الفاطمي عنها إلى الأبد ، ولم يدم حكم ائز طويلاً كما لم تنشط فيها العمارة حيث عاشت فترة عصيبة وعاصفة بتعرضها لضغط الفرنجة الصليبيين الذين زحفوا على بلاد الشام وهددوا دمشق مرات عديدة فهاجموها سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م وفي عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م . كان البوريون يستنجدون بالفرنجة بين الحين والآخر على زنكي ، إلى أن استطاع ابنه نور الدين زنكي صاحب حلب من الاستيلاء عليها عام ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م .

وكان حكم نور الدين في دمشق فاتحة عهد جديد من الرخاء والقوة . ويعتبر عهده مع عهد صلاح الدين أزهى أيامها . وحوصرت هذه المدينة ابان الصراع بين أبناء صلاح الدين (الأفضل والعزير ، والعاذل) فأصابها من جراء ذلك شر كبير ولم تستعد هدوءها في عهد العادل إلا بموت العزيز وقضائه المبرم على الأفضل . وهدد الفرنجة دمشق أيام ولده وخليفته المعظم عيسى .

قضت غزوة هولاكو المغولية على الحكم الأيوبي على دمشق ويعيد منتصف القرن السابع الهجري (١٣) م فتحت دمشق أبوابها للغزاة ، وفي ربيع عام ٦٥٨ هـ / مارس آذار ١٢٦٠ م زحف عليها مماليك مصر بعد انتصارهم في عين جالوت لتصبح دمشق أهم الولايات المملوكية في بلاد الشام وعادت دمشق إلى سابق ازدهارها خاصة في عهد الظاهر بيبرس .

وفي عام ٦٩٩ هـ / ١٣٠٠ م تعرضت دمشق لغزو مغولي بقيادة غازان سبب لها أضراراً كبيرة ، إلا أنها استعادت عافيتها في عهدي الناصر وتكز ولكنها بعد ذلك سادتها الفوضى ووهنت عزيمتها مما جعلها لقمة سهلة بيد تيمورلنك الغازي عام ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م ، فكانت ضربه تلك أشد الضربات الماحقة التي تلقتها فأصابها بشر مستظير فاق ما أصابها

منذ قرون عديدة ، فبقيت سائر أجزائها ومنشآتها أنقاضاً وعانت خلال قرن من الزمان ما عانته لترميم ما يمكن ترميمه إلا أنها بقيت في حالة وهن عام لتسقط بعد ذلك بيد العثمانيين أثر معركة مرج دابق سنة ٩٢٣ هـ/ ١٥١٦ م ولتصبح مركزاً لولاية دمشق العثمانية^(١) .

ولقد أولى العثمانيون دمشق بعض عنايتهم نظراً لأهميتها الدينية والتجارية فأقاموا فيها الجوامع والتكايا وبعض المدارس ثم عدداً من الخانات ما زال معظمها قائماً إلى وقتنا الحاضر . وفي سنة ١٧٧١ م جاءها محمد بك أبو الذهب^(٢) ثم أعقبته حملة مصرية أخرى قادها إبراهيم باشا المصري عام ١٨٣٢ م/ ١٢٤٧ - ١٢٤٨ هـ^(٣) وبقي في فيها إلى عام ١٨٤٠ م/ ١٢٥٥/١٢٥٦ هـ حيث عادت إلى السلطة العثمانية بعد ذلك .

ولقد اكتسبت دمشق أهمية دينية خاصة لدى أصحاب الديانات الثلاثة (الإسلامية - النصرانية - اليهودية) فالمسلمون يؤولون بعض آيات القرآن مثل (سورة الإسراء) الآية (١) وسورة المؤمنون الآية (٥٠) حيث يجعلونها المقصودة بعبارة إرم ذات العماد التي وردت في القرآن (سورة الفجر) الآية (٧) ، كما بالغوا في قدسيتها ونسبوا بعض الأحاديث في ذلك إلى النبي (ﷺ)^(٤) . ناهيك عن اعتقاد بعض المؤرخين بوجود قبور بعض الأنبياء في سفوح جبل قاسيون وما جاورها من الأماكن ، ودفن فيها عدد من صحابة الرسول العربي (ﷺ) وآل بيته والتابعين والصالحين والأولياء والعلماء والمتصوفين^(٥) . ويوجد

- (١) انظر : دائرة المعارف الإسلامية . المجلد التاسع . ص ٢٦٤ (كلمة - دمشق) — الترجمة .
- (٢) دخلها محمد بك أبو الذهب في ٥ ربيع الأول انسحب منه في ١٨ صفر من عام ١١٨٥ هـ الموافق ل ٢ حزيران ١٧٧١ م .
- (٣) دخلتها قوات إبراهيم باشا المصري في ١٥ محرم ١٢٤٨ هـ الموافق ٢ حزيران ١٨٣٢ م . انظر : مجهول ، مذكرات تاريخية ، ص ٤٩ . تحقيق غسان سبانو .
- (٤) انظر : دائرة المعارف الإسلامية . المجلد التاسع . ص ٢٦٦ . الترجمة .
- (٥) يذكر ابن الحوراني أسماء الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين والأولياء والمتصوفين وغيرهم الذين دفنوا في دمشق ، فمنهم أوس بن أوس الثقفي صاحب رسول الله (ص) كان بيته مكان المدرسة الصابونية وبلال الحبشي مولى أبي بكر الصديق (ض) ومؤذن الرسول (ص) . مات سنة سبعة عشر للهجرة ودفن بمقبرة الباب الصغير . ومنهم أبو الدرداء عوف بن الخزرجي صاحب رسول الله (ص) من الأنصار وأحد العلماء الأعلام العاملين وأحد الأئمة الكبار من زهاد الصحابة والمعرضين عن الدنيا ، ثم زوجته التابعة (أم الدرداء) الصغرى ، مدفونة عنده داخل قلعة دمشق ، وبنى جامع باسمه في داخلها . ومنهم معاوية بن صخر بن أبي سفيان القرشي الأموي كاتب الوحي لدى رسول الله . ومنهم معاوية الثاني الخليفة الأموي بن يزيد بن معاوية الأول الملقب بأبي ليلى . ومنهم وثالة بن الأسقع من أهل الصفة خدم

ففيها لليهود والمسيحيين أماكن مقدسة . فاليهود كنيس جوهر الشهير ويعتقدون أن النبي الياس

النبي ثلاث سنين توفي في عهد عبد الملك بن مروان . ومنهم فضالة بن عبيد الذي ولي قضاء دمشق في عهد معاوية . ومنهم سهل بن الربيع الصحابي الأوسي ومنهم بسرة بن فاتك الأسدي . ومنهم فميمون بن خفالة وكنيته أبو ربحان الأسدي الانصاري ومنهم مكحول مولى سعيد بن العاص ومنهم الشيخ حماد من العلماء العاملين دفن في مقبرة الباب الصغير . ومنهم ثلاثة من أزواج الرسول (ص) ، وقبر جارية فاطمة الزهراء (ض) ومنهم منصور بن عمار السلمي الخراساني العالم الزاهد ، ومنهم عمر بن حسن الخرقى من تابعي أصحاب الإمام أحمد ، ومنهم الشيخ نصر بن ابراهيم بن نصر أبو الفتح المقدسي النابلسي شيخ الشافعية بالشام . انظر : زيارات الشام المسمى (الإشارات إلى أماكن الزيارات) ص ١٧ .

قال النووي : يستجاب الدعاء عند قبره يوم السبت ويتجمع عند قبره كل سبت خلق كثير عند طلوع الشمس للترك والدعاء . ومنهم الشيخ أبو البيان محمد بن محفوظ القرشي الدمشقي شيخ الطائفة البائية ، ويعرف بابن الحوزاني مات عام ٥٥١ للهجرة ، ودفن في الباب الصغير قبره معروف بزار وعليه وقف لإسراج قنديل كل ليلة . ومنهم الفخر بن عساكر علي بن حسن بن هبة الله بن عبد الملك بن الحسين المحافظ الكبير أبو القاسم فخر الشافعية وإمامها . ومنهم عبد الرحمن بن ابراهيم بن سباع بن الفركاح ، وغيرهم كثيرون . ومنهم قبر الحسن بن حمزة بن جعفر الصادق . وقبر علي بن عبد الله بن العباس ، وقبر سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس ، وقبر زوجته أم الحسن بنت جعفر بن الحسن بن الحسين بن فاطمة الزهراء . وقبر خديجة بنت زين العابدين ، قبر سكينه بنت الحسين ، وقبر محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وغيرهم كثيرون . ومنهم رابعة الشامية .

ومن المزارات الجليلة في دمشق مزار موسى بن عمران كليم الله عليه السلام . ثم قبر الشيخ رسلان في مقبرة باب توما والتي تسمى باسمه وهو ابن يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد الله الجعبري . كان زاهداً وقبر إلى جانبه أكابر مشايخ الشام وأعيانها العارفون . انظر : ابن الحوزاني الإشارات . ولقد اكتسب هذا المكان قدسية خاصة لدى المسلمين لأن خالد بن الوليد نصب نحيته فيه ابان فتح مدينة دمشق وأقيم مكانها مسجده . انظر : عزت حصريه — الشيخ رسلان الدمشقي . ص ٧ وص ٨ . ولقد ضمت مقبرة الدحداح وفاة العديد من الصحابة والصالحين كقبر عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق (ض) وهذا خلاف فيه في مقبرة باب الفراديس يوجد مشهد الحضر وعند هذا المشهد قبر محمد بن عبد الله ابن الحسين بن أحمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان المقدسي الدمشقي الفقيه الشافعي المصري النحوي المعروف بأبي شامة . انظر : ابن الحوزاني المصدر السابق . ص ١٩ .

أما مقابر غربي دمشق فأشهرها مقابر الصوفية ومقبرة التكية السليمانية ولقد دفن في مقابر الصوفية العديد من الأولياء والصالحين من الصوفية ، وأوقفها مسعود قطب الدين أبو المعالي النيسابوري الإمام البار والمدرس الواعظ . وبها عبد الرحمن بن نوح من أشياخ الإمام النووي . ومنهم شيخ الإسلام تقي الدين بن الصلاح مفتي الإسلام الشافعي . ومنهم الشيخ عماد الدين بن الكثير البصري القرشي . ومنهم ابراهيم بن سليمان الحموي من علماء الحنفية . ومنهم ابراهيم عبد الرزاق الحنفي المحدث شارح القدور من الأئمة الكبار العاملين . ومنهم أحمد بن بدر الدين الحنفي الصوفي والزاهد الورع . انظر : ابن الحوزاني ، المصدر السابق ، ص ٨ . وقبر في هذه المقبرة ابن تيمية شيخ الاسلام الحنبلي .

(الياهو) عند هروبه من اضطهاد إيزابيل قد لجأ إلى ذلك المكان في عام ٤٣ . للخلقة كما
بشر الإشاع بن سافاط نبياً على يد الياهو النبي — ولهذا أقام اليهود كنيسة في ذلك المكان
وكانوا يحتفظون فيه بثلاثة قناديل مضاءة . أما المسيحيين فكانت لهم كنيسة مريم العذراء
وكان يعمل على سدائها السريان وبها مذبح به صورة العذراء . تفرز زيتاً يستخدم للعلاج^(١)
ناهيك عن كنائس القديس بولس وحنانيا وغيرهم من القديسين . فلا عجب بعد كل ما
تقدم إذا ما أولاهما أتباع الديانات السماوية الثلاث أهمية دينية خاصة .

(١) انظر : دارنيو ، الفارس ، وصف دمشق ، ص ٥٧ وص ٥٩ وص ٦٥ .

المنظر العام لمدينة دمشق في أواخر القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر^(١)

كانت دمشق آنذا بنائها على شكل طائرة الأطفال الورقية حيث الكتلة الأساسية منها تقع في الشمال وبشكل أساسي داخل الأسوار ويخترقها فرعاً بردي ، القنوات وبانياس ، ويساير سورها الشمالي بردي الأصل ويمتد بناؤها كذيل طائرة الورق باتجاه الجنوب وعلى امتداد ميلين تقريباً ويعرض ميل أو يزيد قليلاً ويخترق هذا الذيل طريق الحجاز ، بدءاً من حي القنوات فالسنانية فباب الجابية فقصر الحجاج فمصلب العيدين فميدان الحصى (الميدان التحتاني) فالميدان فوقاني فبوابة الله . وهذا الامتداد لم يكن ينطلق من منتصف السرة الرئيسية للمدينة بل كان يبدأ من حوافي أسوارها الغربية وإلى الجنوب . وكنت ترى بعض الأرباض الملاصقة للأسوار والمحيطة بالمدينة هنا وهناك إلا أن الكتلة الرئيسية من الأماكن المسكونة كانت تفتح في الجهة الشمالية من أسوارها ، وتتكون من الأحياء التالية بدءاً من الشرق إلى الغرب : مز القصب — العقية — العذارة البرانية — سوق ساروجة — حي البحصية — ثم من الناحية الجنوبية حي الشاغور البراني الذي يفصله عن السنانية مقبرة باب

(١) انظر : الرمحاني ، عهد القادر . مخطوط مدينة دمشق في العهد المملوكي . نقلاً عن أكرم حسن الطهي رسالته لنيل درجة الماجستير تحت عنوان : «نبذة عن دمشق في نهاية عهد المماليك» جامعة عين شمس سنة ١٣٩٨ هـ/سنة ١٩٧٨ م .

الصغير . وإلى الجنوب الغربي من قصر الحجاج يقع حي السوقة والشويكة وفي سفح قاسيون تقع الصالحية وإلى الشمال منها يقع حي ركن الدين الذي يستقر فيه الأكراد . وكانت تبدو للناظر إليها من سفح قاسيون كتلة بناء مغيرة ضاربة ألوانها نحو الحمرة الباهتة بفعل التربة المستخدمة في أسطحها أبنيتها وبفعل ما علق بها من غبار البادية الذي حملته إليها الرياح . وتبرز من داخلها الأبنية الأساسية المميزة ، كالجوامع الكبيرة بماآذنها الباسقة المختلفة الأشكال وأسطحة الجملون في بعض أبنيتها ، والقباب الضخمة المتسمة بالأبهة والجلال بألوان مختلفة كالأخضر والأحمر الباهت تتسمنها أهلة مذهبة ، وقباب الخانات والحمامات والمدارس والتكايا والزوايا والربط وغيرها من المنشآت العامة والخاصة . وتبدو في الزاوية الشمالية الغربية من سرتها كتلة ضخمة من البناء الحجري المتمثل في قلعتها^(١) .

ورغم أن العديد من محلات دمشق التي وجدت خارج الأسوار من عهود سابقة للإحتلال العثماني إلا أن هذه المحلات اتسعت بفعل ما بني إلى جانبها من مساكن جديدة وربما بفعل الهجرة إليها وكانت أهم تلك المحلات والحارات الجديدة بدءاً من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الجنوب هي : زقاق الوراق — في المحلة الجديدة خارج باب السلام — ثم المحلة الجديدة المسماة بزقاق بين القبرين وكانت تروى من نهر تورا شمال السور^(٢) ثم المحلة الجديدة التي بها زقاق السودان تابع محلة العقبية الكبرى^(٣) ثم محلة المزابل ظاهر دمشق تابع محلة العمارة^(٤) ثم محلة المعمشة بالقرب من جبانة مرج الدحداح ومحلة البحصنة المعروفة بالهنسية والطاوسية ثم محلة التركان شرقها^(٥) ثم زقاق البحصنة تابع محلة الأحمدية^(٦) ثم محلة

(١) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص ٢٤٣ . تحقيق أحمد عزت عبد الكريم — حيث ترى في ملحقات الكتاب مخططاً لمدينة دمشق في القرن التاسع عشر نقله المحقق عن جان سوفاجة من كتاب دمشق لمحة تاريخية كما ذكرت إيزابيل بورزن ذلك في كتابها :

The inner life of Syria Palestine and the holyland. P. 33.

and see. B.R. IV. JI., porter «Five Years in Damascus» VOL. I. P. 29.

- (٢) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/سنة ١٢١٦ هـ — ١٢١٧ هـ . ص ٧٥ ، ثم السجل رقم ٢٢١/لنفس المحكمة لعام ١٢٠١ — ١٢٠٢ هـ . ص ٣٥٤ .
- (٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠/لعام ١٢٢٢ — ١٢٢٣ هـ . ص ٢٢٩ .
- (٤) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/لعام ١٢١٦ — ١٢١٧ هـ . ص ٢٦٩ .
- (٥) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠/لعام ١٢٠١ هـ . ص ٤٦٩ و ص ٢٥٨ .
- (٦) نفس المصدر السابق رقم ٢٢٦ .

المنلا بالقرب من جامع يلينا ثم محلة الحورة غرب دار السعادة^(١) ثم محلة ساحة القلعة^(٢) ثم زقاق الحماصنة والمشاركة تابع القبيات ثم محلة الزفتية تابع محلة الميدان^(٣) وكذلك محلة حقله عيسى بالقرب من الزفتية^(٤) وورد ذكر لعديد من المحلات الجديدة ظاهر دمشق في سجلات محاكم دمشق الشرعية التي تعالج تلك الفترة إلا أن هذه السجلات لم تحدد أماكنها بدقة وقد استطعنا رصد بعضها وغاب عنا بعضها الآخر وأهم هذه المحلات والأزقة الجديدة هي : المحلة الجديدة بها زقاق الأعجام ثم محلة النوفرة ظاهر دمشق تابع المحلة الجديدة^(٥) ثم محلة القاعة^(٦) ثم حارة الديمجية^(٧) .

والملاحظ بشكل عام ، أن توسع المدينة بشكل أساسي ، قد حصل على أطراف الأرياض والمحلات التي تقع في الجهة الشمالية الغربية والجنوبية أكثر من الجهات الأخرى . ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة بطبيعة تزايد سكانها الأصليين فحسب بل وبهجرة أبناء الريف والغرباء من المسلمين خاصة .

فجاءها أبناء الأقاليم الشامية والعربية والعثمانية وغيرها بحثاً عن الرزق والأمن والاستقرار في رحابها . وإذا ما علمنا أن معظم المراكز الاقتصادية والإدارية والدينية والثقافية والعسكرية تقع في وسط المدينة وإلى الجنوب والغرب منها ، لادررنا سبب استيطان هذه العناصر المهاجرة وبالتالي سبب التوسع السكاني على هذا الشكل ، وهكذا امتدت الأرياض والمحلات طولاً وعرضاً باتجاه بعضها البعض ملتزمة معظم البساتين الفاصلة بينها فأخذت المدينة شكلها الآنف الذكر .

-
- (١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/سنة ١٢٠١ - ١٢٠٢ هـ . ص ٣٥٠ وص ٤٦١ .
- (٢) انظر : السجل رقم ٣٢٦/محاكم دمشق/لعام ١٢٤٨ هـ . ص ٥٥ .
- (٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩/سنة ١٢١٠ هـ - ١٢١١ هـ ص ٥٢٧ . ثم سجل رقم ٢٦٠/محاكم دمشق/لعام ١٢٢٢ - ١٢٢٣ هـ . ص ١٧ .
- (٤) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠/سنة ١٢٠١ - ١٢٠٢ هـ . ص ٤٦١ .
- (٥) سجل رقم ٣٢٦/محاكم دمشق/لعام ١٢٤٨ هـ . ص ٥٥ وص ١٥٤ .
- (٦) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/١٢١٦ - ١٢١٧ هـ . ص ٥٧ .
- (٧) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩/لعام ١٢١٠ - ١٢١١ هـ . ص ٣١٤ .

✽ سور دمشق

بقيت دمشق مطوقة بسورها حتى دخول ابراهيم باشا المصري . حيث قام السكان بتسليمه مفاتيحها^(١) مما يدل على أن السور لم يفقد أهميته العسكرية في توفير الحماية لها . وهناك إشارات عديدة وردت في سجلات محاكم دمشق إلى هذا السور مع الخندق الذي كان يطوقه ، وأنهما قد صمدا في وجه المهاجمين . وكان الخندق يفصل دار السعادة عن المدينة ومحلة الحدره والدرويشية المسماة الاخصاصية من الغرب^(٢) وكان السور مع الخندق يتجهان من الغرب إلى الشرق بمحاذاة جنوب القلعة ليطوقا سوق الأروام . وفي هذا الجزء يساير خندق القلعة الجنوبي إلى رأس السوق الجديد وبه الدرج^(٣) . ثم يواصل امتداده فيطوق القلعة من غربها ويمتد إلى أن يتصل بيسار مجرى النهر من ناحية الشمال ، إلى باب السلام حيث يقع داخله سوق النحاسين وزقاق بني حمزة والبارزي^(٤) ويسير الخندق إلى الشرق من المدينة وهو

(١) انظر : الحصني ، محمد أدهب . منتخبات التواريخ لدمشق . ج ٣ . ص ١٠٧٥ .

(٢) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/ص ١٤٦ .

(٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٦٦/٢٣٩ . ثم السجل رقم ٣٣٦/محاكم

دمشق/١٢٥٠ - ١٢٥١ هـ . ص ٨٣ . ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٤/ص ١٢١

ص ١٦٦ . ويذكر الفارس دارلغو أن القلعة كانت خارج نطاق السور . انظر : كتابه «وصف دمشق»

ص ٧٣ . ترجمة أحمد ايش . دمشق ١٩٨٢ .

(٤) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩/ص ٧٦ و ٢٦٤ .

عبارة عن مجرى النهر نفسه فيطوقها من ناحية الشمال فيحضر حارة الجورة ومحلة النصارى والمسبك الجواني^(١) ويتابع سيره شمالاً فجنوباً فيطوق حارة باب توما ثم ينعطف بعد ذلك بانحناء نحو الجنوب ثم يسير شرقاً بغرب فيطوق معه حارة اليهود فالشاغور الجواني . ويلتف من الجنوب إلى الغرب ليلتقي بما ذكرناه في البداية فيطوق دمشق من ناحية الغرب .

ولقد استخدم الخندق مصرفاً للماء المالح^(٢) في دمشق حيث يفضي إلى نهر بردى . ولقد أقفلت أبواب السور في الملمات . ففي سنة ١١٦٠ هـ/١٧٤٧ م لاذ أبناء حي باب مصلى والسويقة بالمدينة بعد أن قام أسعد باشا العظم بضرب قوات اليلية في حي الميدان^(٣) . وعندما هدد عبد الله باشا العظم الوالي المعزول بمهاجمة المدينة في سنة ١٢١٨ هـ/١٨٠٣ م قامت قوات الينكجارية بالتحصن داخلها وحرسوا أبوابها بوضعهم [قلق] مفرزة حراسة على كل باب . وقام سكان الحارات الخارجية بالانتقال إلى داخلها خوفاً على أرواحهم وممتلكاتهم^(٤) . وعندما عزل السوالى الكنج يوسف باشا في سنة ١٢٢٥ هـ/١٨١٠ - ١٩١١ م «انتقل أهل القرى والميدان وغالب البلد إلى داخل السور خوفاً من النهب»^(٥) .

وفي عهد ابراهيم باشا المصري لم يبق السور على حاله بل زالت بعض أجزائه الجنوبية والغربية وبدأت تقتحمه بيوت السكن مما أدى إلى ضياع معالمه واستخدمت حجارتها في بناء ثكنات الجيش المصري الكائنة غرب دار السعادة . مما يدل على أن السور قد فقد أهميته العسكرية . أما ما بقي من أبواب مدينة دمشق حتى القرن التاسع عشر فهي : الباب الشرقي وإلى جنوبه باب كيسان الذي كان مسدوداً حتى سنة ١١٧١ هـ^(٦)

(١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/ص ١٤٦ .

(٢) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٤٠/ص ١٤٧ . ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ . ص ٥٠٨ . ويدر أيضاً الفارس دارفيو أنه كانت توجد بعض الأبراج المنفصلة عن الخندق مرعبة وضخمة . ويدر بورير من بعده أن حجارتها قد استخدمت في بناء ثكنات الجيش المصري . انظر : وصف دمشق . ص ٤٢ ، ص ٧٣ .

(٣) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص ١٢٠ .

(٤) انظر : العبد ، حسن آغا . قطعة من تاريخ حسن آغا العبد . ص ٩٠ و ص ٩١ .

(٥) انظر : العبد . المصدر السابق . ص ١٥٢ .

(٦) انظر : البديري ، أبو البقاء . نزهة الأنام في محاسن الشام . ص ٢٥ .

١٧٥٧/ — ١٧٥٨م ثم يليه إلى الغرب الباب الصغير أو باب الشاغور فباب الجابية فباب الجديد «صحفته العامة بباب الحديد»^(١). ثم باب السر وبلي باب الحديد من جهة الغرب والذي كان يفضي بدوره إلى القلعة . وكان الاتراك ينزلون منه سرّاً ويطلعون منه ويجوز الخارج منه على جسر من خشب ومن تحته الخندق الدائر بالقلعة ، وينيف عمقه على مائة ذراع مليء بالماء وينبت فيه البوص . . ثم باب الفرع وبلي باب جنين أو الفراديس (باب الجنة) ويسمى أحياناً بباب العمارة نسبة إلى المحلة الخارجية التي تقابله من الشمال ، ولقد بنيت فوقه دور للسكن^(٢) .

وكانت الأبواب ما بين باب الجابية والفراديس تفتح وتغلق عند الحاجة^(٣) . وكان كل باب من أبوابها مجهزاً بمصراعين (درفتين) من الخشب المتين مصفحتين بدورهما بصفائح من الحديد^(٤) . وتغلق عند غروب الشمس في الحالات العادية . وبقيت معظم هذه الدرفات إلى وقتنا الحاضر : مثل باب الصغير — باب الجابية — باب السلام — باب المناخلية ولقد استخدمت درفات الأبواب متاريس للمقاتلين كما حصل في سنة ١٢٢١ هـ/١٨٠٧ — ١٨٠٨ م عندما نشب الصراع بين القايي قول واليرلية^(٥) .

وكانت لحارات دمشق الداخلية والخارجية أبوابها الخاصة التي تغلق عند الحاجة ويقوم بحراسة هذه الأبواب أبناء الحارات ويتم التعرف على أبناء الحارة من خلال فتحات صغيرة ضمن الأبواب الكبيرة تسمى (الخوحدات)^(٦) .

(١) انظر : دائرة المعارف الإسلامية . المجلد التاسع ، ص ٢٨٣ . الترجمة . ثم : المنجد ، صلاح الدين . دمشق القديمة . ص ٥ .

(٢) انظر : المنجد ، صلاح الدين ، دمشق القديمة . ص ٦٢ . ثم : البدر ، أبو البقاء المصدر السابق . ص ٣٥ . ثم مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد الأول . ج ١ . ص ٩١ ص ٣٤٦ . سنة ١٩٢١ م .

(٣) مجلة المجمع العلمي العربي . المصدر السابق ص ٢٥ .

(٤) يذكر الحصني في كتابه «منتخبات التواريخ لدمشق» ج ٣ . ص ١٠٧٥ ، أن دمشق كانت مسورة بسور عظيم منيع فيه أبواب حديدية ضخمة . وبقيت إلى عهد إبراهيم باشا المصري . في حين يذكر الفارس دارفيو الذي زار دمشق في القرن السابع عشر أن أبواب دمشق كأبواب القاهرة كانت مغطاة بالجلد انظر كتابه . وصف دمشق . ص ٧٤ .

(٥) انظر : مجهول . حسر اللثام عن نكبات الشام . ص ٣٤ . ثم العبد ، حسن آغا . تاريخه . ص ١٢٦ وص ١٢٧ .

(٦) انظر : العبد ، حسن آغا . تاريخه . ص ٩٠ وص ٩١ .

حارات دمشق

قسمت كتلتها السكنية داخل أسوارها (أو في أرباضها المحيطة بها) إلى ثمانية أثمان احتوى كل ثمن على عديد من الحارات واحتوت كل حارة عدة أزقة ودخلات . وكان من هذه الأثمان خمسة خارج السور وثلاثة داخله . أما الأثمان الخارجية فهي : ثمن القنوات وتقع أجمل بناياته على جانبي نهر القنوات وطول هذا الثمن قبله بشمال من ملاصقة باب المدينة الغربي والمعروف بباب الجابية وباب النصر إلى مقبرة الباب الصغير وعرضه شرقاً بغرب من أسوار المدينة إلى الشيخ ذي الخمار إلى قبر الصحابي الجليل زيد بن ثابت . وفي هذا الثمن محلة الشويكة وقبر عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوجة عبد الملك بن مروان وكان يطلق عليه اسم القصرية أو القبرية ثم عرف بقبر عاتكة . ثم ثمن سوق ساروجة من مقبرة الدحداح إلى قبر الشيخ مسمار الواقع بأول الطريق الموصل إلى محلة الصالحية . وعرضه قبله بشمال من ملاصقة ثمن القنوات إلى محلة الكركة . وهو بستان أول الصالحية ثم الثمن الثالث ثمن الميدان التحتاني الذي عرضه شرقاً بغرب من مقبرة الباب الصغير إلى ملاصقة محلة قبر عاتكة وطوله قبله بشمال من ثمن الميدان الفوقاني إلى ملاصقة ثمن القنوات . ثم الثمن الرابع وهو ثمن الميدان الفوقاني الذي عرضه شمالاً بغرب من ساحة الزفتية والمحلة المعروفة بالقاعة إلى طريق صف الحور الموصل إلى قرية القدم الشريف وطوله قبله بشمال من باب مصر المعروف ببوابة

الله الكائنة في آخر ميدان الحصى الملاصق للمقبرة المدفون بها سيدي الشيخ تقي الدين الحسيني كما ذكر محمد عز الدين الصيادي^(١) .

ثم ثمن الشاغور عرضه قبلة بشمال من باب الفراديس إلى مقبرة الدحداح وشرقاً بغرب من برج الروس وعين ماء الزينية ملاصقة ثمن ساروجة ويتصل العمار إلى حارج باب توما قبلة وإلى جسر نهر تورا قبلة وإلى جسر نهر تورا شمالاً وقد ضم إلى قسم من داخل المدينة ويسمى ثمن العمارة .

والخامس ثمن إلصاحية الذي يبعد عن ملاصقة المدينة بمسافة ساعة ولجهة الشمال مرتفعة بسفح جبل قاسيون . وطوله شرقاً بغرب من قرية برزة إلى الربوة ويشق هذا الثمن نهر يزهد على طوله .

أما المدينة داخل السور فتتكون من ثلاثة الأتمان الباقية وهي بدورها تتكون من الحارات التالية : داخل باب الجابية (حارة الفسقار) حارة البزورية وتعرف قديماً بسوق القمح . ثم حارة مأذنة الشحم وتعرف قديماً بعقبة العيوف وقبلها . ثم حارة الحاطب وشرقها . ثم حارة درب البقل ورائع منه ثم حارة مسجد البيع ولم يكن في النصف الشمالي مسجد غيره . ومن باب الجابية إلى باب شرقي وإلى جهة القبلة ، قبل أن الصحابة مايعوا فيه وهي مدرسة بناها الخوارج محي الدين بن يوسف القاري سنة ٨٨٧ هـ / ٤٨٢ ط م وقبلها قاطع الطريق العظمي الآخذة إلى باب شرقي قيسارية وداراً أخرى عظيمة . ثم حارة تعرف بدرب الریحان وفي شرقي ما ذكر حارة الكشك ثم شرقي ما ذكر إلى جهة القلعة شمالي باب كيسان . ثم حارة القط ثم شمالي عمائر القارين ثم حارة الكنيسة ثم شرقها حارة النبطون^(٢) .

ثم حارات داخل باب توما وهي : حارة المنجيق (الجنيق) ثم قبلها بغرب حارة القيمرية ثم غربها بشمال ثم حارة السلاحة ثم قبلها بغرب . ثم حارة البدرائية ثم قبلها . ثم حارة الخضرا بها القليجية لم يبق منها إلا الواجهة . ثم حارة المنود الشبلية ثم حارة الاندر (داخل باب السعادة) ثم حارة الظاهرية (داخل باب الفرج) ثم حارة مسحد الرأس

(١) انظر : الروضة البهية في فضائل دمشق الحمية . ص ٢٢ ، ص ٢٥ .

(٢) انظر : ابن طولون ، محمد . نقلاً عن مجلة المشرق . ص ٣٣ ، العدد ٣٥ ، لسنة ١٩٣٧ م .

(داخل باب الفراديس) ثم حارة البلاطة في مسجد بدر الدين ثم حارة درب الدعوة (داخل باب الصغير) ثم حارة أخرى في درب العجم وحارة سوق الخشابين^(١) .

وبالإضافة إلى أرياض كانت بمثابة قرى كبيرة ، كالصالحية التي كانت تبعد عن دمشق بمقدار أربع كيلو مترات . وكان تعدادها في القرن التاسع / ١٥٠٠ / نسمة ، معظم سكانها من الأكراد الأتوية أو من مهجري بيت المقدس في فترة الحروب الصليبية . ثم هناك ميدان الحصى والصفوانية (صحفتها العامة إلى الصفوانية) التي تقع خارج باب توما . ثم الحميريون وهي محلة تقع ظاهر دمشق على نهر قنوات على طريق كفر سوسة . ثم طرمس من قرى دمشق والأوزاع موضع مشهور سكنته في صدر الاسلام قبائل شتى . والعقبة من شمال المدينة وقصر الحجاج والشاغور من جنوبها كانت جميعها مسكونة من عهد السلاجقة وشارك أهلها في دفع الصليبيين عن مدينة دمشق^(٢) .

ونلاحظ أن توضع السكان في دمشق كان على أساس طائفي أو قبلي أو قومي وحتى حرطي ، كما رأينا في تقسيمات حاراتها في السابق . أما فيما يتعلق بالتوضع الطائفي فكان الجزء الشرقي والجنوبي الشرقي خاصاً بالنصارى واليهود ، والشيعية من المسلمين ، كحي الأمين وحي الجورة ، ولقد وزعت أحياء أهل الدمة غالباً بحسب مذاهبهم وطوائفهم . فهناك أزقة وحارات كانت خاصة بالربانيين والقرائين والسامرة من اليهود ووجد نفس الشيء بالنسبة للنصارى

(١) انظر : ابن طولون محمد : نقلاً عن مجلة المشرق ص ٣٣ ، العدد ٣٥ ، سنة ١٩٣٧ م .
وبذكر محمد فمس الدين بن طولون الصالحى الدمشقي ، الذي أרך لدمشق في القرن السادس عشر ، اثنتين وخمسين حارة خارج أسوار دمشق وهي : حارة الغراوية خارج باب كيسان وشرقها — حارة الحماليين قرب ترعة أبي (ض) وحارة الخاضة وشرقها — ثم حارة القيشاني ، ثم حارة الملاح وجمالها ، وحارة الشيخ رسلان وحارة الزنجاري ، ثم حارة عين الحمة وقرها ، وحارة السبعة وشرقها ، ثم حارة الفرايين وشرقها وحارة الشوش ثم حارة العناية ببيت الالهة ، ثم حارة حكر الاسية ، ثم حارة شطرا أو بر الأكراد ، ثم حارة السليماني ثم حارة مرج الدحداح ثم حارة الجرن الأسود ثم حارة الجاموسة ثم حارة المسموية ثم حارة خنصرية شتمر ، ثم حارة سوق ساروجة ، ثم حارة حمام العداد ، ثم حارة الديلم ، ثم حارة السودان ، ثم حارة خان الكججانية ، ثم حارة ملكاس ثم حارة البهيل ، ثم حارة زقاق القصاصين ، ثم حارة خان الظاهر ، ثم حارة عين البطيخ ثم حارة زقاق الشعبية ثم حارة الشرق القبلة وحارة حمام الناصري وحارة المنيع وحارة القصر وحارة السلانية غربى جامع تنكز وحارة جامع العداس وحارة المنكر وحارة جلنك الجفون وحارة البهيكامة والبنكامة وحارة القنوات وحارة الخملخال وحارة للزار وحارة الشويكة
انظر : المشرق العدد ٣٥ ، ص ١٩٢٧/٣٤ م .

(٢) انظر : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق — المجلد ١٦ . ص ١٦٠ ص ١٦١ ثم المجلد ٢٤ ، ص ٥٥٤ .

الموارنة والكاثوليك والأرثوذكس وغيرهم . وأما بقية أحياء دمشق فكانت سكناً للمسلمين السنة . ويلاحظ سكن العناصر غير العربية في حي سوق ساروجا والبصرة والقنوات والعقبة والعمارة والميدان وغيرها . واستطاعت دمشق مع الزمن أن تهضم هذه العناصر وتذيبها في بوتقتها العربية وشذ عن هذه القاعدة بعض الأقليات الكبيرة التي سكنت معزولة في أحياء خاصة بها ، كالأكرداء وإلى أوائل القرن العشرين . ونتيجة للظروف التاريخية التي أحاطت بها بقيت تتميز بخاراتها المنفصلة عن بعضها بأبوابها . لهذا كانت الحارة عبارة عن مدينة مصغرة لها مسجدها أو كنيسها وطريقها لتوزيع الماء فيها . فلكل واحدة منها طالع ماء خاص بها ومنه تتوزع بأنابيب (قساطل) المياه إلى أماكن الاستهلاك المختلفة ، في الدور والبيوت والمنشآت العامة كما كان في الحارة حماماتها وسوقها المحتوية على الحبوب وسائر الحاجيات ولها شيخها والمسؤول عنها وشرطتها المؤلفة من العسس الذين يسهرون في الليل فيتعرفون على المارة بها . وفي كل حارة شارع رئيس أو أكثر تتفرع منه دروب وأزقة ودخلات مسدودة بإحدى المباني في نهايتها ، وتقضي هذه المداخل إلى أبواب المنازل والدور وعلى كل باب قفل . ولا يظهر من المنزل إلى جهة الشارع سوى مؤخرته الخالية من النوافذ ، وإذا ما وجدت هذه النوافذ فهي عالية عن الطريق العام ومحمية بشباك من قضبان حديدية متينة وعليه المصعبات الخشبية بحيث لا تسمح بالولوج إلى داخلها إلا عن طريق أبوابها ، وحتى الأبواب كانت صغيرة ومصفحة بالمعدن الذي يوفر لها القوة والمنعة فيشعر الساكن في داخل هذه البيوت بالأطمئنان والأمان بفضل هذه العقبات المتتابعة^(١) .

وحسبنا هنا أن نورد مثالا على ذلك دخلة الناصري التي تقع في حي الشاغور الجواني ثم زقاق الست نفيسة الذي يقع في الشاغور البراني بمواجهة أسوار دمشق من ناحية الجنوب مباشرة ويفضي إليه مدخل خاص يقع غرب باب جامع باشوره الباب الصغير ، ويفصل بينهما الطريق العام ، وهذا الزقاق لا يتجاوز عرضه ٧٠ سم وهو متكسر لا يسمح لشخصين في وقت واحد بالمرور منه . فلا بد لأحدهما أن يقف عرضانياً ليسمح للآخر بالمرور . وتكسرات أضلاع الزقاق تتراوح ما بين ٢ إلى ٤ أمتار ، وأبواب منازل ضيقة ومنخفضة بحيث لا يستطيع أحد الدخول إليها إلا بعد الانحناء ، وهذه المنازل مسكونة حتى

(١) سوفاجة ، جان ، دمشق الشام لحة تاريخية منذ العصور القديمة وحتى العصر الأخير . ص ٢٨ و ٢٩ .
ثم السجل رقم ٣٢٣/محكمة الميدان سنة ١٢٤٧ هـ ، ص ١٩٧ .

وقتنا الحاضر^(١) . أما الأرزقة بشكل عام، فيلاحظ فيها الأقواس الحجرية أو القناطر من حجارة البازلت وأحياناً مقبية من الخشب وترى فوق هذه القناطر أبنية مكونة من غرفة أو أكثر يطلق عليها اسم «القصر» وعلى شبابيكها الخارجية قضبان حديدية ومصبغات خشبية . أما الباب الرئيسي للحارة فمن الخشب المصفح بالحديد ويقفل عند الضرورة . لحمايتها وبه باب صغير «الخوخة» يسمح بدخول فرد واحد عند الحاجة .

ونتيجة للاستقلالية التي تمتعت بها كل حارة كان لا بد لها من صلة وصل ما بينها وبين السلطة الحاكمة في المدينة ، وبرز ذلك في شيخ الحارة وإمامها^(٢) وأعيانها ورجال الدين فيها . وغالباً ما كان هؤلاء من السباهية الاقطاعيين أو الأثرياء أو رؤساء الأسر القوية ، أو بعض أغوات أوجاق الانكشارية أو اليرلية . فمثلاً وجد في عهد والي دمشق أسعد باشا العظم شيخان لحارة سوق ساروجة هما مرادي أحمد بن القلطقجي وعبد الله بن حمزة ، وفي حي الميدان كان مصطفى آغا بن خضري الذي سَمَّى نفسه بسلطان الشام ثم أحمد آغا وخليل آغا أولاد الدرزي ، وفي سنة ١٢١٧ هـ / ١٨٠٢ — ١٨٠٣ م كان فرج ولد موسى شيخاً لحارة اليهود^(٣) .

ولقد أسهمت الفوضى وفقدان الأمن في مدينة دمشق في انتقال السلطات الاجرائية الحكومية إلى شيوخ الحارات فكان كل واحد منهم يسهر على راحة أبناء حارته ، وشكل هؤلاء الشيوخ والأغوات والأعيان ورجال الدين هيئة إدارية وأحياناً قضائية لحل العديد من مشاكل أحيائهم وساعدوا السلطة في تحصيل حقوقها من أفراد أحيائهم ، وفي القاء القبض على بعض الأشقياء ، وتحملوا في بعض الأحيان تبعات أخطائهم ، فانصب جام غضب الولاة على هؤلاء الشيوخ ، كما حصل في سنة ١١٥٩ هـ / ١٧٤٧ م . لآل التركان أو

(١) شاهدته اثر زيارتي له بتاريخ ١٧/١/١٩٨١ كجزء من الدراسة الميدانية لهذه الدخلة .

(٢) فمثلاً في سنة ١٢٥٥ هـ كان الشيخ أحمد أفندي عجلوني زادة إماماً لمحلة الميدان . انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٥٧/سنة ١٢٥٥ — ١٢٥٦ هـ ، ص ٦ . وفي سنة ١٢٢٢ هـ كان شيخاً لحارة الخراب حسن عطايا وشيخاً لحارة اليهود خضر شمبول . انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠/سنة ١٢٢٢ — ١٢٢٣ هـ ، ص ٣١٤ .

(٣) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص ٦٧ ص ٦٨ . ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/ص ٢١٦ .

التركمان ، شيوخ حارات الميدان وأغوات أوجاق الزلية فيها ، حيث قام والي دمشق أسعد باشا العظم بقتل بعضهم وهم : حمزة بيك محمد آغا وحسن آغا وخليل آغا^(١) .

وبرز أيضاً في سنة ١٢١٣ هـ من شيوخ الميدان اسماعيل شرنجي بن المهاني آغا الزلية^(٢) .

ومن جهة أخرى كان يعاضد شيوخ الحارات أصحاب البأس من الرجال الأقوياء ، وكان مجلس الحارة يمثل حكومة محلية في الحي ، وتستعين به الدولة على جلب أحد المظلومين أو على تحصيل حقوقها . كما يقوم هذا المجلس باستقبال وجهاء الأحياء الأخرى^(٣) . ولقد أدرك ابراهيم باشا مدى نفوذ هؤلاء المشايخ في حاراتهم . فعندما دخلها فاتحاً وقبل أن يتجه إلى حمص أخذهم كرهائن ليضمن استقرار هذه الحارات وعدم ثورتها ضد الحكم المصري^(٤) في غيابها .

ولقد شاهدت بعض حارات دمشق صراعات دموية فيما بينها، ففي سنة ١٢٢٠ هـ/ ١٨٠٥ - ١٨٠٦ م وقع صدام بين أهل الميدان وأهل الشاغور حيث قامت طائفة من أهل الميدان بالهجوم على أهل الشاغور وصار بينهم جنق إلى أن أصبح الصباح^(٥) .

ولم يكن الصدام ليقع بين أبناء حارات دمشق وبعضها البعض فحسب ، بل في كثير من الأحيان كان يقع بين أبناء هذه الحارات ، التي تمثل قوى الزلية وبين قوات القباي قول والمرزقة الغرباء عنها ، كما حصل في سنة ١٢١٣ هـ/ ١٧٩٨ - ١٧٩٩ م حيث استمر الصدام بين أبناء حارات دمشق وقوات قلعة دمشق من القباي قول لمدة سبعة أيام ويصف حسن آغا العبد الذي شاهد هذا الصدام بقوله : البلد داشرة لا حاكم ولا متسلم^(٦) .

(١) انظر : البديري المصدر السابق . ص ٧٠ .

(٢) انظر العبد ، حسن آغا ، تاريخ حسن آغا العبد ، ص ٤٦ .

(٣) انظر : العلاف ، أحمد حلمي . دمشق في مطلع القرن العشرين ، تحقيق علي جميل نمسة . ص ٤١ و ص ٤٢ و ص ٤٣ .

(٤) انظر : الشطبي ، محمد جميل . «أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ومنتصف القرن الرابع عشر» ص ١٧ .

(٥) انظر : العبد حسن آغا . تاريخ حسن آغا العبد ، ص ١٢٥ .

(٦) انظر : المصدر السابق ، ص ٤٤ .

كما يذكر في موضع آخر من تاريخه أنه في سنة ١٢١٧ هـ / ١٨٠٢ — ١٨٠٣ م
«اشتغل الشر بين العسكر وبين أبناء العمارة كما هاجم جند الدالاتية حي العقبية»^(١).

وبشكل عام لم تنزع مدينة دمشق نحو تحررها إلا بعد أن دخلتها المؤثرات الغربية على
نطاق واسع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر^(٢).

(١) انظر : المصدر السابق ، ص ٧٧ .
(٢) انظر : سوفاجة ، جان . المصدر السابق ، ص ٣٠ . ثم الحصني ، محمد أديب ، منتخبات التواريخ
لدمشق ج ٢ ، ص ٦٩١ .

سكان دمشق

كان حجم مدينة دمشق وتعداد سكانها في نهاية القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر دون عدد سكان مدينة حلب المدينة الداخلية الكبرى الأخرى في بلاد الشام . وربما يعود ذلك لكون مدينة حلب مفتوحة في وجه الأجانب وخاصة الأوربيين منهم من جهة ولكثرة هجرة أبناء الريف إليها من جهة أخرى ، نتيجة لفقدان الأمن في ريفها آنفئذ . ولقد جاء في كتاب المجتمع الاسلامي والغرب أنه في سنة ١٧٩٢ م/١٢٠٦ - ١٢٠٧ هـ كانت حلب تزيد دمشق بـ ٥٠ ألف نسمة حيث وصل عدد المدينة الأولى إلى مائة وخمسين ألف نسمة^(١) .

أما الرحالة براون الذي جاء دمشق في أواخر القرن الثامن عشر فيقول : إن تعداد سكان دمشق أقل من مائتي ألف (٢٠٠,٠٠٠)^(٢) . بينما يرى س . بيكنجهام الذي زار مدينة دمشق في سنة ١٨١٦ م/١٢٣١ - ١٢٣٢ هـ أن تعدادها كان ١٠٠,٠٠٠ نسمة ومن بينهم ٢٥ ألف مسيحي و ١٥ ألف يهودي و ٩ آلاف مستوطن تركي من استانبول . وكان هؤلاء يشكلون معظم جهاز السلطة ويقومون ببعض الأعمال وحوالي

(١) انظر : جيب وباون . ج ٢ . ص ١١٩ . ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى .

2 - Browne W.G « Travels in Africa Egypt and Syria From the Year 1792-1798 » . P.398.

« ١٠٠٠ جندي » يتركزون فيها ^(١) : أما بورتر الذي عاش في دمشق لمدة ٥ سنوات في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر فيقول : إن تعداد سكان دمشق يصعب تقديره بدقة . ورغم أن الحكومة هنا قامت بمحاولة لإحصاء السكان بهدف تحديد العناصر التي يتوجب عليها دفع الضريبة لها أو تحديد مقدار ما يترتب عليها ، إلا أن هذا الإحصاء لم يكن دقيقاً ، وذلك لأهمال الضباط والموظفين القائمين عليه من جهة ، ولوقوف عادات وتقاليد الدمشقيين حائلاً دون إحصاء عدد النساء فيها من جهة أخرى ، انسجاماً مع العادات والتقاليد السائدة . ويرى صاحب جسر اللثام عن نكبات الشام الذي أرخ لأحداث ١٨٦٠ م في لبنان ودمشق أن عدد سكان دمشق كان ١٥٠ ألف نسمة تسعة أعشارهم من المسلمين ^(٢) . ولم يكن نمو المدينة السكاني منتظماً وذلك بسبب الهجرة إليها من الريف ومن مناطق أخرى ، كما أزهقت الصدمات الدموية المتكررة بين القوى المتصارعة العديد من أرواح سكانها ، ناهيك عن إجبار المهزومين وأسرههم على الرحيل عنها ، فمثلاً في سنة ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م — ١٨١٣ م أمر والي دمشق بأن « جميع البغادة الذي في البلد من كبير وصغير يرحل ولا يبقى منهم أحد في البلد وأن تم أحد منهم دمه مهدور ويسلب ماله فبعض منهم فروا هارين وبعض منهم اختفوا وبعضهم تشتتوا في القرى ^(٣) » .

وعلى أن لا ننسى أن النكبات والكوارث العامة التي أصابت دمشق أثرت أيما تأثير على تعداد سكانها من جهة ، وعلى بنية السكان الديمغرافية من جهة أخرى . فالزلازل التي أصابت دمشق قد أزهقت العديد من الأرواح تحت ركام المنازل والمباني المنهارة كما حصل في زلزال سنة ١١٧٣ هـ ^(٤) . وكذلك الجائحات الوبائية كالطاعون والكوليرا التي وقعت في سنة ١٨٣١ م و ١٨٤٨ م . ومن قبلهما جائحة عام ١٢٠٧ هـ / ١٧٩٢ — ١٧٩٣ م التي يصفها حسن آغا العبد في تاريخه بقوله : « فنفر الفنا في الخلق واستمر الموت فكانت سنة من الفنا ما سبق مثلها ^(٥) » .

ومن جهة ثانية فإن بنية السكان الديمغرافية كانت تتغير بشكل فجائي نتيجة لتلك الجائحات فتزهق أرواح أناس من أعمار محددة في الغالب كما كانت تفعل جائحات الحصبة

1 - Koury, George. «Province of Damascus». P.158.

(٢) انظر مجهول ص ٢٢٢ .

(٣) انظر : العبد ، حسن آغا ، تاريخ حسن آغا العبد . ص ١٥٥ .

(٤) انظر : الحلاق ، أحمد البديري ، حوادث دمشق اليومية ، ص ٢٢٤ .

(٥) انظر : ص ٣١ من تاريخ حسن آغا العبد .

والجدري ففي عام ١٢١٢ هـ / ١٧٩٧ - ١٧٩٨ م يقول الإخباري حسن آغا العبد :
« سنة تاريخه صار جدري إلى الأولاد بأن يدفن في كل يوم نحواً من مائة ولد في ظرف ثلاثة
أربعة أشهر حتى خفف الأولاد »^(١).

نستنتج من كل ما تقدم بأن الأرقام التي وردت عن تعداد سكان دمشق في تلك
الفترة لم تكن في معظمها دقيقة . ولعل أقرب الاحصاءات إلى الحقيقة والتي يمكن اعتمادها
وبشيء من الحذر هي ما أوردها بورتر مع مراعاة امكانية الزيادة بالنسبة لعدد المسلمين
بخمسة بالمئة ، ونقصان ٢٥٪ من تعداد اليهود . فيرى بورتر أن تعداد المدينة في عهده
« منتصف القرن التاسع عشر » كان (١٥٠) ألف نسمة منهم :

- ١- المسلمون = ٧٤٤٦٤ ألف نسمة
- ٢- الدرور = ٥٠٠ نسمة
- ٣- المسيحيون^(٢) (كنيسة يونانية) = ٥٩٩٥ نسمة
- ٤- المسيحيون (كاثوليك) = ٦١٩٥ نسمة
- ٥- المسيحيون السريان = ٢٦٠ نسمة
- ٦- المسيحيون السريان الكاثوليك = ٣٥٠ نسمة
- ٧- المسيحيون الموارنة = ٤٠٥ نسمة .
- ٨- المسيحيون الأرمن والكلدان = ٤٠٥ نسمة
- ٩- المسيحيون الأرمن الكاثوليك = ٢٣٥ نسمة
- ١٠- المسيحيون اللاتين = ١١٠ نسمة
- ١١- البروتستانت = ٧٠ نسمة
- ١٢- الغرباء والجنود والعبيد وحماية السلطان وتحت الحماية = ١٥٠٠ نسمة

(١) انظر : تاريخ حسن آغا العبد . ص ٣٤ .

(٢) ويذكر الفارس دارفيو الذي زار دمشق في سنة ١٦٦٠ م / ١٠٧٠ هـ أن غالبية النصارى الذين يقيمون في
دمشق هم من الروم اليونان ويوجد القليل من الموارنة بالإضافة إلى بعض النصارى الأفرنج ، لا يسمح
هناك بتواجد هيئات للمبشرين الفرنسيين سكان من فلسطين أو اليسوعيين أو الكيوشيين ، بل لكل منهم
في المدينة بيته الخاص ومصلاه المنزلي ، كما أن الإزعاجات والمخاطر جعلت القنصل الفرنسي والجالية
الفرنسية تغادرها إلى صيدا ، وبقي بعض التجار الفرنسيين فيها وبعض الأطباء وبعض الجراحين الذين
جاءوا لاكتساب الخبرة مردفة بربح المال .

انظر : كتابه « وصف دمشق » . ص ٧٠ ص ٧١ . ترجمة أحمد إيش دمشق ١٩٨٢ م .

١٣ — اليهود^(١) = ٤,٦٣٠ نسمة .

١٤ — المجموع العام = ١٠٨,٥٩٩ نسمة^(٢) بالإضافة إلى عدد آخر أغفل ذكره .

أما التركيبة القومية للسكان فكان معظمهم عرباً سوريين كانوا من سكانها الأصليين أو من مدن شامية أخرى أو من ريفها أو من بدوها أو من أقطار عربية أخرى كالعراق (مواصلة بغداديون تكازة) أو مغاربة (من فاس والجزائر وطرابلس الغرب وتونس ومن منطقة السوس ومراكش ودرارية)^(٣) وغيرها ، أو من الهوارة من جنوب مصر أو من السودان . أو من غير العرب كالأرمن والاكرد والأتراك والداغستانيون والفرس والهنود والأفغان . وتركزت بعض الأقليات القومية في أماكن محددة من حارات دمشق وأرباضها . فهناك حارة الديلم وحارة السودان (العبيد) والأتراك في سوق ساروجة أو بالقرب من ثكنات الجيش العثماني التي كانت تقع في غرب السرايا والقلعة ، والأكراد في الصالحية وحي الميدان . ولما لم يستطع هؤلاء الدخول إلى المدينة ، استقروا في الصالحية بشكل خاص وانتحل زعماءهم لقب آغا وأقاموا لأنفسهم قوات شبه عسكرية مؤلفة من رجال قبائلهم للدفاع عن مصالحهم^(٤) . وسكنت بعض الأوسر الدينية الإسلامية العربية باطن دمشق قريباً من الجامع الأموي والمراكز الدينية الأخرى التي كانت منتشرة فيها كالزوايا والتكايا والمدارس . فبعض آل الكزبري والغزي سكن في حي الشاغور الجواني ، في زقاق الزلاقة ، وآل الصيرفي والحصني والمنير والمحاسني كانوا يسكنون في الشاغور الجواني^(٥) ، وآل بكري في داخل باب الجابية باطن دمشق ، وآل السلطان داخل باب السلام وآل العيطة في حي القيمرية بزقاق الطواشي وبنو العمادي

(١) ويذكر دارفهر أن جوهر كانت مسكناً خاصاً لليهود دون أي اختلاط بقوم آخرين وكان لهم كنيس كبير مقدس خاص بهم . وقام اليهود بإيهاج المسلمين المتطرفين بأنهم سوف يموتون إن هم حاولوا سكنى هذه القرية .. ويعتقد أن أول نزول اليهود في إقليم دمشق كان بأرض جوهر وليس في المدينة ذاتها ، ثم اتخذوا حيزهم المعروف بالقسم الجنوبي الشرقي من مدينة دمشق القديمة وهذا بالذات ما يرويه يهود دمشق المعاصرون انظر : كتابه السابق «وصف دمشق» . ص ٥٦ ص ٥٧ .

2 - Porter. «Five Years in Damascus». VOL.1.PP.138-139.

كما ترى ليندا شليشر أن عدد سكان دمشق آنذاك (١٠٠) ألف نسمة . انظر : المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام . ج ١ . ص ٣٣٧ ، دمشق سنة ١٩٧٨ م .

(٣) انظر : مجلة دراسات تاريخية بدمشق — العدد الأول ص ٧٦ . مقالة للدكتور عبد الكريم رافق في ربيع الأول ١٤٠٠ هـ / مارس — آذار ١٩٨٠ م .

(٤) انظر : امر ، إحسان . تاريخ جبل نابلس والبلقاء . ج ١ . ص ٢٠ .

(٥) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٠٢/سنة ١٩٩٠ هـ / ١١٩١ هـ . ص ٢٨ ، ص ٦٥ .

والصمادي والعش في حي القيمرية أيضاً ، وبنو الأيوبي في محلة النصارى بالقرب من جامع القبة^(١) وآل المرادي بالقرب من مدرسة الكلاسة الكائنة في الجامع الأموي وآل منيني في محلة الملك الظاهر^(٢) وآل السفرجلاني في زقاق القاري^(٣) . في حين سكن البعض الآخر من آل العجلاني في محلة الميدان^(٤) وآل سعد الدين في الشاغور البراني^(٥) .

أما الفلاحون القادمون إلى دمشق فقد سكنوا في حارات الميدان . كما سكنها بعض البدو بالإضافة إلى سكنهم في حارات العتيبة والحقلية والعمارة . ولقد بنى بعض الفلاحين القادمين إلى حي الميدان بيوتاً على شكل قباب صغيرة مقلدين بذلك بيوتهم في الأماكن الأصلية . لهذا أطلق على حيهم اسم « القبيبات » وكان هؤلاء يعودون في أصولهم إلى قرية السخنة^(٦) واستقر إلى جانبهم فلاحون قادمون من قرية النعيرة التي تقع على مشارف حماه حيث أنشأوا زقاقاً لهم في ذلك الحي وسكن إلى جانبهم أيضاً عدد من التيامنة . وكان هؤلاء ررواً قادمين من جبل حوران^(٧) . وجاء إلى دمشق دفعة من الأكراد استقروا في الصالحية وحي الميدان تاركين مواطنهم الأصلية وأتوا إلى دمشق بحكم وظائفهم فيها لدى الدولة العثمانية^(٨) . وفي أوائل القرن التاسع عشر جاءت مجموعة من المسيحيين الكاثوليك إلى حي الميدان وتركزت في حي زقاق البرج والقرشي والموصلي وباب المصلى^(٩) . أما اليهود فتركزوا في الشاغور حيث سكن ٩٦٪ من طائفتهم في ذلك الحي^(١٠) . والشيعية من المسلمين تركزت في محلاتي الخراب والجورة غرب حي اليهود وشماله . والعلويون والاسماعيليون استقروا في الجرماتية وزقاق الحشاشة من حي الميدان^(١١) . ووجدت في دمشق جالية أرمنية تعود إلى

(١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٣٤/سنة ١٢٥٠ هـ . ص ٢ ، ص ٩ ، ص ١٢ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ١٢١ ، ص ٢١٤ .

(٣) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٣٨/سنة ١٢١١ — ١٢١٢ هـ . ص ٨٤ .

(٤) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠/سنة ١٢٠١ — ١٢٠٢ هـ . ص ٥٦٥ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٥٢٠ .

(٦) انظر : خير ، صفوح . مدينة دمشق دراسة في جغرافية المدن . ص ١٨٣ . دمشق ١٩٨٢ م

(٧) خير . المصدر السابق . ص ٢٤٦ ثم : السجل رقم ٣٢٥/محكم دمشق/سنة ١٢٤٧ — ١٢٤٨ هـ .

ص ٦١ .

(٨) خير . المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٩) خير . المصدر السابق ، ص ٢٧٥ .

(١٠) خير . المصدر السابق ، ص ٢٧٦ .

(١١) خير . المصدر السابق ، ص ٢٧٦ .

العصور الوسطى لها أديرتها وكنيستها الخاصة واستقرت هذه الجالية في شرقي دمشق وشكلت أقلية عرقية ودينية ، استخدمت في حديثها وطقوسها الدينية لغتها القومية^(١) أما الأسر العثمانية فكانت تنحدر من أصول قومية مختلفة منها التركي والبشناقي والداغستاني ومن قوميات الرومي والأناضول وغيرها ، ويستدل على ذلك من أسماء تلك الأسر التي وردت في المصادر التاريخية المختلفة وخاصة سجلات محاكم دمشق لهذه الفترة . فهناك القرماني والوانلي والنيبولي والازمري والطرابزني والاضنلي والبشناقي والقره حصري والمرعشلي والبوسنوي والبغدادي وغيرها^(٢) .

وعاشت القوات شبه العسكرية خارج المعسكرات في أحياء ساروجة والقنوات والميدان والعقبة والعمارة ، حيث استقرت مع أسرها التي ترافقها ، وكانت خليطاً عجيباً من أقاليم وقوميات مختلفة^(٣) .

وطراً تبدل ملحوظ على الواقع السكاني لمدينة دمشق في ظل الحكم المصري نتيجة للسياسة التي اتبعها وللمتغيرات التي أدخلها على نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية والأمنية والديمقراطية فمثلاً : سمح للقناصل الأجانب بالإقامة في دمشق بالإضافة إلى المبشرين الأوروبيين والتجار ولم يكن ذلك مسموحاً أو مستحباً من قبل . وسعى هؤلاء لتصريف بضائع بلدانهم . وجاء في تقرير لبوال كومت الفرنسي ، مرسل إلى حكومته في سنة ١٨٣٣ م : أن الأقمشة الإنجليزية لوحدها قد تسببت في تعطيل حوالي ١٠,٠٠٠ عامل في سنة واحدة . وما بين عامي ١٨٣٨ — ١٨٣٩ كان في دمشق لوحدها ١٠٧ متجرّاً لبيع البضائع الإنجليزية ، وهذا يدلنا بدقة على ما أصاب البضاعة المحلية من دمار^(٤) ، وبالتالي ما أصاب الصنّاع والحرفيين المحليين من إفلاس مما دفع بالعديد منهم للبحث عن

(١) خير . للمصدر السابق ، ص ٢٧٨ ص ٢٧٩ .

(٢) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩/ سنة ١٢٦٤ — ١٢٦٥ هـ . ص ٣ ص ١٠ ص ١٢ ، ص ١٧ ، ص ١٨ ، ص ٢٢ ، ص ٣١ ، ص ٣٣ ، ص ٥٤ ، ص ٥٧ ، ص ٦٣ ، ص ٦٤ ، ص ٧٣ ، ص ٨٠ ، ص ٨٩ ، ص ٩٦ ، ص ٩٧ ، ص ١٥ ، ص ١٣ ، ص ١٣٨ ، ص ١٦١ ، ص ١٦٣ ، ص ١٦٥ . ص ٢١٠ ، ص ٢١٥ ، ص ٣٤٤ .

(٣) شلشفر ، لهندا . المرجع السابق . ج ١ ، ص ٣٢٣ ص ٣٢٤ .

4 - See: Polk, William. R. «the opening of south Lebanon-1788-1840», P.166. Harvard university Press; 1963

الرزق في الريف ناهيك عن أن طريقة التجارة الدولية قد تغيرت فبدأت المدن الساحلية تستورد البضائع الأوربية وتقوم بدورها بتصديرها إلى دمشق وبغداد وغيرهما . وعمل في هذه التجارة تجار أغلبهم مسيحيون ويهود بالإضافة للمسلمين مما أدى إلى تغيير الواقع الاقتصادي والاجتماعي لفئات اجتماعية مختلفة في دمشق وزادت في التأثير سياسة التجنيد الإجباري^(١) التي فرضها ابراهيم باشا على دمشق وبلاد الشام مما دفع بمعظم شباب دمشق للفرار منه إلى الريف والاماكن التي تقع خارج سلطة المصريين ، بالإضافة إلى اجراءات الطب الوقائي التي لم تكن تعرفها دمشق قبل عهد المصريين « كعزل المرضى والتلقيح ضد الجدري » قد أثرت بدورها على بنية السكان الديمغرافية وحدت من تأثير الجائحات الوبائية . وتوفير الأمن دفع بأبناء دمشق للعمل في الريف في مجال الزراعة . كل هذه الإجراءات انعكست على البنية السكانية لمدينة دمشق وعلى تعداد سكانها ونسيجها الاجتماعي .

(١) يقول وليم بولك : إن الخوف من التجنيد الإجباري في الجيش المصري دفع بعدد من سكان دمشق | للاعتماد عنها ، ولم تعد ملاذاً مأموناً للهاربين من التجنيد أو تشكل مورد رزق للذين ينحدرون من أصول فلاحية أو الذين جاؤوها بحثاً عن الرزق . وهكذا انعكست العلاقة بين المدينة والريف من الناحية الاقتصادية في هذا العهد . انظر : كتابه :

شوارع دمشق وطرقاتها

نكاد لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن خطة المدينة العامة ظلت قروناً على الحال التي كانت عليه عشية الفتح العربي الاسلامي . رغم الدمار والحزن والشدائد التي نزلت بها بعد ذلك وحتى فترة دراستنا ولم تحدث تغييراً جوهرياً في شكلها ^(١) . فبقايا الشوارع الرومانية القديمة بقيت على سمتها المستقيمة وكان يلاحظ ذلك في خطة دمشق الرئيسية المكونة من شوارع رئيسية تتفرع عنها شوارع وأزقة ودخلات حيث تقع على جوانبها المساكن والخوانيت والمنشآت العامة كالمعابد والمدارس والخانات والخوانق والربط والبيمارستانات وغيرها ، ويخترقها بعض تفرعات بردي من مياه القنوات وبانياس وتورا ويزيد مكونة السبلان لسقاية الحيوانات ولسد الحاجات العامة من المياه . ووجد العديد من طوابع المياه هنا وهناك لتزويد السكان بحاجتهم منها بالإضافة إلى السقايات في أكثر زوايا المدينة من أجل شرب السكان . ولقد كان العديد من هذه الشوارع مغطى برفوف خشبية ومسقوفة من الداخل بقناطر حجرية . ولقد تداعى العديد من هذه الأسواق مع الزمن وآل إلى الإنبهار كما حصل للسوق الضيق (الزنوطية) الذي كان يقع خلف الجامع الأموي حيث انهار عام ١١٦٣ هـ ١٧٥٠ م « ومات أربعة أشخاص تحت أنقاضه وهشم جماعة أخرى ^(٢) » .

(١) انظر : دائرة المعارف الاسلامية — المجلد ٩ . ص ٢٦٥ . الترجمة .

(٢) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص ١٣٩ .

ومن الأسواق ما كانت مبنية بطريقة حجارة العقد وبها فتحات للتبوية مغطاة. في الغالب بالزجاج للإضاءة وكانت هذه الفتحات من الضيق بحيث لا تسمح لأحد بولوجها وحتى نور الشمس لم يكن ليدخل إلا قليلاً ، لذا بقي معظمها معتماً .

أما أرضية هذه الشوارع وتفرعاتها فكانت ترابية ، وقليل منها كان مرصوفاً بالحجارة . ولم يكن رصفها متناسقاً بل لوحظ فيه بروز حجارة الرصف هنا وهناك . أما الأرصفة ، إن وجدت ، في هذه الشوارع فكانت ترتفع عن منسوب سطح الطاروق بمقدار ٢ — ٣ قدم ولكن معظم هذه الشوارع كانت خالية من الأرصفة وكانت في معظمها خالية من مصارف المياه ، إلا في القليل النادر ، حيث كانت مياه الأمطار وفضلات الحمامات والمنشآت العامة والماء المالح تجري في كهاريز خاصة إلى خندق قلعة دمشق ومنه إلى نهر بردى . وكان يشاهد في بعض الشوارع الطوايق وهي عبارة عن منخفض بين رصيفي الشارع تسمي فيه الرواحل والعربات وتتمليء هذه الطوايق بالمياه القذرة تضاف إليها مياه الأمطار في فصل الشتاء فتنبعث منها الروائح الكريهة .

أما جدران المباني التي كانت تطل على هذه الشوارع والأزقة ، فكانت غالباً من اللبن المجفف بأشعة الشمس ومطلية بالطين والتبن فيتسلخ عن الجدران بفعل الأمطار والثلوج وعوامل التعرية الأخرى فيحيل الشوارع إلى مستنقع موحل^(١) . أما الشوارع الضيقة أو المقبية بحجارة العقد فكانت مظلمة وعازلة بحيث تخفف عن الإنسان وطأة حر الصيف وبرد الشتاء . وكان أصحاب المخازن فيها يتغلبون على برودة الشتاء القارسة بارتداء الفراء أو باستخدام الفحم الخشبي للتدفئة في كوانين أو مواقد خاصة بهم^(٢) .

وفي فصل الصيف كان الطين المترآك يتحول إلى غبار تثيره أقدام السابلة والرواحل . لهذا وجد في دمشق الرشاشون الذين يقومون برش الشوارع والأسواق بالمياه لمنع إثارة الغبار وكان يهتم بذلك تجار وحرفيو تلك الأسواق خوفاً على بضائعهم . وكان الرشاش يحمل قربة مملوءة بالماء من أحد السبلان القريبة ليقوم برش الشارع بمئة وسرة مرة واحدة أو مرتين في اليوم الواحد . الأولى صباحاً قبل فتح الدكاكين والثانية ظهراً . وأحياناً كانت تكنس

1 - Wright, T. «Early Travels in Palestine». P. 48.

2 - Alex. Russell, U. D. «The Natural History of Aleppo». VOL. 1. P. 20.

الشوارع . وكان لكل رشاش على كل دكان شيء معلوم يجمعه في كل شهر يتعيش به . ولقد خصص لكل شارع رشاش أو أكثر على حسب كبر السوق أو صغره^(١) .

وكانت هذه الشوارع تعج بالغرباء الدماشقة نهراً فترى فيها الراكب على الحصان أو الجمل أو الحمار أو السائر على قدميه . وكان الغرباء خليطاً من قوميات عدة . فكنت ترى أنباء شرقية مختلفة فهناك الشراكسة والأناضوليون وشيوخ البدو واليهود والأكراد الخشنون والمسيحيين الوجلون والفرس النحيفون أقوياء البنية والهنود الرشيقيون والأتراك المتبخثرون والأفغانيون الهادئون العميقو النظرة والمغاربة المتجهمو الوجه الصادقون . فجمعت هذه الأسواق كل أنباء آسيا وبعض أقاليم أفريقيا تقريباً من كل قومية وعقيدة وهم يتكلمون لغات متباينة كما يجد كل منهم صعوبة في السيطرة على راحلته الجفلى من الزحام فترى الخيول الاصليلة بنسروجها المزركشة والتي يقودها سواسها ، وتشاهد في بعض الأحيان القواصة الذين يسهرون أمام أحد القناصل يرفعون أصواتهم بقولهم (ظهرك افتتح درب) وذلك لتنبيه الحشد من الناس لفتح الطريق أمام القناصل^(٢) .

وكان أبرز شوارع دمشق ضمن أسوارها الشارع الطويل الذي يخترق المدينة من شرقها إلى غربها حيث يصل ما بين باب الجابية إلى باب شرقي ويعود هذا الشارع في أصوله إلى عهد الرومان ، إلا أنه قد طرأ عليه بعض التغيير في هذه الفترة فقد تهدمت أروقته وبقيت أعمدة هذه الأروقة منشورة هنا وهناك على جانبيه ، إلا أن حجارة رصيفيه بقيت على حالها . ويقع في هذا الشارع بيت يهوذا الاسخريوطي الذي غدر بالسيد المسيح . كما لجأ إلى هذا الشارع القديس بولس ويقع فيه طريق حنانيا ويقول توماس رايت : (إن أهل دمشق الذين يجولون هذا المقام لا يستطيعون أن يوضحوا كيف جاء حنانيا إلى دمشق والحقيقة أن ذلك ما هو إلا مقاماً لحنانيا يجله المسلمون والمسيحيون على حد سواء)^(٣) . ولقد شوهت استقامة هذا الشارع مع الزمن بفعل اندفاع بعض البيوت المستجدة على جانبيه وفي أماكن متعددة منه ، وهناك شارع آخر أقامه الوالي العثماني محمد باشا العظم وهو من الشوارع الرئيسة في ذلك العصر والذي كان يقع بالقرب من داره . اتجاه القلعة من الجنوب عند المدرسة

(١) انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الدمشية . ج ١ . ص ١٥٦ .

2 - Burton.I. the inner life of Syria palestine and the Holyland P.24.

3 - Burton.I. op.cit. P.35.

الأحمدية . وكان الشروع في عمارته في أوائل جمادى الأولى سنة ٩٥٠ بعد المائة للهجرة وبنى فيه لصيق البوابة الموصلة إلى داره العامرة سبيلاً لطيفاً محكماً وأجرى إليه الماء من نهر القنوت^(١) .

ووجد شارع ثالث رئيس يصل بين الباب الصغير والبزورية ثم شارع آخر من باب البريد إلى المناخلية . وهناك شارع آخر يقع خارج أسوار دمشق من الغرب يصل ما بين الدرويشية والسنانية ثم شارع آخر يقع خارج أسوار دمشق من الغرب يصل ما بين الدرويشية والسنانية ثم شارع آخر يسير طريق الحج بدءاً من باب الجابية إلى بوابة الله ، وهو أطول شوارع دمشق ويطلق عليه الشارع السلطاني . ومعظم هذه الشوارع كانت غير مضأة ليلاً وإنما تضاء فقط في المناسبات الرسمية والدينية وتضاء بالإضافة إليها مآذن الجامع بالقناديل . وكانت تستخدم هذه القناديل زيت الزيتون أو زيت بزر المشمش أما شموع الإضاءة فكانت مصنوعة من شحوم الحيوانات وكان تجول السكان في الشوارع ليلاً يقتصر على القلة القليلة . وإذا ما اضطر أحد للتجول في الشوارع ليلاً كان عليه أن يحمل في إحدى يديه فانوساً لاستجلاء ثنانيا الطريق أمامه . أما في ظروف اضطراب الأمن فكان التجول يمنع في المدينة ليلاً بدءاً من صلاة العشاء كما حصل في سنة ١١٦٣ هـ / ١٧٣٩ - ١٧٥٠ م حيث نبه أسعد باشا العظم على قواته المكلفة بحراسة الشوارع والأسواق ليلاً لمنع التجول أو الخروج من البيوت (لا بضوء ولا بلا ضوء هذا ما سبق قط)^(٢) . أما حراسة هذه الشوارع والأسواق فكانت تقع على عاتق حراس ليليين يراقبون المارة ويلقون القبض على أي شخص لا يحمل فانوساً بيده ، أو إذا كان مشبوهاً . وكان الحراس يركزون اهتمامهم على الحوانيت والخانات والمخازن مخافة اقتحامها من قبل اللصوص وكانوا يرصدون الأزقة التي يمكن أن يتسرب منها اللصوص إلى هذه الشوارع والأسواق وكان هؤلاء الحراس بمثابة موظفين من قبل الحكام لهذه الغاية .

(١) انظر : المرادي ، محمد خليل ، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر . ج ٤ . ص ١٠١ .

(٢) انظر البديري .. حوادث دمشق اليومية . ص ١٤٧ .

ولقد كانت في دمشق معاصر خاصة لكسر وعصر بزر المشمش ، واطلق على نهته المستخرج اسم الزيت المر ، والمثال على ذلك . معصرة السمسم والبزر المر التي كانت موجودة بالقرب من خان المغاية في محلة السوق . انظر : السجل رقم ٣٢٥ / محاكم دمشق : سنة ١٢٤٧ - ١٢٤٨ هـ / ص ١٠٤ وكان هذا الزيت يستخدم في الإنارة ليلاً .

واختلف عدد الحراس تبعاً لكبر السوق وصغره وكان هؤلاء الحراس لا ينامون حتى يأتي النهار ، وكان كل واحد منهم يحمل بالإضافة إلى سلاحه صفارة تسمى (دُذُك) .

أسواق دمشق

كان من الطبيعي أن نهتم بدراسة أسواق دمشق على اعتبار أنها مركز هام للنشاط الاقتصادي ومكان للاحتكاك الاجتماعي وعلى الرغم من أن معظم أسواقها كانت موجودة قبل العهد العثماني ، إلا أن بعضها قد أقيم مجدداً لتلبية الحاجات الاقتصادية والاجتماعية للمدينة ، وما أحدث منها كان خارج الاسوار بالقرب من التوضع السكاني أما ما أنشيء داخل الأسوار فكان بمثابة تهديم للتقديم منها وإنشاء الجديد على أنقاضه . وأهم هذه الأسواق :

سوق السنانية الذي ينسب إلى الوالي العثماني ستان باشا . ثم سوق الدرويشية نسبة إلى الوالي العثماني درويش باشا ، وهذان السوقان يقعان خارج أسوار المدينة من جهة الغرب . ثم سوق الوزير محمد باشا العظم المسمى (بالسوق الجديد) وقد أقيم هذا السوق على أنقاض أسواق ومبانٍ قديمة إلى الشرق من باب السعادة داخل الأسوار ، وكان الشروع في عمارته في أوائل جمادى الأولى ١١٩٢ هـ / ١٧٨١ م^(١) . كما تهدم سوق الظنوتية الذي كان مبنياً بالخشب في سنة ١١٦٣ هـ / ١٧٤٩ — ١٧٥٠ م وكان يقع في حي العمارة فقام أسعد باشا العظم باستخدام حجارته في بناء قصره في سوق البزورية^(٢) .

(١) انظر : المرادي ، محمد خليل ، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر . ج ١ ص ١٠١ .

(٢) انظر : الهديري . حوادث دمشق اليومية . ص ١٣٩ .

هذا بالإضافة للأسواق العديدة الدائمة والمؤقتة التي وجدت خارج أسوار المدينة وستعرض لها في حينها .

وكانت كل سوق من الأسواق متخصصة بسلعة أو حرفة أو صنعة معينة ، مما ساعدنا على معرفة أنواع الحرف التي كانت قائمة في دمشق أو الخدمات التي كانت تقدمها للمجتمع والأثاث والأزياء المستخدمة فيه ، وبالتالي توضح لنا طبيعة المرحلة الاقتصادية التي كان يمر بها مجتمع دمشق والتطور الحاصل خلال فترة دراستنا .

وبشكل عام فقد بقيت أسواق دمشق على تخصصها السابق فنسب السوق إلى الحرفة القائمة فيه كما نسب بعضها إلى بانها أو محتلتها ، وبلغ عددها في دمشق أكثر من مائة وخمسين سوقاً كانت معظمها داخل سورها وحول الجامع الأموي^(١) ونلاحظ أن الصناعات المتقاربة كانت أسواقها أيضاً متقاربة . فسوق مجلدي الكتب وسوق الوراقين وسوق المكتبيين كلها تقع في منطقة باب البريد^(٢) لصيق الجامع الأموي من الغرب .

وكانت بعض الأسواق تعقد في الساحات العامة المكشوفة كسوق الجمال في حي الميدان وسوق الغنم وسوق البقر وسوق الجمعة بالقرب من قلعة دمشق حيث كان يؤتى بالبقر من أرزروم، ولقد أورد محمد سعيد القاسمي الذي عاش في النصف الأول من القرن التاسع عشر معظم الأسواق التي ذكرها بن عبد الهادي الذي عاش في القرن التاسع للهجرة (١٥) للميلاد . إلا أن الأخير حدد مكان السوق والحرفة التي تمارس فيه بدقة ، ولا يختلف ذلك كثيراً عما ورد في سجلات محاكم دمشق لتلك الفترة كما سنرى . ولا شك بأن عملية التخصص تلك سهلت على شيخ الحرفة سيطرته على أبناء حرفته من جهة وعلى توصيل أوامر وطلبات السلطة إليهم من جهة أخرى . ونلاحظ أن معظم دكاكين تلك الأسواق والخانات كانت وفقاً لجهات خيرية أو ذرية ، لهذا كانت تحتاج (لكدك) ، ويحصل عليه الحرفي عند اشغاله الدكان وكانت كلمة (كدك) معروفة في هذه الفترة إذا كانت تعني ما يبينه المستأجر في حانوت الوقف ولا يحسب على الوقف^(٣) كما كانت تعني الأغلاق والرفوف وأدوات الحرفة^(٤)

(١) انظر : ابن عبد الهادي ، يوسف . نزعة الرفاق عن شرح حال الأسواق ، نقلاً عن مجلة المشرق ، العدد ٣٧/ص ٣٣ ، لسنة ١٩٣٩ م .

(٢) المصدر السابق . ص ٢٦ .

(٣) انظر : ابن عابدين ، محمد أمين . رد المختار على الدر المختار . ج ٥ ، ص ٢١ . الطبعة الثالثة بولاق مصر .

(٤) سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/سنة ١٢١٦ - ١٢١٧ هـ . ص ١٢٠ .

وكان يضعها صاحب الحرفة من ماله الخاص في ذلك الدكان ، وكان لا بد من استرداد (الكدك) أو ثمنه عند اخلائه الدكان ، وهذا المعنى يعني (الكدك) الخلو في وقتنا الحاضر .^١ وكان عدد الكدكات مراقباً من قبل طوائف الحرفيين والتجار . كما أن مالكي الكدك ليسوا بالضرورة من أعضاء تلك الحرفة التي تراقبه وكان الكدك يرث للبناء إذا كانوا أعضاء في الطائفة نفسها ، بشرط أن يوافق شيخ الطائفة على الانتقال .

ولم يكن مفهوم الكدك في دمشق في هذه الفترة هو المفهوم نفسه في مصر ، إذ غالباً ما كان هناك انفصال بين مالكي الكدك والمتفعين الفعليين من العقار . وسندنا في هذه النتيجة ظهور النساء كمشتريات وبائعات ووارثات لكدك ممتلكات تجارية ، كدكاكين اللحامين^(١) وغيرها .

أما مراقبة الأسواق وأسعار السلع والأوزان والمائيس المستعملة وجودة السلعة فكانت من مهام المختسب ، وأحياناً القاضي أو المتسلم أو أغوات الانكشارية ، وأحياناً الولاية أنفسهم وحتى الصدور العظام الذين يصدف مروهم في دمشق ، حيث كان (ينزل متخفياً وراكباً يرافقه زله ليحدد الأسعار ويعاقب المتلاعبين والمحتكرين)^(٢) . ولقد أولى الحكم المصري الإشراف على الأسواق أهمية كبيرة بعد أن أصبحت دمشق عاصمة لأقاليم الشام ، فكلّف أمين الاحتساب بهذه المهمة يساعده مندوبو التجار ، وكانوا يتجولون في الأسواق بتكليف من المجلس الاستشاري للمدينة . واشترط المصريون في أمين الاحتساب الديانة والدراية بأحوال البلد والرعية^(٣) لما لذلك من تأثير على مجتمع دمشق . حيث كان العامة من قبل يهاجمون القضاة ويقذفونهم بالحجارة عندما يهملون الاحتساب والتفتيش على الأسواق لتحديد الأسعار^(٤) . ومكافحة الاحتكار .

(١) انظر : السجل رقم ٢١٣/محكم دمشق/ ص ٢٠١ ، ص ٢٩٥ . نقلاً عن شري فاطر : بحثها المقدم في المؤتمر الثاني لتاريخ بلاد الشام . ص ١١٢ .

يقول الدكتور أحمد السيد سليمان : أن الجدك (Gedik) كلمة تركية تعني الامتياز بمنح للتاجر أو للصانع ليحتكر تجارة صنف بعينه أو صناعة سلعة بعينها . ومن معانيها الرخصة للدكان أو الموضع . انظر : تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي عن الدخيل ، ص ٦٦ . القاهرة — دار المعارف ، ١٩٧٩ م .

(٢) انظر : العبد . ص ٥٧ .

(٣) رسم ، أسد . الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا . المجلد ٣ والمجلد ٤ ، ص ١٩٢ . وص ٢٠١ .

(٤) انظر : اليدرعي ، المصدر السابق ، — ص ٤١ ص ٥٢ ص ٦٣ .

أما هندسة الدكاكين فكانت مبنية على شكل عقد من الحجارة وكانت متطاولة ومواجهة لبعضها بعضاً وكانت ضيقة خاصة في الأسواق القديمة الضيقة بدورها . فكانت هذه الحوانيت من الضيق بحيث لا تترك مجالاً لصاحب الدكان لعرض بضائعه ، وحتى المتسنع منها لا يسمح لصاحبه باستقبال أكثر من زبون واحد في داخله ، وتضطر بقية الزبائن للوقوف خارجه . وإذا ما صادف وجود زبائن أمام الدكان المقابل يزدحم حينئذ الطريق لدرجة لا تسمح للمارة بشق طريقهم إلا بصعوبة بالغة .

إلا أن بعض البازارات الحديثة كانت أكثر اتساعاً ومخازنها أكبر مساحة وحجماً ، ولكن السمة العامة لها جميعاً هي الظلمة لأن نور الشمس يصعب دخوله إليها بطبيعة تصميمها الذي ذكرناه آنفاً ولضيق الشقة بين جانبي السوق من جهة ، ولكون الدكاكين متطاولة إلى الداخل من حجارة العقد ، ولا شبابيك فيها ولا إضاءة إلا نادراً . وإذا لم تكن سقوف الأسواق معقودة ، فغالباً ما تكون مقببة بالخشب وفي أحسن الحالات كان ثمة رفوف من الخشب فوق عتباتها لمنع مياه الأمطار عن الزبائن والبضائع إلا أنها تحجب ضوء الشمس عنها ^(١) .

وتتخلل هذه الأسواق حوانيت للحلاقين (المزينين) ويقوم هؤلاء بدعوة المارة للحلاقة ، وكنت ترى هذه المحلات غاصة بالزبائن بالإضافة إلى بيوت القهوة ^(٢) وبعض المنشآت ذات النفع العام كالحمامات والجوامع والمدارس وغيرها .

وكان رواد هذه الأسواق من جنسيات وقوميات مختلفة وبأزياء متنوعة ، فمنهم الراكب والماشي ، ومنهم من يقبض على رسن راحلته ليسير بها إلى هدفه . وكان الأغوات يرتدون فروات طويلة من الحرير أحمر اللون مبطنة بفراء السمور ويتقلدون سيوفهم وخناجرهم المحلاة بالحجارة الكريمة المعلقة في أحزمتهم ، ويسير خلفهم ، لخدمتهم خمسة إلى ستة من الأتباع أو الخدم أو العبيد ليحملوا لهم غلايينهم أو نارجيلاتهم وعندما يصل هؤلاء إلى تلك المقاهي يجلسون هناك على الأرائك أو فوق المصاطب الخارجية ليستمتعوا بالتدخين أو بالحديث مع أصدقائهم وأصحابهم ^(٣) .

1 - RusseL, op.cit, VOL.1,P.20.

2 - Burton,I. op.cit,P.35.

3 - Lamartine,op.cit,P.10.

وينقل لنا بورتر صورة حية عن النشاط في هذه الأسواق فمثلاً عندما زار سوق الزرابلية يصفه قائلاً : (ترى مئة يد مشغولة في تطريز وتزيين الأحذية الناعمة الملساء الصفراء اللون والشخصور الذي كان يستخدم من قبل الدمشقيين مكان الجوارب (في وقتنا الحاضر) ، كما ترى أيدي عمال آخرين منهمكة في صناعة الأحذية الخارجية (الزرايل) التي كان شكلها كشكل الجنودول ولون جلدها أحمر) .

وعندما انتقل إلى سوق آخر وهو سوق الحدادين يقول : (دخلنا إلى هذا السوق من بوابة صغيرة جداً وبعد عبورنا لهذه البوابة شاهدنا سوقاً مسقوفاً معتماً يكاد لا يرى أحدنا الآخر إلا بصعوبة وزاد في ظلمة هذه السوق سحبات الدخان المتصاعدة من كبر الحدادين ولا تسمع هنا وهناك إلا صوت مطارق العمال على السندانات بهدف قولبة المعادن المحماة بالنار ، وبالقرب من هؤلاء العمال ترى أكوام نفايات الفحم المحترق مختلطة مع سقط المعادن) .

ثم ترك بورتر سوق الحدادين ليدخل سوق القباقيب حيث تصنع القباقيب التي كانت تستخدم في دمشق وعلى نطاق واسع فيقول : (كان الصانع يأتي بالقطعة الخشبية المعدة لذلك فيقوم بنحفها وتقويرها حتى تأخذ الشكل النهائي للقباقيب ثم يدفعها لصانع آخر فيقوم الثاني بتشذيبه وصقله مستخدماً المطرقة والإزميل ثم يقوم بعد ذلك بتطعيمه بالفضة والأحجار الكريمة كاللؤلؤ وغيرها ثم يركب عليه الجلد المطلوب فيصبح جاهزاً للاستعمال) .

ثم انتقل إلى شارع السلطاني الذي يقع على بعد أربعين أو خمسين خطوة من سوق القباقيب ومنه دخل إلى سوق البزور أو (البزورية) حيث رأى التوابل والفواكه المجففة ويقول : (ترى الحوانيت من الجانبين بها البضائع موضبة ومنظمة وفي وسط هذا البازار ترى بناءً ضخماً مبنياً على الطراز البربري المغربي والذي لا مثيل له في العالم وهو خان أسعد باشا العظم) .

عندما ترك هذه السوق وذهب إلى سوق القماش حيث توجد مدرسة نور الدين¹ وضيعة ، ثم سوق الحرير أو البزاز ، وكان خاصاً بالنساء ، يقول : (إنه لم يستطع اختراقه إلا بصعوبة بالغة لشدة الزحام) ثم انتقل منه إلى سوق العبيد فالجامع الأموي^(١) .

1 - See: Porter, J. I. Five years in Damascus. VOL 1. P. 58.

تعداد أسواق دمشق وأماكنها

لم يكن بناء أسواق دمشق من نتائج العهد العثماني فحسب بل كانت في معظمها من عهود سابقة لهذا العهد وربما أدخل عليها بعض التعديلات في اختصاصها أو عدلت خططها طبقاً للظروف التي مرت على دمشق عبر تاريخها .

كما أحدثت بعض الأسواق في مناطق السكن الجديدة إلا أنها كانت خارج الأسوار لتقدم نفس الخدمات كالأسواق القديمة ولا نرى فيما يخصنا جديداً في تلك الأسواق مما يدل على بقاء معظم الحرف والصناعات السابقة في مجتمع دمشق . وما يهمنا هنا وضع هذه الأسواق . وأفضل كتاب عالج هذا الموضوع ، كتاب (نزهة الرفاق في شرح حال الأسواق) ليوסף بن عبد الهادي الذي فرغ من تأليفه سنة ٨١٣ هـ / ١٤٧٨ م . فقد استطاع أن يحصي في دمشق وأرباضها (١٥٠ سوقاً) بين كبير وصغير . ورغم أن ابن عبد الهادي قد كرر أسماء بعض الأسواق فالثابت منها هي ١٣٩ سوق بحسب رواية ابن المبرد^(١) . يضاف إليها بعض الأسواق المحدثه في ظل الدولة العثمانية وسنذكرها في حينها وأسواق دمشق في هذه الفترة هي :

(١) الزهات ، حبيب . مقالة له في مجلة المشرق العدد ٣٧ ، ص ٢٨ ، سنة ١٩٣٩ م .

١— سوق الذراع ويقع خلف الجامع الأموي من جهة القبلة ويبيع فيه البز والحرير والكتان والثياب الرقيقة والنفيسة^(١) .

٢— سوق الذهبين شرقي سوق الذراع ويبيع فيه الذهب المرقوق وما يتعلق به ، وكان يعمل به العديد من النصارى .

٣— سوق الدهنية (أو المدهون أو النسوان)^(٢) ويقع شرقي جامع الأموي ويبيع فيه حاجات النساء من الثياب النفيسة ونحوها .

٤— سوق الحرير عند باب الجامع الأموي القبلي ويبيع فيه الحرير الصايات والالاجة والديمة^(٣)

٥— سوق العنبرانيين عند باب الجامع الأموي القبلي ويعمل فيه العنبر والروائح العطرية .

٦— سوق الرسامين ويقع بين سوق العنبرانيين وسوق السراجيين .

٧— سوق السراجيين ويقع غرب الجامع الأموي عند البيمارستان العتيق وأطلق عليه سوق القوافين الضيق فيما بعد^(٤) .

٨— سوق الكوافين ويصنع فيه الكوف وتباع عند باب الريد وتغير مكانها وأصبحت فيما بعد تباع في سوق العبي خلف سوق سنان باشا ، وفي هذا السوق كان هناك من يبيع الزامير والشبابية من القصب للفلاحين^(٥) .

1 - Porter. Ibid. P.58.

كما ورد في سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/ سنة ١١١٢ هـ . ص ٣٢٣ . ثم في

السجل رقم ٢٣٥/محاكم دمشق/ سنة ١٢١٠ - ١٢١١ هـ . ص ١٤١ .

(٢) انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص ٤٥١ . ثم نزعة الأنام في محاسن الشام . ص ٦٣ .

(٣) انظر : القاسمي المصدر السابق ج ١ ، ص ١٤٤ . وسجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠/ سنة ١٢٠١ - ١٢٠٢ هـ . ص ٥٣٩ .

(٤) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/ ص ٣٣١ . ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٤/ سنة ١٢٥٠ هـ ، ص ٥٨ .

وهم الذين يرمون القماش المنسوج — انظر : السباعي ، بدر الدين . أضواء على قاموس الصناعات الشامية ، ص ٤٦ . دمشق ١٩٧٧ م .

(٥) القاسمي : المصدر السابق ج ١ ، ص ١٦٩ . ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ سنة ١٢٠١ - ١٢٠٢ هـ . ص ٢٧٤ .

وهم صانعو السراميز أو الزامير (نوع من الأحذية) .

- ٩ — سوق الطين في باب البريد .
- ١٠ — سوق الوراقين في باب البريد .
- ١١ — سوق الكتبيين في باب البريد ويسمى أيضاً بسوق المسكية وتباع فيه الكتب^(١) .
- ١٢ — سوق الزرابيلين أو الزرابلية^(٢) . ولهم سوقان سوق بالرصيف فباب البريد وسوق بالعقبة^(٣) .
- ١٣ — سوق الاختائين في رأس الرصيف .
- ١٤ — سوق السلاح قبلي الجامع الأموي تباع فيه ساير السلاح^(٤) .
- ١٥ — سوق السيوريين ويقع تحت العنبرانيين تصنع فيه السيور وتباع .
- ١٦ — سوق الصاغة وهما صاغاتان الجوانية ويبيع فيها اللؤلؤ^(٥) والجواهر ونحو ذلك والبرانية ويعمل فيها الخواتم والأساور وغير ذلك .

(١) انظر : القاسمي ، محمد سعيد ، قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص ٣٨٩ . ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٥/ سنة ١٢١٠ — ١٢١١ هـ ، ص ٣٩٣ . وأيضاً سجلها ذا الرقم ٢٦٠/ ص ١٤٤ .

(٢) لم يحدد مكانه صاحب قاموس الصناعات الشامية محمد سعيد القاسمي . انظر : ج ١ ، ص ١٦٥ من المصدر المذكور .

(٣) ذكر محمد سعيد القاسمي في كتابه قاموس الصناعات الشامية أنه يوجد سوق لبيع الجزمات من النوع الواطي يطلق عليه سوق الجزماتية ويقع في ميدان الحصى . انظر : ج ١ ، ص ٨٢ منه .

(٤) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦ . ص ٣٢٣ . ثم : السجل رقم ٢٣٥/ محكم دمشق ص ١٤١ .

ويقول الدكتور عبد الكريم رافق : (عرف صانع البنادق والرصاص في دمشق باسم البندقجي وكان يقوم بعمله سرّاً في منزله خوفاً من السلطة وبيع البارود في دكاكين متفرقة في أنحاء المدينة وليس كما يمكن الظن في سوق السلاح ، ووجود هذا السوق سابقاً على استخدام السلاح الناري في العهد العثماني ، وكان في الأصل يبيع الأسلحة المعدنية البيضاء ، كالسيوف والرماح والخناجر وغيرها . ولم يتمكن من بيع البارود فيه نظراً لأكثانية اشتعاله وسرعة انتشار ناره وانفجاره ولهذا توزعت دكاكين بيعه على أنحاء المدينة عند بواباتها ومداخلها الخارجية ، حيث يتلقى أصحاب الدكاكين البارود من القرويين الذين يأتون به إلى المدينة لبيعه . وذكر أن مصنعا لانتاج البارود قد وجد في دمشق في النصف الثاني من القرن الثامن عشر سد حاجات الانكشاشية) انظر : بحثه في مجلة الدراسات التاريخية التي تصدر في دمشق — العدد الأول ، ص ٨٩ .

(٥) أطلق عليه سوق اللؤلؤ ويقع في درب ابن من أنوق انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص ٣٢٨ .

١٧— سوق البزورين أو (البزورية) ويقع تحت سوق السلاح وتباع فيها النباتات العطرية والأبازير ونحو ذلك^(١) .

١٨— الدهيناتية بين سوق السلاح والبزورين ويعمل فيه ساير الادهان من دهن اللوز وغيره . ويباع فيه أيضاً جوز الهند ومرى الكباد والبرتقال والدراقن والتفاح وراحة الحلقوم والبقاقيب^(٢) .

١٩— سوق العيين أو العبي^(٣) وتقع تحت سوق البزورين ولهم سوقان كل مدة يبطل واحد منهم ينتقلون إلى آخر .

٢٠— سوق الخريزاتيين^(٤) ولهم سوقان أحدهما في باب البريد والثاني تحت سوق البزورين .

٢١— سوق الحباكين ولهم سوقان أحدهما في باب البريد والثاني عند باب الجامع الأموي .

٢٢— سوق الطواقين خلف سوق البزورين من جهة الغرب . وقد ذكرته سجلات محاكم دمشق لتلك الفترة باسم سوق القلبقجية^(٥) .

٢٣— السكرين تحت سوق البزورين يباع فيه السكر ثم سوق المتين بالقرب من مأذنة الشحم^(٦) .

٢٤— سوق الاقباعين تحت سوق الجوخيين يباع فيه الجوخ عند التكية .

٢٥— سوق الفرايين عند سوق الجوخيين وفيه الفراء النفيسة .

٢٦— سوق الفرايين الفراء الحمر عند سوق القميلة .

(١) كانت تباع في هذا السوق المربيات والملبس والفسحق والبندق واللوز والصنوبر والساكر والمعاقيد والمعاجين كما يوجد سوق الكعيكاتية وهذا نوع من البزورين . انظر : القاسمي . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص ٣٨٩ . ثم : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٣٠/سنة ١٢٤٨ — ١٢٦٥ هـ ، ص ٣٧ .

(٢) انظر : نزهة الأنام في محاسن الشام . ص ٦٣ .

(٣) انظر : قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ص ٣٠١ .

(٤) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/سنة ١٢١٦ — ١٢١٧ هـ . ص ٥ .

(٥) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/سنة ١٢٠١ — ١٢٠٢ هـ . ص ٢٠١ .

(٦) سماه قاموس الصناعات الشامية سوق السكرية انظر : ج ٢ . ص ٣١٢ منه ثم : سجل المحكمة البلدية بدمشق رقم ٣٣٠/سنة ١٢٤٨ — ١٢٦٦ هـ . ص ٣٧ .

- ٢٧— سوق الجوار والرقيق^(١) . يباعون فيه في يومي الخميس والاثنين عند التكة . ثم
- ٢٨— سوق الجقمق هو نفسه خان جقمق^(٢) ويقع غربي التكة تباع فيه الثياب والبز ما دون ما يباع في سوق الذراع ونسبته إلى بانيه ثم
- ٢٩— سوق القطنيين^(٣) وورد ذكره باسم سوق القطن في سجلات محاكم دمشق ويقع تحت سوق جقمق يباع فيه القطن ثم
- ٣٠— سوق النجادية وأطلق عليه في سجلات محاكم دمشق سوق المنجدين وهو لتنجيد الفرش ويقع غربي سوق القطن وسوق جقمق ، ثم
- ٣١— سوق القضاة يعمل فيه القضاة ،
- ٣٢— سوق الصابون غربي القضاة ،
- ٣٣— سوق الحبالين في باب الجابية ، ثم
- ٣٤— سوق باب الجابية وهو يحتوي على دكاكين مختلفة للبيع ثم
- ٣٥— سوق الزهوريين وليس لهم سوق مخصوص فهم عند كل باب من أبواب المدينة إلا أن محمد سعيد القاسمي الذي عاش في أوائل القرن التاسع عشر يقول كان لهم سوق في الصالحية لبيع الورود والنسرير والمضعف والقرنفل والمنتور والسيستان والصبر والليلك وغيرها^(٤) .
- ٣٦— سوق الموياتية وهم متفرقون في باب الجابية وجسر الزلاية ومسجد القصب وباب الفراديس .

(١) يقول بورتر : إنه يقع بالقرب من سوق الحرير البزاز بين بيت الجمرك أنظر :
«Five years in Damascus» VOL.-I. P. 59.

(٢) يقول عبد القادر بن بدران : إن بانيه من أبناء التركان ، تنقل في الخدمة حتى أصبح دويداراً ثانياً عند الملك المؤيد قبل أن يصبح هذا الأخير سلطاناً ، وعندما أصبح سلطاناً فرزه على نيابة الشام فقام جقمق ببناء هذا السوق وأوقفه على نفسه . راجع تاريخه ، التي بناها سنة ٨٢٤ هـ . ثم : انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٠١/٢٢٥ هـ ، ص ١٩٣ . انظر : مناداة الأطلال ومسامرة الخيال . ٣٢٣ .

(٣) سوق القطن انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص ٣٦ ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ . ص ٣٣٥ .

(٤) المصدر السابق . ج ١ ، ص ١٦٩ ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/سنة ١٢٠١ - ١٢٠٣ هـ ، ص ٣٣٥ .

- ٣٧ — سوق الجبوية باب الجابية وفي هذا السوق أيضاً العديد من حوانيت الخشيفاتية الذين يبيعون الخشاف^(١) .
- ٣٨ — سوق البرادعية^(٢) وتصنع فيه البرادع ولهم سوقان أولهما بباب الجابية وثانيهما في باب الفرج ثم .
- ٣٩ — سوق القمح أو القماحين وهو عرصات بميدان الحصى وما والاؤه (وبه العديد من البايكات لحزن الحبوب) .
- ٤٠ — سوق عند جامع كريم الدين بالقبيبات .
- ٤١ — سوق عند باب مصلى شمال شرق باب مصلى .
- ٤٢ — سوق باب السريحة .
- ٤٣ — سوق خان السلطان خارج باب الجابية .
- ٤٤ — سوق المكاكجية شرقى خان السلطان^(٣) .
- ٤٥ — سوق الامشاطية الذين يصنعون الترجيل عند الحزيرائية ثم .
- ٤٦ — سوق الامشاطية الذين يصنعون أمشاط الحياكة شرقى خان السلطان الذي يقال له خان ابن العسال ثم .
- ٤٧ — سوق الحدادين ولهم سوقان الأول بباب الجابية والثاني في الشاغور الجواني^(٤) . ثم
- ٤٨ — سوق النجارين وصنایعهم المختلفة (نجارة وآلة حرث) بباب الصغير وبالسبعة ونجارو السكاكر (جمع سكر أو القفل) والمفاتيح فوق سوق البيمارستان .
- ٤٩ — سوق باب الصغير .

(١) المصدر السابق ج ١ ، ص ١٢٥ . ثم : المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٣٥ / سنة ١٢١٠ - ١٢١١ هـ ، ص ١٠ .

(٢) يقول محمد سعيد القاسمي : كان يطلق على من يصنع للدواب ارسان وراسيات وسماطات وعكل وغيرها من أنواع الصوف والقطن التي تصنع باليد يقال له النطفجي ، ولها سوق خاص تابع لسوق السروجية يطلق عليها اسم النطفجية . انظر : قاموس الصناعات الشامية ج ٢ ، ص ٤٨٥ .

(٣) ربما أصبح في عهد محمد سعيد القاسمي سوق المردانية ، حيث كان يصنع فيه الأمشاط الحديدية التي تستخدم في غزل الحرير انظر : قاموس الصناعات الشامية ج ٢ ، ص ٤٢٧ .

4- Porter.J.L., five years in Damascus, VOL.I.P.58.

ووجد سوق للحدادين ذكره محمد سعيد القاسمي على أنه بالدرويشية وبه تصنع الأقفال ويطلق عليه اسم القفلانية . انظر : قاموس الصناعات الشامية ج ١ ، ص ١٨٢ .

- ٥٠ - سوق الدقاقين الذين يبيعون الدقيق يقع بباب الجابية ثم .
- ٥١ - سوق الدقاقين الذين يبيعون الثياب ولهم سوقان الأول عند باب الحضرا^(١) والثاني عند سوق العبي ثم .
- ٥٢ - سوق الخراطين ولهم سوقان أحدهما قبلي دار السعادة^(٢) والثاني عند القشاشين ثم .
- ٥٣ - سوق الاختصاصيين الذين يبيعون الاختصاص والاقفاص ونحو ذلك غربي باب السعادة ثم .
- ٥٤ - سوق الدفوفيين والعنابير عند سوق الاختصاصيين ثم .
- ٥٥ - سوق الهوى عند باب دار السعادة يباع فيه آلة الخيل ثم .
- ٥٦ - سوق السروجيين^(٣) غرب القلعة تباع فيه السروج وآلة الخيل أيضاً ثم .
- ٥٧ - سوق الحدرية غرب القلعة يباع فيها الزبيب ونحو ذلك ثم .
- ٥٨ - سوق القرييين بالحدرية ويصنعون به القرب والدلاة ونحو ذلك ثم .
- ٥٩ - سوق الدجاجيين عند باب الجابية وبالحدرية ثم .
- ٦٠ - سوق جسر الزلاية شمال القلعة إلى الغرب ثم .
- ٦١ - سوق اللحامين بباب الجابية ومنهم متفرقون بكل سوق ثم .
- ٦٢ - سوق السكاكين داخل سوق جسر الزلاية ثم .
- ٦٣ - سوق النحاسين ورد ذكره في سجلات محاكم دمشق بأنه داخل سوق الأروام^(٤) .
- لهم سوقان أحدهما يباع فيه النحاس تحت القلعة والثاني يصنع فيه بباب الفراديس .

- (١) سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٢٢/٢٦٠ - ١٢٢٣ هـ . ص ٧ .
- (٢) يقول صاحب قاموس الصناعات الشامية محمد سعيد القاسمي : (كانوا يخرطون الخشب بأشكال مختلفة منها الكراسي وآلات الشطرنج والبرجيس وبراق الدرازين وقلوب الأراكيل وأجران التوم) انظر : ج ١ ، ص ١٢٢ . ثم : نزهة الأنام في محاسن الشام . ص ٦٢ .
- (٣) أصبح اسمه سوق السروجية يقع شمال قلعة دمشق من جهة بابها الشمالي ويؤدي إلى سوق القميلة . انظر : للمصدر السابق ج ٢ . ص ١٨١ . ويقول صاحب نزهة الأنام في محاسن الشام ، ص ٦٣ . كان يصنع فيه كل ما يلزم الدابة من أدوات وجلد ولجام وأرسان وبيوت طبنجة وبيوت للبنادق الصغيرة وبيوت للكتب وبيوت التمام .
- (٤) يقول أنه يعمل بهذه الحرفة أناس كثيرون . انظر : قاموس الصناعات الشامية ج ٢ ، ص ٤٨٠ ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٤٧/٣٢٤ هـ . ص ١٢٥ .

- ٦٤ — سوق السقراطية لهم سوقان أحدهما في النحاسين تحت القلعة والثاني بالقرب من القلعة ثم .
- ٦٥ — سوق تحت القلعة والثاني في العلوية ثم .
- ٦٦ — سوق تحت القلعة .
- ٦٧ — سوق الخيل وبيع فيه الخيل^(١) والبغال ويقام تحت القلعة في بكرة كل يوم .
- ٦٨ — سوق الحمير تحت القلعة في بكرة كل يوم .
- ٦٩ — سوق الجمال تحت القلعة كما وجد سوق لبيع الجمال في المنطقة الواقعة ما بين الميدان التحتاني والفوقاني^(٢) ثم .
- ٧٠ — سوق البقر^(٣) يوم الجمعة تحت القلعة ثم .
- ٧١ — سوق الفاكهة في رأس تحت القلعة وبدار البطيخ كل يوم ثم .
- ٧٢ — سوق الحطب تحت القلعة ثم .
- ٧٣ — سوق البيمارستان ثم .
- ٧٤ — سوق برا . ثم سوق قميلة^(٤) : والأسماء الثلاثة لسوق واحد تحت القلعة يباع فيه الخلقان ثم .
- ٧٥ — سوق ساروجة^(٥) فوق وتحت القلعة ثم .
- ٧٦ — سوق العدول تحت القلعة ثم .

-
- (١) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٣٠/سنة ١٢٤٨ — ١٢٦٥ هـ . ص ١٥ .
- (٢) انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية ج ١ . ص ٨٣ . ثم انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ملحق رقم ٢ .
- (٣) وجاء في قاموس الصناعات الشامية ج ١ . ص ١٤٩ أن «البقر كان يؤتى به من آرزوم فيأتي الفلاحون إليه زمراً زمراً ومعهم أبقارهم وأثوارهم من أجل بيعها ، كما يحصل في سوق الخيل والجمال» ثم انظر أيضاً سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٠١/٢٢١ — ١٢٠٢ هـ . ص ٢٣١ .
- (٤) قاموس الصناعات الشامية ج ٢ . ص ٤٥١ أنه كانت تباع فيه السلع الحقة البالية .
- (٥) يقع من الشمال من قلعة دمشق وينسب هذا السوق إلى الأمر صادم الدين ساروجة بن عبد الله المظفري كان أميراً في دولة الملك الناصر بن قلاوون بالديار المصرية . ولما أعطى الملك الناصر تنكز أمرة غزة جعل تنكز ساروجة آغا له وضمه إليه . وفي سنة ٧٤٠ هـ حضر مرسوم من مصر بتكحيله فعمي ، ثم ورد مرسوم آخر بالغفو عنه ولكن سبق السيف العزل ، وأقام أعمى في بيت المقدس إلى أن مات فيه في أواخر سنة ٧٤٣ هـ . انظر : ابن بدران . مناداة الأطلال : ص ٣٢٣ .

٧٧— سوق الذراع تحت القلعة يباع فيه القماش الذي هو دون وبيع في سوق جقمق
ثم .

٧٨— سوق الفضلات في رأس سوق برا تحت القلعة ثم .

٧٩— سوق السلبية^(١) في رأس سوق الرجال ثم .

٨٠— سوق القشاشية^(٢) ويقع عند القلعة ثم .

٨١— سوق المدهون^(٣) تحت القلعة ثم .

٨٢— سوق الحصر في رأس سوق المدهون ثم .

٨٣— سوق النشارين في رأس سوق الحصر ثم .

٨٤— سوق الفاخورية في رأس تحت القلعة^(٤) ثم .

٨٥— سوق النقلية في رأس تحت القلعة ثم .

٨٦— سوق الشيوخ وربما سمي سوق الأروام الذي ورد ذكره في سجلات محاكم دمشق
وتباع فيه الحلقات الحسنة التي هي أعلى مما يباع بسوق برا وسوق الذراع بالنقلية
ثم .

٨٧— سوق الخضرية وتباع فيه البقول بباب الفرع ثم .

٨٨— سوق الشماعين بباب الفرع ثم .

٨٩— سوق الغرابلية المناخلية^(٥) بباب الفرع ثم .

٩٠— سوق الحلوة الصابونية بباب الفرع ثم .

(١) ربما سوق الأروام حيث لم يحدد مكانه يوسف بن عبد الهادي ، على حين ذكر محمد سعيد القاسمي سوق
الأروام وقال بأنه سوق لبيع السلع المتنوعة الجديدة والمستعملة انظر : ج ٢ . ص ٤٥٠ ثم : سجل
المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٩/سنة ١٢١٠ — ١٢١١ هـ ، ص ٢٦١ ، ص ٣٥٧ ، ص ٤٩١ .

(٢) ورد في نزهة الأنام في محاسن الشام . ص ٦٣ على أنه سوق القشاشين .

(٣) ورد سابقاً لدى يوسف بن عبد الهادي في نزهة الرفاق في شرح حال الأسواق اسمان لسوقين هما : سوق
المدنية والدناتين .

(٤) ربما سوق القساطلية حيث تباع فيه القساطل . انظر : القاسمي . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ،
ص ٣٥١ بالاضافة إلى أدوات الفخار المنزلية الأخرى . ثم انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم
١٢٠١/٢٢٠ — ١٢٠٣ هـ ، ص ١٨٥ .

(٥) ورد ذكره في نزهة الأنام في محاسن الشام ص ٦٣ ، ثم انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم
١٢٠١/٢٢٠ — ١٢٠٢ هـ . ص ١٩١ .

- ٩١ — سوق القزازين^(١) بباب الفرّج ثم .
 ٩٢ — سوق القواسين بباب الفرّج ثم .
 ٩٣ — سوق سراميج الرجال داخل باب الفرّج ثم .
 ٩٤ — سوق البقسماطية تحت القلعة ثم .
 ٩٥ — سوق المجلد للكتب عند باب البريد ثم .
 ٩٦ — سوق الازرار بباب البريد .
 ٩٧ — سوق الكتب بباب البريد .
 ٩٨ — سوق الأبارين^(٢) بباب الفرّج ولهم سوق آخر يقع غربي البزورين ثم .
 ٩٩ — سوق الحلواتين عند جامع السلطان ثم .
 ١٠٠ — سوق العمارة ثم .
 ١٠١ — سوق العلوية^(٣) بمحلة مأذنة الشحم بباب الفراديس ثم .
 ١٠٢ — سوق الادمية^(٤) ثم .
 ١٠٣ — سوق الهواونية^(٥) بباب الفراديس ثم .
 ١٠٤ — سوق داخل باب الفراديس ثم .

- (١) ورد في المصدر السابق ص ٦٣ على أنه سوق الزجاجين .
 (٢) انظر : القاسمي ، محمد سعيد قاموس الصناعات الشامية ج ٢ ، ص ٢١٥ . حيث يقول : (هذا السوق تصنع فيه المسلات والإبر والسنارات وغيرها وهو خارج باب الفرّج وقد زاحمته منتجات الصناعة الكورية الواردة إلينا .
 (٣) تصنع فيه علب لوضع الحلويات للسفر ومجامع ومخامر وكيلاات علب العطارين لوضع أصناف العطارة وأصناف السكاكر للهدايا والأعراس والكؤلات المختونين ولوضع اللبن وللمكاييل ثم المدّ ونصفه والشمية ولوضع غذاء الجمال والبقر ومصابول لتصويل العنب وأمثالها . انظر : القاسمي محمد سعيد قاموس الصناعات الشامية ج ٢ ، ص ٣١٨ . ثم انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٠١/٢٢١ — ١٢٠٢ هـ ص ٣٧٦ .
 (٤) الادمية وهم باعة الاديم أي الجلد المدبوغ ويجمع على آدم والخور جلد أحمر من الضأن وأصله حور والواحدة حور والعامية تسكن الواو وتطلقه على كل الجلود الرقيقة . انظر حول ذلك : مجلة المشرق ، العدد ٣٧ ، ص ٢٦ ، سنة ١٩٣٩ م .
 (٥) يقول محمد سعيد القاسمي (اطلق عليه سوق العسرونية كما يختص بالخرداوات ويسمى صاحب المهنة بالحزنجي وهو أجمل أسواق دمشق على الإطلاق وأروجها . انظر : قاموس الصناعات الشامية ج ١ ، ص ١٢٣ .

- ١٠٥ — سوق مزيلي الآثار داخل باب الفراديس .
- ١٠٦ — سوق القباقيبة^(١) شمالي الجامع داخل باب الفراديس ثم .
- ١٠٧ — سوق قناة العوي ثم .
- ١٠٨ — سوق مسجد الاقصا ثم .
- ١٠٩ — سوق السبعة .
- ١١٠ — سوق العناية .
- ١١١ — سوق باب شرقي ثم .
- ١١٢ — سوق القيشاني بباب شرقي ثم .
- ١١٣ — سوق باب توما ثم .
- ١١٤ — سوق الشقاعية وليس لهم مكان بل هم متفرقون في ساير البلد ثم .
- ١١٥ — سوق الطباخين وهم متفرقون .
- ١١٦ — سوق السراجية وهم متفرقون وجلهم قرب القلعة ثم .
- ١١٧ — سوق الفقاعية^(٢) وهم متفرقون وجلهم في باب الجابية ثم .
- ١١٨ — سوق الاقسماوية^(٣) . ثم سوق الصويمجاتية أو الصاجاتية وهم متفرقون وجلهم تحت القلعة ثم .
- ١١٩ — سوق التنورية وهم متفرقون وجلهم بجسر الزلاية إلى باب الجابية ثم .
- ١٢٠ — سوق دكان الطيور بباب الصغير . يباع فيه الصيد من الطيور^(٤) ثم .
- ١٢١ — سوق حكر السماق ثم .
- ١٢٢ — سوق الربوة ثم .
- ١٢٣ — سوق الجسر بالصالحية ثم .
- ١٢٤ — سوق شعيب بالصالحية ثم .
- ١٢٥ — سوق الشركسية ثم .

- (١) وجاء في المصدر السابق ج ١ ، ص ١٨٢ . أن للقباقيب تجاراً مخصوصين يتجرون مع البلاد التي لا تنقن صنعة القباقيب وهؤلاء في جميع شوارع دمشق .
- (٢) الفقاع شراب يتخذ من الحبوب والثمار .
- (٣) الاقسما وهو نقيع الزبيب .
- (٤) سماه صاحب كتاب المدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ، ص ٣٢٧ ، وسوق الطير ويقع مسجد شامي فيه .

- ١٢٦— سوق القطانين بالصالحية ثم .
- ١٢٧— سوق الفاكهية بالصالحية ثم .
- ١٢٨— السوق التحتاني بالصالحية ثم .
- ١٢٩— سويقة القاضي بالمدينة شرق حارة اليهود^(١) ثم .
- ١٣٠— سوق البنادقية يوم الجمعة في رأس سوق السلاح ثم .
- ١٣١— سوق المحارية وبيع فيه الحاير والشباري ولهم سوقان أحدهما عند الاختصاصيين ثم بطل والثاني في القشاشين وهو إلى الآن^(٢) .
- ثم سوق ترزي باشا بالقرب من سوق الأروام^(٣) ثم سوق الحبالين ، ثم سوق الخواصة بمحلة الميدان تابع سوق القصر ، ثم سوق المناخلية وفيه باب المناخلية ، وسوق السقالين البواججية . وقد وجدت أسواق فيما بعد أشار إليها بعض المؤرخين الذين جاؤوا بعده كسوق الالاجة الموجود به جامع العباسي^(٤) ثم سوق باب توما وسوق القيمرية وسوق السباهية وسوق النصراري في داخله وسوق الجزماتية . ثم سوق الفلائين وسوق حكم أو سوق عليس^(٥) .
- ثم سوق الكبير بالقرب من درب تليد^(٦) ثم سوق النحاتين الذي ينحت فيه أصناف الاحجار ويهشونها على أشكال معينة ويبيعونها لمن يرغب بشرائها جاهزة مثل التماثيل لبحرات الماء وشواهد القبور وأجران الماء وغير ذلك^(٧) .
-
- (١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ / ص ٢٦٥ . ثم : سجلها رقم ١٢٠١ / ٢٢١ — ١٢٠٢ هـ . ص ١٤٦ ، و ص ١٨٥ .
- (٢) نقلاً عن مجلة المشرق العدد ٣٧ بدءاً من صفحة ٢٢ إلى ص ٢٦ / سنة ١٩٣٩ م .
- (٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٠١ / ٢٢١ — ١٢٠٢ هـ . ص ٤٢٢ .
- (٤) انظر : النعيمي ، عبد القادر الدارس في تاريخ المدارس . ج ٢ ص ٣٢٨ . ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٠١ / ٢٢١ — ١٢٠٢ هـ ص ٤٧ . ثم سجلها رقم ١٢٥٠ / ٣٣٤ ص ٢٩٥ . ثم سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٣٦ / سنة ١٢٥٠ — ١٢٥١ هـ ص ١٩١ . ثم سجل المحكمة الكبرى رقم ١٢٠١ / ٢٢٠ — ١٢٠٢ هـ ص ٥٣٩ .
- (٥) النعيمي الدارس . ج ٢ ص ٣٢٨ . ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠ / سنة ١٢١١ — ١٢١٦ هـ ص ٤١٢ . ثم سجل المحكمة الكبرى رقم ٢٢١ / سنة ١٢٠١ — ١٢٠٣ هـ ص ٢٤٧ و ص ٢٧٠ ص ١٤٦ . ثم سجل المحكمة الكبرى رقم ٢٢٠ / سنة ١٢٠١ — ١٢٠٢ هـ ص ١٩ .
- (٦) النعيمي ، الدارس . ج ٢ . ص ٣٣٢ .
- (٧) انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص ٤٧٩ .

وهذا السوق ورد ذكره لدى القاسمي إلا أنه لم يحدد مكانه وربما كان المقصود به ما هو الآن ملاصق لمقبرة الباب الصغير من ناحية الشمال الغربي والذي ما زال قائماً حتى وقتنا الحاضر . وبقيت هذه الأسواق جميعها (خططاً ومهمة) قائمة خلال العهد العثماني وحتى وقتنا الحاضر إلا القليل منها الذي عدلت خططها وأضيف إليها بعض البناء المجاور أو انهارت مع الزمن فاستخدمت حجارتها في بناء منشآت أخرى كما حصل لسوق الزنوطية القديم الذي يقع بالقرب من الجامع الأموي وكان من حجارة العقد واستخدمت حجارته في بناء قصر أسعد باشا العظم الوالي العثماني . ومن الأسواق الشهيرة التي ظهرت في العهد العثماني سوق السنانية ، الذي يقع فيه جامع سنان باشا وينسب إلى الوالي العثماني معمار سنان باشا وكان هذا السوق يوفر حاجات سفر الحجاج المسلمين ، ثم سوق الدرويشية وفيه جامع الوالي العثماني درويش باشا وترتبه ، ثم سوق محمد باشا العظم الذي أقامه في أواخر القرن الثامن عشر ، ثم سوق علي باشا بالقرب من السنجدار ثم سوق مدحت باشا والي دمشق في أواخر القرن التاسع عشر .

ولقد احتفظت الأسواق المحدثّة في العهد العثماني بمهامها السابقة مما يدل على أن علاقات الانتاج وطبيعته لم يتغيرا في هذه المرحلة ، ومن جهة أخرى فإن تزايدها يدل على تزايد عدد السكان ، الذين عجزت الأسواق القديمة عن سد حاجاتهم فأقيمت لذلك أسواق جديدة . هذا بالإضافة إلى الأسواق المؤقتة التي كانت تعقد في أيام محددة من الأسبوع على الطرقات العامة خارج الخانات صيفاً أو داخلها في الشتاء اتقاء لبرد الشتاء وأمطاره . فكان الفلاحون يأتون بسلعهم لبيعها . ونورد مثلاً على ذلك سوق خان حاصيبا في سفح جبل الحرمون بالقرب من قرية قانقاب حيث كان الفلاحون يتجمعون هناك يوم الثلاثاء من كل اسبوع^(١) للتجارة بما ينتجون .

1 - Burckhardt, J. «Travels in Syria and the Holyland». P.34.

متنزهات دمشق

تقع دمشق في خط الاعتدال حيث أن الفصول الأربعة من الربيع والصيف والخريف والشتاء تجري أحكامها بها ، ولذلك نجد في بقعها الأشجار التي لا تعيش إلا بالأقطار الحارة والصحراوية كالتمر والبلح وخلافه ، والأشجار التي لا تعيش إلا في الأقطار الباردة مثل الجوز وخلافه ، والأشجار التي لا تعيش إلا بالقطر المتوسط مثل المشمش واللوز والزيتون وخلافه ، فجميعها موجودة على غاية من النمو والحسن والأثمار . وغرست هذه الأصناف جميعها ضمن حدائق أكثر البيوت الدمشقية^(١) .

ولم يلعب مناخ دمشق دوره في الإنبات فحسب بل لعبت دوراً في ذلك وفرة مياهها ، بالإضافة إلى يد الإنسان الخبيرة في الزراعة ومنذ القدم ، وقد لعب الآراميون دوراً كبيراً في خططها وتوزيع مياهها وتخفيف مستنقعاتها ، وكذلك الشعوب التي جاءت بعدهم كالرومان وغيرهم ، وحولوا هذه البقعة الصغيرة التي تتكىء على سفوح الجبال وتترامى بانحائها باديها إلى جنة خضراء حقيقية معطاء مونة للبصر فسحر ، الغرباء باطلاتها ومحاسنها كما طبعت سكانها بطابع خاص سنراه في عاداتهم .

ولقد اعتقد العديد أن لهوائها ومائها أو لكليهما معاً قوة عجيبة في منع انتشار

(١) انظر : الصيادي ، محمد عر الدين . الروضة البهية في دمشق الحمية . ص ٢٧ .

الأمراض الكريمة التي تعافها النفس وخاصة الجزام . ويقول براون من (الحقائق التي توصلت إليها ، أن الأمراض إن لم تكن قد وصلت في جسم الانسان إلى مراحلها النهائية فإن الإقامة فيها قد توقف استفحالها في الجسم)^(١) .

ورغم تضارب الآراء في ذلك ، فالموكد أن موقعها بالقرب من سفوح الجبال ، وتراميتها في اتجاه البادية ، وفر لها الهواء العليل ، بالإضافة لإشراق الشمس معظم أيام السنة . أما جمال دمشق فيأتي من المتناقضات بين ما يحيط بها من البوادي وما بين غوطتها وافرة الخضرة والمياه . فلا عجب إذ ما سحرت دمشق الأجانب والعرب الذين زاروها في فترات تاريخية مختلفة وحسبنا هنا أن نورد أقوال بعضهم مثل «موريس باريس» الذي قال عنها : (هي جزء من الخيال وموطن الشعر) ثم قول : «رولان دور فيليبس» عندما زارها : (كنت أبحث منذ أسابيع عن الشرق الأسطوري وها أنا قد وصلت إليه) ثم «الفونس دو لا مارتين» : يصف المدينة فيقول : (كانت قباب مساجدها وقصورها الكثيرة تعكس أشعة الشمس الغاربة وكانت كما ينشق المرء أريج الورود) . ثم يقول «بيرو أدفر» : (واحة دمشق قطعة من السماء في صميم الصحراء) : ثم يقول «برير هائم» (تبدو دمشق في أعالي الجبل وقد أحاطت بها الغوطة كأنها لؤلؤة ما زالت في صدفتها)^(٢) . وقال «رينان» : (هي جنة الله) كما قال «سوافاج» عنها : (بلد غني بالأسرار والحقائق لا يقدم للزائر ما عنده دفعة واحدة)^(٣) .

ولم تسحر دمشق برياضها ومفاتها الأوربيين فحسب بل فتنت العرب ومنذ أقدم العصور . ولكننا لا نستطيع أن نعرض هنا أقوال من تغنى بجمالها من العرب والمسلمين ، إذ لو فعلنا ذلك لاحتاج الأمر هنا لكتابة الصفحات العديدة ولقادنا الشطط بعيداً عن الغنية . وحسبنا هنا أن نورد قول أحدهم عندما زارها وهو ابراهيم عبد الرحمن الخياري المتوفي سنة ١٠٨٣ هـ / ١٦٧٣ م حيث يقول : (وجدتها نزهة للناظر وسلوة للحزون الخاطر وتحفة للقاطن والمسافر)^(٤) .

ولا غرابة في ذلك فالقادم إليها سواء من شرقها أو جنوبها أو شمالها يترك أرضاً شبه قفر

1 - Browne .W.G. op.cit. P.403.

(٢) انظر : سمارة ، يوسف سورية ملتقى الحضارات ، ص ٢٨ .

(٣) المرجع السابق . ص ٢٩ .

(٤) تحفة الأدباء وسلوة الغراء . ج ١ ، ص ١٤٩ .

قل مأوها ونذر نبتها لتطل عليه دمشق بغوطتها خضراء غناء وافرة الظلال وافرة المياه .
والتناقض بين الصورتين يلعب دوره في إظهار مفاتها ورونقها .

وكان بها متنزهات عديدة ، قرية منها أو بعيدة عنها . أما القرية فهي التي تطل على فروع بردى ، القرية من أسوارها ، والتي يسار إليها على الأقدام مثل الشرفين الشمالي والجنوبي اللذين كانا يطلان على المرج الأخضر ونهر بردى ثم متنزه ساحة البوابة خارج باب مصر ثم متنزه ساحة السخانة ويقع بالقرب منهما سوق الجمال ، ثم متنزه الصوفانية ويقع قرب قبر الشيخ رسلان شرقي المدينة ثم متنزه باب شرقي وهو متنزه النصارى من أبناء دمشق ثم متنزه الزينية وبرج الروس ويقع شرقي محلة العمارة البرانية على طريق دمشق حمص ثم متنزه مرج الدحداح وما بجانبه من الجنائن ، المعدة كمتنزه للأشراف وذوات دمشق ليلاً ونهاراً أو في كل الأوقات نظراً لقربه وانتظامه البديع .

ثم متنزه باب السلام به جنائن على جانبي نهر بردى وتوفر في هذه الجنائن المذكورة الانظام وحسن الترتيب والمقاصف البديعة . وجميع أصحاب ومستأجري هذه الجنائن من صناع ومتعشين ديدنهم استقبال من يقصدهم من الأهالي في جنائهم على حسب درجاتهم وهذه الجنائن كانت تؤم صيفاً وشتاءً ولا تخلو من الجمعات اللطيفة على الدوام .
ثم هناك متنزه عين الكرش الواقع شمالي سوق ساروجة ، وبه جنائن وبساتين لا تخلو من الناس ثم متنزه الآس والجلال غرب قاسيون^(١) .

ثم متنزه ما بين النهرين وهو مبدأ الوادي وبه دور وقصور وسوقية وبها حانوت طباط وصاجاتي وقطفاني وقفاعي وحواصري وفاكهاني وشواً وقلائن وسكراني ونقل وقاعة لبن وعدة للجلبة وحمام يشرح الصدر . ثم متنزه الجبة وهي أرض مربعة قدر فدانين عليها سقائف تظللها من طين بين شجر الصفصاف والجوز والحوار . وكل مفرش حصير تحيط به جداول الماء من أربع جهاته من البرك والبحيرات بالنوافير وهي على حد نهر بردى وبه نواعير . ثم متنزه القطبية وهي مقصف على نهر بردى وعليه نواعير لسقاية أراضيها بجداول الماء والبرك والبحيرات وبه قسبة ذات جوانب يعلوها أربعة أطباق ومربط دواب وعند المقاصف العبي والتحف والانطاع وحتى الأطباق والملاعق لمن يأكل وهذا لا يوجد في بلد من البلدان .
ثم متنزه البهنية وهو روض يجمع بين الأشجار والفواكه والأزهار مع عيون ماء ويعلوه

(١) انظر : الصيادي ، محمد عز الدين المصدر السابق . ص ٤٤ و ص ٤٧ .

محلة النيرين وهو أعظم المحلات وأخضرها وأنضرها ثم متنزه الربوة فيها عين ماء يقال لها « الملم » ومرابط الدواب وبها سوقتان قاطع لهما نهر بردى وفيها صيادو السمك يصطادونه ويقلونه ويبيعونه للزائر^(١).

وبها دكاكين لسمانين وبوادية واقسماوية وفرن تنور وأربعة شرائحية وطباخ^(٢). ويقول الخياري :

من متنزهات دمشق التي سارت بها الركبان وحدا بها الحادي مابين قاصر ودان وأولع بها الشعراء مدحاً ووصفاً « ذات القرار والمعين المشار إلى ذكرها في الكتاب المين فلقد وافيتها متنزهاً في رياضها وارداً سلسبيل أنهرها السبعة ولا أقول حياضها فوجدتها نزهة للناظر وسلوة لمحزون الحاطر وتحفة للقاطن والمسافر ذهبت إليها مع بعض الأحباب الظرفاء والأصحاب ومررنا فيها بالنيرين والجنك والكف والميطور وهي أسماء لأماكن معينة يعرفها ويتعدها من أهل الظرافة واللطافة جماعات ».

ثم يذكر محل كيوان بالقرب من الربوة فيقول : « زادت خضرته وراقت نضرته أما الربوة ذات البهجة والحظوة فإذا أنهارها تنساب في رياضها وتسقي أغصاناً أخجلتها الورود مع كونها في غيوضها إذ شتان بين أغصان ثمر أقماراً وأغصان تحمل أثماراً فحللنا بستاناً من بساتينها والأنهار تتلاطم بمعينها والمحل المشار إليه مشهور اللطافة والمحاسن به أنبوب ماء يتصاعد كالفضة والبللور فلا بدع أن كان غير آسن يسمونه بالنوفرة وباللغة العامية بالفوار وفي مقابل هذا مجلس لطيف الشكل حسن الوضع مستعذب الوصل ويصعد ماء فواره نحو القامتين إذا حبس فمه لحظة أو لحظتين ومقيلنا به فإذا به أنزه محل ترتفع فيه الأبصار وأوجه منزل تقابله أعين النظار ايوان لطيف يقابله مجلس حبين شريف مركب على أعواد خشب يمر تحته نهر بردى وهو أعظم الأنهار السبعة التي تجوس خلال الربوة كان غالب يومنا فيه تظللنا الأشجار تتجري من تحتنا الأنهار ، ويتحفنا تغريد الأطيوار وتنشد الحداة الدواخل رقيق الأشعار فهو يوم غفل عن تكدير صفوه الدهر^(٣) ».

(١) انظر : البدرى ، أن البقاء ، المصدر السابق ، ص ٦٥ و ص ٧٠ .

(٢) انظر : تيمور ، أحمد ، مقالة له في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق . المجلد ٢ . ج ١ . ص ١٤٧ .
جمادى الأولى سنة ١٣٤٠ هـ / كانون ثاني ١٩٢٢ م .

(٣) انظر : الخياري ، ابراهيم ، المصدر السابق . ج ١ ، ص ١٤٩ ، ص ١٥٠ ، ص ١٥١ ، ص ١٥٣ ، ص ١٥٤ ، ص ١٥٥ .

ثم متنزه الحواكير في سفح جبل قاسيون يفصل بينه وبين الربوة عقبة دمر تروى بدولاب تجره الحيوانات لارتفاعها عن مستوى نهر يزبد^(١) . وبالإضافة إلى المتنزهات العامة تلك كانت هناك متنزهات خاصة لاعيان دمشق وأغنيائها أنشأوا فيها قصورهم ومنازلهم في مناطق عدة من الربوة والصالحية والمرج الأخضر^(٢) .

ويقول الصيادي «إن المتنزهات الخصوصية لا تحصى ويضيق المجال عن ذكرها»^(٣) . يقيمون فيها في فصل الربيع والصيف ومتى أرادوا الاستجمام والراحة والتمتع بمفاتن الطبيعة الجميلة . وكانوا يولون الولائم فيها لأصدقائهم من حكام دمشق وأعيانها فمثلاً : سنة ١١٦٢ هـ/ ١٧٤٩ م أقام أسعد باشا العظم سيراناً^(٤) مع أكابر الشام في جنيئة أبيه الكائنة بالقرب من مسجد الأقصاب كما أقام علي أفندي المرادي ضيافة لأسعد باشا في قرية ببيلا في طريق الست على الغذاء والعشاء وفي يوم الاثنين ثالث جمادى الأول خرج الحاج أسعد باشا وعمل سيراناً في أرض الغرطة ومعه أكابر دمشق وأعيانها وكان يتخلل هذا السيران تناول الطعام وشرب القهوة^(٥) وتدخين الجربوق أو النرجيلات وكان القوم يخرجون للتنزه جماعات والاصدقاء مع بعضهم وكذلك الأسرة بكاملها رجالاً ونساء وأطفالاً ، يجلسون على ضفاف النهر والجداول المتفرعة منه تحت ظلال الأشجار يتناولون الطعام الذي أحضره معهم من بيوتهم أو يشترونه من الحوانيت الموجودة في تلك المتنزهات وينتقلون من بيوتهم إلى تلك المتنزهات سيراً على الأقدام أو يستخدمون راحلهم الخاصة أو يستأجرون تلك الرواحل وخاصة الحمير من الخانات المخصصة لذلك . فكان لكل خانجي العديد من الحمير لتأجيرها . وله أتباع يقومون بإيصال الزبائن إلى الأماكن التي يريدونها من متنزهات دمشق وكانت تصبغ ذيول الحمير بلون خاص للدلالة على أنها للإيجار . وبقي ذلك قائماً حتى استخدام العربات وإنشاء الطرقات لها في دمشق في أوائل القرن العشرين . وكان الخانجي يرسل حميره مع مستأجرها وبصحبة أتباعه إذا كان المستأجر غير معروف من قبله^(٦) وكان

(١) انظر : البدرى ، أبو البقاء المصدر السابق ، ص ١٠٢ .

(٢) انظر : الخياري ، ابراهيم . المصدر السابق ، ص ١٥٠ .

(٣) انظر : الصيادي ، محمد عر الدين المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٤) السيران تعبير دمشقي يقصد به التنزه في الطبيعة أنظر : حوادث دمشق اليومية . ص ١٢٩ . الحاشية .

(٥) انظر : البدرى ، المصدر السابق ص ١٤٥ .

(٦) انظر : العلاف ، أحمد للمصدر السابق ص ٢٥ ص ٢٦ .

لحركة الحمير جلبة وضجة فمنذ الصباح الباكر يسمع سعال أصحابها وهم غادون رائحون ،
يحثون الخطى وراها جاذلين ، غير باد عليهم التعب إلا في نهاية النهار ، ويحثون حميرهم على
الجد في السير بونخزها بمسمار مذهب مثبت في نهاية عصا أو بضرها بالعصى نفسها^(١) .
وفي الفترة المتأخرة استخدم أغنياء دمشق العربات التي تجرها الخيول في تنقلهم وقضاء
حاجاتهم ونزهاتهم .

1 - See: Burton, l.op. cit. PP.44,45.

* حمامات دمشق

كانت حمامات دمشق من المنشآت ذات النفع العام يرتادها أبناء دمشق والغرباء عنها على حد سواء ، ومن المعتقد أنها مأخوذة عن اليونان والرومان^(١) .

وكان بعضها آتخذ مجبوساً لجهة وقف (ذري أو خيرى) . وحسبنا هنا أن نستعرض مثلاً على ذلك حمام فتحى أفندي القلانسي في محلة الميدان بالشارع السلطاني الذي كان يستحم المرء فيه دون مقابل ويأكل قرصين من الصفيحة^(٢) ثم حمام ساقه الذي كان متولياً عليه سنة ١٢١٠ هـ/١٧٩٥ م الشيخ عبد الرحمن المرادي . وكانت دخولها تصرف في وجوه مختلفة بخسب حجة واقفها ، فبعضها كان يذهب للصرف على المدارس أو المنشآت الدينية والبعض الآخر لمتولي أوقافها أو للقيمين على إدارتها وتشغيلها ، وكذلك لترميمها بين الحين والآخر . ولم تكن على درجة واحدة من حيث فخامتها ورقعتها وتجهيزها ، لهذا كانت ترتاد من فئات الشعب المختلفة . كما أنشئ العديد منها في قصور أغنياء دمشق وأفراد الخيئة الحاكمة ،

(١) انظر : كيال ، منير . الحمامات الدمشقية وتقاليدها : ص ١٤٧ ، ص ١٤٨ .

(٢) الصفيحة هي أكلة دمشقية مكونة من رقيق العجين فوقه اللحم المفروم وقليل من اللبن ودبس الرمان والبصل المفروم والصنوبر والكزبرة الناعمة والعصفر والملح والفلفل يخبز ويؤكل .
ثم انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/ص ٣٢ .

ولم تكن حمامات دمشق داخل سورها فحسب بل أنشئ بعضها في الأرياض المحيطة بها وفي قرى الغوطة .

ولقد ارتبط عدد الحمامات في دمشق بعدد سكانها وتوسعها العمراني لهذا ترى أن عدد تلك الحمامات قد تناقص مع الزمن بدءاً من القرن الثامن وحتى القرن الحادي عشر للهجرة ثم بدأ بعد ذلك يتزايد عما كان عليه في القرن الحادي عشر . فالحسن بن أحمد الأربلي المتوفى ٧٤٦ هـ يذكر أن مجموع حمامات دمشق داخل سورها كان ٧٧/ حمام أما الحمامات التي تقع خارجها فمجموعها ٣٤/ حمام^(١) أما ابن كنان المتوفى ١٠٩٣ هـ فيذكر أن عدد حمامات دمشق في عهده فكان ٢١/ حمام بما فيها الحمامات التي تقع خارج الأسوار^(٢) ولقد استطعنا رصد عدد كبير من الحمامات العامرة وأماكن وجودها من خلال سجلات محاكم دمشق لفترة دراستنا ونلاحظ أن عدداً من الحمامات قد أنشئ في هذه الفترة كما رُم بعضها الآخر . أما ما كان منها ضمن الأسوار فهي :

حمام النايب في محلة باب توما باطن دمشق^(٣) ثم حمام منجك بمحلة القباقيبة^(٤) ثم حمام عيسى القاري^(٥) ثم حمام بني أسامة بدخلة بني الصايغ^(٦) ثم حمام لصيق البيمارستان النوري بالقرب من المدرسة الشامية من ناحية القبلة^(٧) ثم حمام الأمير علي في محلة سوق القطن بزقاق المدرسة الخضيرية^(٨) ثم حمام المسك في محلة طالع القبة أو حمام السلسلة^(٩) .

(١) انظر : مجلة الجمع العلمي العربي بدمشق المجلد ٢٢ ص ٣٢٦ ص ٣٢٨ «مدارس دمشق وحماماتها» ، تحقيق محمد أحمد دمان .

(٢) انظر : المروج السندسية نقلاً عن منير كيال . الحمامات الدمشقية وتقاليدها . ص ٤٨ ، ص ٤٩ ، ص ٥٠ .

(٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/ص ٣٥١ .

(٤) انظر سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١١/٢٣٥ هـ ، ص ٣٦٩ .

(٥) انظر سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٠/٢٣٥ هـ - ١٢١١ هـ ، ص ٣٦٩ .

(٦) انظر : المصدر السابق ، ص ٣٦٢ .

(٧) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٤/ص ٢٧ .

(٨) انظر سجل المحكمة الكبرى رقم ٢٣٥/ص ٤٩ .

(٩) انظر : المصدر السابق ، ص ١٨٢ ثم انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩/سنة ١٢١٠ - ١٢١١ هـ . ص ٢٤٤ .

(٩) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١١/٢٤٠ - ١٢١٢ هـ ، ص ٤٣٧ ص ٤٩٤ ثم سجلها رقم ١٢٤٧/٢٢٣ هـ ، ص ٢٣ .

ولقد أنشئت بعض الحمامات في هذه الفترة خارج الأسوار واستخدم ما كان منها قائماً وسعي لترميم ما كان معطلاً^(١) .

ثم حمام الناصري بالشاغور الجواني^(٢) ثم حمام الخراب شرقي خان اسماعيل باشا العظم^(٣) ثم حمام القيشاني بالقرب من سوق البريد^(٤) ثم حمام الركاب بمحلة الشاغور الجواني^(٥) ثم حمام سامي وحمام القاعة بمحلة القباقيبة^(٦) ثم حمام العتيق بمحلة الملك الظاهر^(٧) ثم حمام البابين ويستقي ماءه من نهر بانياس ويقع في حي القيصرية^(٨) ثم حمام الملكة وخمام السراجي وحمام الحاجب^(٩) .

أما الحمامات التي كانت موجودة خارج أسوار دمشق في الأرياض المحيطة بها فهي : حمام الفواخير في صالحية دمشق ثم حمام القاشاني في سوق الجركسية من الصالحية^(١٠) ثم حمام القناطر في محلة القنوات^(١١) ثم الحمام الجديد في محلة القنوات بزقاق التعديل^(١٢) ثم حمام الورد بسويقة ساروجة^(١٣) ثم حمام السنانية^(١٤) ثم حمام المحتسب بالدخلة النافذة بالقرب من خان لالا مصطفى باشا^(١٥) ثم حمام الزين بالسويقة المحروقة بدخلة المقدم^(١٦) ثم حمام القرماني بمحلة

(١) سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٠/٢٣٥ - ١٢١١ هـ ، ص ٣ و ٤٩ حمام عيسى القاري باطن دمشق .

(٢) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/ص ٣٢ .

(٣) انظر : في سجلها رقم ٢٦٠/سنة ١٢٢٣ هـ ، ص ٢٢١ .

(٤) انظر : سجلها رقم ٣٣٤/سنة ١٢٤٧ هـ ، ص ٢٠ .

(٥) انظر سجلها رقم ٣٢٦/سنة ١٢٤٨ هـ ، ص ٦٧ .

(٦) انظر : سجل القسم البلدية رقم ٣٢٧/سنة ١٢٤٧ - ١٢٤٩ هـ/ص ٣٠ .

(٧) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٣٤/سنة ١٢٥٠ هـ/ص ٨٨ .

(٨) انظر : سجل القسم العسكرية رقم ٤٠٩/سنة ١٢٦٤ - ١٢٦٥ هـ ، ص ٤٣٦ .

(٩) انظر : سجل محكمة الميدان رقم ٤١١/سنة ١٢٦٤ - ١٢٦٥ هـ ، ص ٢١ و ٣٤ .

(١٠) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/سنة ١٢٠١ - ١٢٠٣ هـ ، ص ١٦٦ وأيضاً

سجلها رقم ٢٢٠/سنة ١٢١٦ - ١٢١٧ هـ ، ص ٢٥ و ١٤١ .

(١١) انظر سجلها رقم ٢٣٥/سنة ١٢١٠ - ١٢١١ هـ ، ص ٣٥ .

(١٢) انظر : القسم العسكرية رقم ٢٦/ص ٣٠٠ .

(١٣) المصدر السابق . ص ٣١١ .

(١٤) انظر سجل القسم العسكرية رقم ٩٩/سنة ١٢٣٧ - ١٢٤٥ هـ ، ص ٨٢ .

(١٥) انظر : سجل القسم العسكرية رقم ٢٦/ص ٢٩ و ٨٢ .

(١٦) انظر : سجل المحكمة الكبرى رقم ٢٥٠/سنة ١٢١٦ - ١٢١٧ هـ ، ص ٨٩ .

القلعة ظاهر دمشق^(١) ثم حمام التيروزي في محلة قبر السيدة عاتكة^(٢) ثم حمام الحدادين في محلة الدرويشية^(٣) ثم حمام الجديد بمحلة القماحين من الميدان^(٤) وحمام فتحي القلانسي^(٥) ثم حمام الحاجب بباب السريحة^(٦) ثم حمام الخانجي^(٧) ثم حمام السلسلة^(٨) ثم حمام الجوزة في سوقة ساروجة^(٩) وحمام أمونة بمحلة العمارة بالقرب من جبانة أبي الدحداح^(١٠) ثم حمام السكاكري^(١١).

ولا شك أنه قد غاب عنا بعض أسماء الحمامات التي كانت في دمشق كما أننا نلاحظ تزايد ما كان منها خارج الأسوار في هذه الفترة نظراً لتزايد الأحياء السكنية .

ومن جهة أخرى فقد اختلف نمط بناء كل حمام من حيث الزخرفة والمواد المستخدمة وطريقة بنائه والمساحة التي بني عليها إلا أن غالبها ، تألف من ثلاث دوائر أساسية هي : البراني — والوسطاني — والجواني ، والبعض القليل منها كان مكوناً من دائرتين : البراني والجواني . وأجمع السواح على تفضيل حمامات دمشق عن غيرها لما فيها من الاتقان ونظام الهندسة وغازاة المياهم واتقان الخدمة . والاكرام والاعتناء وبخس الأجرة للمغتسل . وكان يدخل إلى الدائرة الخارجية منه (البراني) من باب الشارع أو الحارة . وعلى جانبي المدخل توجد غرفتان صغيرتان تليهما مصنطبتان أو أكثر مرتفعتان عن أرضية البراني بمقدار يصعد إليهما بدرج خاص فيخلع عليها المغتسلون ثيابهم ويقدم لهم ما يلزم من البشاكير والمناشف^(١٢) وما

(١) المصدر السابق ، ص ١١٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٢٧ .

(٤) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦ / سنة ١٢٢٢ — ١٢٢٣ هـ ، ص ٧ .

(٥) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ص ٥٣ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٤١١ .

(٧) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٤ / ص ٣٣ .

(٨) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠ / سنة ١٢١١ — ١٢١٢ هـ ، ص ٤٩٤ .

(٩) انظر : السجل رقم ٢٦٠ / عمّام دمشق / سنة ١٢٢٢ — ١٢٢٣ هـ ، ص ٥٨ .

(١٠) انظر سجل محكمة الميدان بدمشق رقم ٣٢٣ / سنة ١٢٤٧ هـ ، ص ١٢٤ .

(١١) انظر السجل رقم ٣٢٥ / عمّام دمشق / سنة ١٢٤٧ — ١٢٤٨ هـ ، ص ٩٤ .

(١٢) حيث يوجد خزانات في جدار المصاطب ، فيها عدد من البقع وكل بقعة فيها كسوتان مكونتان من منشفتين ، الأولى تلف الجسم فيها بين الصرة والأسفل ، والثانية تلف الجزء العلوي من الجسم وهناك بشكير للرأس وكان الأغنياء من المغتسلين ، يضعون كسوة فوق البشكير من الحرير .

شاكل ذلك للرجال . أما النساء فكان يجلبن بقجائهن من بيوتهن . وكانت مصاطب الحمام مكسوة بالسجاد والبسط . وفي داخلها نوفرة . ماء تطوقها من جهاتها الثلاث مصاطب صغيرة أو مقاعد لجلوس المستحمين عليها . وفي وسط المصاطب الكبيرة توجد بركة ماء كبيرة بها فسقية ونافورة وغالباً ما تكون مزينة بتماثيل من الأسود الحجرية التي تخرج من أفواهها المياه لتصب في البركة . كما في حمام نور الدين الزنكي في البزورية .

ويزود الحمام بالقباقيب العديدة التي تستخدم من قبل المغتسلين وعمال الحمام وبه المرايا التي تعلق على الجدران . ولتأمين الإضاءة للحمام نهاراً توجد به شبايك علوية محكمة القفل من الزجاج .

ويرى من البراني أوجاق القهوة لإعدادها وتقديمها للزائن . ولا يسمح بالتدخين إلا لمعلم الحمام .

أما الدائرة الثانية فتكون من الوسطاني والجواني . وهي خاصة بالاستحمام ، بها منافع (دورات مياه) ويوجد في كل منها أجران ، وهذه الأجران من الرخام أو الحجارة تنصب فيها المياه من فتحتي أنبوبين ، الأول حار والثاني بارد تتحكم فيها قطعتان من الخشب . أما جدار البناء وأرضيته فغالباً من الرخام والسقف من حجارة العقد أو على شكل قباب بها فتحات توضع عليها قطع زجاجية للإضاءة ويطلق على هذه القطع اسم القماري^(١) .

هذان القسمان لا يوجد فيهما شبايك البتة وذلك للحفاظ على حرارة الحمام الداخلية^(٢) . وتستمد هذه الحمامات المياه من الطوالع القريبة التي تزود بدورها من الطالع الرئيسي . وينقل الماء بأنابيب فخارية إلى مرجل ناري وإلى صنادير المياه الباردة ودورات المياه والنفقات في داخل برك الماء ونسوق مثلاً على ذلك (حمام نور الدين الشهيد) الذي كان يزود بالمياه من طالع البزورية ثم حمام العفيف وحمام المقدم وحمام الحاجب لكل واحد منها طالع ماء يزوده طالع رئيسي يأتيه الماء بدوره من نهر يزيد . أما حمام الورد والجورة فمن نهر تورا وحمام الملك الظاهر من نهر بانياس وحمام الملكة والقاضي والسروجي من نهر بانياس والقنوات

(١) انظر : القساطلي ، نعمان بدأت الروضة الغناء في دمشق الفيحاء . ص ١٠٨ و ١٠٩ ولقد انتهت من ذلك بزيارة ميدانية لحمام نور الدين الشهيد الواقع بالقرب من خان أسعد باشا العظم في سوق البزورين

بدأت مديرية آثار دمشق بتوسيعه وإعادةه إلى حالة الأصل في سنة ١٩٨٠ م

(٢) انظر : السجل رقم ٤١١/محكمة الميدان . ص ٣٤ و ٤٨ .

وحمام فتحي وغيره من نهر الديراني^(١) وكانت هندسة الحمام فيما يتعلق بتدفقته وتسعين المياه فيه وتوزيعها على أقسامه في غاية الاتقان وكانت على الشكل التالي : هناك الأقيم الذي يقع خارج الحمام وهو عبارة عن حفرة كبيرة وعميقة دون مستوى أرضية الحمام بحوالي ٣ أمتار تكون إلى جانبها مواد الاحتراق من قمامة وزوث الحيوانات وبزور الزيتون المطحونة وغيرها . وفي هذه الحفرة توجد أثافي يرتكز عليها قدران (حلتان) كبيران من النحاس ، أولهما ويطلق عليه اسم « الناري » والثاني بجانبه ويطلق عليه « الدخاني » ويصل بينهما انبوب من الفخار مستواه دون مستوى سطحهما وهو محكم لا يسمح بتسرب المياه منهما ويأخذ الناري ماء من الطالع الخاص بالحمام بقدر معلوم ويتحكم به الأقمعي بسدادة خاصة . وعندما يسخن الماء فيه يندفع إلى الدخاني ومن الدخاني في أنابيب إلى صناير المياه الساخنة ليصب في الأجران داخل الحمام في الوسطاني والجواني . وارتكاز الناري والدخاني على الأثافي يسمح بتسرب الأوكسجين فيساعد الوقود الموجود في أسفل الأثافي على الاحتراق وما بعد الأقيم يوجد دهليز مستقيم تحت الجواني ثم الوسطاني إلى أن يصل إلى المدخنة التي تسمى « الصليبية » والتي تسمح بخروج الدخان منها وتقع هذه المدخنة في نهاية الحمام من الجهة المقابلة للأقيم والدخان الساخن عندما يسير تحت الجواني والوسطاني بتفرعات خاصة يؤدي إلى رفع درجة حرارة القسمين المذكورين . ويلقم الأقمعي الأقيم بالوقود حسب الطلب ، ومن جهة أخرى اتخذت للحمامات احتياطات هندسية خاصة من أجل استمرار تدفق الماء فيما إذا قطعت المياه عن الحمام من الطوالع الرئيسية بأن أقيم في داخل الحمام خزانات خاصة تملأ بالماء للطوارئ^(٢) .

ويجمع معظم المؤرخين الذين أروخوا للحمامات في دمشق على أن معظم حماماتها وأكثرها اتساعاً ونظافة في تلك الفترة من الزمن كان حمام الخياطين وحمام القيشاني وحمام الملكة وحمام النوفرة الذي يقع بالقرب من باب الجامع الأموي الشرقي ، وحمام المسك الذي يقع في حارة النصاري من دمشق . وحمام الخراب وحمام الناصري في الشاغور وحمام البكري وحمام القيمرية وحمام الشيخ في باب توما^(٣) . ثم حمام نور الدين الشهيد في البزورية .

(١) انظر : كيال ، منير ، الحمامات الدمشقية وتقاليدها . ص ٥٦ و ص ٥٧ .

(٢) وعندما قمت بزيارة حمام نور الدين الشهيد في البزورية وضحت لي ذلك معلم الحمام السيد مروان حمادي التيناوي وذلك بتاريخ ١٩٨١/١/١٨ .

(٣) انظر : القاسمي ، محمد سعيد ، قاموس الصناعات الشامية . ج ١ . ١٠٩١ . ثم : القساطلي ، نعمان الروضة الغناء في دمشق الفيحاء . ص ١٠٩ .

ولقد توارث العمل في هذه الحمامات أفراد أسر معينة من دمشق حيث كان الوالد يعلم ابنه الحرفة ، وهكذا ، ومن الأسر الدمشقية التي عملت في الحمامات آل التيناوي والقطان ، وكعب ، ومعتوق وموصلي ، والنوري ، والكوزلي ، والملا ، والشيرازي ، والملي ، والمارديني ، والحنبلي ، والسلمسية^(١) وعمل بها أيضاً بعض الأنكشارية والأشراف . وكان لهذه الحرفة شيخها شأن بقية الحرف في دمشق^(٢) .

أما الطاقم الذي كان يعمل في داخل الحمام فكان على الشكل التالي :

- المعلم وهو صاحب الحمام أو مستأجره الذي يقوم بتشغيل الحمام وتوزيع العمل على بقية عماله .
- والناطور : ويتعاطى كسوة الزبائن في القسم الخارجي .
- والمصوبون : ومهمته تغسيل الزبائن بالصابون والليفة والدلك بالكيس الخاص بالحمام لاجراج الوسخ لمن أراد ثم القهوةجي ويسقي القهوة للزبائن في الحمام ، ثم .
- الأجير : ويكون واحداً أو أكثر ومهمته أخذ النعال وتقديمها لاصحابها .
- القميمي : ومهمته إيقاد النار في الأقميم والإشراف عليه والحصول على الوقود والزبل ونشره ليجف كما يخرج الرماد من تحت الأقميم .
- الزبال : ومهمته جلب روث الجمال والحميز والبقر في الشليف على ظهر حمار من أماكن عدة كالحانات وغيرها^(٣) ويعطيها للقميمي ، ثم .
- الصبغ : وهو عامل أيضاً يقدم للزبائن المناشف إذا كانوا من متوسطي الحال أو من الفقراء كما يعمل النورة المعروفة بالدواء^(٤) .

وتطالعنا سجلات محاكم دمشق بالعديد من أدوات ومحتويات الحمامات مثل : محارم بغلاذية — ومحارم مكاوية — ومادبيات — وبقجات يمنية — وبسط وسجادات مختلفة الأحجام وحرامات محشوة خرق ومخدات محشوة خرق أيضاً وسجادات كبيرة وثريات

(١) انظر كيال ، منير . الحمامات الدمشقية وتقاليدها . ص ١٧٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

(٣) انظر : القاسمي محمد سعيد قاموس الصناعات الشامية . ج ١ ، ص ١٠٧ ، ص ١٠٨ ثم ج ٢ ص ٣٦٣ .

(٤) المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٢٢١ .

وصناديق كبيرة وقباقيب وأراكيل ودولات نحاس ومناصب وملاقط وقشط وكاسات ومجالف وأباطين وغيرها^(١) .

أما الصابون المستخدم في الحمامات فكان من أنواع مختلفة منها البلدي والمغشوش والنايلسي والجعفري والنوعان الأخيران جيدان^(٢) واستخدم الفلاحون والفقراء نبات الشنان في الحمام من أجل تنعيم الشعر والبدن وجلي الأوساخ عن أجسادهم^(٣) .

وكان من الطبيعي ألا يسمح باستخدام الحمام بشكل مختلط بين الجنسين (الذكور والاناث) وحتى طاقم تشغيله كان يتبدل بحسب جنس الزبائن . فكان الحمام يفتح لاستقبال الذكور من الفجر إلى الظهر على حين يخصص من الظهر إلى المساء لاستقبال الاناث فيُبدل طاقم تشغيله بالعنصر النسائي وكانت بعض الحمامات لا تستقبل سوى الرجال خاصة ما كان منها في الأسواق والشوارع . أما طاقم تشغيل الحمام النسائي فهو متألف من :

— المعلمة : وهي التي تقوم باستقبال الزبونات وتقبض منهن الأجرة وتكون في حلة جميلة وزينتها كاملة ثم .

— الأسطة : وهي التي تقوم بتغسيل البدن والرأس للزبونة ومهمتها كما نرى مهمة المصوبين لدى الرجال ، ثم .

— البلانة : وهي التي تقوم بتدليك البدن بالكيس وتقوم بصيغ الأبيض الشايب من الشعر وتقوم أحياناً بحمل البقع للنساء الموسرات من بيوتهن إلى الحمام وبالعكس ثم :

— زقاقة البارد : وهي التي تأتي بالماء البارد وتضيفه إلى الماء الساخن حتى يصبح محتملاً . ثم — الناطورة : ومهمتها حراسة ثياب النساء وتأتي بمناشفهن وتلف أبدانهن^(٤) .

(١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٠٢/سنة ١١٩٠ — ١١٩١ هـ ص ٤٨ ثم : سجلها رقم ١٢١٠/٢٣٩ — ١٢١١ هـ ، ص ١٨٩ . ثم سجل محكمة الميدان رقم ٤١١/سنة ١٢٦٤ — ١٢٦٥ هـ ، ص ٣٤ .

(٢) انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص ٢٦٩ .

(٣) المصدر السابق ج ٢ ، ص ٢١٦ .

(٤) انظر : القاسمي ، محمد سعيد ، قاموس الصناعات الشامية ، ج ١ ، ص ٥٠ وص ١٠٨ وص ١٠٩ .

الحمام كظاهرة اجتماعية

لم يكن الحمام آنئذ منشأة عامة يقدم خدمة للأفراد فحسب ، بل كان مكاناً للقاء الأصدقاء والأقرباء وفي مناسبات اجتماعية عديدة مثل : ما قبل الأعراس وما بعدها ، وبعد الولادة وبعد البرء من المرض وغير ذلك من المناسبات الاجتماعية .

كما يحصل التعارف بين أبناء المجتمع الدمشقي ، وكانت لتلك اللقاءات نتائجها الاجتماعية . فيتناول الأصدقاء والأقرباء فيه الطعام مشتركاً كما يتناولون الشاي والقهوة والمشروبات المثلجة ، ويتبادلون الأحاديث والسير ويتخلل ذلك أحياناً السماع للغناء^(١) .

وكانت النسوة يأتين إليه بكامل زينتهن مع حاشيتهن وغالباً ما يعد لهن الحمام مسبقاً ويصطحبن معهن في بعض الأحيان المغنيات خاصة إذا كن قد قمن بحجز الحمام لهن ولصديقاتهن . وقريناتهن^(٢) . مسبقاً ، فينطلقن بمرحهن دون قيود . ومن جهة أخرى كان الحمام ملتقى للنساء ومكاناً مناسباً للام التي تبحث عن شريكة لحياة ابنها . حيث ترى الفتيات المصاحبات للامهات بقسمات أجسادهن ونبرات صوتهن إلى غير ذلك . وتتعرف الأم على اسم الفتاة واسم والدتها واسم اسرتها ومكان سكنها ووضعها الاجتماعي ، وهكذا^(٣) .

(١) انظر: الصيادي ، محمد عز الدين . المصدر السابق ، ص ٢٨ .

2 - Russell. A. op.cit. VOL.1.P.138.

(٢) انظر: كيال ، منير . الحمامات الدمشقية وتقاليدها ، ص ٢٢٠ .

وكانت كل امرأة تصطحب معها بقجة تحوي ملابسها النظيفة والمناشف والكيس الذي يحوي الطاسة والصابونة والترابة الحلبية والمشط وكيس الحمام والليفة والحناء إذا ما أرادت صبغ شعرها . وبعض النسوة كن يحضرن معهن معجوناً من أجل تدليك أجسادهن فتنبعث منه رائحة الزنجبيل خاصة إذا ما كانت المرأة نفساء ، وهذا المعجون يسمونه الشداد^(١) لشد بعض عضلات الجسم .

أما الرجال فكانوا يستخدمون دواء لإزالة شعر العانة والإبطين وبعد إزالة الدواء عن الجسم يجلس المغتسل على أرض الحمام في القسم الجواني ، ليقوم بالان بتدليك جسمه مرات عديدة بفواصل زمني بين كل مرة وأخرى ، وكذلك أصابعه وكففيه ورقبته مع صب دفعات من الماء الساخن . وبعد ذلك ينتقل المغتسل إلى الوسطاني حيث ينشف جسمه بالفوطة وينتقل بالقبقاب إلى الخارجي (البراني) ليرتدي ثيابه وعندما يكون الجو بارداً يرتدي فوقها فروته ويقوم بشرب القهوة^(٢) .

وكان حمام العرس ، بالنسبة للنساء ، يتم بتوجيه أم العروس الدعوة لأهل العروس والعريس من النساء قبل زواج العريسين . وما بعد الزواج تقوم أم العريس بتوجيه الدعوة بعد اسبوعين من الزواج سداداً منها لحمام أم العروس الذي قامت به الأخيرة قبل زواج ابنتها . ويطلق على حمام أم العريس حمام الغمرة . وهناك حمام الولادة الذي يقام في اليوم السابع للولادة ، ثم حمام الأربعين أي بعد الولادة بأربعين يوماً^(٣) .

وغالباً ما يتم اللقاء في حمامات الحارات القريبة من منازل هذه الأسر إلا أننا نلاحظ أن بعض الحمامات كانت وفقاً على فئات اجتماعية معينة . فحمامات حي الميدان القريبة من البوابة كان يرتادها الفلاحون ، وحمام الملكة كان يرتاده أغوات سوق ساروجة ، في حين كان بعض الحمامات الأخرى ترتادها فئات قومية معينة مثل حمام الراس الذي كان يرتاده الحجاج الأكراد من العرجية والحمالين وبعض نزلاء خانات الميدان قبل الظهر ، وبعد الظهر كان يستقبل السيدات من سكان المناطق المجاورة له ، وحمام المسك كان يرتاده النصاري واليهود لقربه من أحيائهم^(٤) .

(١) ويتكون الشداد من الزنجبيل واللبس والقرفة ولسان الضعفور والآس والزيت والبيض . أنظر : المرجع السابق . ص ١٧٤ .

2 - Russell. op.cit. VOL.1.PP.134-135.

3 - Russell. op.cit. VOL.1.P.136.

(٤) انظر : كيال ، منير ، المرجع السابق . ص ١٨٩ .

وشاهدت حمامات دمشق العديد من حوادث السرقات خاصة عندما لا تكون محجوزة لسبب ما ، بل يكون الزبائن غرباء عن بعضهم ، حيث تكون الظروف مهيبة للحدوث مثل ذلك . ويقوم السارقون بسرقة ما يقع بأيديهم من ثياب ومناشف وأحذية وغير ذلك ما خف وزنه وغلا ثمنه ، ويتركون بدلاً عما سرقوه حاجياتهم البالية والتافهة . وكانت السرقة تحدث في حمامات الرجال والنساء على حد سواء .

فالنساء السارقات كن يراقبن النساء الغنيات ويقمن بابدال بقعجتهن ببقعجات الغنيات في غفلة منهن أو ينتشلن من هذه البقعجات ما يردنه من الأشياء الثمينة . وإذا ما حصل واكتشف أمرهن فيدعين أن ذلك كان نتيجة الخطأ في تمييز بقعجتهن عن بقعجات المسروقات ، وإذا ماظفرت السارقة بما أرادت لم يكشف أمرها ، تتسلل بسرعة بما حملت خارج الحمام ، وبعدئذ تقع الواقعة بين المرأة التي سرقت أشياءها ومعلمة الحمام . ولم تقتصر أحداث الحمام على ذلك بل كان يحصل ما أدهى وأمر من ذلك وهو تبديل الأطفال الرضع حيث تقوم المرأة بتبديل طفلتها الأنثى بطفل غيرها الذكر ، وذلك بتبديل اللفافة الخارجية في غفلة من عين الأم ، وأحياناً تقوم المرأة الزانية بترك ابنها غير الشرعي لمعلمة الحمام مقابل مبلغ من المال ، لتخفي عارها^(١) .

(١) انظر : المرجع السابق . ص ٢١٤ وص ٢١٥ .

البيمارستانات في دمشق

بقيت دمشق حتى دخول إبراهيم باشا المصري تعتمد على البيمارستانات القديمة في استقبال مرضاها ولم تعرف المستشفيات بالمعنى العصري إلا بدءاً من عهده .

وكانت تلك البيمارستانات دوراً للبائسين وأندية للضعفاء ولأصحاب العاهات والزمانات وكان في دمشق ثلاث بيمارستانات هي :

بيمارستان الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي أنشيء لعزل المجزومين عن المجتمع خوفاً من انتقال عدوى المرض إلى الأصحاء ، وكان مكانه في محلة الاعاطلة بالقرب من باب شرقي وبقيت يستقبل مرضاه منذ تأسيسه وحتى مطلع القرن العشرين .

أما البيمارستان الثاني فهو البيمارستان النوري ويقع غرب سوق الخياطين داخل دمشق . أسسه نور الدين بن محمود بن زنكي سنة ٥٩٥ هـ وقد أطنب المؤرخون في ذكره والإشادة بمحاسنه ومنافعه وأفردوا الفصول الطوال في بنائه وزخرفته ونفقاته وتخطيطه . وتألف بناؤه من أربعة ايوانات خصص كل واحد منها لعلاج نوع من المرض . وله باب يبرز عن

(١) جمع بيمارستان : وهي كلمة فارسية الأصل مركبة من كلمتين (بیمار) وتعني المريض وستان تعني مكان أو محل النظر : كرد علي ، محمد . خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٥٧ .

جداره الغربي زين أعلاه بمقرنصات نافرة إلى الخارج ، كما كانت نوافذه التي تعلو أبوابه مزخرف بزخارف جصية مخرمة تشبه إلى حد كبير زخارف نوافذ قصر الخير^(١) .

وكان لهذا اليمارستان أوقاف كثيرة وواسعة تدر عليه أموالاً كثيرة تصرف لمعالجة المرضى وإطعامهم وتوفير مرتبات الأطباء والصيادلة والعمال وغيرهم ، الذين لا يقلون عن عشرين رجلاً^(٢) .

وكان يعالج المرضى المتخلفين ومنهم المجانين الذين كانوا يوثقون بالسلاسل . وهكذا نرى أن طريقة العلاج التي اتبعت فيه كانت طريقة العصور الوسطى . ووجد متولون ونظار على أوقافه من قبل السلطات العثمانية ، ففي سنة ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ - ١٨٣٥ م . كان متولياً على أوقافه موسى آغا بن يوسف آغا النور شاهرلي بموجب براءة سلطانية^(٣) وكان نظراً على أوقافه في القرن الثاني عشر أحمد بن محمد بن زين العابدين بن الغزي الدمشقي الشافعي وذلك من سنة ١١٦١ - ١١٩٤ هـ / ١٧٤٨ - ١٧٨٠ م^(٤) . وقام أبناء الطبيب مصطفى عودة وهم سعيد آغا وعبد القادر آغا وحسين أفندي بمداواة الناس فيه بطريقة الطب القديم الذي أخذوه عن والدهم . وبقي اليمارستان النوري يستقبل مرضاه إلى أوائل القرن الرابع عشر للهجرة ١٣١٧/ هـ حيث قامت بلدية دمشق بإنشاء مستشفى الغرباء في الجانب الغربي من التكية السليمانية المطلّة على المرج الأخضر وجمعت له الإعانات من مصادر عدة ومنها أوقاف اليمارستان النوري^(٥) .

أما اليمارستان الثالث فهو اليمارستان القيمري الذي يقع إلى غرب جامع الشيخ

- (١) مجلة المعرفة . المجلد ٩ . ص ١٧١٤ وص ١٧١٥ . ترجمة القاهرة . ويقول ابن جبير الذي زار دمشق سنة ١٥٨٠ هـ : « أن أجرة اليمارستان النوري في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً وله قومة بأيديهم الأومة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها من الأدوية والأغذية وغير ذلك . والأطباء يكرّون إليه كل يوم يتفقون المرضى ويأمرون بأعداد ما يصلح لهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل انسان » انظر : رحلة ابن جبير ، ص ٢٣٠ . بيروت سنة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
- (٢) انظر : كرد علي ، محمد . خطط الشام . ج ٦ ، ص ١٥٨ .
- (٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٤/ سنة ١٢٥٠ هـ . ص ٥٨ .
- (٤) انظر : المرادي . سلك الدرر . ج ١ ، ص ١٧٢ .
- (٥) انظر : الشطبي ، محمد جميل . أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ومتنصف القرن الرابع عشر . ص ٢٨٤ . « منتخبات التواريخ لدمشق » . ج ٢ ، ص ٦٩٣ .

محي الدين بن العربي . وينسب إلى منشئه أبي الحسن بن أبي الفوارس المتوفى سنة ٦٥٣ هـ .
وقد رجمه حسن باشا المعروف « بشوريزي حسن » . ونظر في أوقافه وأقام شعائره كما فعل
بالييمارستان النوري من قبل^(١) .

وكان يصرف على الييمارستان القيمري من أوقاف عديدة ، حبسها عليه مؤسسه
المذكور ، وقد حددت صورة وقفه ، وجوه الصرف المختلفة « كمعالجة المرضى والمصابين
والأشربة وأجرة الطبيب بحيث يصرف للطبيب الواحد في كل شهر ٧٠ / درهماً ونصف غرارة
قمح ، ولللكحال في كل شهر خمسة وأربعون درهماً ونصف غرارة قمح وللحوائج في كل شهر
عشرة دراهم وسدس غرارة قمح وإلى الشراب وبنائعه ولعمل الأشربة والمعاجين في كل شهر
سبعة وعشرون درهماً وثلاث غرارة قمح . ولأمين المتشاوفين على الوقف إلى كل واحد في كل
شهر ستون درهماً وغرارة قمح وغرارة شعير ، وللإمام في كل شهر أربعون درهماً وثلاث غرارة
قمح . وللمعمار المرتب لعمارته في كل شهر ثلاثة عشر درهماً وسدس غرارة ويكون بواباً .
وللحوائج في كل شهر ثمانية دراهم وسدس غرارة قمح وللناظر العشر من المغل وربع الوقف
ويصرف إلى رجلين اثنين بخدمة الييمارستان عن ثمن قدور ونحاس وفر ولحف ومخدة وفي كل
شهر إلى قيمه والمؤذن بالمسجد بقرب الييمارستان خمسة وعشرون درهماً فإن فضل إلى فكاك
الأسارى من الكفار وبعد ذلك عاد وفقاً على الفقراء وجهة الوقف هذه مؤرخة في سنة
٦٥٣ هـ . ما تذكر القرى والبساتين والخوانيت والطواحين التي حسبت على هذا
الييمارستان^(٢) .

أما هندسة بنائه فله واجهة من أجمل واجهات الأبواب هندسة^(٣) ولقد وصفه الشيخ
جمال الدين بن عبد الهادي بقوله : « هو من أحاسن الدنيا ويقال إنه ليس في الدنيا
ييمارستان أحسن منه ولا أشرح وخاصة الايوان المعظم والقاعتان المعظمتان القبليتان بهذه
الشبابيك المشرفة على الدنيا وتحت الشبابيك هذه حوض النارج ولا سيما في أيام زهره تفوح

(١) كرد علي، محمد: المصدر السابق. ج ٦، ص ١٥٨ ويقول: محمد أحمد دهمان «أن هذا الييمارستان
قد أصابه الدمار قبل هجوم التتار على دمشق سنة ٦٩٦ هـ ونهبهم للصالحية انظر: مجلة المجمع العلمي
العربي بدمشق المجلد ١٨، ص ٦٤ .

(٢) انظر: كرد علي محمد . المصدر السابق ج ٦ ، ص ١٥٩ . ثم : الحصني ، محمد أدب ،
المصدر السابق . ص ٩٧٤ و ص ٩٧٥ .

(٣) انظر كرد علي ، محمد ، خطط الشام . ج ٦ ، ص ١٥٨ .

منه هذه الرائحة الزكية فتتعش النفوس وتزكي الأرواح ويقال أن تمرلنك عندما أخذ الشام نزل دوا داره فيه وقال درت جميع دمشق فما وجدت أشرح منه ولا أفضل ، به قائمتان لصيق القاعتين المذكورتين للمرضى المسهلين أحدهما للرجال والأخرى للنساء ولصيقهما حاصلان الشرقي منهما للشرابات والمعاجين والأكحال والأشياف^(١) والاقراص وغير ذلك والغربي معد لتفريق ذلك في كل يوم اثنين وخميس للخارجين عنه وصار لا يفرق ذلك فيه إلا يوم الخميس فقط وفي كل يوم للمرضى به من نساء ورجال وفي شرقيه مطبخ للمزورات^(٢) والفراريج وغير ذلك ولصيقه قاعة من جهة الغرب للمجانين ولصيقها حاصل للمغل وفي دهليز بابة الشمالي بيت لبواب ، وبوسطه بركة منظمة يأتي إليها الماء بشكل دائم بناعورة مركبة على نهر يزيد وفيه خدمة للرجال والنساء وكحال وطبيب وشراباتي وعامل ومشارف وغير ذلك من التراتيب الجيدة وفيه محفة لحمل الضعفاء ويحصل لهم بها في الصالحية نفع عظيم^(٣) .

ولقد جاء ذكر لهذا اليمارستان في القرن الثاني عشر للهجرة على أنه كان يستقبل المرضى للعلاج ونلمح ذلك من خلال ترجمة عليم الله الهندي النقشبندي اللاهوري الحنفي الذي كان « يخلو بنفسه في معالم الأربعين في جبل قاسيون بالصالحية حيث كان الكثيرون من المرضى يعالجون^(٤) » .

هذه هي اليمارستانات التي بنيت في دمشق في فترات مختلفة من تاريخها الاسلامي وحسبت لها الأوقاف الكثيرة من أجل أن تبقى في خدمة الشعب كمنشآت ذات نفع عام . ولم نلاحظ انشاء مستشفيات أو ييمارستانات جديدة في العهد العثماني حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وكل ما رأيناه من جديد في هذا المجال هو بناء المستشفى العسكري الذي بناه ابراهيم باشا المصري الذي احتل دمشق سنة ١٨٣١ / ١٢٤٦ هـ - ١٢٤٧ هـ حيث أقامه بالقرب من مقبرة الصوفية^(٥) غربي مدينة دمشق وكانت المعالجة فيه على الطرائق الغربية في

(١) جمع شيف وسياف وهي الأدوية الخاصة بالعين . انظر : ابن طولون . القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية ، القسم الأول ، ص ٢٤٤ .

(٢) جمع مزورة وهي المرقعة تطعم للمريض وتطبخ خالية من الأدهان . انظر : ابن طولون . القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية . القسم الأول ، ص ٢٤٤ . الحاشية .

(٣) انظر : ابن طولون . القلائد الجوهريّة ، القسم الأول ، ص ٢٤٤ .

(٤) انظر المرادي ، محمد خليل . سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر . ج ٣ ، ص ٢٦٠ ، ص ٢٦٢ .

(٥) انظر : كرد علي ، محمد خطط . الشام . ج ٦ ، ص ١٥٩ . ثم : الصيادي محمد عز الدين . الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية ، ص ٤٤ .

الطب : التي تختلف عن الطريقة والتي كانت متبعة في البيمارستانات الدمشقية التي تعتمد على اسلوب وأدوات استعملت في العصور الوسطى في معالجة المرضى ، من حيث الغذاء والدواء ، مع استخدام التناغم والتعاويد ، وأهمال للطب الوقائي وخاصة ما يمنع انتشار العدوى من شخص إلى آخر بإزالة البيئات المناسبة لانتشار الجراثيم وتكاثرها والحشرات الناقلة للجراثيم وغيرها في شوارع المدينة وأزقتها وأرباضها ، أو ما يسبب تلوث مياه الشرب والأطعمة وغير ذلك .

ولقد أهمل الدمشقيون عن جهل إزالة مسببات الأمراض والجراثيم من أزقة مدينتهم وشوارعها فكنت ترى المزابيل بالقرب من حاراتها^(١) كما كان عمال الحمامات ينقلون روث الحيوانات من الخانات وغيرها فيضعونها بالقرب من حماماتهم في أزقة دمشق وشوارعها لاستخدامها وقوداً للحمامات . فشكلت تلك الأكوام بيئة مناسبة للجراثيم والحشرات الناقلة لها . هذا ناهيك عن القائهم جثث الحيوانات النافقة في شوارعها وأزقتها دون ادراكهم لما ينتج عن ذلك من اضرار صحية ، ووردت أولى الإشارات إلى اهتمام الولاة والحكام بنظافة دمشق سنة ١٨٣٠ م في عهد محمد سليم باشا الذي « طالع المنادي على الزبالة بأن تعزل في جميع حارات البلد فلما سمع الناس التنبيه من زيادة خوفهم ففي مدة يوم وليلة عزلوا جميع حارات البلد وما بقي زبالة فيها مطلقاً »^(٢) .

وكان الناس يسعون لازالتها ليس بدافع وعيهم الصحي بل خوفاً من البطش . وتغير الحال بعد دخول ابراهيم باشا الذي كان مصحوباً بمجموعة من الأطباء الأوربيين لتحسين ومعالجة الجيش المصري من الأمراض والأوبئة . فأشاروا عليه بأن « يجعل ناس مخصوص لاجل تنظيف النوحم والزبالة من طرقات البلد لاجل حفظ صحة العموم مع التكنيس ورش الأنياه مداوم »^(٣) لهذا قامت السلطات المصرية في دمشق بتعيين مكنتين لتنظيف الأزقة والأسواق والمحلات من الأوحام والأوساخ وخصصت لهم أجرة معلومة تتوزع على دور المحلة بشكل

(١) هناك بعض الإشارات إلى وجود مزابيل ضمن الأحياء السكنية في دمشق . انظر : مثلاً سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٦/٢٥٠ - ١٢١٧ هـ . ص ٢٦٩ حيث ورد ذكر مزبلة كانت بالقرب من حي العمارة وورد في سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٧/٢١١ ذكر لمزبلة أخرى في الشاغور الوري من ناحية الجنوب بالقرب من النهر الأبيض .

(٢) انظر مجهول . ملوكات تاريخية . ص ٢ .

(٣) الصايغ ، فتح الله . المقرب في حوادث الحضرة والعرب . ص ٧٧ آ .

شهري . كما قامت بمنع وضع القمامة الخضراء (الرطبة) بداخل المحلات بل تنشر بالبراري لتجف ثم تدخل إلى المدينة لاستخدامها في الوقد . وقامت بتعيين جنود لمراقبة النظافة في الأسواق والأزقة أطلق عليهم اسم الطوف^(١) .

ولم تكتف تلك السلطات بذلك بل قامت بتجفيف المستنقعات وبناء المجاري الخاصة بالماء المالح^(٢) وكان من الطبيعي أن تعطي مثل هذه الاجراءات نتائج ايجابية في مجال الصحة العامة . ويعلق على ذلك فتح الله بن أنطون الصايغ الذي عاصر الحكم المصري بقوله : « نقصت الأمراض وكثرت الصحة في البلاد وبين العباد^(٣) » .

ولا شك في أن تلك الاجراءات قد وضعت الدمشقيين على بداية طريق طويل يكتنفه حتى النهاية الجهد والجهد والعلم والمال .

أما فيما يتعلق بطرق المعالجة فقد استمرت الطرق القديمة في معالجة الامراض والاصابات المختلفة فمثلاً : الملدوغ بالأفعى السامة « يرسل انسان من طرفه عاجلاً من طرفه من غير تماهل من اثره مثل : محرمة — عرقية — أم طربوش فيروح المرسل لعند الشيخ فيأخذ منه العلامة يمسكها بيده ويقول إلى المرسل ارفع رجلك الواحدة وأوقف على فرد رجل فيرفع رجله ويبقا واقفاً على رجل واحدة ثم يبدأ الشيخ يقرأ مقدار عشرة دقائق فيزيط السم للمعضوض في البلد ولا يسري ويشفا ويسلم من ذلك وكذلك الذي يكون عضه كلب كلبان فيرسل من طرفه مع شيء من أثره كما ذكرنا سابقاً^(٤) » .

كما لجأ المرضى إلى أصحاب الكرامات طلباً للشفاء ويذكر البديري مثلاً على ذلك أن « أحمد بن مشيش من صلا^٥ وتقواه ما وضع يده على مريض إذا رمد وقرأ ما تيسر إلا شفاه الله وعافاه^(٥) » .

ولقد حققت الطرق الطبية بعض النجاح في معالجة حالات مرضية واستعصت عليها حالات أخرى . وكان للإيحاء النفسي الذي استخدمه المعالجون من رجال الدين والأطباء والمتصوفين والمشعوذين ، دوره في تقوية جسم المريض وبرئه من مرضه . إلا أن هؤلاء وقفوا

(١) انظر : رسم ، اسد . الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا . ص ٩٠ ص ٩١ .

(٢) مقدمة ، أحمد . معالم وأعلام في بلاد العرب . ج ١ قسم ١ ، ص ٤ .

(٣) المقترب في حوادث الحضر والعرب . ص ٧٧ . آ .

(٤) المصدر السابق . ص ٤٩ .

(٥) حوادث دمشق اليومية . ص ٢٥ .

عاجزين أمام جائحات الأمراض الوبائية وغيرها من الأمراض . كالطاعون والكوليرا والجذري وغير ذلك . فحصدت الأرواح حصداً ، والأمثلة على ذلك كثيرة . وحسبنا أن نورد مثلاً على ذلك ما وقع لدمشق في فترة ولاية صالح باشا المعدنلي الثانية حيث أصابها طاعون فتاك أودى بحياة /٢٠,٠٠٠/ نسمة من سكانها وكان فتكه في حوران أشد وأضرى^(١) .

وفي سنة ١٧٨٥ م /١١٩٩ هـ جاءت جائحة وبائية قادمة من مصر ووصلت إليها في آذار سنة ١٧٨٦ م /١٢٠٠ هـ فمات إثرها كثيرون من أبناء دمشق إلا أن حلب كانت أكثر تأثراً بها فمات من أبناء حلب /١٠٠,٠٠٠/ نسمة أو أزود بقليل^(٢) ولا أعتقد أن هذا الرقم صحيح ، إذ أن عدد سكان حلب لم يكن أكثر من هذا الرقم بكثير آنذ ، ولكن بلا شك أودت هذه الجائحة بحياة الآلاف من أبناء حلب ، ولم يمض على ذلك ربع قرن من الزمان حتى ضرب مدينة دمشق الطاعون مرة أخرى ، ففي سنة ١٨١١ م /١٢٢٦ - ١٢٢٧ هـ قضى الطاعون على ربع سكان دمشق^(٣) وكان الحال مريعاً في مثل هذه الظروف حيث ترى المدينة مقفلة في وجه الداخل والخارج ، وكذلك الحارات في داخل المدينة ، وتتوقف حالة التعامل بين الناس ، وحركة البيع والشراء ويؤدي ذلك إلى شل الحركة الاقتصادية في البلد . وإذا ما أصيب أحد من أفراد البيت فممن المؤكد إصابة الأسرة بكاملها فيهرب أفرادها إلى مكان آخر . وقد يموت الفرد ولا يرى من يدفنه . وكان من المألوف في هذه الجائحات أن ترى الجثث من الموتى ملقاة في الشوارع والحارات هنا وهناك ، وكان الحفارون يثرون على حساب دفن العدد الكبير من الموتى يومياً .

وفي مدينة حلب كانت الحالة تختلف من حي إلى آخر من حيث الحركة والتعامل بين أفرادها . ففي مثل هذه الحالات كنت ترى الأحياء المسيحية واليهودية أكثرها حرصاً على عدم التعامل والاختلاط وتحرص على الانعزال وربما يعود ذلك إلى نمو وعيهم الصحي نتيجة لاختلاطهم بالاجانب الغربيين ولاقتباسهم منهم بعض وسائل الطب الوقائي ، ولهذا كانت نسبة الوفيات بينهم أقل من نسبتها لدى المسلمين الذين لم يطبقوا تلك القواعد . وكان

1- Koury,G. op.cit P.184.

(٢) انظر : الخوري ، عبود . المرتاد في تاريخ حلب وبقداد . ص ١٠٠ ، ص ١٠١ .

3- See: Koury, Province of Damascus. P.150.

ثم تاريخ حيدر الشهابي . ص ١٩١ . وكذلك الشدياق . أخبار الأعيان في جبل لبنان . ج ١ ، ص ٤٤٩ .

الأوربيون الذين يعيشون في مدن الشرق ، أو في دمشق أو يصدف وجودهم فيها إبان الوباء يصطبغون معهم أدويتهم أو أطبائهم . فمثلاً السيدة « استر ستانوب » الانكليزية التي كانت تقيم في لبنان زارت دمشق في مطلع القرن التاسع عشر وكان يصاحبها طبيبها الخاص^(١) وكذلك « جيمس فريزر » الذي كان يعيش في بغداد سنة ١٨٣٤ م / ١٢٤٩ هـ - ١٢٥٠ هـ كان لا يخرج من بيته إلا وهو حامل معه الأدوية الواقية من الكوليرا^(٢) .

وعندما انتشر الطاعون في مدينة دمشق سنة ١٨٤٠ م / ١٢٥٥ هـ قامت السلطات المصرية باجراءات صحية لم تعهدها دمشق من قبل . فعزلت الاصحاء عن المشتبه بإصابتهم وحجرت على المرضى ويذكر أحد كتاب الحكومة آنذا « أن الحكيم المصري المسؤول قد أخذ جنينة عبد الرحمن هاشم وعمل فيها كرائتين . ووضعوا عسكر في الجنانين وجنينة عاصم عملوها للملوثين وجنينة هاشم إلى المصابين فصار الذي ينطعن في بيته واحد يأخذوا المطعون إلى بيت المطاعين وباقي أهل بيته يأخذوهم لعند الملوثين ويسكروا البيت الذي صار فيه الطاعون وصار حكماً الا فرنج يحكموا في الناس مثلما يريدوا لأنه متى ما دخل انسان إلى الكورتينا يصير طلوعه صعباً وحكموا أن كورتينا المطعون أربعين يوماً والمثلوث ثلاثين يوم وإذا صدف أن أحد الملوثين وجعه رأسه يعيدوا كورتينته وكذلك المطعون لأن في أناس قد استقاموا أربعة أشهر أو أكثر حتى من الجمعة وقع سقط بالعرضي من العسكر بالجنانين فلما نظروا وجوه النصارى ذلك اجتمعوا وعملوا ترتيب إذ أخذوا جنينة هاشم إلى خاصة طوائف النصارى فعملوا قاطع دف ما بين الضعفاء والملوثين ورفعوا العسكر من بينهم وصار يقعد خارج المدينة أربعة نصارى إذا مات أحد يحملوه ويتوجهوا يدفونه^(٣) . وأدت هذه الطريقة إلى حصر آثار الوباء وتقليل الخسائر في الأرواح على عكس الجائحات السابقة التي كانت تقضي على عدد كبير من أبناء دمشق .

1 - Koury, G. op.cit. P.150.

(٢) انظر : فريزر ، جيمس . رحلة فريزر إلى بغداد . ص ٩١ . ترجمة جعفر الخياط بغداد سنة ١٩٦٤ م

(٣) انظر : مجهول ، مذكرات تاريخية . ص ٢٠٣ و ص ٢٠٤ .

الطب ومدارسه في دمشق

كان في دمشق قبل العهد العثماني مدارس أربعة للطب أنشئت ما بين عامي ٦٠٥ و ٦٨٦ هـ وحسبت لها الأوقاف اللازمة للصرف عليها وعلى تلامذتها وأساتذتها وموظفيها وصيانتها وقراءة آي الذكر الحكيم على أرواح منشئها إلى غير ذلك من وجوه البر . وتلك المدارس هي : المدرسة الدخوارية — الدنيسيرية — اللبودية — والربيعية . ولكن هذه المدارس تحولت إل دور للسكن أو دمرت بفعل الزمن والهزات الأرضية التي ضربت دمشق ولم يعد بناؤها وأكلت أوقافها . ولهذا أصبح الطب في دمشق يؤخذ من منبعين أولهما : كتبه وثانيهما مدارس في استانبول ثم مصر . أما المنبع الأول فقد بقيت كتبه بين أيدي الأسر الدمشقية ذات الاهتمامات الطبية والتي كانت تلقن أبنائها ذلك العلم وتدرهم على ممارسته . ويذكر لنا أحد الأخباريين المجهولين « أن النصارى في دمشق كانوا أميين وجهلاء وكان لبعضهم معرفة بالطب أخذوه بالإرث وتعلموه بالمزاولة حتى نبغ بعضهم به^(١) » .

وكان من أبرز أطباء النصارى في سنة ١٢٠١ هـ/١٧٨٦ — ١٧٨٧ م حنا الطبيب الذي كان يقطن حي الزيتون باطن دمشق^(٢) ثم عطايا الطبيب الذي كان ناظراً على وقف

(١) انظر : حسر اللثام عن نكبات الشام . ص ٤٥ . مصر سنة ١٨٩٥ م .

(٢) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / سنة ١٢٠١ — ١٢٠٣ هـ . ص ٢٢٩ .

دير صيدنايا ١٢٤٧ هـ - ١٨٣١ - ١٨٣٢ م^(١) ومن اليهود كان في سنة ١٢٠١ هـ / ١٧٨٦ - ١٧٨٧ م الطبيب المعلم يوسف اليهودي وكانت دكانه في محلة اليهود بزقاق الزيتون^(٢) . ثم الطبيب سعد بن يوسف اليهودي والمعلم هدايا الطبيب اليهودي^(٣) الذي توفي سنة ١٢١١ هـ / ١٧٩٦ - ١٧٩٧ م . وكان طبيباً من اليهود المعلم عبد الحكيم اليهودي^(٤) .

أما الأطباء المسلمون فممنهم من أخذ الطب من الآباء والكتب الموجودة لديهم ، وهو ما يطلق عليه اسم الطب القديم ، ومنهم من ذهب إلى استانبول أو القاهرة فالتحق بمدارسه الحديثة .

ولقد برع عدد من أطباء الصنف الأول في دمشق وعالجوا مرضاهم بطرق الطب القديمة فكان منهم سعد عودة بن سلمان بن داود وأخوه جمال فبرع الأول في الطب واشتهر كرئيس للطب في دمشق وكانت إقامته في العسرونية . وأخذ الطب وفنونه عن أبيه ثم عن شرف الدين الرحبي شيخ الأطباء ورئيسهم . ومن الأطباء أسعد بن إبراهيم الدمشقي الشافعي الشهير بابن حجيج الصوفي المسلك الذي برع في الطب وتخرج عليه في الطب الكثير من رجال دمشق ومات سنة ١٢٤٥ هـ / ١٨٢٩ - ١٨٣٠ م^(٥) ومصطفى بن الحاج الذي كان سكنه في باب المصلى في الزقاق الجواني سنة ١٢١٢ هـ / ١٧٩٧ - ١٧٩٨ م^(٦) . وإبراهيم الخلاصي المتوفى سنة ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ - ١٨٤٠ م . كان يعرف نوع المرض من النبض والقارورة^(٧) ومصطفى آغا عودة المتوفى سنة ١٢٨٠ هـ / ١٨٦٣ - ١٨٦٤ م أحد أطباء دمشق كان يداوي مرضاه بالطب القديم وكان الفقراء يقصدونه من دمشق وقراها فيحسن مداواتهم ويعطيهم العلاج من عنده^(٨) . واستخدم بعض الأطباء الرقي والحجابات والتعاويد وقراءة بعض الآيات

- (١) سجل رقم ٣٢٣/سنة ١٢٤٧ هـ . ص ١٨٥ .
- (٢) السجل رقم ٢٢٠/سنة ١٢٠١ - ١٢٠٢ هـ . ص ٥ .
- (٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/سنة ١٢٠١ - ١٢٠٢ هـ . ص ٢٢٩ . ثم سجل رقم ٢٠٢/محاكم دمشق / ص ٥ .
- (٤) انظر : أيضاً السجل رقم ٢٩٠/سنة ١٢١١ - ١٢١٢ هـ . ص ٣٣٨ .
- (٥) انظر : الحصني ، المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٦٦٣ و ٦٤٦ و ٦٤٨ .
- (٦) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٤/١٢١٠ - ١٢١١ هـ . ص ٣٦ .
- (٧) انظر : الشطي . المصدر السابق . ص ١١ .
- (٨) انظر : الشطي . المصدر السابق . ص ٢٨٤ .

من القرآن في معالجة المرضى خاصة ما كان يتعلق بمرض الصرع والجنون . فمثلاً محمد طه غزال الصوفي القادري طريقة كان يعالج المصروعين « فيشفيهم الله على يديه^(١) » والشيخ ظبيان الكيلاني كانت الناس تراجعه للاستشفاء فيقيمهم بآيات من القرآن الكريم ويحصل الشفاء . وكذلك ابن الحكم صاحب كان والده رئيس أطباء دمشق قرأ الطب على والده واعتنى ببقية الفنون ثم زار دار السلطنة وداوى المرضى بالكتابة والتعويذات^(٢) .

أما الصنف الآخر من أطباء دمشق فهم الذين حصلوا العلوم الطبية من مدارسها في استانبول . فخرجوا على تلك المدارس ومنهم من استطاع الحياة فأقام فيها كعبد الإسماعيل أيوب الحلوقي المتوفى سنة ١١٠٦ هـ/١٦٩٥ م ذهب إلى استانبول لدراسة الطب وكان على صلة وثيقة بشيخ الاسلام وأمضى حياته العلمية في المدارس وأصبح رئيس أطباء يمارستان في استنبول^(٣) . ثم ابراهيم صرة أميني المتوفى سنة ١١٨٨ هـ/١٧٧٤ — ١٧٧٥ م درس الطب في استنبول وتزوج ابنة شيخ الاسلام شلبي زادة اسماعيل ثم اعتزل^(٤) ومن الأطباء من ألف كتباً هامة في علم الطب وترجمت إلى التركية كأبي بكر بن بهران^(٥) .

ومن أشهر بالطب في دمشق أيضاً عبد الفتاح بن مغيزل كان له مهارة في علم الطب ومات سنة ١١٩٥ هـ/١٧٨١ م^(٦) والشيخ عبد القادر الخلاصي كان طبيباً ماهراً قدم والده من حلب إلى دمشق سنة ١٢١١ هـ/١٧٩٧ م^(٧) واسنبر فيها يمارس مهنة الطب .

ومن جهة ثانية فقد تطفل على مهنة الطب الكثيرون . فمنهم من كسب خبرته بالممارسة والمران ومنهم من كان مشعوذاً ودجالاً . وكان منهم رجال ونساء . فالخلاقون في دمشق قدموا العلاجات الطبية للمرضى ، كخلع الأسنان والاضراس والحجامة باستخدامهم أدوية معينة . ففقؤوا الدماجل وشطبوا ظهور بعض المرضى بالموسى بعد استخدام « كاسات

(١) الشطي . المصدر السابق . ص ٢٤٦ .

(٢) الشطي . المصدر السابق . ص ١٥٣ .

(٣) المرادي . المصدر السابق . ج ١ ، ص ٥١ .

(٤) المرادي . المصدر السابق ج ١ ص ٤٢ .

(٥) المرادي . المصدر السابق . ج ١ ، ص ٥١ وص ٥٢ .

(٦) انظر : المرادي المصدر السابق . ج ٣ ص ٤٢ .

(٧) انظر : الشطي محمد جميل . أعيان دمشق . ص ١٨٦ .

الخوا» وغير ذلك . وكان من الطبيعي أن ترى على رفوف حوانيت الحلاقين العديد من « الزجاجات المليئة بالمراهم . والدهونات وساحبات الاسنان والمبازل . وبقي الحلاقون حتى مطلع القرن العشرين يقدمون خدمات طبية في أكثر من مجال . ويقول أحمد حلمي العلاف إن الحلاق « كان طبيباً وجراحاً وكحالاً وطبيب أسنان ومزينا^(١) » . وكان يأخذ أجراً معقولاً على ذلك . ففي سنة ١٢٦٤ هـ / ١٨٤٧ م دفعت زاهية بنت حسن رسلان ٩ قروش أجرة حكمة للحلاق عبده بن حمزة المحملجي كما دفعت له ثمن لزقات قرشين وكان دكانه في باب المصلى بزقاق الحبال^(٢) .

ويرى المؤرخ الأميركي المعاصر بيتر غران أن طريقة العلاج في دمشق لدى بعض مشايخ الصوفية تركزت على إعادة تعريف العلاقة بين العلاج والمريض وبين الطبيب والمريض وأنكرت حركة الاحياء الصوفي نظرية الصفة الجزئية للمرض الجسدي أو العقلي ونظرت للثنين على أنهما متعلقان ببعضهما البعض ولقد حاولت أن تخلق مناخاً اجتماعياً ملائماً لعلاج دائم^(٣) .

ولا شك أن الأثر النفسي وثقة المريض بطبيبه يلعبان دوراً في شفائه ، إلا أنه يجب أن يرافق ذلك العقار المناسب أيضاً . على حين نرى أن الشعوذة قد سيطرت على المعالجة دون إعطاء العلاج المناسب في بعض الأحيان وقبل ذلك المرضى لتفشي الجهل بين العامة والخاصة على حد سواء . وبقيت الطرق المتوارثة في العلاج تلعب دورها .

وقامت بعض النسوة بتوليد النساء كقابلات (دايات) وكن يكتسبن الخبرة بالمران . وكانت المرأة الحامل توضع أثناء المخاض على كرسي خاص يساعدها على الولادة . وقامت بعض النسوة بعلاج بعض الأمراض مثل داء القرع الذي يصيب رأس الأطفال ، فيذكر محمد سعيد القاسمي أنه عاصر امرأة في منطقة دمشق تداوي القرع لدى الأطفال مستخدمة في ذلك الدهونات والمراهم والزيتون العقاقير^(٤) .

وكان بعض الأطباء في دمشق يعالجون المجانين بتقييدهم بالسلاسل وحجزهم في إحدى البيمارستانات مع تقديم بعض العلاج لهم .

(١) انظر : العلاف أحمد حلمي . دمشق في مطلع القرن العشرين . ص ١٣٨ و ١٣٩ .

(٢) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ / ١٢٦٤ — ١٢٦٥ / ص ٨٥ .

(٣) انظر : غران . بيتر . بحثه في مؤتمر تاريخ بلاد الشام الثاني المنعقد في جامعة دمشق ١٩٧٨ م .

(٤) انظر : قاموس الصناعات الشامية . ج ٣ ، ص ٤٦١ .

وبالنسبة لمداداة العيون كان هناك الكحال والكحالة . وبرز من الكحالين في دمشق سنة ١٢١١ هـ الحاج محمد بن عرفه الكحال الذي كان دكانه في صالحية دمشق في سوق الشركية^(١) وفي سنة ١٢٢٢ هـ برز السيد عبد الله الكحال . وأدلى الدجالون بدلهم في هذا المجال فكانوا « يجبطون خبط عشواء ويتلاعبون بأعين الناس بدون علم ولا تبصر ، بموطن الخدقة فيعطونهم الكحل المعروف بالحجر وغيره وترى دائماً عين المريض ملطخة بالأوساخ ويتحمل الألم جملة أيام حتى يزول العارض بنفسه^(٢) » .

وكان هناك من يعالج الاسهالات كما رأينا سابقاً في اليمارستان القيمري بالصالحية^(٣) . وهناك من يقوم بمداخلات جراحية في الجسم ويطلق عليه اسم الجراح . ويقول محمد سعيد القاسمي : « إن مهنة الجراحة قسم من أقسام الطب الرائجة وصاحبها يتعاطى الجراح بالفتيش عليهم ويوضع اللصوق والمراهم سواء كانت بجراحة أصلية أم عرضية وهذه الصنعة ليس منها كساد سيما في مثل بلدنا فلا نجد الجراحي كاسداً أبداً وهو ثري غالباً سيما ان اشتهر وساعده الحظ فالشهرة والحظ هما أعظم رأسمال الانسان^(٤) » .

ولقد استخدم الأطباء العديد من الأدوات الطبية وخاصة مايتعلق بالجراحة ومنها المراود وآلات استخراج الشوك وآلات حفظ الصفاق وأنايب مختلفة ومسبارات للخراجات والنواصير وغيرها والبيرم والجيرة — والجفت وأدراج المكاحل — ودسة المباحض ذات الشعبتين والرمانة — والسكين والمباحض والمناخز — والمساعط والمشداخ والمشارط والمكابس والطبر والموسى والمنجل والمهت وجركان الابرة^(٥) .

ولقد أقام أطباء دمشق دكاكينهم (عياداتهم) في أسواق دمشق يذهبون منها إلى دور المرضى الأغنياء حسب طلبهم^(٦) . كما استقبلوا المرضى في عياداتهم تلك ولكننا لم نحصل على

(١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٠/٢٣٩ — ١٢١١ هـ ، ص ٢٩٨ . ثم سجلها رقم

١٢٢٢/٢٦٠ — ١٢٢٣ هـ . ص ١٧ .

(٢) انظر : القاسمي محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ . ص ٣٨٥ .

(٣) انظر : المصدر السابق ج ٢ ، ص ٤٦١ .

(٤) انظر : المصدر السابق . ج ١ ، ص ٧٨ ، ص ٧٩ .

(٥) عدد الدكتور أحمد عيسى بك في كتابه (آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب) أكثر من ستين آلة طبية . كما عرض صوراً لها في نهاية كتابه ووضح استخدام كل آلة من تلك الآلات الطبية وذلك في صفحات كتابه المذكور ما بين ص ٧ وص ٢٣ .

(٦) انظر : القاسمي محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

وصف حي لزيارة الأطباء لمرضاهم في بيوتهم في دمشق على حين أورد «ألكس راسل» وصفاً حياً لزيارة بعض أطباء حلب لمرضاهم في منازلهم ويورد مثلاً على ذلك زيارة الطبيب لإحدى المريضات الغنيات ، حيث تراعى في مثل هذه الحالة التقاليد الاجتماعية في الاحتجاب فيقول : « ينتظر الطبيب في الخارج حتى يخلى الحرم لك الموجودة فيه المريضة من النساء فتقوم النساء بوضع الحجاب ثم يخلين الحرم لك الذي سيدخله الطبيب وعندما يؤذن للطبيب بالدخول يقوم العبد المرافق له بالمناداة بصوت مرتفع اعمل درب (اعطوا طريق) وهذه العبارة تعتبر تنبيهاً منه لأهل البيت في اتخاذ إجراءات التحجب وإخلاء غرفة المريضة من النساء بعد إسباهن الحجاب ويستمر العبد بتكرار عبارة (درب درب الحكيم جاييه) وإذا ما صادف الطبيب ورأى بعض النسوة سافرات في إحدى حجرات البيت فمن الواجب عليه حينئذ ، أن يغض طرفه ويشيح بنظره إلى جهة معاكسة . أما وجه المريضة فيكون مغطى بنقاب ناعم . فيتقدم منها ليحس نبضها ، وكانت الفكرة السائدة لدى الجميع أن الطبيب إذا ما أراد معرفة المرض عليه بادئ ذي بدء أن يحس نبض المريض (دس مفصل) . فتقوم المريضة بتقديم يدها للطبيب وتشرح للطبيب آلامها وما تعانيه وتحدد له مكان الآلام وحالتها بالتفصيل وتجيّب على أسئلة الطبيب ، وإذا ما احتاج الأمر من المريضة ، أن تفتح فمها أو تبرز لسانها ، فعليها أن تزيح النقاب عن وجهها ولكنها لا تزيحه عن شعرها إطلاقاً مهما مست الحاجة أو كانت الأسباب وبعد ذلك يصف الطبيب العلاج ويأخذ أجرته وينصرف^(١) .

وبقي الطب القديم سائداً في دمشق إلى أن بدأ أبناؤها ينهلون معارفه من منبعه (استنبول) حيث أقيمت المدارس له وللصيدلة على الطرق الأوربية ، وقام بالتدريس مدرسون أوروبيون واعتمدوا في ذلك المناهج الأوربية وتم ذلك في عهد السلطان محمود الثاني الذي أقام مكتباً طبياً في سراي غلطة من أجل تعليم الطب لابناء الامبراطورية^(٢) وكان أول احتكاك للدمشقيين بالمدارس الغربية في عهد ابراهيم باشا ، عندما قتل البادري توما سنة

1 - Russell op.cit. VOL.1.F.245.

وهناك بعض الإشارات في سجلات محاكم دمشق إلى أجره قدم الطبيب أو الجراح وتمن الأدوية التي يدفعها المريض . انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٦/ص ٢٢٠ القضية رقم ٤٦١ .

(٢) انظر : غران بيتر . بحثه الأسس الاجتماعية في دمشق ص ٢٦٨ في مؤثر تاريخ بلاد الشام الثاني في دمشق ١٩٧٨ م .

١٨٤٠ م / ١٢٥٥ هـ / ١٢٥٦ في دمشق وكشف على عظامه أطباء أورييون ونصارى واسلام ومنهم ميخائيل مشاققة^(١) .

كما ضمت حملة ابراهيم باشا عدداً من الأطباء الأوريين والمرضين « التومرجية » وأبرز أطباء الحملة كان كلوط بيك وريئالدي وفينولو (طبيب الكورتينا) ومصارى (طبيب الحكمدارية) ولوداسو (باشة الاستارية) وبيكولو ومن الأطباء المسلمين والعرب خليل الجراح والحاج محمد مستو الساطي طالب (جراح باشة) والسيد الطبيب محمود أمين صخر والسيد محمد بن السيد موسى وغيرهم^(٢) .

ولقد شاهدت دمشق أولى الطرق الأوربية في العلاج والوقاية على يد الراهب الافرنجي الكبوشي البادري توما والذي أقام في دمشق بدءاً من سنة ١٨٠٧ م « كان كاره يثق إلى الجدرى في الشام للنصارى والاسلام واليهود^(٣) » .

وذهب بعض الدماشقة إلى مصر لتعلم الطب الحديث بعد أن استقدم محمد علي باشا أطباء (فرنسيين وطلينان وغمساويين) للتدريس في مدارس الطب التي أقيمت في أبي زعبل والقصر العيني في القاهرة وأشهر الأطباء الشاميين الذين تخرجوا على تلك المدارس ابراهيم بك النجار المولود في دير القمر سنة ١٢٣٨ هـ / ١٨٢١ - ١٨٢٢ م واتصل هذا الطبيب بالدكتور كلوط بك^(٤) الذي كان رئيس أطباء العساكر المصرية سنة ١٢٥٣ هـ / ١٨٣٧ - ١٨٣٨ م ولقد قام كلوط بك^(٥) بادخاله مع العديد من السوريين في مدرسة القصر العيني ونال شهادته سنة ١٢٥٨ هـ / ١٨٤٢ - ١٨٤٣ م . ثم ذهب إلى الاسكندرية ودرس على اساتذتها المتطبيين وعينتته الدولة العلية كطبيب للعساكر الشاهانية في

- (١) انظر : مجهول ، مذكرات تاريخية . ص ١١٣ إلى ص ١٢١ .
- (٢) انظر : رسم أسد ، المرجع السابق . ج ٥ ص ١٣ و ص ١٤ . ثم فطير صهيون . ص ٤٥ و ص ٥٨ و ص ٥٩ تحقيق — مصطفى طلاس دمشق ١٩٨٤ م . ثم سجل القسمة البلدية بدمشق رقم ١٢٤٧/٢٧ — ١٢٤٩ هـ ص ١٢١ حيث ورد فيه أن حسين بن محمد العطار قد تخرج عليه العديد من أطباء دمشق .
- (٣) انظر : مجهول . مذكرات تاريخية . ص ١١٣ . ثم رسم أسد المرجع السابق . المجلد ٣ — ٤ ص ٣٤ و ص ٣٥ .
- (٤) انظر الحصني . المصدر السابق . ج ٢ ص ٦٤٦ — ٦٤٨ .
- (٥) كلوط بك هو طبيب فرنسي أسس الاصطلاحات الطبية في الديار المصرية أيام محمد علي الكبير ويختار من مؤسسي الطب الحديث .

بیمارستان بیروت العسكري^(١) ثم الدكتور میخائیل مشاقفة الذي انضم إلى ابراهيم باشا المصري في عكا ورافقه في زحفه على دمشق وأخذ يطبب المصابين بالكوليرا ثم ترك دمشق وذهب إلى دير القمر ليعمل في مهنة الطب للمعاش . واتصل أيضاً بكلوط بك سنة ١٨٤١ م/١٢٥٦ هـ . وذهب إثر ذلك إلى مصر ليلتحق بمدرسة القصر العيني الطبية وحصل فيها على (دبلوماً) ولقب دكتور في الطب^(٢) .

ورغم انتشار طرق الطب الحديث في دمشق على يد هؤلاء الأطباء إلا أن الطرائق القديمة استمرت في دمشق جنباً إلى جنب مع الحديثة حتى تغلبت الطرق الحديثة على القديمة في مطلع القرن العشرين . ويبدو أن الطرق الحديثة بدأت تكسب رضى الجماهير وثقة الفئة الواعية من الشعب الدمشقي مما دفع بمحمد سعيد القاسمي للتعليق على أصحاب الطرق القديمة والمتطفلين على مهنة الطب بقوله : « لا يعرفون تشخيص الداء فهذا محرم عليهم شرعاً . ينصبون أنفسهم أطباء فهو مثل الخمر إثم أكبر من نفعه ومن ذا يسمح لجاهل أن يلعب بروحه^(٣) » .

ومن جهة أخرى فقد تطور علم الصيدلة^(٤) ودخلت طرقه الغربية إلى دمشق مع الطب الغربي الحديث ويقول محمد سعيد القاسمي : « هناك نوعان من بائعي الأدوية أولهما الصيدلاني وهو الذي يبيع العلاجات كالحشائش والزهورات والبزورات وما أشبه وكانت هذه الحرفة في غاية الرواج حتى ظهور الأئزخانة فأصابها الكساد والأئزخاني في وقتنا الحاضر هو الصيدلاني الذي يقدم العلاج على الطريقة الغربية^(٥) » .

(١) مردم بك تحليل . أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع . ص ٢٣٩ .

(٢) انظر : عيسى بك أحمد . معجم الأطباء . ص ٤٩٧ . مصر سنة ١٢٦١ هـ ١٩٤٢ م .

(٣) انظر : قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ص ٢٨٩ .

(٤) يقول أحمد حلمي العلاف : إن الصيدلة كانت معدومة تماماً في دمشق ، ومنحصرة في حوانيت العطارين ، وأشهرهم برو العطار أي ابراهيم العطار ، وأقدم صيدلية عرفت في دمشق هي صيدلية سليم فارس في سوق البرزوية ، ولم تكن بشكل فني لأن الأطباء أنفسهم يطيبون ويعطون الدواء من عندهم ، فإذا احتاجوا إلى دواء غريب أجنبى أمروا ذوي المريض شراء الدواء من تلك الصيدلية ، أما الأدوية التي تؤخذ من العطارين فهي : شرش الزنجبيل — الطيرة صفرة — وشمبر — وهو جواني ودم الأئحين — وسحلان — وحسن لبنان ذكر — وجبة القطعة — والقرفة والقرنفل — وجوزة الطيب . الخ... انظر : كتابه دمشق في مطلع القرن العشرين ص ١٣٩ .

(٥) انظر : قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص ٢٧٩ .

بردى والسقايات في دمشق

يعتقد الكثيرون من علماء الجغرافيا أنه لو لم يكن بردى لما كانت دمشق فهي هبته لأن منطقتها قليلة الأمطار إذا ما قيست بالمناطق المطيرة في سورية ولهذا لا نرى زراعة بعلىه يعتد بها وتساعد على استقرار السكان ، خاصة وأنه قد تمر سنوات عديدة تشح فيها السماء بالأمطار أو الثلوج ، وما يهطل منها يقصر عن حاجة الانبات ويعود ذلك للتضاريس الغربية والشمالية الغربية المتمثلة في سلسلة جبال لبنان وحرمون التي تتلقى الغيوم فتمنعها عن منطقة دمشق إلا اليسير منها ، ورغم ذلك فقد لعبت تلك التضاريس العالية دوراً إيجابياً من ناحية أخرى ، حيث أمدت بالمياه الحوض الجوفي الذي يغذي بدوره نبع بردى والذي ينبجس من سفوح جبل الزبداني الشرقية ويتجه إلى الشرق فيخلق بذلك أسباب الحياة في واديه ويرفده عند قرية الفيحة نبعها الغزير ، ثم ترفده بعد ذلك ينابيع عين الخضراء وغيرها . ويتفرع قبل دخوله دمشق إلى فروع عدة كان للإنسان دوره فيها خلال فترات تاريخية مختلفة ، ففرع تورا ويهد يرويان سفوح قاسيون والصالحية ثم (بردى الأصل في أسفل الوادي) وفرع الديرياني يروي المزة وداريا وكفر سوسة وغيرها ، وبانياس والقنوات يغذيان المدينة وقلعتها وأرياضها . وتتفرع هذه الفروع بدورها إلى فروع أصغر .. مشكلة سواقي وجداول وأقنية وتشعب في بسايتها وغوطتها كالشعيرات الدموية فتهب الخضرة والري لزراعتها . ويصعب في هذا المجال ذكر هذه التشعبات بكاملها وحسبنا هنا أن نذكر بعضها مثل : لدان الكبير — والصغير —

ومجدول — وداعية — وجبة — والزلف — والقومة العليا — والقومة السفلى — والذابون والملك — وغيرها .

ولقد لعب بردى دوراً كبيراً جعل المناطق المطلة عليه مسكونة منذ فجر التاريخ فنرى آثار الانسان الأول الذي سكن الكهوف منحوتة على يديه في وادي بردى قرب (سوق بردى) وهي ما زالت ماثلة للعيان حتى الآن ولها أبواب منحوتة في الصخر على شكل مستطيل مع بعض الصور النافرة للانسان والحيوان إلا أن هذه الصور غير متقنة مما يدل على بساطة الأدوات المستخدمة في ذلك وبدائية ذوق الناحت .

وما يهمننا من بردى فروعه التي تروي مدينة دمشق وتبها الماء والحياة والجمال ، فانيجست في أرض مدينة دمشق وغوطتها هنا وهناك ينابيع عديدة ويذكر ابن بدران نقلاً عن أبي البقاء البدرى (أنه في ظاهر باب السلامة إلى حد باب توما ثلاثمائة وستون عيناً تجري إلى القبلية وقال البدرى رأيت أغلبها وارزوت من أعذبها)^(١) .

كما يذكر ابن عساكر مؤرخ دمشق الكبير أن قنوات دمشق بلغت ١٣٠ في داخلها و ٢٠ قناة في ظاهرها^(٢) .

ولقد ارتوى سكان دمشق وأرباضها من فروع بردى وتدخل الانسان في سوق مياه بعض فروعه إلى المنازل والمنشآت العامة والأسواق . وأهم هذه الفروع تورا والقنوات وبانياس حيث كانت بقية فروع النهر تتعرض للأوساخ^(٣) ويختص تورا بالأحياء الواقعة على الضفة اليسرى من نهر بردى ويختص بانياس بالأحياء الواقعة على الضفة اليمنى بين القلعة والجامع الأموي وحارة القيمرية ويصل من باب توما ثم القنوات فيغذي الأحياء الواقعة إلى الجنوب من الخط المذكور ويتولى فرع يزيد إرواء الصالحية والأكراد أما الداراني فتروي مياهه حي الميدان^(٤) وغيرها . ويعتقد أن أول من حاول جر المياه النظيفة في أقبية خاصة إلى داخل المدينة هم اليونان عندما كانت تحت حكمهم^(٥) . لكن لم تجر هذه المياه بدءاً من منابع الأنهار ولذلك

(١) انظر : ابن بدران ، عبد القادر منادمة الاطلال ومسامرة الخيال . ص ٣٩٦ وص ٤٠٧ وص ٤٧٨ .

(٢) انظر : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق . تقسيم نوب الماء . المجلد ١٠ ، ص ٤١٣/ سنة ١٩٣٠ م

(٣) انظر : خير ، صفوح . دمشق . ص ٤٨٣ ، ص ٤٨٤ .

(٤) انظر : الصيادي ، محمد عز الدين . الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية . ص ٢١ ص ٢٢ .

(٥) انظر : البدرى ، أبو البقاء . نزهة الأنام . ص ٥ .

بقيت تتعرض للأوساخ وتعرضت مجاريها للردم خاصة في فترات الفيضان أو الزلازل أو انهيار الصخور في مجاريها . واعتاد أبناء دمشق منذ فترة لا نعرفها على تعزيل هذه المجاري .

وفي فترة دراستنا يصف محمد سعيد القاسمي عملية التعزيل لفروع بردى فيقول : « إن أصحاب نهري يزید وتورا يقطعون ماءهما عن المجريين ويجعلانهما يصبان في مجرى بردى بإذن رسمي من الدولة ويكون القطع من الثامن عشر من شهر شباط (فبراير) إلى الخامس من شهر مارس (آذار) ويأتون بأصحاب هذه الحفرة فيكرونهاهم وهم عدد كثير يأتون بمرور وفؤوس ومجارف وقفف فكل ما يجمع من أوساخ أو أحجار وغيره في دور السنة يرفعونه من أرض (مجرى) تلك الأنهار وهكذا بالنسبة لنهر المزة (الديراي) وغير ذلك يقطع نهر القنوات ويعده بانياس وفي زمن الصيف حيث يقل الماء يعزل نهر بردى وتم هذه العملية كل عام^(١) » .

وكان لانقطاع مياه النهر عن المدينة أثره السيء للغاية على أبنائها . فالماء لم يكن لسد حاجة الشرب والطبخ فحسب ، إذ لو كانت كذلك لسدوها من مياه الآبار وبعض العيون . ولكن الحاجة إليه كانت تبرز في توفير النظافة للجوامع والكنائس وللمصلين وللمنشآت العامة كالمدارس والخوانق والزوايا والخانات والحمامات . والمستشفيات والأسواق وغيرها . ولتوفير أسباب الرطوبة اللازمة للتخفيف من وطأة حر الصيف وهذا لا يتحقق إلا بمياه السبلان والسقايات والنوافير وبرك الماء داخل هذه المنشآت وخارجها والتي تغذيها مياه الطوالع من الأنهار . ولهذا كان الحكام وولاة دمشق العثمانيون يسرعون إلى إصلاح مجاري الأنهار وطوالع المياه إذا ما أصابه تلف أو عطل لما في ذلك من نفع عام لمدينة دمشق وأبنائها . وحسبنا هنا أن نسوق مثالا على ذلك ما أصاب منطقة دمشق في سنة ١٧٧٣ هـ / ١٧٥٩ م . إثر الزلزال الذي ضربها . فقد أصيبت مجاري فروع بردى بأضرار بالغة فتشقت بعض المجاري وتلفت أقبية طوالع الماء وانقطعت المياه عن المدينة فزاد في شقاء أهلها ومعاناتهم ، فأمر الوالي العثماني بإزالة الحجارة الكبيرة التي سقطت في مجرى النهر وترميمها ، فأعاد المياه إلى مجاريها بالإضافة إلى فرع تورا ويزيد اللذين يقدمان المياه للمدينة . ويذكر الإخباري الدمشقي أحمد البديري الحلاق أن والي دمشق سليمان باشا العظم قام بذلك من ماله الخاص وأن الترميم كان في غاية الضبط « ما سبقه أحد إليه من عهد

(١) انظر : قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ . ص ٢١٧ ، ص ٢١٨ .

اصلاحها من أيام التيمور وتمت العملية بخمسة عشر يوماً بدءاً من أول مريمانية الصيف ولما تم أمر بإطلاق النهر فكان انطلاقه على أهل دمشق فرجة من أبي الفرج^(١) . ولغزارة المياه لم يحسب حساب لهدرها في دمشق ، إلا في بعض فصول السنة كفترة التحاريق ، والجفاف ولهذا غطت شبكة المياه معظم أحيائها وأسواقها ومنشآتها العامة . وكان لكل شارع أو حارة أو دخلة طالع خاص بها تستقي بيوتها ومنشآتها منه الماء بنسب معينة (تقدر بالقيراط) وتقاس بالاصبع وذلك لاختلاف غزارة المياه بين فصل وآخر . ولعبت المراتب الاجتماعية بين العائلات دوراً في توزيع المياه فحصل بعضها على حق استخدام فروع ثانوية^(٢) عند الحاجة .

ونتيجة لأهمية المياه في دمشق كانت تباع مقاديرها بموجب حجج شرعية مع العقار . ونسوق مثالا على ذلك أحد بيوت محلة الراعي الذي كان يستقي الماء بمقدار اصبع واحدة وربع اصبع بموجب الحجر الأسود المركب على الطالع المزبور . والإصبع هو جزء من الذراع القاسمي^(٣) . وكانوا يتحكمون بذلك اعتماداً على صناعة القساطل الفخارية بالثخن المطلوب . أما طالع الماء فهو عبارة عن حوض بشكل متوازي المستطيلات يأخذ ماءه من فرع رئيس من النهر . ويطلق على نقطة انطلاق الماء من النهر إلى الطالع اسم (الماصية) فمنها ينطلق الماء بأنابيب فخارية محكمة القفل إلى الطالع ومنه بأنابيب فرعية إلى الدور والمنشآت المختلفة كل منها بحسب النسب المقررة لها . وهكذا كانت السقايات والسبلان يتدفق منها الماء في شوارع وأسواق وحارات دمشق . وجعل السكان الماء يتدفق في برك ونوافير ضمن المنازل . وقاموا ببناء تلك البحرات والنوافير بأشكال مختلفة . فتوفر الماء للسقاية والشرب والطبخ والاستحمام والنظافة بشكل عام . ولعب تدفق المياه في قاعات الجلوس والاستقبال دوراً في تخفيف وطأة الحر في الصيف .

وكان لهذه البحرات (والبرك) أقنية تذهب فيها المياه إلى المطابخ والجنان والسبلان أو إلى المراحيض فأقنية الماء المالح ، لترقد أقنية أخرى رئيسية تصب في الخندق فنهر قليط . وزاد العهد العثماني في السقايات والسبلان سواء بما أوجده منها في الشوارع أو القصور . أو المنشآت ذات النفع العام ، أو ترميم ما تهدم منها بفعل الزمن والهزات

(١) انظر : حوادث دمشق اليومية . ص ٤٠ .

(٢) خير ، صفوح . دمشق ... ص ٤٨٦ وص ٤٨٧ .

(٣) سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/سنة ١٢٠١ - ١٢٠٢ هـ ، ص ٢٦ وص ٥٧ .

الأرضية . ولا نجد جامعاً أو مدرسة أو تكية أو زاوية أنشئت في هذه الفترة إلا وأقيمت فيها البحرات والسبلان مراعين في ذلك نمط البناء الرومي . وترى ذلك واضحاً في بحرة جامع السنانية وبحرة قصر أسعد باشا العظم والتكية السليمانية والسليمية ومدرسة عبد الله باشا العظم وإسماعيل باشا في البزورية .

ومن جهة أخرى أقام بعض الولاة والمحسنون من الحكام وغيرهم السبلان والسقايات وحسبوا لها الأوقاف لصيانتها زلفى الله ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، ففي سنة ١٢٠٢ هـ / ١٧٨٨ م أقام أحد أعيان بني السفرجلاني سبيل ماء في زقاق المليحي باطن دمشق وكان يستمد ماءه من الطالع المجاور للحمام الناصري الذي يأتيه الماء من نهر القنوات^(١) .

وعين في دمشق موظفون مخصصون لضمان تدفق الأنهار إلى الطوالع ومنها إلى أماكن استهلاكها ، وأطلق على الواحد منهم اسم « الشاوي » وكانت مهمته التفتيش على طوالع الماء التي تحت نظره ومراقبتها وتنظيفها من الأوساخ وورق الأشجار كي لا يدخل في قساطلها فيسدها ، ويقوم بمنع تسرب المياه إلى غير الجهة المقصودة وذلك بسده المجرى بقصاص الجلود في فم الطالع^(٢) . ويقوم الشاوي أيضاً بمراقبة الطالع بشكل دائم لاصلاح أي عطل في مجراه . وكان للشاوي خبرة في سحب المياه من الأنهار إلى الطوالع ومنها إلى أماكن استهلاكها . وينفذ ذلك بالتعاون مع بعض العمال ، بشق طريق جديد لقسطل جديد عندما يطلب منه ذلك ، ويراعى عند تركيبه للقساطل الفخارية ادخال رأس القسطل الضيق في طرف القسطل الآخر الأكثر اتساعاً وهكذا لتدفق في لحد من أحجار وفخار ، إلى أن يصل بين مصدر التغذية بالمياه ومكان استهلاكه . وكانت مفاصل تلك القساطل تلحم بقطعة من اللامونة وهي ما عملت من مدقوق القطن وقليل الكلس مع الزيت الخالص تدق مع بعضها

-
- (١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ / سنة ١٢٠١ — ١٢٠٢ هـ ، ص ٥٤٩ .
(٢) الطالع عبارة عن خزان ماء محكم القفل لا يسمح بتسرب الماء خارج القساطل ويخصص للمارة أو السوق — أو المنشآت المختلفة ويتغذى بمياه النهر بواسطة انبوب رئيسي يدخل إليه من الأعلى ليمنح بتسريب الرمل العالق وغو ومن أسفله تخرج أنابيب صغيرة لتوصيل الماء إلى أماكن استهلاكها . ونورد مثلاً على ذلك طالع سوق البزورية الذي يقع على باب حمام نور الدين الشهيد على يمين الداخل ، وكذلك طالع زقاق السروجي في الشاغور البراني ويقع إلى يمين الداخل إلى مقام السروجي . تحققت من ذلك بزيارة ميدانية في ١٦ / ١ / ١٩٨١ م .

ذقاً جيداً وتلحم بها تلك الوصلات فتضبطها وتمنع تسرب الماء من خلالها . أما مدفن تلك الأنابيب فكان متيناً ليحافظ على القسطل وكانت هذه الحرفة مهمة بدمشق يتعاطاها المسيحيون ولهم بها مهارة^(١) .

أما السقايات فكانت منشآت ذات نفع عام أقامها الولاة والحكام والاعنياء والتجار والمحسنون وغيرهم في أحياء دمشق وشوارعها وأسواقها أو في جوامعها وكنائسها وبيعها ومدارسها وزواياها وتكاياها وربطها وحماماتها وتربها وبالقرب من بيوت القهوة والخانات . واستمدت مياهها من قسطل خاص تدفق في جرن أو في بحرة مباشرة . فكان الناس يشربون ويأخذون حاجتهم من الماء من الجرن . وأما الحيوانات فكانت تشرب من البرك الموجودة تحته أو من السبلان . ولقد حاولنا رصد أهم السبلان والسقايات في دمشق في فترة دراستنا فكانت على الشكل الآتي : سبيلا الجامع الأموي كانا على جانب النوفرة أنشأهما التاجر حسن بن القوتلي^(٢) بالإضافة إلى أربع سقايات من جهاته الأربع كانت موجودة من قبل^(٣) ثم مسجد الجلادين الذي يقع بالمقلاص عنده سقاية وقناة ماء^(٤) . ثم مسجد درب الحجر له بابان على أحدهما قناة وعلى الآخر سقاية ثم مسجد ابن الجسط وعلى بابه سقاية^(٥) ثم مسجد الوزهر في السويقة بقرية سقاية مجردة^(٦) . ثم مسجد النبطون على بابه سقاية^(٧) ثم مسجد الزيني في سوقة باب توما عند بابه قناة قديمة وسقاية مستجدة^(٨) ثم مسجد الغورنق الذي يعرف اليوم بالجنيق كان كنيسة للنصارى على بابه سقاية مستجدة بناها نور الدين^(٩) ومسجد رحبة البصل عنده سقاية^(١٠) ومسجد سوق الغنم كان فيه كاس يجري فيه الماء^(١١)

(١) القاسمي محمد سعيد . المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٢٦٥ .

(٢) انظر : الشطي ، محمد جميل . أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر ص ٤٢ .

(٣) انظر : البدري ، أبو البقاء . نزهة الأنام في محاسن الشام . ص ٥٦٦ .

(٤) انظر : النعيمي عبد القادر . الدارس في تاريخ المدارس . ص ٣٠ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٦٨ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٣١٩ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٣٢٠ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٣٢٢ .

(٩) المصدر السابق ، ص ٣٢٧ .

(١٠) المصدر السابق ، ص ٣٢٨ .

(١١) المصدر السابق ، ص ٣٣٢ .

وكانت بعض الجوامع والمساجد تحوي على برك ماء بالإضافة إلى السقايات مثل جامع التوبة في حي العقيبية به بركة ماء مربعة يجري إليها الماء من عين الكرش ونهر تورا وفيه سقاية من نهر تورا^(١) ثم جامع مازي في الميدان الفوقاني فيه سقاية وبركة مثمثة^(٢) وكنا نرى بعض الجوامع بها الماء جارٍ في بيوت الخلاء . فجوامع الربوة كان صحنه مفروشاً بفصوص الرخام وفيها سقاية ماء رائعة الحسن ومطهرة فيها بيوت عدة يجري فيها الماء^(٣) .

أما البحرات فبنيت بأشكال هندسية مختلفة ومن حجارة متباينة كالبازلتية السوداء الصلبة أو الحجارة المزّية البيضاء والرخامية وغيرها . وثبت على جدران بعضها لوحات صخرية كتب عليها ، بخطوط مختلفة (نافرة أو مخفورة) ، اسم منشئها أو بعض من آيات القرآن أو آيات من الشعر وسنة تشييدها . ومن أجمل سقايات دمشق التي ما زالت قائمة حتى الآن « سقاية السروجي » في حي الشاغور البراني . ويعتقد البعض أن أصولها تعود إلى العهد الروماني وتتألف من ميزاب يتدفق منه الماء إلى أجران ثلاثة فوق بعضها مثبتة على الجدار بشكل متدرج بحيث يتدفق الماء من الجرن الأول إلى الثاني ومنه إلى الثالث فبركة الماء وما يفيض منها إلى مصرف الماء المالح . أما شكل البركة فنصف دائري مبنية من حجارة البازلت السوداء وتتدلى من حائطها كرتان حجريتان من البازلت بالإضافة إلى كرتين حجريتين بشكل كمي الزرد الجوري الدمشقي^(٤) . ولقد تباينت هندسة السقايات فكان منها البسيط أو المفعم بالزخارف والمقرنصات والتزيينات النباتية المختلفة . وفي النموذج الأول ترى الجرن من البازلت أو الحجارة المزّية أو الرخام ضمن بركة من حجارة عادية ، وما يفيض من مائها يساق إلى مصرف الماء المالح كما في سقاية جامع الطفطانية في حارة الإصلاح ضمن حي الشاغور الجواني .

أما النموذج الثاني فهو أكثر غنى بالزخارف النباتية والحيوانية ومثال ذلك سقاية سوق القطن التي تقع في الجهة الشمالية منه .

أما الفسقايات داخل البحرات فيأتيها الماء من طوابع خاصة وكانت بأشكال متنوعة

(١) انظر : ابن عبد الهادي ، يوسف . ثمار المقاصد في ذكر المساجد . ص ٢٠٢ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ٢٥٠ .

(٣) انظر : رحلة ابن بطوطة . ص ١٠٣ .

(٤) تحققت من ذلك اثر زهاري الميدانية لموقعها بتاريخ ١٩٨١/٢/١٥ م .

فمنها ما هو على شكل محارة أو قصعة أو حيوان أو طير . وكانت ترفع هذه الفسقيات على قسطل في وسط البحرة يتدفق منها الماء إلى البحرة . أما بعض الفسقيات الأخرى فمثبت على حواف البحرات من الأعلى فينفر الماء منها إلى حوض البحرة .

ولقد تباينت تلك البحرات بأشكالها الهندسية المختلفة . فكان منها المستطيل والمربع والخمس والمسدس والمسيح والمثلث الشكل والأضلاع ، ومنها الدائري والبيضوي والأهليلجي والدائري المخصر . ونلاحظ تلك الأشكال في بحرات قصري أسعد باشا العظم في البزورية وقصر فوزي باشا العظم في سوق ساروجا وجامع الدرويشية والسنانية ومصطفى لالا باشا ومدرسة اسماعيل باشا وعبد الله باشا العظم وغيرها .

ولعل بحرة التكية السليمانية في المرح الأضر هي أجمل بحرات الماء وفسقياتها في دمشق وأكثرها إتساعاً والتي بنيت على النمط الرومي في عهد السلطان سليمان القانوني . فهي على شكل مستطيل من الحجارة البلقاء (أبيض وأسود) وهي ليست عميقة لكنها واسعة في وسطها عمود مفرغ ترتكز عليه الفسقية على شكل قصعة ٣ انش (بوصة) ، وتصرف المياه الفائضة إلى نهر بردى بواسطة قساطل الصرف . وهي ما زالت إلى الآن على حالها السابق وكانت مياهها تستخدم لوضوء المصلين ونظافة التكية . وهناك بحيرة أخرى ذات شأن تقع بالقرب من مشهد الحسين بالجامع الأموي حيث يوجد دهليز به حوض ماء صغير يخرج الماء منه بقوة حيث يرتفع نحو القامة في غلظ الزند العظيم البللوري وحوله أنابيب صغار ترمي الماء عالياً فيخرج كفضبان اللجين وكأنها أغصان تلك الدوحة المائية أبدع من أن يوصف وهذا الماء لا يزال جارياً مصعداً منحدرًا دائماً وأبداً على هذا الوضع والأسلوب به حسن الصوت يزيد في العقول ويشدي القلوب^(١) .

هذا ناهيك عن العديد منها الموجود في قصر أسعد باشا العظم وخانه الموجودان في البزورية ثم في جامع سنان باشا الموجود بالقرب من باب الجابية ثم جامع درويش باشا الموجود في الشمال الغربي من جامع السنانية ومدرسة اسماعيل باشا العظم بالخياطين ومدرسة عبد

(١) انظر : البدري ، أبو البقاء . نزهة الأنام في محاسن الشام . ص ٥٨ . ثم : الخياري ، ابراهيم بن عبد الرحمن . تحفة الأدهاء وسلوة الغراء . ص ١٦٩ .

الله باشا بالقرب من سوق البزورية وخان الحماصنة والمدرسة المرادية والفتحية في القيصرية وغيرها كثير .

وإذا ما وجدت إحدى المنشآت العامة فوق منسوب مجرى النهر المجاور سيق الماء إليها بواسطة الشادوف الذي دورته الحيوانات أو بواسطة النواعير التي ركبت على مجرى النهر لترفع الماء إلى منسوب أعلى من منسوب أرضية المنشآت وهكذا . ونورد مثلاً على ذلك البيمارستان القيمري في الصالحية حيث سيق إليه الماء من نهر يزيد بعد رفعه بالنواعير ثم جامع تنكر الذي يقع غرب قلعة دمشق فقد سيقت إليه المياه بعد رفعها من نهر بانياس بالنواعير . ولم يقتصر استخدام النواعير على مدينة دمشق وأرياضها بل استخدمت في قرى الغوطة وركبت على الآبار وكانت تحركها الحيوانات عوضاً عن تيار ماء النهر وكان هذا النوع من النواعير يختلف عن نواعير دمشق المركبة على الأنهار وهي عبارة عن سطول كبيرة من الخشب مربوطة بجبل من الليف ومركبة فوق ذلك الدولاب تديرها دابة على مدار ملتصق بذلك الدولاب فيخرج الماء ليذهب إلى الخزان^(١) .

وبذلك حفرت العديد من الآبار في المنشآت المحرومة من مياه الأنهار والتي ترتفع أرضية بنائها عن منسوبها ، أو حفرت للطوارئ لسد الحاجة عندما تقطع مياه الأنهار . ونسوق مثلاً على ذلك بئر مسجد الباشورة الملاصق للباب الصغير ثم بئر الجامع الأموي الخطيب وقلعة دمشق^(٢) . وكانت هذه الآبار تتعرض في بعض الأحيان للردم أو لسقوط الأوساخ فيها أو لانقطاع جبل الدلو وسقوطه داخلها . وكان البيار يقوم باخراج الأوساخ منها وتعزيلها واستعادة الدلاء منها . ويصف ذلك محمد سعيد القاسمي قائلاً : « إن للبيار عصا نحو رخ في رأسها دائرة من حديد تجميع كلاليب كثيرة وطرفها الآخر مثقوب فيه قطعة مقصودة يدخلها في يده ثم يدلي العصا المذكورة في البئر ويحركها بأصبعه ويخرجها شيئاً فشيئاً وصاحب هذه الصنعة يدور في الأزقة التي كثرت فيها الآبار وينادي بالحارات « معزل البيارة » أما من يحفر الآبار فهو شخص آخر من عمال الأبنية^(٣) . أما الناس الذين حرموا من المياه الجارية في دورهم أو من الآبار فكانوا يستقون من المصادر المذكورة آنفاً بواسطة الروايا الجلدية

(١) انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص ٤٩٠ .

(٢) انظر : البدري ، أبو البقاء . المصدر السابق ، ص ٦١ .

(٣) انظر : قاموس الصناعات الشامية ج ٢ ، ص ٦١ وص ٦٢ .

أو الأوعية الفخارية أو النحاسية . وكان يتحول الصوجي في شوارع دمشق لبيع الماء للمسائلة
ولمن أراد « ويعطى مقابل ذلك ما تسمح به نفس الشارب »^(١) أو ينقل الماء إلى الدور مقابل
الدراهم^(٢) .

(١) انظر : المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٢٧٣ .

(٢) ولدواعي الاحتجاب كان لا يدخل بائع الماء إلى أرض الديار ، بل جهزت جدران البيوت الخارجية
بأجران حجرية تفضي إلى برك وأحواض في داخل البيت . فيأتي بائع الماء ويسكب الماء في الجرن بحسب
حاجة البيت وله على ذلك مبلغ من المال . ويمكن مشاهدة ما تبقى من تلك الأجران إلى الآن في بعض
بيوت الصالحية والتي تقع فوق منسوب مجرى النهر .

التكايا

أكثر ما يسترعي انتباهنا في العهد العثماني إقامة التكايا بديلاً عن الخانقاهات^(١) حيث بنى العثمانيون التكايا على أسس متينة وعلى مساحات كبيرة من الأرض وأدخلوا الأنماط

(١) وردت لدى محمد كرد علي ، أنها خوانق ومفردها خانقاه أو خورنكاه وهي فارسية الأصل أي الموضع الذي يأكل فيه الملك وهي زوايا الصوفية . ويذكر المقرئ أنها أحدثت في الاسلام في حدود الاربعمائة من سني الهجرة وكان في دمشق ست وعشرون خانقاه هي : الأسدية — الاسكافية — الاندلسية. — الباسطية — والحامية الشبلية — الخاتونية — والدهرية — والروزنارية — والسُمسياطية — والشومانية — والشهانية — والشبلية — والشنباشية — والشريفية — وخانقاه الطاحون — والطواوسية — والقرية — وخانقاه القصر — والقصاعية — والكججانية — والمجاهدية — والنهرية — والتجيبية — والناصرية — في جبل قاسيون . والناصرية خلف (مجهولة) ثم اليونسية والنحاسية .

ومن الخوانق الحديثة ، خانقاه أحمد باشا الشهر بين أمراء الأروام أي العثمانيين بشمسي أحمد باشا . تولى دمشق فطالت مدته ، وبنى فيها خانقاهاً قبالة قلعة دمشق من جانبها القبلي ملاصقة لخندقها . وجعل فيها حجرات للصوفية . وهي من محامن دمشق ، وما زالت هذه الخانقاه عامرة . ولكن لا على الصورة التي أرادها الواقف بل صارت جامعاً . ويذكر النقشبندي أنه كانت في دمشق في القرن التاسع وظيفة شيخ الشيوخ وموضوعها التحدث على جميع الخوانق في دمشق وأعمالها ، والمادة أن يتولاها شيخ الخانقاه السُمسياطية انظر : المقرئ . نعم الدين ابن أبي العباس أحمد بن علي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» ج ٢ . ص ٤١٤ وص ٤١٦ . طبعة أوغست بغداد . ثم انظر : كرد علي ، محمد . خطط الشام . ج ٦ . ص ١٣٠ وص ١٣١ ص ١٣٢ ص ١٣٣ — وص ١٣٤ سنة ١٩٧٢ م طبعة بيروت .

الهندسية الرومية في بنائها ، فكانت غاية في الجمال والروعة ، وحبسوا لها الأوقاف الكثيرة الغنية والواسعة للصرف عليها وصيانتها. ولتأمين جارية الدراويش المقيمين فيها وللصرف على طلاب العلم وموظفيها . وتكوّن بناؤها من غرف لمبيت الدراويش ومسجد للصلاة وغرف للتدريس ومطابخ ومخازن وكلايات (بيت المؤونة) ودورات مياه وميضات وبحرات ماء بها فسقيات وسقايات وزودت بالفرش والكتب والقناديل من النحاس المكفت والزجاج ، وألحقوا بها الترب وعينوا لها الموظفين من اختصاصات مختلفة والنظار على أوقافها والمتولين لشؤونها والمدرسين والمؤذنين والخطباء والأئمة وقراء القرآن وغير ذلك . وقدمت بعض الوجبات من الطعام للفقراء والمحتاجين ، وأصبح بعضها مأوى للفقراء واليتامى وأبناء السبيل والطائرين^(١) ، وقد وصل عدد الصوفية فيها أحيانا إلى ثلاثمائة صوفي ، لكل واحد منهم عدد من أرغفة الخبز وكمية من اللحم والمرق والحلوى والصابون والكسوة .

وأول من أوجد التكية في دمشق هو السلطان سليم الأول ثم سليمان القانوني وسار على منوالهما بعض الولاة العثمانيين والأثرياء . ولقد تهدمت التكايا بفعل الزلازل وأعيد بناؤها مرة أخرى كما حصل بعد زلزال سنة ١١٧٣ هـ/١٧٥٩ — ١٧٦٠ م . وبقيت تلك التكايا تقوم بمهامها الدينية والاجتماعية إلى مطلع القرن العشرين . وأهم هذه التكايا في دمشق هي :

١ — التكية السليمية التي بناها السلطان سليم الأول في صاحلية دمشق في سنة ٩٢٤ هـ/١٥١٨ — ١٥١٠ م بعد عودته من فتح مصر وتقع شمالي ضريح الشيخ محي الدين بن عربي وحبس لها الأوقاف الدّوّارة^(٢) .

٢ — التكية السليمانية : تقع في المرج الأخضر شيدها المهندس التركي الشهير (معمار سنان) المتوفى سنة ٩٦٦ هـ/١٥٥٨ — ١٥٥٩ م وذلك بأمر من السلطان العثماني سليمان القانوني وإليه تنسب وكان في محلها قصر امارة الفاطميين ؛ وبني مكانه السلطان ظاهر بيبرس القصر الأبلق وهدم هذا القصر في زمن تيمورلنك وأقيمت مكانه هذه التكية سنة ٩٦٢ هـ/١٥٥٤ — ١٥٥٥ م بأمر من السلطان سليمان

(١) انظر : كيال ، منير ، رمضان وتقاليده الدمشقية . ص ٦٢ .

(٢) ابن طولون محمد . مفاكهة الخللان في حوادث الزمان . القسم الثاني . ص ٧٩ . ثم : كرد علي ، محمد . خطط الشام . ج ٦ ، ص ١٣٨ .

القانوني ، كما تم بناء مدرسة في شرقها ألحقت بها وذلك عام ٩٦٦ - ٩٦٧ هـ / ١٥٥٩ م وهي السنة التي توفي فيها السلطان سليمان القانوني . وتتألف هذه التكية من عمارتين غربية وشرقية وقد استخدم في بنائها النظام الرومي في الهندسة . وكانت التكية محاطة بسور له ثلاثة أبواب رئيسية^(١) وفي الداخل صحن سماوي (فسحة سماوية) به بحرة ماء مربعة ونافورة بها فسقية كبيرة على شكل قصعة حجرية مفروضة من اطرافها تأخذ مياهها من طالع على نهر بانياس . أما الصحن الداخلي فمبلط بالحجارة المزينة والبازلتية . ويحيط بالبحرة مجرى من جهاتها الأربعة وبه مصارف تؤدي إلى نهر بردى . وتحيط بالصحن مباني التكية فمن جهة الجنوب المسجد وهو مبني على الطراز الرومي ومسكوف بقبة كبيرة رئيسة وقباب أخرى صغيرة ، ومن جانبيه « الشرقي والغربي » تبرز مئذنتان مدينتان على النمط الرومي : ويحيط بالصحن من جهتي الشرق والغرب رواقان بهما عدد متساو من الأقواس وترتكز بدورها على أعمدة اسطوانية رخامية ضخمة وفوق الأقواس قباب ترتكز كل واحدة منها على عمودين وعلى جدار الغرفة التي تقابلها والقباب متساوية في الارتفاع والاتساع ووراء الرواقين عدد من الغرف متساوية في عددها وارتفاعها إلا أنها أعلى من قباب الرواق وفي كل قبة مدخنة قممتها بشكل مخروطي (النمط الرومي) .

ويقع إلى الشمال من الرواق الشرقي مباشرة الميضاة ودور الخلاء . ومن الناحية الشمالية من التكية توجد المطابخ وعنابر الحبوب والمواد التموينية . وهي عبارة عن غرف كبيرة إلا أنها مسقوفة بأكثر من قبة وترتكز قبابها على أعمدة وخلف هذه الغرف يقع السور الخاص بالتكية ، مبني من الحجارة المزينة أخذ أعلاه شكل (الجملون) لمنع الدخول إليها بعد أقفال أبوابها^(٢) .

وكان مدرسو هذه التكية ونظارها يعينون من استانبول ، وقد هدمت التكية بفعل الزلزال الذي أصاب دمشق فقام الدفتردار فتحى القلانسي سنة

(١) باب غربي وباب شرقي وباب شمالي وهو أصغر من الاثنين ، أما الشرقي فيفضي إلى المدرسة الملحقة بها ، والذي يفضي إلى الميدان الأخضر ، والشمالي على مدخله قبة صغيرة ترتكز على عمودين وعلى جدار سور التكية ، ويفضي هذا الباب إلى نهر بردى مباشرة .

(٢) العبد . تاريخ حسن آغا العبد . ص ٥٦ .

- ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ — ١٧٤٧ م بتجديد منارتها [بعد سقوطها أيام الزلزلة أحسن مما كانت^(١)] وكان ينزل فيها الجنود العثمانيون^(٢) المارون من دمشق .
- ٣ — المبوليخانة أو التكية المولوية : وتقع غرب جامع تنكز ، خارج أسوار مدينة دمشق .
 عمرت سنة ٩٩٣ هـ / ١٥١٧ — ١٥١٨ م للطريقة المولوية التي تنسب لجلال الدين الرومي^(٣) وكانت تقام فيها مواجيد مؤسسها المذكور^(٤) .
- ٤ — التكية النقشبندية : وهي تابعة للطريقة النقشبندية وتقع في محلة الفحامين بالقرب من باب السريجة ، أنزل بها علم الله الهندي بن عبد بن رشيد ، العباسي النسب الحنفي النقشبندي اللاهوري ، حيث ذهب من دمشق إلى القسطنطينية وعاد إليها . وكان أهالي دمشق وغيرها يقدرونه ويحترمونه ويجمعون عنده . وكان يسمع الآلات وتضرب في حضرته مع الإنشاد^(٥) . ولقد كان للنقشبندية زاوية أخرى تقع في جهة القيمرية لصق الجامع الأموي حيث كان مسجداً يسمى مسجد عروة حوّل إلى زاوية له^(٦) .
- ٥ — تكية شمسي أحمد باشا : الوالي العثماني على دمشق في عهد السلطان سليمان القانوني وتقع قبالة قلعة دمشق من جانبها القبلي ملاصقة لخندقها وجعل بها حجرات للصوفيين كما جعل لها وقفاً يطبخ منه كل ليلة بعد العصر طعام يأكله المجاورون بها . وهي من محاسن الشام وضعت على وضع لطيف وبها بركة ماء وبستان لطيف واقع في وسطها ودائماً يكون بها شيخ يتناول ما شرط للمشايخ من علوفات وعوائد وفوائد^(٧) .
- ٦ — تكية خارج باب الله بالقرب من قرية القدم ، أقامها الوزير أحمد باشا الكبير المعروف بكوجك « أحمد الزناؤودي » . أحد الوزراء المشهورين بالشجاعة الذي أصبح حاكماً على دمشق ثانية في سنة ١٠٤٢ هـ وحبس لها أوقافاً في قرى وضواحي صيدا وعلبك

(١) انظر : الهديري . حوادث دمشق اليومية : ص ٨٥ .
 (٢) انظر : كرد علي ، محمد . خطط الشام . ج ٦ ، ص ١٣٩ .
 (٣) انظر : العبد ، حسن آغا . تاريخ حسن آغا العبد . ص ٥٦ و ص ١٢٢ .
 (٤) انظر القاسمي ، جمال الدين . تطهير الشام بمآثر دمشق الشام . المسودة بخط يد المؤلف ، وهي موجودة في مكتبة محمد سعيد القاسمي . حي المهاجرين من دمشق . جادة القسطل .
 (٥) انظر : المرادي ، محمد خليل . سلك الدرر . ج ٣ ، ص ٢٦١ .
 (٦) انظر : ابن عبد الهادي . ثمار المقاصد في ذكر المساجد . ج ٢ . ص ٢٣١ .
 (٧) انظر : البونيني ، حسن . تراجم الأعيان من أبناء الزمان . ج ١ ، ص ١٨٨ .

وكانت أملاكاً لفخر الدين المعني . والحق بذلك ستين جزءاً بالجامع الأموي وتعيينات لأهالي الحرفيين وبنى سبيلاً بالقرب منها ودفن رأسه فيها عام ١٠٤٦ هـ^(١) .

٧ — تكية خالد أبي بهاء ضياء الدين النقشبندي الدمشقي : وتقع في الصالحية في محلة الأكراد أقيمت له سنة ١٢٤٢ هـ بعد وفاته ، وكان ذلك بأمر من السلطان عبد المجيد . واشتمل بناؤها على قبة فوق ضريحه ثم مسجد وعدد من المقصورات للمريدين المتجردين ومطبخ وبركة ماء عظيمة^(٢) .

(١) انظر : المحيي ، محمد . خلاصة الأثر . ج ١ ، ص ٣٨٥ .
(٢) انظر : البيطار ، عبد الرزاق . حلية البشر ... ج ١ ، ص ٥٧٠ . ثم : الغلاييني ، محمد أمين . العقدة الثمين في مقام الأرمين . ص ٤٤ .

الزوايا

كانت الزوايا كالتخانيقات والربط مأوى للصوفية المتعبدین ، إلا أنها تقام فيها الأذكار^(١) . ولقد كثرت الزوايا بكثرة الطرق الصوفية وكان لبعض الطرق الصوفية أكثر من زاوية في دمشق سواء أكانت مراقد العظماء أو الصحابة أو التابعين ، أو العلماء العاملين أو الزهاد ، أو بنيت خصيصاً لذلك . وكان الناس يقصدونها للزيارة والتبرك^(٢) .

(١) كلمة تطلق على جميع العبادات التي يقوم بها المرء بلسانه بل وبأفعاله ، ذكر الله المندوب إليه في الكتاب والسنة وهو التوجه إلى الله تعالى بكلية سواء نطق باسمه الكريم أم لم ينطق « واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخفية ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين » وسواء أكان في ذلك قائماً أو جالساً أو نائماً « فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم » ولا يراد بالذكر تنزيه الله فإن الله الكمال المطلق . وما ثم شيء ينبغي أن ينزه عنه وحتى قصد الذكر ترى تنزيهه فقد ألحق به فصيح بوممه ، وإنما يراد ذكر الله أن يشهد الذكر ليلاً ونهاراً وأنه يرانا ويطلع على أعمالنا وأقوالنا وخواطرنا وكل ما خفي ذلك من أطماع الذاكرين فهو سوء أدب . لهذا رؤي الاكثار من الذكر . ويذكر جمال الدين القاسمي أن الشيخ محمد بن أحمد المرطاري المغربي المكناسي المالكي الشاذلي نزى دمشق (ما غفل في وقت من الأوقات الخمس عن سبعين ألف لا إله إلا الله) انظر : « تعطير المشام بمآثر دمشق الشام » ج ١ المسودة بدون ترقيم .

(٢) انظر كرد علي . خطط الشام . ج ٦ . ص ١٥٣ . كما يذكر جمال الدين القاسمي أن محمد قزيبا الشهير بابن سنان الدمشقي الشافعي الشاذلي . أقام بالجامع المعروف بالصايونية قرب باب الصغير ، كان قعيداً ويزار . انظر : تعطير المشام بمآثر دمشق الشام . ج ١ المسودة . دون ترقيم .

وكانت الزاوية ذات أهمية اجتماعية مقصداً للمؤمنين وملتقى أبناء القطر الواحد أو الأقطار المتجاورة كزاوية المغاربة في دمشق أو أبناء العجم أو الهنود أو الأكراد وهكذا .. وكانت الزاوية تتكون من غرفة لضيوفها وللمحجاج المسلمين والطلبة . وألحق بها (مقبرة) يدفن فيها أولئك الذين أمضوا حياتهم فيها . ويقول دوماس (DAUMAS) : إن الزاوية على الجملة كانت عبارة عن مدرسة دينية ودار مجانية للضيافة . وفي هذين الوضعين تشبه الدير في العصور الوسطى إلا أنها في المشرق اكتسبت وضعاً محدداً فقصر استعمالها على المساجد وما عدا ذلك صارت في الغالب تسمى الخانقاه أو التكية^(١) .

ولقد تناقص عدد الزوايا في دمشق هذه الفترة عما كانت عليه في الفترات السابقة^(٢) وذلك بفعل سوء الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، حيث سطى الساطون على أوقافها كما تهدم بعضها بفعل الزلازل ، ولم يعد إصلاحه فاضمحل شأنها وتحولت عن مهمتها الأولى .

ولم يعد التصوف عكوفاً وعبادة وانقطاعاً إلى الله والتجرد للكره وغيرة على الدين والزهد في طلب الدنيا ، ومجاهدة للنفس ورياضتها ونحو ذلك ، بل أصبح التصوف أقرب إلى الدروشة منه إلى التصوف الصحيح . وسعى شيوخ الطرق الصوفية إلى الجاه الاجتماعي في الغالب ، وكثيراً ما جرى الخلاف بين الأقرباء منهم على زعامة الزاوية وطريقتها الصوفية ، كما حصل لآل سعد الدين الجبائي ، ولهذا أصبح التصوف ظاهرة اجتماعية سياسية أكثر منه ظاهرة دينية^(٣) ونال شيوخ الطرق الجاه والمال والدنيا فهابهم الحكام والأعيان وخرجوا لزيارتهم .

وأصبحت زوايا الصوفية في حالة نشاط دائم يرتادها المريدون والزائرون والطلبة التي كانت نشطة ، ولهذا كانت لها أهميتها الاجتماعية والسياسية بالإضافة لأهميتها الدينية . وأهم الزوايا في فترة دراستنا هي :

الزاوية الوطنية للطريقة الشاذلية وكانت تقع شمال جامع جراح بالشاغور البراني وعرفت

(١) انظر : دائرة المعارف الاسلامية ج ١٠ . ص ٢٣٢ وص ٢٣٣ ، الترجمة .

(٢) ذكر بن طولون الذي عاش في القرن السادس عشر أن زوايا دمشق بلغت ٤٦ زاوية بعضها بقي إلى عهده وبعضها تهدم . انظر : القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية . ص ١٩٢ وص ١٩٣ وص ١٩٥

وص ٢٠٢ وص ٢٠٣ وص ٢٠٦ وص ٢٠٨ وص ٢٠٩ وص ٢١٠ .

(٣) انظر : المرادي . سلك الدرر . ج ٢ ، ص ٣٩ .

بزاوية المغاربة^(١) على اختلاف اقطارهم (فاسيون — جزائريون — سوسيون — مراكشيون) وكان من شروط وقف هذه الزاوية أن لا يكون النازل فيها مبتدعاً ولا شريكاً . وقام بوقفها علي بن وطية سنة ٨٠٢ هـ وحبس عليها حوانيت وطباقاً حولها . وكانت ملتقى لأبناء المغرب . كما كانت الطريقة الشاذلية تقيم الذكر والأوراد في المشهد الشرقي من الجامع الأموي وهو خاص ببني السفرجلاني^(٢) وأقام الشيخ محمد تقي الدين بن عبد الله بن علي الحنبلي الشاذلي المعروف بأبي شعر زاوية الشاذلية قرب بيته في محلة الشاغور ، وكان يقيم فيها الأذكار والأوراد وله أتباع ومريدون ومات سنة ١٢٠٧ هـ . وكان للشاذلية زاوية أخرى بالجامع المعروف بالصابونية قرب باب الصغير^(٣) . وكان لهذه الطريقة شيخ مشايخ^(٤) في دمشق .

وهناك الزاوية الحصنية التي تقع في حي الشاغور البراني أوقفها الشيخ تقي الدين بن بكر بن محمد بن عبد المؤمن الشهير بالحصني الشافعي المنسوب إلى قرية الحصن في حوران^(٥) . وقام باختلاسها بنو العجمي فانتزعت منهم وأعيدت أحسن مما كانت عليه^(٦) . ثم الزاوية الغزالية في الجامع الأموي شمال مشهد عثمان .

أما الطريقة الخلوتية فكان لها أكثر من زاوية في دمشق . فمنها زاوية بالقرب من باب جيرون قرب الجامع الأموي . وكانت مشيختها في آل الدسوقي يقيمون الذكر والتوحيد فيها^(٧) . وكانت لهذه الطريقة زاوية أخرى تقع في ناحية المارستان الأربع مفارق بناها الشيخ يوسف المالكي الخلوتي وكان يقيم الذكر يوم السبت من كل اسبوع في جامع الشيخ . محي الدين بن عربي بالصالحية^(٨) . ثم يوسف الطباخ المتوفى سنة ١١٥٩ هـ الذي كان يقيم

(١) انظر : كرد علي . خطط الشام . ج ٦ ، ص ١٣٧ .

(٢) انظر : القاسمي ، جمال الدين . تعطير المشام بمآثر دمشق الشام . ج ١ . المسودة وهي خالية من الترقيم

ترجمة الشيخ «أبو الفتح» . ثم انظر : الحصني محمد أديب . منتخبات التواريخ لدمشق . ج ٢ ،

ص ٨٦٨ .

(٣) انظر : القاسمي ، جمال الدين . المصدر السابق . ج ١ ترجمة الشيخ محمد تقي الدين بن عبد الله بن

علي الحنبلي الشاذلي .

(٤) انظر : سجل رقم ٥٠/محاكم دمشق/القضية تاريخ ١٠ رمضان سنة ١١٤١ هـ/٩ شباط ١٧٢٩ م .

(٥) انظر : ابن بدران — مناداة الأطلال ومسامرة الخيال . ص ٣٠١ .

(٦) انظر : كرد علي . خطط الشام . ج ٦ ، ص ١٣٦ ، ص ١٣٧ .

(٧) المرادي . سلك الدرر . ج ١ ، ص ٥٣ .

(٨) القاسمي ، جمال الدين تعطير المشام بمآثر دمشق الشام . ج ٣ ، ص ٢٣٣ ثم : الحصني ، محمد

أديب ، المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٦٣٨ .

الذكر في المدرسة السمييسياطية وفي جامع التوبة^(١) ولآل سعد الدين زاويتهم وسجادة خلافتهم مقرها في الميدان في محلة القبيات ، كانوا يقيمون التوحيد والأذكار فيها ، وكانت لهم زاوية وأوقاف في محلة الشاغور البراني يقيمون فيها الأوراد والتوحيد والأذكار . وكان لهم زاوية أخرى في حي القيمرية ثم الزاوية العسالية في قرية القدم^(٢) .

وهناك زاوية لآل التغلبي الحنابلة وهي الزاوية التقوية حيث كانوا يقيمون فيها الأذكار وتقع داخل دارهم في حي العمارة^(٣) . وكان خادماً عليها في سنة ١٢٥٠ هـ الشيخ علي بن محمد الفتلة^(٤) . ووجدت زاوية لآل الصمادي القادريين في حي الشاغور . وكان السلطان سليم الأول قد حبس على هذه الزاوية قرية كناكر في وادي العجم . وكان القادريون يقيمون الذكر في المدرسة الاسماعيلية المعروفة بالخياطين^(٥) . وزاوية الطريقة الأحمدية في المدرسة النورية وكانت لآل النحلوي ، يقيمون فيها الأذكار كما كانوا يقيمون الأذكار في المدرسة الخاتونية^(٦) . ثم الزاوية المولوية وكانت تقع غربي جامع تنكرز وكان شيخاً عليها في سنة ١٢١٦ هـ محمد صالح أفندي^(٧) . ثم الزاوية الداوودية وكان شيخها من آل الداوودي وتقع في صالحة دمشق . وكان متولياً على أوقافها في سنة ١٢١١ هـ الشيخ عبد الرحمن الداوودي ومن بعده الشيخ أحمد حمزة^(٨) ، ثم زاوية آل الصديقي وقام بوظيفة البوابة والقيام عليها في سنة ١٢١٦ هـ مصطفى بن بايزيد الصفوري^(٩) ، وأسماها جمال الدين القاسمي بالزاوية الصفورية وكانت تقع بمحلة قبر عاتكة لصيقة مقبرة الدقاقين من غربها^(١٠) . ثم الزاوية الطالبية-

(١) المرادي . سلك الدرر . ج ٤ . ص ٢٤٥ .

(٢) المرادي . سلك الدرر . ج ٢ ص ٤١ .

(٣) الحصني محمد أديب . المصدر السابق ج ٢ . ص ٨٣٢ ثم : القاسمي جمال الدين . تعطير المشام ج ٣ ، ص ٢٢٩ .

(٤) السجل رقم ٣٣٤/المحكمة الكبرى بدمشق/ سنة ١٢٥٠ هـ ص ٢٨٠ .

(٥) انظر : الحصني ، المصدر السابق . ج ٢ ص ٨٥٤ . ثم انظر : القاسمي جمال الدين . تعطير المشام ... ج ٣ ص ٢٢٠ وص ٣٤٢ ص ٢٣١ .

انظر : الحصني . المصدر السابق ج ٢ . ص ٨٨٥ .

(٧) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/سنة ١٢١٦ ١٢١٧ هـ ، ص ٢٢٦ .

(٨) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١١/٢٤٠ - ١٢١٦ هـ ، ص ٢١٢ .

(٩) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/١٢٩ .

(١٠) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٣٦/سنة ١٢٥٠ - ١٢٥١ هـ ، ص ١٣٩ ثم : القاسمي ، جمال الدين . تعطير الشام بمآثر دمشق الشام . ج ٣ . ص ٢٢٠ .

الرفاعية في قصر حجاج^(١) . ثم زاوية في سوق ساروجة مجهل لأية طريقة تتبع وكل ما نعلمه أنه كان يقيم فيها الذكر شيخها الشيخ العكر . ثم الزاوية التجارية النقشية ومشيختها في بني المرادي^(٢) ، وذكرها القاسمي على أنها الخانقاه النقشية وتقع في سوق ساروجة أنشأها العارف الجليل الشيخ مراد البخاري النقشبندي نزيل دمشق وباني المدرسة المرادية^(٣) . وكان للطريقة النقشبندية زاوية أخرى وهي الزاوية الهندية التي كانت خارج باب الجابية ودفن فيها علم الله الهندي النقشبندي وكانت تقام فيها الجمعة والجماعة^(٤) .

وهناك الزاوية الكردية التي كانت في محلة العمارة لصيق باب الفراديس من خارجه استقام فيها حسن الكردي ومات ودفن فيها سنة ١٨٩٥ هـ^(٥) . وكان للطريقة الرفاعية زاوية في سفح قاسيون يقام فيها الأذكار^(٦) وكان لهذه الطريقة زاوية أخرى في ميدان الحصى^(٧) . ثم الزاوية البكتاشية وتنسب هذه الطريقة إلى حاجي بكتاش الذي كان تلميذاً لبابا اسحق جاءت إلى دمشق مع الإنكشارية وانتقلت إلى طوائف الحرف وألغيت بالغاء أوجاق الإنكشارية في دمشق في عهد السلطان محمود الثاني .

أما الربط^(٨) فبالرغم من كثرتها في الفترات السابقة^(٩) لم يعد لها وجود في فترة دراستنا

- (١) القاسمي جمال الدين . المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٣١ .
- (٢) النظر : الحصني ، المصدر السابق ج ٣ ، ص ٩٦٥ .
- (٣) تطوير المشام بمآثر دمشق الشام . ج ٣ . ص ٢٢٥ .
- (٤) القاسمي جمال الدين . المصدر السابق . ج ٣ . ص ٢٣٣ و ص ٢٣٥ .
- (٥) أيضاً القاسمي جمال الدين المصدر السابق . ج ٣ ، ص ٢٣٣ .
- (٦) انظر : الغلايني محمد أمين . العقد الثمين في مقام الأربعين . ص ٤١ ، ص ٤٣ .
- (٧) القاسمي جمال الدين . المصدر السابق . ج ٣ ، ص ٢٢٩ .
- (٨) جمع رباط وجاءت التسمية من الآية القرآنية «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» انظر : سورة الأنفال الآية ٦٢ . ثم دائرة المعارف الإسلامية . المجلد العاشر . كلمة «رباط» . الترجمة .
- (٩) ولقد أورد بن طولون أسماء الربط في الصالحية وكان منها : رباط دار الحنايلة — رباط مسجد التينة — رباط دار الحديث القلاسية — ورباط المدرسة الاستاذانية — ورباط علاء الدين التركاني ورباط النوري — ورباط الزيتونة — ورباط الصارمية — ورباط العزية — ورباط الزاوية — ورباط المسيحية — ورباط سعيد — ورباط التربة السويدية — ورباط الاسكافية — ورباط خليفة — ثم رباط مسجد الزهر . انظر : القلائد الجوهريّة ص ٢٥٦ و ص ٢٥٧ .

وذكر يوسف بن عبد الهادي ما كان منها في مدينة دمشق وهي : رباط الوزار في سوق ساروجة ورباط نجم الدين أيوب والد صلاح الدين بوسط داخل الدرب في زقاق العونية بباب البرد . وكان رباط النساء بالقرب منه مكتب للأيتام انظر : ثمار المقاصد في ذكر المساجد . ج ٣ . ص ٢٤٨ .

هذه ، وكانت وفقاً على النساء من المتصوفات أو المنقطعات أو المهجورات أو المطلقات أو العجائز أو الأزامل من المتعبدات وكان لهن الجرايات والمقامات المشهورة في مجلس الوعظ^(١) وكانت لها أهميتها الاجتماعية إلا أن السلطات العثمانية لم تعرها اهتماماً في هذه الفترة . وربما عاد ذلك إلى ظروف دمشق المتغيرة عن السابق في مجال السياسة والإجتماع والاقتصاد حيث سادت الفوضى وضربت أطنابها ، وأصبحت المرأة موضع اعتداء من الجند الغرباء والقوى المتناحرة في دمشق . فلم تسلم من اعتدائهم حتى النساء المحصنات . فلا عجب إذا ما قام المجتمع بالتضييق على المرأة وحجزها في البيوت وحرمانها من ارتياد الربط أو الإقامة فيها . ولهذا اضمحل شأنها وزال نشاطها من دمشق .

ويذكر مؤرخ دمشقي آخر بعض هذه الربط التي كانت في عهده وكان منها : ربط بلدخ ورباط النجارين داخل مدينة دمشق ثم ربط المزة المعروف ، الحواجبية ورباط الحبيق ورباط فيروز وهي كلها خارج مدينة دمشق . انظر : الأري ، الحسن . المصدر السابق ص ٢٤٦ .

(١) انظر : الطويل توفيق . التصوف في مصر ابان العصر العثماني . ص ٣٨ .

الفنادق والقيساريات والخانات والوكالات

نظراً لأهمية هذه المنشآت الاقتصادية والاجتماعية في حياة مجتمع دمشق فقد أوليناها اهتمامنا من الدراسة ، فدمشق اشتهرت عبر تاريخها الطويل بنشاطها التجاري الدولي والمحلي ، ويعود ذلك إلى موقعها الجغرافي الهام والتميز على طريق القوافل التجارية وقوافل الحجاج ، فاقضى ذلك إقامة المنازل للمسافرين ورواحلهم وإقامة المنشآت للتبادل التجاري وقوافل السلع للتصدير والاستيراد ، وإقامة أماكن للحرف والصناعات المحلية التي اشتهرت بها دمشق والتي لاقت منتجاتها رواجاً كبيراً في بلاد الشام وخارجها .

فأقيمت لذلك تلك المنشآت داخل المدينة وخارجها وعلى الطرقات العامة الموصلة إليها وأطلق على تلك المنشآت تسميات مختلفة تداخلت مدلولاتها مع الزمن . فكان منها الخانات والفنادق والقيساريات والوكالات وغيرها . ولم تكن التسميات عربية في أصولها بل تعود في معظمها إلى أصول مختلفة كالفارسية أو اليونانية أو اللاتينية .

فكلمة خان تعني القصر أو البيت ، أما كلمة الفندق فهي لاتينية الأصل يعتقد أنها أخذت عن الأفرنج خلال الحروب الصليبية لأننا لم نجد لها استعمالاً في المصادر العربية قبل هذه الفترة :

كما ورد في الموسوعة الاسلامية أن كلمة الفندق اشتقت من أصلها اليوناني

« باندوخيتو »^(١) وكلمة قيسارية^(٢) جمعها العرب على (قيساريات) وفي بعض الأحيان (قياسر) وورد جمعها في سجلات محاكم دمشق في هذه الفترة (قواسير)^(٣) . وأياً كان جمع هذه الكلمة فهي غير عربية بل يونانية الأصل وتعني البناء الملكي أو الأباطوري ، ذلك لأن السوق من الأملاك العامة التابعة للدولة ، أي أنها ذات صفة ملكية وتسمى باللاتينية (CAESARUM) ويبدو أن هناك اختلافاً دقيقاً بين القيسارية والخان في هذه الفترة ، وشاهدنا على ذلك ما ورد في أحد سجلات محاكم دمشق الشرعية حيث ورد « ان بهرام باشا في حلب كان لديه قيسارية وخان »^(٤) . إلا أننا لم نستطع جلاء الفرق بينهما .

ولقد ظهرت ألفاظ الفندق^(٥) والقيسارية^(٦) والخان كأسماء لتلك الأبنية المخصصة لنزول

1 - Encyclopédie de L'Islam N.E. II.P.966.

2 - Ibid. N.E. II.P.700.

(٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/سنة ١٢٠١ — ١٢٠٣ هـ . ص ١٩٨ .

(٤) السجل السابق للمحكمة الكبرى بدمشق . ص ١٩٨ .

(٥) بنى الأيوبيون في دمشق الفنادق التالية : فندق البزورين في سوق البزورية ، ثم فندق ابن حية وفندق ابن موسى في سوق القمح ، وفندق البيح وفنادق الخشب في سوق البقل ، وفندق في مكان دار غرير بن عبد الله البجلي الصحابي . وفندق أبي طاهر الفارقاني بالقرب من مقبرة الباب الصغير — وفندق ابن العناز بالقرب من أويس القرني . وفندق بني عبد المطلب عند سوق الدواب ، وفندق خارج باب شرقي ، ثم الفندق الكبير بأرض عاتكة ، وفندق غربي دار البطيخ (فندق الحليين) انظر : الريحاوي ، عبد القادر . خانات مدينة دمشق . ص ٤٩ و ٥٠ .

أما القيساريات التي بنيت في العهد الأيوبي في دمشق فهي : القيسارية الفخرية عند حمام القلاسيين شرقي كنيسة بولس وبقيت قائمة حتى العهد المملوكي . ثم قيسارية السلطان في زقاق الدر . ثم قيسارية الجعفري بالشعارين وقيسارية الفراء لم يحدد مكانها . ثم قيسارية القرشي في درب عجلان . ثم قيسارية الوزير في سوق القمح في الكتانين وقيسارية في أول درب اللبان بسفح قاسيون ثم قيسارية القطن . ثم قيسارية الصياغ جوار جامع الأموي انظر : الريحاوي عبد القادر . خانات مدينة دمشق . ص ٥٠ و ٥١ .

أما ما سمي بالخانات في العهد الأيوبي فهي خان الزنجاري شيد مكانه جامع التوبة الموجود إلى الآن بدمشق ، ثم خان التربة في حكر السماق غربي أسوار دمشق . ثم خان الصالحية مقابل البيمارستان القميري وسمي هذا الخان بخان العنب . ثم الخان الكبير مقابل باب القلعة الغربي انظر : الريحاوي ، عبد القادر . خانات مدينة دمشق . ص ٥١ و ٥٢ .

ولقد أقيمت في العهد المملوكي منشآت تجارية جديدة لم تكن معروفة من قبل ، فبعضها مؤرخ وبعضها لم يعرف تاريخ بناؤه .. ونلاحظ أن لفظ الفندق لم تعد مستعملة في هذا العهد لأن المنشآت التي من هذا النوع والمشيدة في العهد المملوكي أطلق عليها اسم قيساريات أو خانات ، ونلاحظ أن لفظ

القوافل ولممارسة النشاطات التجارية والصناعية منذ القرن السادس للهجرة . واستخدمت كلمة (وكالة) في مصر للدلالة على الخان أو القيسارية واستخدمت كلمة وكالة في دمشق أيضاً للدلالة على الخان ، إلا أن استخدامها كان على نطاق ضيق ، وورد ذكر ذلك لدى محمد أمين المحبي في أحداث سنة ١٠٠٥ هـ/ ١٥٩٥ — ١٥٩٦ م في ترجمته لوالي دمشق

قيسارية أصبحت اصطلاحاً يطلق على المنشآت التجارية المخصصة لمهنة من المهن أو للبيع أو للشراء . نستدل على ذلك من أسمائها أو وظائفها كما سنرى ، بينما أطلق اسم الخان على المنشأة المخصصة لنزول القوافل التجارية ولأعمال التجارة . ومع أنه لم يبين شيء من هذه القيساريات ، إلا أننا سنجد وصفاً مفصلاً لعدد منها في المصادر التاريخية مثل :

١ — قيسارية مسبك الفولاذ شيدت سنة ٧٣٢ هـ/ ١٢٣١ م داخل باب الصغير وقيسارية يلبغا شيدت سنة ٧٤٧ هـ/ ١٣٤٦ م حرقّت عدة مرات وجددت سنة ١٤١١/٨١٤ م خارج باب الفرج . وقيسارية الطواشي (خان باب الفرج) وقيسارية البهسي من أوقاف الجامع الأموي ، فرغ من بنائها سنة ٧٨٢ هـ/ ١٣٨٠ م وتقع في الحريرين ، جددت في العهد العثماني . ثم قيسارية الدهشة تم اكتمال بنائها سنة ٧١٥ هـ/ ١٣١٥ م بالقرب من الجامع الأموي ، وقيسارية ابن الباني كانت سكناً لتجار الفرج وقيسارية الشرب وقيسارية القواسين قرب باب الزيادة ، وقيسارية السلاح وقيسارية القجماسي ثم قيسارية البهار داخل باب الصغير ثم قيسارية تنم . أما الخانات فمنها خان جقمق ، ما يزال موجوداً ويقع في سوق مدحت باشا في الجانب الشمالي منه إلى الشرق من خان الدكة وخان الزيت .

- ٢ — خان بيبرس وينسب إلى نائب السلطنة في أيام الظاهر بيبرس أوقفه على فكاك الأسرى ولكنه غير معروف مكانه .
- ٣ — خان التكة موجود إلى الآن ويعرف بخان الدكة وكانت تباع فيه الجوارى والرفيق .
- ٤ — خان السبيل في الصالحية .
- ٥ — خان السبيل يقع في القابون التحتاني .
- ٦ — خان البقسيمات وقف للمدرسة الصابونية في محلة الأقباص غرب خان العقاد
- ٧ — خان العقاد يعد لتسج الحرير .
- ٨ — خان الملح يقع اتجاه خان العقاد إلى الجنوب .
- ٩ — خان طولون وقف للمدرسة الصابونية ويقع بالعقبة الكبرى خارج السور .
- ١٠ — خان العنب في الصالحية قبالة البيمارستان القيمري .
- ١١ — خان اللبن عند الجامع المظفري بالصالحية .
- ١٢ — خان السلطان الظاهر بباب الجابية .
- ١٣ — خان الشهابي في محلة سوق القصب معد لقفول الحلبين .
- ١٤ — خان ابن العسال في سوق باب السريجة .
- ١٥ — خان النجيني في ميدان الحصى .

مراد باشا حيث يقول : لقد بنى وكالة حسنة وأمر أن يسكن فيها تجار سوق السباهية ويقول أبو الطيب الفنري في تاريخ الوكالة ... « ولي الشام مراد فبنى خير وكالة »^(١) .

أما سجلات محاكم دمشق في فترة دراستنا فتذكر القيساريات في دمشق للدلالة على تلك الحانات ، كقيسارية النحاس في محلة ماذنة الشحم ، ثم تعود فتذكر هذه القيسارية في موضع آخر باسم خان النحاس^(٢) ثم قيسارية القاضي عجلون باطن دمشق بمحلة القيمرية

-
- ١٦ — خان البيض أنشأه النائب منجك .
 - ١٧ — خان الخزندار في مسجد القصب .
 - ١٨ — خان العميان من أوقاف الخانقاه العزية في باب الجابية .
 - ١٩ — خان ابن حجي بالقرب من خان العميان .
 - ٢٠ — خان المعروف قديماً بآين الحارة ويومئذ بخان المرأة .
 - ٢١ — خان الطحين في عداد أوقاف القربة الأفريدونية .
 - ٢٢ — خان قصر حجاج من أوقاف المدرسة الكجيمكرية الكائنة في العفيف .
 - ٢٣ — خان الخرفان يقع في سوق العنبرانيين عند باب الجامع الأموي .
 - ٢٤ — خان الظاهر وخان اللاجين ، الأول منسوب للسلطان الظاهر بيبرس والثاني لنائب السلطنة في دمشق حسام الدين اللاجين الذي حكم بين سنتي ٦٧٩/٦٩٠ هـ / ١٢٨٠ — ١٢٩١ م / ثم خان بسوق الحموي يوجد مكانه سوق الدرويشية الآن .
 - ٢٧ — خان فارس قبالة مسجد الاقصا : أنظر الرمحاي ، عبد القادر . خانات دمشق . ص ٥٦ وإلى ص ٥٨ .

ويقول أليكس راسل : إن القيسارية نوع من البناء ذي النفع العام خصص للفئات الدنيا من الغبراء عن المدينة مثل البدو والأكراد والأثراك أو لعناصر من أصل إفريقي ، وأطلق المسيحيون والأرمن في حلب على هذا البناء اسم قيسارية . وهو مكون من ساحة سماوية واسعة محاطة بعدد من الشقق الواطئة وكل شقة تحتوي على ٢ — ٣ غرفة مخصصة للسكان في تلك القيسارية ، وغالباً ما تكون أرضها مرصوفة بالحجارة من غير تنظيم وترى بعض الشجيرات المغروسة هنا وهناك بجانب مداخل الغرف ، كما ترى بحرات ماء داخل تلك الغرف . بها نافورات أو بعض الآبار في الساحة لسد حاجة السكان من الماء . وكانت موزعة . تلك القيساريات ، في أحياء حلب وضواحيها ، ووجد بناءً مشابه للقيساريات يطلق عليه اسم الحانات ولكنه أقل انتشاراً من الصنف الأول .

Sec: the natural history of aleppo, VOL. 1.P.36.

- (١) انظر: المحبي . خلاصة الأثر . ج ٤ ، ص ٣٥٦ .
- (٢) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٥ سنة ١٢١٠ — ١٢١١ هـ ، ص ٢٠٦ . وسجلها . رقم ٢٢٣/سنة ١٢٤٧ هـ ، ص ٤١ .

بالقرب من مدرستها^(١) ثم القيسارية الكائنة باطن دمشق داخل باب الفرج والفراديس بسوق القوافين^(٢) .

ويعتبر المحبي أن الوكالة والخان والقيسارية اسم لمسمى واحد^(٣) وسمي بعضها في حالات ضيقة باسم النزل خانة .

وكانت تلك المنشآت متداخلة الاختصاص والنشاطات ومختلفة الأماكن والمساحات التي بنيت عليها ، إلا أنها متشابهة في هندستها . وقام بينهاها الخاصة والعامة والسلاطين ونوابهم وولايتهم والتجار والأثرياء وأهل الخير ، وحبسوا لها الأوقاف لصيانتها وللصرف من ريعها على وجوه الخير كفك الأسرى وبناء المدارس والجوامع والتكايا والزوايا والربط ، وللحرمين الشريفين وإيواء اليتامى والفقراء والغرباء وأبناء السبيل ، وغير ذلك من وجوه النفع العام . فمثلاً كان خان العميان الذي يقع بالقرب من خان ابن حجي من أوقاف التوريزي على الخانقاه العزية بدمشق^(٤) وكان بعض الخانات وقفاً ذرياً خالصاً مثل خان محمد الدمشقي الحنفي المتوفى سنة ١١٧١ هـ / ١٧٥٧ م في سوق جقمق وجعله وقفاً ذرياً^(٥) .

ومن جهة أخرى لم تفقد الخانات المقامة على الطرقات العامة ، أهميتها في هذه الفترة بل ازدادت أهميتها نظراً لفقدان الأمن على تلك الطرقات ، فكانت المأوى الأمين للقوافل والمسافرين . ولقد أولتها السلطات العثمانية أهميتها ، فرمت مآتهم منها وزادت في عددها . وكان الواحد يبعد عن الآخر ما بين العشرين إلى الأربعين كيلو متراً . وما زال العديد منها قائماً حتى وقتنا الحاضر . ولقد بنيت من الحجارة لتقوى على الزمن واللصوص . فهناك خان حسية وخان البريج وخان تاره وخان النبك وخان السلطان المعروف الآن بخان العرايس في شمال القطيفة والكتابة على أسكفة بابه تسميه فندقاً^(٦) . ثم خان القطيفة وخان العصافير في نهاية ثنية للعقاب شمال قرية عدرا ثم خان دوما . وهناك خانات أخرى مقامة على طرقات دمشق من

(١) انظر : أيضاً سجلها رقم ٢٢٠/سنة ١٢٠١ — ١٢٠٢ هـ . ص ٤٩٦ .

(٢) انظر : أيضاً سجلها رقم ٢٤١/سنة ١٢٠١ — ١٢٠٣ هـ . ص ٥٤ .

(٣) انظر : المحبي . خلاصة الأثر ... ج ٤ ، ص ٣٥٦ وص ٣٥٧ .

(٤) انظر : النعمي ، محمد ، الدارس في تاريخ المدارس . ج ٢ . ص ١٦٧ .

(٥) المرادي سلك الدرر ... ج ٤ . ص ٢٣ .

(٦) المرادي سلك الدرر .. ج ٤ . ص ٤٨ .

سمي بالفندق ولقد شاهدت تلك الأسكفة على باب الخان المذكور إثر زيارة ميدانية له بتاريخ

١٩٨٣/٥/٢ م .

ناحية الغرب والجنوب . كخان الشيخ وخان سعسع وخان أرنية وخان جسر بنات يعقوب على نهر الأردن ووجدت خانات عديدة على طريق دمشق صيدا . أما هندسة هذا النوع من الخانات فكانت عامة على شكل مستطيل أو مربع ، له باب خارجي عال يسمح بدخول الرواحل إلى الساحة الداخلية ، التي هي عبارة عن فسحة سماوية بها بئر ماء في الغالب لسد حاجة المسافرين إليه . ويقفل الباب لحماية المسافرين والبضائع بواسطة الحراس المخصصين لحمايته . وكان للحراس غرف خاصة بهم . وبنيت غرف فوق الباب للمراقبة وكانت غرف الخان تحيط بالساحة الداخلية وينزل فيها المسافرون خاصة في فترات اضطراب جبل الأمن . ووجد في داخل الخان مسجد للصلاة . وكانت جدرانه الخارجية مرتفعة وخالية من الشبائيك . وعندما ينام المسافرون داخله . كان عليهم أن يدفعوا رسماً معيناً للحراس أو الخانجية ولا يستلمون مقابل ذلك أي اشعار بذلك . وكان المسافرون يؤمنون طعامهم كاللحم وغيره ، وفرش النوم والنار والإضاءة والعليق والعلف لرواحلهم بوسائلهم الخاصة^(١) .

ولقد أقيم في بعض هذه الخانات زوايا للفقراء يأوون إليها ، ويقدم إليهم الطعام من الأوقاف التي حبست لهذا الغرض . ولقد قام الوزراء من آل كوبرلي بحبس عديد من العقارات لهذا الغرض خدمة منهم لقوافل الحجاج الذاهبة والآية من الديار المقدسة^(٢) . فمثلاً خان عياش الواقع على طريق دمشق حلب كان فيه مسجد ومورد ماء وكان به حانوتان . وحبست عليه أوقاف كثيرة لتقديم الحصر والزيت والحبال والدلاء ورواتب للإمام والمؤذن والبواب^(٣) .

أما الخانات التي وجدت في قرى دمشق وأرياضها فلم تختلف في مهامها عما كانت عليه داخل المدينة ، إلا من حيث فخامة بنائها ، ولقد تهدم بعضها بفعل الزمن أو بفعل الحاجة لشق الطرقات والشوارع ، مما حرمانا من تكوين فكرة واضحة عن كل واحد منها . واستخدم هذا النوع من الخانات لايواء المكارين والغرباء والفقراء والرواحل . وأشهر هذه الخانات ما كان في سوق الخيل والعمارة وباب المصلى والشاغور البراني والمصلية . وكان

١ - Wright B.T. early Travels in palestine. P.383.

٢ - Russell, op.cit. VOL.1.PP.18.20.

(٣) انظر : قدامة ، أحمد . معالم وأعلام في بلاد العرب . ج ١ ، قسم ١ ، ص ٣٦٦ .

النازل فيها يدفع خمسة عشر قرش في الشهر الواحد للغرفة الواحدة^(١) ووجدت بعض الخانات لا يواء راحل أبناء الريف لعدة ساعات من الزمن^(٢) أو لإيواء أبناء الريف وبعض الغريب وأطلق عليها اسم بايكة أو اسطبل . واستخدم بعض الدماشقة هذه الخانات لوضع الحمير التي يؤجرونها لمن يريد مقابل مبلغ من المال . للسعي في أسواق المدينة وحاراتها أو للتنزه في بسائنها وقراها القريبة . وصبغت أذنان الحمير بلون خاص تميزاً لها وبقي ذلك حتى مطلع القرن العشرين^(٣) .

أما النوع الثالث من الخانات ، من حيث موقعها فهي التي كانت ضمن أسوار المدينة ، وكان منها الكبير والصغير . وأكثر القائم منها يعود إلى العهد العثماني . مما يدل على اهتمام العثمانيين بهذا النوع من المنشآت ذات النفع العام . ومعظم هذه الخانات كان موزعاً في سوق البزورية والحريير والقلبجكية والخياطين وسوق الطويل ، وبالقرب من الجامع الأموي مما يدل على أن مركز النشاط التجاري كان يقع في هذه المنطقة من المدينة . وكانت الشوارع التي تقع فيها تلك الخانات تسمح بمرور الجمال وهي محملة . وحتى أبواب الخانات كانت تسمح أيضاً بذلك ، ولقد تعددت اختصاصات هذه الخانات فكانت للتجارة الخارجية والداخلية ، ومأوى للتجار الغريب والمساافرين . ومخازن لبضائعهم وملتقى أبناء الأقطار العربية ولبعض أصناف الجند ، وحتى لبنات الهوى .

(١) انظر : الرضاوي عبد القادر . خانات مدينة دمشق . ص ٥٩ .

(٢) شاهدة نموذجاً من تلك الخانات في جولتي الميدانية التي قمت بها في حي الشاغور البراني بتاريخ ١٩٨٠/١١/٨ م وهو خان «أبي حمو» الذي يقع غرب زاوية السروجي ولقد بني على مساحة من الأرض تقدر بـ (١٠٠٠ م^٢) من الحجارة الغشم البازلتية — على طريق العقد الناقص والمركز سقفه على عضادات من نفس الحجارة . وهو خال من الفسحة السماوية به معالف للرواحل . كما ورد ذكر مثل هذه الخانات في سجل محكمة دمشق رقم ٢٣٠/ سنة ١٢٤٣ ، ص ٢١٥ وسجل رقم ٢٢٥/سنة ١٢٤٠ — ١٢٤٨ هـ ، ص ١١١ .

(٣) يقول أحمد حلمي العلاف : هناك في سوق الخيل اندي أعدت فيه الحمير البيضاء للنقل لونها أبيض ، من غلاماتها تلوين ذيلها باللون الأحمر . لتعرف بأنها من الحمير المعدة للأجار ، كما كان لها برادع بشكل واحد ومعروف عند كافة الناس ، فإذا أرهد استجار واحد منها أو أكثر (إذا كانوا جماعة) عمدوا إلى دكان صغير وهي بمثابة مركز شركة للنقل ، فاستأجروا قدر ما يكفيهم وركبوها لساعة أو أكثر أو ليوم أو لأكثر ويذهب وراءهم أحد السعاة التابعين للشركة ويده العصا أو السوط جرياً على قدميه فيضربها حتى تصل بهم إلى المكان المقصود ثم يعود بها . وكثيراً ما كانت تؤجر بدون ساع إذا كان المستأجر معروفاً . انظر : دمشق في مطلع القرن العشرين . ص ٣٦ .

ويعصف لا مارتين الذي زار مدينة دمشق سنة ١٨٣٣ م جانباً من النشاط التجاري والاجتماعي داخل هذه الخانات فيقول : « إن التاجر المرموق كان يستأجر غرفة من الغرف العلوية في الخان ليضع فيها بضاعته الثمينة وكتبه^(١) وخصصت الغرف السفلية من الخان لاستخدامها كمستودعات لبضائع التجار . أما التجار المحليون فكانوا يجلسون لغرض التجارة في هذه الخانات من الصباح وحتى مغادرتها مع الغروب إلى منازلهم^(٢) » ويقول بورتر الذي عاش في دمشق في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر : « سنة ١٨٥٠ - ١٨٥٥ م » ما يلي : « كان المرء يشاهد التجار مستلقين على الدرج أو بجانب أبواب مخازنهم يدخنون النرجيلات أو جويوقات التوتون أو يتسكعون في الأروقة من أجل إتمام الصفقات التجارية أو للتعامل مع الجمارك . والقهوجي (صانع القهوة) في حركة دائمة يحمل سماره النحاسي القذر وقدره المعدني أو الفخاري وفناجينه الصغيرة القذرة ليقدّم للناس القهوة التي تعتبر شراب الدمشقيين المفضل . وهناك حاملو الغلايين الذين يقومون بتنظيفها وتنظيف النارجيلات وتحضير التنباك عليها للتدخين .

وكان المرء يرى في تلك الخانات بائع الشراب يملأ جرته ويشبثها بحزام إلى وسطه وعنقه ويقوم بقرع الصحاف المعدنية بإحدى يديه على بعضها محدثاً صوتاً لتنبيه الراغبين في الشراب داخل الخان^(٣) ويرى المرء داخل الخان عدداً من الأشخاص الحمالين (العتالة) الذين يقومون بحمل البضائع ونقلها من مكان إلى آخر على ظهورهم مقابل أجر معين . وقد يستخدم هؤلاء العربات الصغيرة من أجل ذلك . وكانت أجرة نقل الطرد عبارة عن عشر بارات أو أكثر^(٤) أما حراسة الخانات فيقع عبؤها على آغا الانكشارية ووجد مراقب يرسل من قبل القاضي لجمع ما يترتب على البضائع العامة التي تدخل الخان من ضرائب . وهناك الأوضة باشي أو البواب الذي يقيم بشكل دائم داخل الخان في غرفة خاصة بالقرب من الباب الرئيس ، وهو حائز على ثقة الجميع ، ويقفل باب الخان الرئيسي مع الغروب وربما يفتح الخوخة « التي هي عبارة عن باب صغير ضمن الباب الرئيسي » ليلاً وعند الحاجة^(٥) وكان يساعده في ذلك بعض مرؤوسيه .

1 - Voyage en Orient. VOL.2.P.14.

2 - Russell. op.cit. VOL.1.PP.18.19.20.

3 - Five Years in Damascus. VOL.1.P.33.

(٤) انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص ٣٠٢ .

5 - Russell. op.cit. VOL.1.PP.18.19.

ولقد عمل العديد من المغاربة حراساً في خانات دمشق^(١) . وبقيت هذه الخانات في مأمن من الاعتداء عليها إبان الصراعات في المدينة ، لوفرة حراسها من جهة ، ولاحترام رؤساء الجنود للتجار لكثرة ما يقدمونه لهم من الهدايا^(٢) من جهة أخرى .

وكان التخصص واضحاً في الخانات في هذه الفترة فمنها ما كان يُعنى بحرفة محددة كنسج الحرير والآلاجة ومنها ما كان للفتالين وهي حرفة ملحقة بصناعة النسيج . وبه دواليب للـف الخيوط^(٣) وأقيم في بعضها مجارف يدوية للمخمل الممتاز المطرز والأطلس والبروكار والدمقس والكمخا وأصناف أخرى من النسيج ذي اللون الواحد والمخطط والموج والمناديل الحريرية والأقمشة القطنية وأصناف أخرى من الأقمشة .

وتفردت بعض خانات دمشق بنزول أبناء مقاطعات محددة ، كخان سليمان باشا العظيم الذي دعي بخان الحماصنة لأن تجار حمص كانوا ينزلون فيه^(٤) . وكان بعضها ملقى لطائفة محددة من الجند كخان اللاوند والأكراد^(٥) . وأطلق على أحد الخانات اسم خان الدالاتية ، وكان ملقى للمغاربة في دمشق^(٦) . ثم خان الشهابي الذي كان في سوق الأقباص وهو معد للقفول الحلبية^(٧) . ووجدت خانات مخصصة لنزول الغرباء في دمشق من

(١) انظر : رافق ، عبد الكريم . مقالة له في مجلة الدراسات التاريخية بدمشق العدد الأول ص ٧٩ / مارس / آذار ١٩٨٠ م

(٢) انظر : مجهول حسر اللثام عن نكبات الشام . ص ٣٢ وص ٣٣ .

(٣) انظر : السجل رقم ١٤٦ / محاكم دمشق سنة ١١٧١ هـ - ١٧٥٧ م . ص ٢٢٨ وص ٣٤٩ ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ / ص ٢٢٦ . ثم سجلها رقم ٢٦٠ / ص ٢٢١ . ويذكر دارنيو أن القوافل كانت تجلب من مكة جميع أنواع العقاقير والتوابل والبضائع من بلاد فارس والهند . ويحمل إليها الأفرنج الاغصية الحريرية والأصواف والذهب والورق والقهبات والقرمز والنبالج والسكر وكميات من البضائع الأخرى التي تفرغ في صيدا وبيروت وطرابلس ثم تنتقل من هذه المرافئ مع القوافل إلى دمشق . انظر : كتابه : وصف دمشق . ص ٦٧ وص ٦٨ .

(٤) انظر الريحاوي ، عبد القادر ، خانات مدينة دمشق ، ص ٦٠ . ثم مجلة المشرق ، العدد ٣٦ ، ص ٦٨ . مقالة لحبيب الزيات .

(٥) انظر : رافق عبد الكريم .. مقالة له في مجلة الدراسات التاريخية بدمشق العدد الأول ، ص ٧٦ مارس (آذار) ١٩٨٠ م .

(٦) انظر : المصدر السابق ، ص ٧٧ .

(٧) انظر ابن عبد الهادي ، يوسف . الإحانات في معرفة الخانات ، نقلاً عن مجلة المشرق العدد ٣٦ ، ص ٧٠ ، سنة ١٩٣٨ م .

الأجانب والمسافرين ، يقومون بطبخ طعامهم^(١) فيها . وهناك خانات للقهوة وبيعها وهي ملتقى لفئات من المجتمع الدمشقي للتسلية والاستماع إلى الحكايا ورؤية خيال الظل واللعب بالداما والشطرنج وغيرها .

ووصف الخياري أحد الخانات الذي يقع بالقرب من باب جيرون (الجامع الأموي) بقوله : (يرى الجالس منه عن يمين ويسار منتزهات جميلة للغاية يجلس كثير من الفضلاء فيشربون به هاتيك القهوة التي لم يحظ غيرها بأن يكون له بها لهوة . وكان به محل فوار الذي يعتبر من العجب بل العجائب ، يصعد فيه الماء نحو القامة مع غلظ الزند العظيم البلوري ، فينحدر إلى أسفل متفرعاً كفروع أغصان تدلت للثم السوق فوق الأقدام أو كعذبات على معاطف الأطباء والآرام تنصب في حوض من الرخام ذي الألوان .. وهذا الماء لا يزال جارياً مصعداً ومنحدرًا دائماً وأبداً على هذا الوضع والأسلوب له حسن الصوت يزدري في العقول ويشجي القلوب . وان خانات القهوة فيها لكل شخص سلوة فلقد جمعت اللطافة^(٢) .

كما كانت بعض الخانات ملقى لبنات الهوى والجند . وهكذا نرى أن الخانات في دمشق لم تكن لها مهمة اقتصادية فحسب ، بل كانت مهمتها الاجتماعية أكبر وأعظم ، فهي ملتقى الغرباء والأصدقاء يجري فيها التعارف وعقد الصفقات والتسلية وممارسة الحرفة ومبيت الغرباء ومأوى رواحلهم الخ .

وسميت بعض الخانات في دمشق بنوع السلعة التي تباع فيها أو الحرفة التي تمارس فيها .

مثل خان الحرير وخان الزيت وخان الجبن وخان الرز وخان الدبس^(٣) وخان الجمرک جوار المرادية^(٤) وخان الجوخية لبيع الجوخ وخان الخياطين الذي بناه الوالي العثماني أحمد شمسي باشا سنة ٩٦٠ هـ/ ١٥٥٠ م في سوق الخياطين^(٥) وخان الذكة المخصص لبيع الجوارى

(١) انظر : القاسمي ، محمد سعيد ، قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ ، ص ٣١٠ وص ٣١١ . ثم انظر : دارفيو ، الفارس . وصف دمشق ، ص ٣٠ .

(٢) انظر : تحفة الأدباء وسلوة الغرباء ، ج ١ ، ص ١٦٨ وص ١٧٢ وص ١٧٣ . وكلمة خان هنا تعني (مكان) أي بيت القهوة .

(٣) انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية : ج ١ ، ص ١٣٤ وص ١٥٤ .

(٤) انظر : الريحاوي ، عبد القادر . خانات مدينة دمشق . ص ٦٢ وص ٦٣ .

(٥) انظر : الريحاوي ، المرجع السابق ، ص ٦١ .

والرقيق^(١) ولكن بعض هذه الخانات غيرت اختصاصها إلا أنها حافظت على اسمها حيث قامت باستقبال البضائع من الأقطار الأوربية مثل خان العصورنية^(٢) وخان العامود^(٣) وخان الزيت^(٤) وخان الزعفراني^(٥) وخان السفرجلاني^(٦) وخان المرادية^(٧) .

-
- (١) انظر: الريحاوي، المرجع السابق، ص ٥٦ .
(٢) انظر: القاسمي، محمد سعيد. قاموس الصناعات الشامية . ج ١ ، ص ١١٧ .
(٣) انظر: سجلات الوثائق التاريخية (الفرمانات السلطانية) . الترجمة . المجلد رقم ٢ ، الوثيقة رقم ١١٦ . ص ١٢١ . آذار . سنة ١٢٤٦ هـ .
(٤) المصدر السابق الوثيقة رقم ١٢٧ ، ص ١٢٨ . سنة ١٢٤٦ هـ .
(٥) المصدر السابق الوثيقة رقم ٩٧ ، ص ١٠٠ وص ١٠١ وص ١٠٢ سنة ١٢٤٦ هـ .
(٦) المصدر السابق الوثيقة رقم ٩٧ . ص ١٠٠ وص ١٠١ وص ١٠٢ ، سنة ١٢٤٦ هـ .
(٧) المصدر السابق الوثيقة رقم ١٠٦ . ص ١٠٩ .

هندسة الخانات

ارتبط بناء الخانات في دمشق بظروفها الاقتصادية والسياسية في مختلف العهود . وما بني منها في العهد العثماني كان قليلاً إذا ما قورن بالعهود السابقة وأقله في فترة دراستنا وأهم الخانات العثمانية في دمشق لم يتجاوز عدد أصابع اليد^(١) .

(١) ولقد ذكر يوسف عبد الهادي الخانات الدمشقية التي بقيت إلى عهده (القرن العاشر للهجرة) وما بني في العهد العثماني أو ما قبله . في كتابه (الإعانات على معرفة الخانات) . كما يذكر نعمان القساطلي الذي : عاش في القرن التاسع عشر للميلاد /١٣٩/ خاناً في دمشق بين كبير وصغير للتجارة والصناعة والقهوة وإيواء الدواب والمكايبة والفقراء داخل دمشق وخارجها في كتابه «الروضة الغناء في دمشق الفيحاء» وما بقي من هذه الخانات إلى فترة دراستنا نرصده من تلك المصادر وبعض المراجع الأخرى وهي على الشكل التالي : خان جقمق (وأحياناً سوق جقمق) وهو ما يزال قائماً إلى يومنا هذا في سوق مدحت باشا ويقع في الصف الشمالي من هذا السوق وإلى الشرق من خان الزيت وخان الدكة (التكة) . ثم خان التكة (الدكة) ما يزال موجوداً إلى الآن ويعرف لدى العامة بخان الدكة ويقع في أول سوق مدحت باشا الآن . ويقول بن عبد الهادي : بأنه كان يباع فيه الرقيق والجواري . انظر بن عبد الهادي . (الإعانات ...) ج ٣ . ص ٥٢ والقساطلي . (الروضة ...) ص ١١٠ . ثم خان لالا مصطفي باشا ويقع ظاهر دمشق خارج باب الفرج بمحلة العقيبة . انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦/ص ١٦٩ ، بالقرب من حمام المحتسب . ثم خان القماحين ، ويقع ظاهر مدينة دمشق بمحلة القماحين انظر : سجل القسمة البلدية رقم ٣٢٧/ص ١٤٢ . وتعود ملكيته لآل النقطة . خصص لزرب الدواب . ثم خان بني الناشف ، ويقع بالقرب من جامع درويش باشا . إلا ان الوثائق الشرعية لم تحدد مكانه بدقة فيما إذا كان داخل أسوار دمشق أم خارجها . ثم الخان المعروف ببني رمضان ويقع في محلة

خان الخياطين الذي بناه في سوق الخياطين الوالي العثماني أحمد شمسي سنة ٩٦٠ هـ /
١٥٦٢ - ١٥٦٣ م ثم خان المرادية الذي بناه والي دمشق ما بين ١٠٠٢
و ١٠٠٥ هـ / ١٥٩٣ - ١٥٩٥ م . ثم خان درويش باشا (٩٧٩ - ٩٨٢ هـ

الشيخ عي الدين في الصالحية . أنظر : ابن عبد الهادي . ص ٥٣ وما بعدها . ثم خان الخضرية أو
الخضيري ويقع باطن دمشق بمحلة القطانين بالقرب من سوق العلبة . انظر : سجل المحكمة الكبرى
بدمشق رقم ٢٢١/ص ٧٦ . وربما هو الخان الموجود اليوم بسوق القطن قريبا من المدرسة الخضرية . ثم
خان السمرجية ويعرف بخان الحورة . أما مكانه فلم تحدده سجلات محكم دمشق الشرعية .
ثم خان سبياي ومكانه غير معروف وينسب الى النائب سبياي الذي ولي على دمشق في آخر
العهد المملوكي .

وخان في باطن دمشق بمحلة باب شرقي المعد لوضع الغلة ويقع قبلي الطريق الآخذ الى باب شرقي
انظر : ابن عبد الهادي (الإحانات ..) ص ٥٣ وما بعدها . ورغم ورود ذكره في سجل المحكمة الشرعية
إلا أن نسبته لم ترد فيه . وخان المغاربة في باب المصل بزقاق الأكرمين . وخان عبد العظيم بمحلة القيمية
باطن دمشق . انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٤/ص ٧ . وخان السيد منصور ، وربما
هو خان السيد الموجود اليوم قبالة الجامع المعلق خارج السور الشمالي انظر : الريحاوي خانات دمشق ،
ص ٦٠ .

وخان الجاموس أو الجواميس — ثم خان الشلاح ، وخان بسوق الحمام ، كلها ورد ذكرها في
الوثائق التاريخية . انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٣/ص ٢١ و ص ٣٠ . أما أماكن هذه
الخانات في دمشق فلم تحددها تلك السجلات . ثم خان الدقاقين في محلة الدقاقين قبالة سوق البرزوية
من جهة الجنوب . وخان البهرامية . انظر : سجل المحكمة العسكرية بدمشق رقم ٢٣٨/ص ٧٠ إلا أن
هذا السجل لم يحدد مكانه .

وبالرغم من بقاء هذه الخانات إلى العهد العثماني ، إلا أنها لم تكن في أهميتها كالخانات التي
أنشئت في العهد العثماني والتي بقيت إلى وقتنا الحاضر في دمشق ، وربما يعود ذلك لاهتمام جميع العهود
التي مرت على دمشق منذ إنشائها وحتى وقتنا الحاضر ، بالحفاظ عليها والاستمرار في استخدامها من
قبل التجار والحرفيين . فقاموا بصيانتها وترميمها وأهم هذه الخانات هي :

خان الجوخية — أو خان الخياطين — وهو جزء من سوق الخياطين بناه في بداية العهد العثماني
والي دمشق أحمد شمسي باشا في عام ٩٦٠ هـ / ٢٥٥٢ - ١٥٥٣ م ، كما هو مثبت بالكتابة المنقوشة
على بابه ، وخان الحرير عثمري والي دمشق العثماني درويش باشا الذي حكم ما بين (٩٧٩ - ٩٨٢ هـ)
وعرف باسم قاسانية درويش باشا . ولقد تم بناؤه كما هو مثبت نقشاً على حجارة بابه في عام
٩٨١ هـ / ١٥٧٣ - ١٥٧٤ م . انظر : الريحاوي خانات دمشق . ص ٦١ .

وخان سليمان باشا ويقع في سوق مدحت باشا في أيامنا هذه في الجانب الجنوبي منه قريب من
محلة الدقاقين . كان يطلق عليه قديماً (خان الحماصنة) لنزول تجار حمص فيه ، بناه سليمان باشا العظم
الذي ولي على دمشق عام ١١٤٥ هـ / ١٧٣٢ م .

وخان العامود ، ويقع في سوق البرزوية قبالة خان أسعد باشا العظم وهو قائم إلى وقتنا الحاضر ،

١٥٧١/ — ١٥٧٤ م) وهو ما سمي بخان الحرير أو قيسارية الحرير وتم بناؤه في سنة

ولا توجد معلومات عنه قبل ذكره من قبل نعمان القساطلي ، وهذا الخان صغير إذا ما قيس بالخانات الأخرى في دمشق .

وخان المرادية ، ويقع عند باب البهد ، وله واجهة على سوق الحميدية في وقتنا الحاضر وواجهة أخرى على سوق الحرير ، وهندسة هذا الخان حديثة العهد تعود إلى مطلع القرن العشرين ، وربما تهدم في الزلازل التي ضربت دمشق في العهد العثماني ، فأعيد ترميمه ولقد ورد ذكره في كتاب (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر) بأن الوالي قام بينائه عام ١٠٠٢ هـ/ ١٥٩٣ م — ١٥٩٤ م .

وخان الجمرک ويقع جوار خان المرادية وبابه مفتوح على سوق القلبيجية ، وله هندسة خاصة فهو عبارة عن زاوية قائمة مسقوفة بست قباب وعلى جانبي الممر منه فتحت سلسلة من المخازن التجارية . ولا نعلم شيئاً عن تاريخ بنائه . انظر : الريحاوي . خانات دمشق ، ص ٦٢ . أما نعمان القساطلي فيذكره في كتابه «الروضة الغناء في دمشق الفيحاء» على أنه كان مركزاً لجمرك دمشق حتى عام ١٨٦٤ م/ ١٢٨١ — ١٢٨١ هـ .

وخان قطنا ويقع بين خان الجمرک وخان المرادية ، وبابه مفتوح على سوق القلبيجية ، ولا نعلم شيئاً عن تاريخ بنائه ، إلا أن عبد القادر الريحاوي يعتقد أن بناءه تم قبل بناء خان الجمرک . انظر : الريحاوي ، خانات دمشق ، ص ٦٣ . ثم خان الزعفرانية في سوق القلبيجية إلى الجنوب من خان الجمرک ، هندسته شبيهة بخان قطنا . ولا نعلم تاريخ بنائه . ثم خان الحرمين أسماه القساطلي «خان الجوارى» ويقع في سوق الحرير في الطرف الشرقي منه قبالة خان قطنا ويذكر «بورتر» الذي زاره في سنة ١٨٥٥ م أنه مخصص لبيع الجوارى والعبيد . انظر : كتابه

Five years in Damascus. VOL. I, PP. 33.

أما البديري الحلاق الذي عاش في منتصف القرن الثامن عشر يذكر هذا الخان على أنه في باب البهد . وأحد سجلات محاكم دمشق لعام ١٠٤٠ هـ/ ١٦٣٠ — ١٦٣١ م عين مكانه في سوق الجراكسة باطن دمشق ولعله جدد بعد القرن الثامن عشر واحتفظ باسمه . انظر : الريحاوي . خانات دمشق ، ص ٦٣ ثم : السجل رقم ٣٢٣/المحكمة الكبرى بدمشق/ص ١٨ .

وخان التتن : والتتن كلمة تركية تعني التبنغ . ويبدو أنه خصص عند انشائه لتجارة التبنغ ، ويقع إلى الجنوب من الجامع الأموي شرقي خان الحرير ، وبابه مفتوح على سوق السلاح وهو من النموذج المسقوف صحنه بالقباب .

وخان الصدرانية : يقع بالقرب من قصر أسعد باشا العظم في صدر سوق البزورية ، وبابه مفتوح على هذا السوق ، مسقوف بعقد وثلاث قباب وأقد عبر عثرنا عليه من هذا الخان هو في الوثائق التاريخية النابذة لمحاكم دمشق لعام ١١٧١ هـ/ ١٧٥٧ م انظر : السجل رقم ١٤٦/محاكم دمشق ص ٣٠٨ وص ٣٢٥ . ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٣/ص ٥ . ثم سجلها رقم ٢٦٠/ص ١٠ . وربما هو خان معاوية الذي تصفه سجلات محاكم دمشق بأنه معد للفتالة وجاري في دائرة أسعد باشا العظم . ثم خان السفرجلاني ، ويقع في سوق السلاح بين الصاغة المحروقة وخان الصدرانية وهو خان صغير من طابقين ، له صحن مسقوف بثلاث قباب وحوله رواق . انظر السجل رقم ١٤٦/محاكم دمشق/ص ٢٩١ . وخان المغاربة ثم خان أسعد باشا العظم وهو أوسعها وأفخمها على الإطلاق .

٩٨١هـ/١٥٧٤م^(١) ثم خان سليمان باشا العظم الذي يقع في محلة القماحين ، وكان يسمى خان الحماصنة بناه سنة ١١٤٥ هـ/١٧٣٢ م ثم خان مصطفى باشا الذي بناه خارج باب الفرج بمحلة العقبية بالقرب من حمام المحتسب^(٢) . ثم خان أسعد باشا العظم في سوق البزورية بدأ ببنائه سنة ١١٦٥ هـ/١٧٥١ — ١٧٥٢ م . وتم بناؤه في سنة ١١٦٧ هـ/١٧٥٣ م ويقول البديري الخلاق : « اشترى أسعد باشا سوق الدق وما حوله من الدكاكين ومراده أن يعمل بهم قيسارية ليس لها نظير في قيساريات الشام »^(٣) وتعرض سقفه للانهيار بعد بنائه بستة أعوام نتيجة للزلزال الذي ضرب دمشق في ربيع الأول والثاني سنة ١١٧٣ هـ/١٧٥٩ — ١٧٦٠ م .

ولقد كان هذا الخان أفضل ما بني من الخانات في دمشق على الإطلاق من حيث اتساعه وهندسته وزخرفته . وعندما زاره « لامارتين » في سنة ١٨٣٣ م/١٢٤٩ هـ وصفه بأنه « أجمل خان في الشرق وقبته الفخمة تذكر بقبة بولس في روما فهي محمولة على عضائد من الغرانيت ... أما بابه فيعتبر قطعة من العمارة الإسلامية التي لا نظير لها في العالم من حيث الزخارف »^(٤) .

ولقد أدخل العثمانيون الفن الرومي في بناء الخانات . فأصبحت خاناتهم في دمشق مسقوفة بالقباب والعقود بدلاً من الجملون الذي كان سائداً في بناء الخانات قبل عهدهم . وعنوا بزخرفة الخانات بالخليات المعمارية والحجارة الملونة (الأسود والأبيض بالتناوب) سواء في جدرانها أو أقواسها . وهذا الفن كان استمراراً للفن السلجوقي المعزج بالفن المملوكي بالإضافة إلى الفن البيزنطي . وحل في بناء الخانات القوس الرومي محل القوس الفارسي الذي استخدم في بناء الخانات السابقة في دمشق . وتتميز القوس الرومي الجديد برأسه المقعر قليلاً نحو الخارج والجزء السفلي منه محدب . وازداد استخدام القوس نصف الدائري المجزوء أي الذي تقل فتحته عن نصف الدائرة ، في الأبواب والشبابيك . أما الأعمدة فقد شاع فيها استعمال التيجان المقرنصة وزعمت في الزخرفة العروق النباتية والأزهار .

(١) انظر : الريحاوي ، عبد القادر ، خانات دمشق . ص ٦٠ .

(٢) سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣/سنة ١٠٣٩ — ١٠٤٢ هـ/١٦٣١ — ١٦٣٤ م/ص ٤٥ .
ثم : سجلها رقم ٢٦/ص ١٦٩ .

(٣) انظر : حوادث دمشق اليومية . ص ١٥٩ وص ١٧٤ وص ١٧٩ ثم : القسطلي نعمان . الروضة الغناء في دمشق الفيحاء . ص ١١٠ .

وعندما احتل المصريون دمشق طراً على خاناتها بعض التبدل فاستخدموا الصالح منها لايواء جنودهم قبل بناء الثكنات لهم ، وأشرف بعض مهندسيهم على ترميم المتهدم منها . ونسوق مثلاً على ذلك تكليف ابراهيم باشا المصري أحد المهندسين بالكشف على بعض القيساريات وإعداد بيان عن اللازم لاصلاح قيسارية أبي العجوز وقيسارية قسطل الحرامي^(١) . واضطر المتضررون من جراء ذلك لتقديم شكوى إلى مجلس الشورى فكلّف المجلس بالنظر في شكوى أصحاب الخانات والحوانيت فيها . وأوكل أمر ذلك إلى متولي الجهات الخيرية المحبوسة لها . فكان ينصفهم ويدفع لهم أجور هذه الخانات . ولدينا مثال على ذلك أحد خانات دمشق الذي كان تابعاً للطريقة المولوية حيث استخدم من قبل الجيش المصري كمخزن لوضع القش والصابون ولم تدفع أجرته ، فاضطر شيخ التكية المولوية (عبد الغني الدرة) لتقديم شكواه إلى الحكمدار . فقام الأخير بإحالة الشكوى إلى المجلس لدراستها واصدار حكم بها . ووافق المجلس على إعطائه الأجرة المقررة عن المدة السابقة واللاحقة^(٢) . وبقي الحال إلى أن قام الجيش المصري ببناء الثكنات الخاصة به فأعيدت الخانات إلى أصحابها . وقام المصريون بتنظيم العمل فيها . ووضعوا دلاًلاً أو أكثر في كل خان ، وكان على الدلال أن يحصل على براءة من المحكمة الشرعية في دمشق تسمح له بالعمل في هذه المهنة . كما وضعت الإدارة العسكرية المصرية ملتزمين من قبلها لجمع مال القبان من الخانات . وكان الملتزم (يأخذ من التجار مال الميري عيناً أي من نفس السلعة المباعة أو نقداً وعلى سبيل المثال كان يأخذ الزكاة من الزيت ثلاث بارات له وتسعة قروش لجهة الميري^(٣) . وأثرت السياسة التي اتبعها الحكم المصري في دمشق على وضع الخانات عندما قاموا بالسماح للقناصل والتجار والأوربيين بالإقامة في دمشق . حيث قام هؤلاء بترويج منسوجات دولهم ومنتجاتها الصناعية التي استطاعت أن تزيج من طريقها معظم المنسوجات والصناعات الدمشقية ، نظراً لتفوق الأولى على الثانية بسبب جودتها ورخص ثمنها . فأدى ذلك إلى تعطل أنوال النسيج وبعض الحرف المقامة في الخانات وبالتالي تحولت تلك الخانات وغرفها إلى

(١) انظر : رسم ، أسد ، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا . المجلد ٣ و ٤ . ص ١٥٢ و ص ٢٢٦ .

(٢) انظر : رسم ، أسد ، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا . المجلد ٣ و ٤ ص ١٥٣ و ص ٢٠٠ .

(٣) انظر المصدر السابق ، ص ١١٧ و ص ٢٠٠ .

متاجر لبضائع الغرب وأصبح بعضها الآخر زرائب للحيوانات . ونرصد عديداً من الخانات الصغيرة والكبيرة التي تغيرت أسماؤها نظراً لتغير النشاطات الاقتصادية فيها .

وأهم الخانات التي كانت تقع خارج دمشق : خان الشيخ عمر ظاهر دمشق بمحلة العاصية^(١) ثم خان سوق الخيل^(٢) ثم خان المشعلجية بمحلة تحت القلعة غرب خان الباشا^(٣) وخان المليحي ظاهر دمشق^(٤) وخان الحنابلة في محلة العقبية^(٥) ثم خان الآلجا في الشاغور البراني بالقرب من جامع الشنباشية^(٦) وخان العكجية وقف بني البكري ظاهر دمشق^(٧) وخان الوقف بمحلة الشويكة ظاهر دمشق^(٨) .

أما ما كان منها باطن دمشق فهي :

خان الأقيم قرب حمام عيسى القاري^(٩) وخان الوقف بمحلة النصاري بزقاق جعفر البراني^(١٠) وخان البترك الكائن بمحلة الخراب بزقاق الكنيسة المريمية . كان معدداً للفتالة^(١١) وخان الرواس في محلة باب توما^(١٢) وخان شيخ الحارة بمحلة باب توما وكان معدداً لنسيج القطن^(١٣) وخان المصينة باطن دمشق بمحلة النصاري بزقاق التلة بالقرب من جامع التوبة^(١٤) وخان حيدر الكائن بزقاق المسبك الجواني بمحلة النصاري بالقرب من خان شيخ الحارة^(١٥) وخان قجماس باطن دمشق بالقرب من سوق الأروام^(١٦) وخان البرنجك شرق جامع

(١) انظر : سجل محكمة الميدان رقم ٣٠٤/سنة ١٢٣٨ — ١٢٤٠ هـ ، ص ١٣٠ .

(٢) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩/سنة ١٢٦٤ — ١٢٦٥ هـ ، ص ٣٩ .

(٣) انظر : السجل رقم ٢٠٢/محاكم دمشق/سنة ١٢٠١ — ١٢٠٢ هـ ، ص ٤٣٦ وص ٤٦٦ .

(٤) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٦/ص ٢٨٧ .

(٥) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٣٦/سنة ١٢٥٠ — ١٢٥١ هـ ، ص ١٧٣ .

(٦) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٤٠/١٢٥٠ — ١٢٥٤ هـ ، ص ٤٧ .

(٧) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق ٢٣٩/١٢١٠ — ١٢١١ هـ ، ص ٢٠٩ .

(٨) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٤٠/١٢١١ — ١٢١٦ هـ ، ص ٤٧٥ .

(٩) انظر سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩/١٢٦٤ هـ ، ص ٤٢٨ .

(١٠) انظر : السجل رقم ٢٢٠/محاكم دمشق/١٢٠١ — ١٢٠٢ هـ ، ص ٤٣٦ وص ٤٦٦ .

(١١) انظر : سجل محكمة الميدان بدمشق رقم ٣٢٣/سنة ١٢٤٧ هـ ، ص ٢١ وص ٣٠ .

(١٢) انظر : سجل القسم العسكرية رقم ٣٣٦/١٢٥٠ — ١٢٥١ هـ ، ص ٢٠٣ .

(١٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٣٤/١٢٥٠ هـ ، ص ٢٣ .

(١٤) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩/١٢١٠ — ١٢١١ هـ ، ص ١٦٨ .

(١٥) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠/١٢١١ — ١٢١٦ هـ ، ص ٤١٦ .

(١٦) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/١٢١٦ — ١٢١٧ هـ ، ص ٢٧٢ .

الدغمشية^(١) وخان الدهوار بمحلة الشيخ سيف الدين باطن دمشق^(٢) كما ورد ذكر لبعض الخانات في تلك السجلات إلا أنها لم تحدد أماكنها مثل : خان الحشاشة وخان بازرياشي^(٣) ويبدو أن تلك الخانات لم تكن بأهمية الخانات الكبيرة والتي لعبت دوراً في حركة تجارة دمشق الداخلية .

-
- (١) انظر : السجل رقم ٢٣٥/محاكم دمشق/١٢١٠ - ١٢١١ هـ ، ص ١٤٩ .
(٢) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٦/٢٥٠ - ١٢١٧ هـ ، ص ٧ .
(٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٠/٢٣٤ - ١٢١١ هـ ، ص ٤٧ .

المقابر الطائفية وهندسة القبور وكيفية دفن الموتى

إن اتساع المدينة بفعل تزايد السكان والهجرة إليها ، قد راعى حرمة المقابر فصار البناء بمحاذاتها ، كما نرى ذلك في حي سوق ساروجا والعمارة ، الذي سائر مقبرة الدحداح ، ثم الميدان الذي سائر مقبرة الباب الصغير من ناحية الغرب .

ووجد في دمشق عدد كبير من المقابر والترب العامة والخاصة آتخذ ولقد خصص لكل طائفة دينية فيها مقبرة أو أكثر ، حتى أننا نرى مقبرة لكل مذهب من المذاهب في الديانة الواحدة . وكان للمسلمين مقابر عدة كما كان مثل ذلك للمسيحيين واليهود والسامرة . والملاحظ بشكل عام أن المقابر الخاصة بالطائفة كانت قريبة من أماكن سكنها . فمثلاً المقابر المسيحية في الجهة الشرقية والجنوبية من المدينة حيث يسكنون وكذلك مقابر اليهود وتقع خارج أسوار دمشق في جنوب الحي اليهودي مباشرة في الشاغور البراني . أما المسلمون الذين كانوا يشكلون الكتلة الأساسية من سكان المدينة ، والموزعون في سكنهم على معظم أحيائها وأرياضها . كانت مقابرهم منشورة في كل اتجاه خارج أسوارها فمثلاً : مقبرة الباب الصغير وهي أكبر المقابر الإسلامية والتي كانت في أصلها مقبرة رومانية ، تقع في خارج سور دمشق قبالة الباب الصغير ، وتمتد جنوباً مسيرة الطريق السلطاني . ثم مقبرة الميدان التحتاني من ناحية الشرق ثم مقبرة الميدان الفوقاني أيضاً من الشرق . وهناك مقبرة مرج

الدحداح التي تقع في شمال أسوار المدينة حيث كان يدفن فيها أبناء حي العقبية وسوق ساروجة والبحصة وغيرها — ثم مقبرة الشيخ رسلان التي تقع إلى الشرق من أسوار مدينة دمشق ، وهي شطران : للشيعية وللنسنة من المسلمين وتقع بالقرب من أول مسجد للإسلام في دمشق^(١) وهو مسجد (خالد بن الوليد) الذي يقع بدوره وعلى وجه الدقة ما بين باب توما وباب شرقي ، ، وهناك العديد من المقابر العامة في الصالحية وسفح جبل قاسيون وهي في معظمها مقابر إسلامية . وتأتي أهمية هذه المقابر العامة من كونها تحوي في جنباتها أضرحة العديد من الصحابة وآل البيت والصالحين وأبطال الإسلام الذين قضوا إبان فتح مدينة دمشق من قبل المسلمين ، أو فيما بعد في ظروف مختلفة . فاختار لذلك أبناء دمشق دفن موتاهم بالقرب من هؤلاء تبركاً بهم .

ولقد أنشأ أصحاب اليسار والمتنفذون والقادة وغيرهم تريباً^(٢) خاصة بهم في دمشق وأرياضها وكانت تلك الترب ملحقة بالمدارس أو الزوايا أو التكايا أو الجوامع أو السبلان أو الربط وغيرها من المنشآت ذات النفع العام ، وكان منشؤها من الرجال والنساء . ويعود معظمها إلى ما قبل العهد العثماني . إلا أن العثمانيين قد أقاموا مثيلاً لها . وتأثرت تلك المنشآت بما أصاب دمشق من المحن والكوارث الطبيعية كالزلازل والمحن الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية فأدى ذلك إلى تدهورها . وسطاً على ما تبقى منها ومن أوقافها المختلسون ، واستغلوا ريعها لصالحهم الخاص ، وتحول ما تبقى منها عن الغاية التي انشئ من أجلها ، فأصبحت منازل خاصة ، وكنت ترى بعضها بيوتاً مسكونة وإلى جانبها أو داخلها أضرحة وقبور ، وقد يستغرب الرأي هذه الظاهرة ، إلا أن استغرابه يزول بالعودة إلى كتب التاريخ التي تدلنا على أنها مباني تابعة للترب^(٣) أو من المنشآت العامة المسروقة ومع الزمن أصبحت ملكاً خاصاً .

(١) انظر : كرد علي ، محمد . خطط الشام . ج ٦ ، ص ٦٤ ثم : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/سنة ١٢٠١ هـ — ١٢٠٢ هـ ، ص ٤٠٥ . ومن قائل ان قبره مع قبور بني أمية قد درست بعد سقوط دولتهم على يد العباسيين حيث قام هؤلاء بتهديم هذه القبور وطمس معالمها .

(٢) مثل فتنه تيمورلنك وتدميره لمدينة دمشق ومنشآتها العامة في نهاية القرن الخامس عشر للميلاد . ثم الهزات الأرضية التي ضربتها ، خاصة زلزال سنة ١١٧٣ هـ/١٧٥٩ — ١٧٦٠ م الذي دمر معظم منشآتها ومبانيها .

(٣) ولقد ورد ذكر هذه الترب في عديد من مؤلفات المؤرخين . وهذه الترب هي : الأفرهدونية والأسدية الإيديكتية — الأهد مرة — بالقرب من اليعمورية ثم الأهدمرة بالقرب من الجسر الأبيض والأكرية

وما أنشئ في العهد العثماني من التراب كان قليلاً ، وألحقت بدورها بالجامع والمساجد والمدارس والتكايا . وكانت أقل مما أوردناه سابقاً ، فمثلاً طاهر النابلسي المتوفى عام ١١٥٠هـ / ١٧٢٧ — ١٧٢٨م قد دفن في حجرة الشيخ عبد الغني الكائنة بين الداخل إلى داره في الصالحية^(١) . ودفن العديد من المتصوفين في العهد العثماني في ترب الزوايا التي كانوا يقيمون فيها ، ودفن في ذلك العهد عدد من أعيان دمشق في ترب ألحقت بالمدارس التي أنشأوها . فمثلاً آل المرادي أنشأوا المدرسة النقشبندية وألحقوا بها تربة دفن العديد منهم فيها

والاستاذية والجميعانية — البزورية — والبهادرانية — والبلبانية في طريق الصالحية — والبلبانية غربي الزنجيلية — والبصية والبدية في ميدان الحصى والبدية مقابل الشيخ رسلان — البهسية — والبوسباتية البهائية والبزورية والبهادرانية والبدية والتكريتية بالصالحية . التنكزية بالقرب من جامع تنكر — وانفردمسية — والتوزية — والشنبكية والجمالية الاسنائية والجمالية المصرية . الجوكندارية والحافظية ، والحطابية ، والحاتونية والدوباجة الجبلانية والرحبية والزوزانية والناصرية والسقيرية — الصلاحية والسلامية والسنبلية العثمانية والسودونية والخضيبية — والشهانية والشرابيشية — والعصرية والصوابية والصارمية البرغشية العادلية . والطوغاوية الناصرية والعزية الحلبية . والعلانية الأهمية والمزية الايكية والعديمية والعمادية والعزية البدريانية — الحمزية والعدالية البرانية والعدالية الجوانية والعزية والقراجية الصلاحية والقراجية بميدان الحصى والقيمرية والقطلوبكية والقطينية والقمارية والقانيانية البهلوانية والكركية الاناسية الفخرية . والكوكباتية والكندية والكابلية الصلاحية البرانية والكاملية الجوانية والمختارة والمؤيدية الشميخة والمؤيدية الصوفية والمراغية والمنكبائية والمزلقية والملكية الأشرفية والمحمدية الأمنية الغيشية الانهارية والمنجكية والنشابة وغيرها واليونسية واليونسية الدوادانية . انظر : تفصيل ذلك في القلائد الجوهريه في تاريخ الصالحية لابن طولون ، ص ٢١٥ ، ص ٢١٨ ، ص ٢١٩ ، ص ٢٢٣ ، ص ٢٢٤ ، ص ٢٢٥ ، ص ٢٢٦ ، ص ٢٢٧ ، ص ٢٣٥ ، ص ٢٣٨ ، ص ٢٣٩ ، ص ٢٤٠ .

ثم انظر : ابن بدران عبد القادر منادمة الاطلال ومسامرة الخيال . ص ٣٣١ ، ص ٣٣٢ ، ص ٣٣٤

ومن جهة أخرى فقد أورد ابن طولون أسماء التراب في الصالحية على الشكل الآتي : التربة الداخوية — القرشية — المهرانية — السراجية — الثقالية — الايكية — الفاطمية — المنيحة الحواجكية — الساوية — المظفرية — المحمودية — التاجية — الستية — الطفرلية — الظهرية — الكرمانية العبيدية — الدايسية — الكجكرية — العلوية — الخيمية — العلانية — الصفوية — النظيفية — الشحابة — الحوازمية — العائقية — التربة الناصرية البلبانية وتنسب إلى ناصر الدين محمد بن سيف الدين بلبان أنشأها سنة ٧٣٤ هـ تقع قرب دار الحديث بالصالحية تجاه زاوية علي الفرتي وشرقها تربة ابن الرومي .. بها ساحة بها قبور عتقاء الواقف . ثم التربة الجامعية والمعتمدة . انظر : القلائد الجوهريه في تاريخ الصالحية . ص ٢٣١ ، ص ٢٤٢ .

(١) انظر : المرادي . سلك الدرر . ج ٢ ، ص ٢١٨ . ثم : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص ١٥١ .

(١) . ودفن العديد من علماء وأعيان دمشق في العهد العثماني في المقابر العامة التي ذكرناها إلى جانب أحد الأولياء أو الصحابة أو التابعين أو أحد أفراد آل البيت تبركاً بهم . والأمثلة على ذلك كثيرة وردت في كتب تراجم هؤلاء في فترة دراستنا .

وكان لبعض الأسر الدينية أو الثرية في دمشق مدافن خاصة بها وحسبنا أن نورد مثلاً على ذلك مدفن بني الزنكي في سفح قاسيون^(٢) ثم تربة تقي الدين الحصني في باب الله^(٣) جنوب دمشق . وتربة بني النابلسي في الصالحية^(٤) . ثم مقبرة بني السقطي في سفح قاسيون^(٥) . ثم مدفن بني مردم بك خارج سوق السنانية^(٦) . وهي ملاصقة لمقبرة الباب الصغير من الشمال ، ثم مقبرة آل سعد الدين في الميدان . ثم مقبرة آل العجلاني . ثم مقبرة آل القوتلي وهي ضمن مقبرة الباب الصغير من الناحية الشرقية . ثم مدفن بني المنير في تربة دار القرآن الرشائية ظاهر باب السلسلة المعروفة بالناطفيين^(٧) .

أما بالنسبة لرجال الدين المسيحيين فنرى مقبرة خاصة للبطاركة الأرثوذكس ضمن ساحة الكنيسة المرمية من الناحية الغربية ، وهي مقر بطركية أنطاكية وسائر المشرق التي يستقر فيها البطريرك ، ووجدت مقابر خاصة للخوارة ورجال الدين منفصلة عما عداها من مقابر أبناء مذهبهم أو طائفتهم^(٨) ووجدت مقابر خاصة بمخاضات اليهود في دمشق منفصلة بدورها عن المقبرة العامة الخاصة بهم .

كما وجدت في دمشق مقابر للارمن والأرثوذكس والموارنة والسريان والكلدان واليعاقبة واللاتين . وكانت هذه المقابر متجاورة وتقع جميعها إلى الجنوب من باب كيسان خارج

(١) المرادي ، سلك الدرر . ج ١ ، ص ١٤٧ .

(٢) انظر : الشطي ، محمد جميل . أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ومتصف القرن الرابع عشر . ص ٣٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٤) المرادي ، سلك الدرر ، ج ٢ ، ص ٢١٨ .

(٥) الشطي محمد جميل . المصدر السابق . ص ١٤٣ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢١٩ .

(٧) انظر : الحصني محمد أديب . منتخبات التواريخ للمنيق : ج ٣ ، ص ٩٣٨ .

(٨) تحققت من ذلك أثر زهاري لمركز البطركية الأرثوذكسية وكنيستها المذكورة والتي تقع في حي «طالع الفضة» كما أفادني غبطة بطريرك أنطاكية وسائر المشرق . بأن المقبرة المذكورة والكنيسة والمقر لم يتبدل وضعها منذ مئات السنين إلا من حيث حلول أبناء العرب ، سلك رئاسة البطركية . مكان اليونانيين وذلك بدءاً من مطلع القرن العشرين . علماً بأن زهاري كانت بتاريخ ١٠/٢/١٩٨١ م .

أسوار دمشق . ثم هناك مقبرتان لليهود كانت الأولى منهما بالقرب من مقام سيدي بلال الحبشي وإلى الغرب من مقابر المسيحيين خارج أسوار دمشق ، أما الثانية فتقع إلى الجنوب الشرقي من المقبرة الأولى اليهودية ، وإلى الجنوب من نهاية المقابر المسيحية ، بحوالي ٥٠٠ م وتمتد إلى مسافة كيلو متر . والمعتقد أن هذه المقبرة قد أحدثت بعد المقبرة الأولى بدلالة تواريخ الشواهد الموجودة على قبور الموتى فيها . إذ كانت مقابر اليهود مقسمة فيما بينهم على طوائفهم الثلاثة التي كانت تقيم في دمشق في العهد العثماني « الربايون — والقراؤون — والسامرة » .

ولقد استخدم اليهود في دمشق اللغة العبرية في الكتابة على قبور موتاهم . بالإضافة إلى استخدامهم التقويم العبري في تأريخ سنة الوفاة . وأنزلوا الميت في لحد واحد . في حين قام المسلمون والمسيحيون بمخالفة هذه القاعدة فأنزلوا جثث الموتى على الرفاة مع مراعاة الفارق الزمني . فكانوا يقومون بفتح القبر ويجمعون الرفاة في زاوية من اللحد ثم بعد ذلك ينزلون الجثة إلى اللحد وهكذا . وكانت عادة بعض المسلمين انزال جثة الأب على رفاة الأب وجثة الحفيد على رفاة الجد وهكذا ، إلا أنهم كرهوا انزال جثة الأخ على رفاة الأخ طبقاً لمسألة فقهية^(١) . أما الأسر الخاصة الدينية البارزة فقد اتخذت لنفسها أماكن محددة من المقابر الإسلامية وجعلتها مدافن خاصة بها . وتكونت تلك المدافن من ٣ — ٥ قبور . وأحيطت بجدران أو أسيجة حديدية ورفعت فوق بعض القبور مظلات مسقوفة . ونسوق مثلاً على ذلك ما كان في مقبرة الدحداح من مدافن لأسرة التغلبي والحلبلي والبخاري والحمصي والذهبي والعمرى . وكان في مقبرة الباب الصغير مدافن لأسرة القوتلي والمرتضى والأيوبي ومردم بك وغيرهم .

أما الأسر المسيحية الغنية فسارت على هذا المنوال فأقامت مدافن خاصة بها في المقابر المسيحية العامة وكانت عبارة عن غرف تحت الأرض بها رفوف حجرية توضع عليها توابيت الموتى . وعند امتلائها تراح الرفاة لتوضع مكانها توابيت موتى جدد ويعاد سدها بالحجارة والطين وهكذا . ولقد زينت المقابر بالصلبان الخشبية أو الحجرية .

(١) عندما قمت بزيارة ميدانية للمقبرة مرج الدحداح بتاريخ ١٩٨٣/١/٣ قابلت تهادارها وهو من أسرة توارثت حفر القبور في هذه المقبرة . فأراني عدة قبور على شواهدنا نزول الأبناء على الآباء . فمثلاً أحد قبور آل الحمصي كتب على الشاهدة أن الجسد قد توفي في سنة ١١٨٥ هـ ، ودفن في لحده ابنه سنة ١٢٠٠ هـ ثم حفيده في سنة ١٢١٥ هـ .

وكانت طريقة المسلمين بدفن موتاهم وما زالت حتى وقتنا الحاضر ، أن توضع جثة المتوفى في كفن من القماش الخام ، الأبيض غالباً ، وينزل إلى اللحد على جانبه الأيمن غرباً بشرق بحيث يستقبل المتوفى بوجهه الكعبة المشرفة ، في حين يضع النصارى الميت على ظهره ووجهه إلى الأعلى ويداه متصالبتان فوق صدره . أما اليهود فكانوا يضعون الميت على ظهره ووجهه إلى الأعلى . وكان اتجاه قبور المسيحيين شرقاً بغرب على حين كان اتجاه قبور اليهود شمالاً بجنوب^(١) .

أما شكل أضرحة الموتى في دمشق من الخارج فكان يختلف من دين إلى آخر ، فأضرحة المسلمين كانت على نماذج ثلاثة آتخذ وهي العادي — والمشايجي — والحنبلي^(٢) وعلى كل ضريح شهادة كتب عليها اسم المتوفى ، أو أسماء المتوفين في القبر الواحد ، وسنة الوفاة والتاريخ الهجري ، كما وجد جرن صغير في أعلى الضريح لوضع عيدان الآس . وتختلف هذه الأجران من ضريح إلى آخر ، فالبعض منها منصوب من الحجارة المزينة والبعض الآخر من الرخام والقليل منها من حجارة البازلت . وأما الجرن فتوجد به فتحة صغيرة لزرع بعض الزهور أو الورود أو بعض النباتات الجميلة أو ذات الرائحة العطرة . أما هيكل الضريح فكان مبنياً من اللبن المطين بالتراب الدمشقية الحمراء والبعض الآخر كان مطيناً بخليط من ألياف القنب والكلس وغيرها . أما مقابر المسيحيين كمقابر المسلمين الفردي الجماعي أما الفردي

(١) قمت بعدة زيارات لمقابر المسيحيين واليهود في دمشق وشاهدت دفن موتاهم ، وسألت رجال دينهم عن ذلك خلال الشهر الثاني والثالث من عام ١٩٨١ م .

(٢) شاهدت تلك النماذج المختلفة من الأضرحة التي تعود إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر بحسب الشواهد المنصوبة عليها ولاحظت قبوراً تنبش الرفاة منها من أجل إنزال متوفين جدد من أبناء الأسر الدمشقية . أما الضريح العادي فشكله « جمالون » إلا أن أضلاعه منحنية قليلاً بدءاً من قمته إلى سطح الأرض ، وهذا النوع من الأضرحة هو الغالب . أما القبور المشايخية فهي أشبه في شكلها الخارجي بمتوازي المستطيلات مشطوفة من الأعلى مما تساعد على وضع السحلية أثناء انتزاع الجثة وإنزالها في اللحد . أما النوع الثالث فهو الحنبلي ويبدو أنه كان خاصاً بأبناء دمشق المسلمين الذين كانوا على مذهب أحمد بن حنبل بدلالة أن شواهد هذه القبور التي رأيتها كانت تدل على أسماء أسر حنبلية ، ولقادي حفار المقبرة بذلك ، وكان شكل الضريح الحنبلي مثل الضريح العادي إلا أنه مشطوف من أعلى في منتصف الحديدة ، والشطيف لم يكن كاملاً على طول الضريح بل ترك جزء من أوله وجزء من آخره ولاحظت بناء بعض الأضرحة في تلك الفترة من الحجارة ، والقليل الآخر من الرخام الخالص ، مزخرف بأشكال وزهور نافرة مكتوب عليها ، بالإضافة إلى اسم المتوفى وسنة وفاته ، آيات من القرآن ، كالأضرحة في مقبرة آل مردم . شاهدت ذلك بهارتي الميدانية لمقبرة باب الصغير بتاريخ ١٩٨١/٣/٧ م .

منها فكان على شكل قبر عادي به لحد توضع به الجثة على الوضعية السابقة ، وعندما يتم الدفن يوضع على الضريح صليب من الخشب أو الحجر . أما المقابر الجماعية فقد ذكرناها آنفاً . وفي فترة متأخرة أخذت مقابر المسيحيين أشكالاً متباينة وأدخلت عليها الزخارف المنحوتة على الرخام ، وذكر على كل مدفن جماعي اسم الأسرة صاحبة المدفن ، ، فمثلاً في مقبرة الروم الكاثوليك ترى مقابر جماعية للأسر التالية : مقبرة آل البطل وآل طعمة وآل شاوي وآل زخور وآل حمصي وآل نوفل وآل فرح وآل نادر وآل دمر وآل عبيد وآل ذهبية وآل شاشاتي .

أما قبور اليهود فاللحد فيها كلحد قبور المسيحيين والمسلمين تقريباً وكان اللحد يدعم بالحجارة الغشم من جوانبه الأربعة . ويكفن الميت بكفن خاص وينزل إلى لحده على ظهره ورأسه باتجاه الشمال وقدماه باتجاه الجنوب ، أما شكل الضريح من الخارج فكان عبارة عن كتلة صخرية بطول المتوفى ، مجوفة على شكل متوازي مستطيلات ، توضع الصخرة ووجهها المجهوف إلى الأسفل وهي مقطوعة من مقالع صخر المزة الأبيض الصلب ، وينحت على ظهرها اسم المتوفى باللغة العبرية وسنة وفاته بالتاريخ العبري وينقش إلى جانب هذه الكتابة نجمة داوود أو صورة للأداة التي كان يستخدمها المتوفى في حرفته في الحياة الدنيا ، فمثلاً إذا كان المتوفى نقاشاً حفر على ضريحه صورة مطرقة ، وإذا كان خياطاً حفر على ضريحه صورة مقص وهكذا ، وكان طول الصخرة يتراوح ما بين ١١٠ — ١٧٠ سم وبارتفاع من ٦٠ — ٧٠ سم ويعرض ٤٠ — ٥٠ سم ولم يكن وجه الصخرة من الأعلى مستوياً بل يلاحظ بعض الإرتفاع باتجاه رأس المتوفى . كما تحفر أحياناً بعض آيات من التوراة أو بعض أبيات من الشعر العبري . أو بعض عبارات التأسي والتفجع على المتوفى . ووجدت على بعض الأضرحة صورة منحوتة للشمعدان المقدس ذي القروص التسعة التي تمثل وصايا موسى عليه السلام^(١) .

ونخصص داخل المقبرة مدفن خاص للاخامات اليهودية . أضرحتهم متجاورة مرفوعة

(١) قمت بزيارات ميدانية عديدة لمقابر المسيحيين واليهود في دمشق ولاحظت أنه لم يدخل أي تعديل يذكر على هندسة أضرحة اليهود في الفترة الحديثة ، التعديل الوحيد هو استخدام الكتابة العربية بالإضافة إلى العبرية ، في حين كانت الكتابة على تلك الأضرحة التي تعود إلى «فترة دراستنا» باللغة العبرية فقط . أما بالنسبة للأضرحة المسيحية فقد أدخل عليها مجدداً استخدام التماثيل من الرخام والكتابات وبعض التزيينات التي تختلف عما كانت عليه القبور السابقة والتي تعود إلى فترة دراستنا .

على مصطبة (قاعدة) مستطيلة الشكل مرتفعة عن الأرض تنتصب عليها الأضرحة . وكان الضريح على شكل جملون ويشبه (النوع العادي) لدى المسلمين الذي ذكرناه آنفاً . ولا نرى أية كتابة على تلك الأضرحة بل نشاهد لوحة رخامية تشير إلى ذلك منفصلة عن الأضرحة . والبناء الذي يضم هذه الأضرحة عبارة عن بناء مئمن الأضلاع بقبة عالية وشبابيك علوية وسفلية . كما توجد مصطبة بارتفاع ٦٠ / سم تحيط بالأضرحة وتسائر جدار البناء من الداخل .

ولقد أقام اليهود ضمن المقبرة كنيساً صغيراً لإقامة الصلاة الجنائزية ، وقد علق على جداره الشرقي من الداخل سجادة من الحرير الأسود السميك مطرزة بالقصب الأصفر بأشكال جميلة وفي داخلها كتابة عبرية ثم صورة لتاج مملكة اسرائيل وصورة للتوراة وتحيط بها نجمة داوود السداسية وفي الأسفل بعض تعاليم موسى « لا تزن ولا تسرق ... الخ » وفي الأسفل صورة الشمعدان المقدس الأنف الذكر مطرزة بخيوط القصب . ومن جهة أخرى كان يكتب على ضريح المتوفى من اليهود اسمه وكنيته وسنة وفاته بالتقويم العبري كما يذكر اسم الشهر الذي توفي فيه . أما المرأة اليهودية المتوفاة فيذكر اسمها واسم زوجها (فلانة زوجة فلان) ولا يذكر اسم والدها أو أسرتها .

ولقد استطعنا رصد أسماء بعض الأسر اليهودية الدمشقية التي كانت تعيش في دمشق في تلك الفترة وهي : (لاطي — سركو — ساعاتي — قواص — كمخ جي — بغدادي — سلمون — خليفة — حمرة — شديد — حصوة — نكاش — عطار — آرازي — صايغ — شللوح — بقاعي أرليل — منه — داية — خالع — جرادة — سرور — شعليا — حاصباني — هما — دانيال — طوطح — قطش — ميخا — كدع — سلامة — حمري — مبرز — سعد) .

وبشكل عام فقد وجد في مقابر دمشق على اختلاف المذاهب والأديان حفارون لحفر القبور ففي المقابر الاسلامية كان حفاروا القبور يمنحون أجراً معيناً من قبل آل الميت . وكان الحفارون يهرون في فترات النكبات العامة التي كانت تصيب دمشق ببلوائها كالزلازل والأمراض الوبائية . هذا ناهيك عن أنهم كانوا يأخذون مبالغ كبيرة من أهل المتوفى إذا كان ثرياً أو من الأمراء ، وكانت تلك المبالغ فوق ما يريدون كأجرة دفن وأجرة مظلة وأجرة كرسي أيام الصباحيات وأجرة تفتيش على القبر إلى السنة غالباً .

« وقد يُنْصَص لهم معاش عن كل شهر شيء معلوم من الدراهم ، وخاصة إذا ما حصل موت متتابع بسبب طاعون أو ريح وخيم أصفّر كما حصل سنة ١٢٦٤ هـ / ١٨٤٧ - ١٨٤٨ م . حيث كانت الوفيات أكثر من ألف إنسان فيحصل لهؤلاء الغنى والثروة »^(١) .

وقد اعتبر أهل دمشق العديد من قبور رجال الدين والمتصوفين والأشراف وآل البيت والأولياء الذين يتبرك بقبورهم وتستجاب الدعوات عند أضرحتهم . وكانت هذه القبور والمقامات عديدة كما كانت موزعة في داخل دمشق وخارجها وفي سفح قاسيون والصالحية وغيرها .

(١) انظر : القاسمي ، محمد سعيد ، قاموس الصناعات الشامية . ج ١ ، ص ١٠١ .

الفصل الثاني

الهاكُمُون والمحكومُون
في مجتَمَع دَمَشَق

آ — الهيئة الحاكمة

الوالي — الدفتردار — الكاخيا — المتسلم والسوياشي — ضباط الجيش أو (الأغوات والزعماء) — أصناف الجند:

١ — الانكشارية: ثكنات الانكشارية وتسليحها وتكوينها وطريقة قتالها

القباي قول والبرلية في دمشق

٢ — الجند المرتزقة

٣ — السكبان

٤ — اللارند

٥ — الدالاتية

٦ — الجند المغاربة

٧ — التفنكجية

٨ — الهوارة

٩ — قوات الاقطاع أو السباهية

١٠ — القوات الرديفة

محاولات إصلاح الدولة العثمانية للهيئة العسكرية وأثر ذلك على دمشق.

ب — هيئة المحكومين

تجار دمشق — الحرفيون وطوائفهم — البنية التنظيمية للطائفة الحرفية — التخصص الحرفي في دمشق — الطوائف ما بين نهاية القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر — الفلاحون — ملكية الأرض والفلاح — البدو — سياسة السلطة العثمانية في دمشق تجاه البدو — أهل الذمة — كنائس النصارى وأديرتهم في دمشق — اليهود في دمشق — الأقليات الأوربية وقناصلها في دمشق — معيشة القناصل وحماياتهم — الرقيق .

تمهيد

سنناول في هذا الفصل شريحتين رئيسيتين من مجتمع دمشق شكلتا معظم سكانها آنذاك، أولاهما هيئة الحكام المتمثلة بأهل السيف وبعض عناصر أهل القلم، ثم الشريحة الثانية والتي شكلت بتعدادها معظم سكان دمشق، وهي ما أطلقنا عليها هيئة المحكومين. على اعتبار أنها لم تملك من السلطة شيئاً يذكر.

فالعثمانيون الفاتحون لم يغيروا من بنية المجتمع الدمشقي عرقياً أو لغوياً أو حتى في طريقة معيشتة أو تنظيماته المحلية. وكل ما حصل من تغيير هو حلول العثمانيين كهيئة حاكمة محل الهيئة السابقة المملوكية. فسعت الدولة العثمانية لتوطيد الأمن وجباية الضرائب والخطبة للسلطان العثماني. وقامت بوضع حامية من الانكشاية (القايقول) في قلعة مدينة دمشق ورفعت العلم العثماني^(١) على العلم المملوكي. كما لم تختلط العناصر العثمانية بأبناء مدينة دمشق اختلاطاً كافياً، وحتى العناصر التركية التي استقرت في مدينة دمشق كانت قليلة في البداية، ومن جاء إليها بطبيعة منصبه، لم يظل مقامه فيها إلا لنقله إلى منصب آخر في الامبراطورية أو لعزله من منصبه^(٢). وإذا ما حاولنا تلمس هاتين الحالتين الحاكمة في فترة دراستنا لرأيها مكونة

(١) يقول ابن طولون: إن العلم العثماني كان في رأسه مثل به صنورة من فضة مطلية بالذهب انظر: مفاتيح الخلاص في حوادث الزمان. ج ٢. ص ٦٩.

(٢) انظر: حانوتي، أسامة الحركة الأدبية في بلاد الشام خلال القرن الثاني عشر. ص ٨.

من فئتين رئيسيتين أولاهما فئة أهل السيف وأبرزها الوالي وكبار ضباط الإنكشارية (القايقول والبرلية) ثم ضباط السباهية الاقطاعيين والمرتقة . أما الفئة الثانية فمكونة من أهل القلم وأبرزها : الدفتردار وقاضي القضاة الحنفى ونوابه من قضاة مذاهب السنة الأخرى ، ثم نقيب الأشراف والمفتون وغيرهم ، ولقد شكلوا صلة الوصل بين أبناء دمشق والسلطات العثمانية الحاكمة وكانوا في معظمهم من أصول محلية ، عدا قاضي القضاة الذي كان رومياً ، لهذا آثرنا دراسة هذه الفئة عدا الدفتردار في الفصل الثالث مع الهيئة الدينية .

والملاحظ أن علاقة هاتين الفئتين ببعضهما البعض لم تكن وثيقة رغم أن الولاية تتشكل منهما . كما لم تكن العلاقة وثيقة في أغلب الأحيان بين أعضاء الفئة الواحدة حيث أثرت في ذلك طبيعة المصالح الشخصية المتضاربة ، ولم يكن ذلك بعيداً عن تأثير السلطة المركزية نفسها في استانبول ، حرصاً منها على بقائهم جميعاً في قبضتها ، خاصة وأن تعيينهم جميعاً يأتي عن طريقها .

وحسبنا هنا أن نورد مثالا على طبيعة العلاقة السيئة بين الوالي والدفتردار (رأساً) الفئتين المذكورتين (أهل السيف والقلم) فلم يكن لأحدهما سلطة على الآخر إلا في حالة العزل ، أو الموت ففي سنة ١١٥٦هـ / ١٧٤٣ — ١٧٤٤م كان دفتردار دمشق فتحي أفندي ابن القلانسي وصادف آنذاك أن مات واليها سليمان باشا العظم ، فقام الدفتردار بحتم دور الوالي المذكور وخزائنه ، وحجز على أملاكه ، ووضع حرسا عليها ليل نهار ، وكتب عرضا وأرسله إلى الدولة العلية^(١) . ولم يكتف بذلك بل قام بضرب جوارى سليمان باشا لمعرفة مخبأته من الأموال . فتغلظ كبد أسعد باشا العظم من جراء ذلك على الدفتردار المذكور إلا أنه كان عاجزا عن عمل أي شيء ضده لظالما لم يأتيه من استانبول مايساعده على ذلك إلى أن أتت الفرصة في سنة ١١٥٩هـ / ١٧٤٦ — ١٧٤٧م حيث تمكن أسعد باشا والي دمشق من استصدار أمر من السلطة المركزية في استانبول (بقطع رأسه ومصادرة أمواله)^(٢) .

وجرت صدقات أخرى بين أصحاب المناصب الدينية من الهيئة الحاكمة مع الولاة ،

(١) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص ٤٥ .

(٢) البديري . حوادث دمشق اليومية . ص ٤٥ .

فمثلا في سنة ١١٩٩هـ / ١٧٨٤ - ١٧٨٥م تمكن مفتي دمشق محمد خليل المرادي من استصدار خط شريف هيايوني بعزل والي دمشق أحمد باشا الجزار (قهره عنه)^(١).

أما بقية فئات المجتمع من هيئة المحكومين فقد بقيت على حالها السابق في ظل الاحتلال العثماني، وحافظ العثمانيون على تنظيماتها ولم يتدخلوا في شؤونها إلا فيما يتعلق بتأمين مصالح الدولة ومصالحهم الشخصية أحيانا.

ولم يتمكن النظام البيروقراطي للدولة العثمانية من التغلغل في مجتمع دمشق. وإذا ما لاحظنا تأثيراً ما لهذا النظام فكان ذلك في الغالب في المناطق الشمالية من بلاد الشام. وحتى الأسر الأرستقراطية في دمشق التي أقامت علاقات متينة بتزويجها من أسر أرستقراطية تركية، أبدت سخطها على تسرب اللغة والعادات التركية إلى بيوتها^(٢). ويجب ألا يخطر على بال أحد أن المجتمع الدمشقي كان منسوجاً نسجاً متداخلاً آتخذ وإنما كان مركباً من عدد من الجماعات المتماصة فيما بينها، إما على أساس طائفي، أو على أساس عشائري أو عائلي أو إقليمي، وبدرجة أقل في الطوائف الحرفية المختلفة والطرق الصوفية والأشراف، وكان اتصال السلطة العثمانية بعناصر هذه الفئات عن طريق رؤسائها أو شيوخها.

ومن جهة أخرى لم تكن الهيئة المحكومة في دمشق على درجة واحدة من النفوذ السياسي، أو الاجتماعي، أو الإمكانات الاقتصادية، بل توضع في الهرم الاجتماعي على درجات متفاوتة، وحتى عناصر الفئة الواحدة لم يكونوا على درجة واحدة من النفوذ السياسي والوضع المادي. كما تغير حال الفئة الواحدة بحسب الظروف التي أحاطت بالدولة العثمانية سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي، وكذلك بحسب ظروف مدينة دمشق الخاصة بها خلال فترة دراستنا. ولقد استطاع العديد من أفراد مجتمع مدينة دمشق تغيير وضعهم الاجتماعي، لأن المجتمع الإسلامي بأسسه العامة لم يكن مترمناً كمجتمع المند الذي لا يسمح بصعود فرد من طبقة إلى طبقة أخرى، بل كان العكس من ذلك في المجتمع الدمشقي، إذ استطاع حتى المماليك (العبيد) بعد عتقهم أن يحترقوا سلم الهرم الاجتماعي صعدا إلى سدة السلطة، كأحمد باشا الجزار الذي حكم ولايتي دمشق وصيدا عدة مرات ولمدة تجاوزت ربع قرن من الزمان.

(١) أنظر: العبد، حسن. آغا. تاريخ حسن آغا العبد. ص ٩ و ص ١٠.

2 - Gibb. H.A.R. and Bowen.H. Islamic Society and the West. VOL.I.P.211.

آ - الهيئة الحاكمة

وضعت بيدها السلطة كاملة وتملكت الاقطاعات الواسعة وبعض المصالح الاقتصادية الأخرى . وكانت إسلامية بكاملها إلا نفرأ قليلا من أهل الذمة ، الذين كان منهم الكتاب والمدبر واليازجي والبصراف . ولقد تحكمت هذه الهيئة برقاب المحكومين وخاصة الفلاحين والمستضعفين حيث امتدت اقطاعاتها على كامل صناعق الولاية ، وتجاوزتها إلى ولايات الشام الأخرى .

وانصب اهتمام هذه الهيئة على تأمين مصالحها الشخصية ولو كان ذلك على حساب المصالح العامة . وإذا ماجأرت بعض فئات الهيئة المحكومة بالإحتجاج على مايقع عليها من مظالم ، كانت تقابلها الهيئة الحاكمة بالقمع والقهر وسفك الدماء ، مما زاد من محن هذه الفئات ومعاناتها .

ومن جهة أخرى تأثرت بعض فئات هذه الهيئة بالأحداث التي جرت في داخل الدولة العثمانية وخارجها خلال فترة دراستنا ، فوجهت لها ضربات عدة كان أشدها إلغاء أوجاق الانكشارية على يد السلطان محمود الثاني سنة ١٨٢٦ م . مما ترتب على ذلك إلغاء امتيازاتها . أما الضربة الثانية فكانت باحتلال ابراهيم باشا المصري لدمشق سنة ١٨٣١ م / ١٢٤٦ هـ - ١٢٤٧ هـ ومناداته بالمساواة بين أهل الذمة والمسلمين ووضع بعض

عناصر اليهود والمسيحيين في مجلس شورى ولاية دمشق . ثم جاءت الضربة الثالثة بقيام الثورة الصناعية في أوربة وما نتج عنها من نهب للمعادن الثمينة في بلاد الشام . وهذا أدى بدوره إلى بروز فئات من أهل الدمة وغيرها سهلوا الطريق لبضائع الغرب إلى دمشق الأمر الذي أدى ذلك إلى سرعة غناهم وزيادة ثرواتهم . فازداد نفوذهم السياسي كما أدى إلى سقوط شريحة اجتماعية في وهدة الفقر والحاجة من الهيئة المحكومة التي كانت تعتمد في معيشتها على بعض الحرف . ومع ذلك بقيت السلطة وملكية الأرض تجمعلان ممن يمتلكهما في صف الهيئة الحاكمة التي بيدها الحل والربط في المدينة . وبعد ماتقدم دعونا نتعرف على مكونات الهيئة الحاكمة ولنبدأ برأس الهيئة الحاكمة في دمشق ، وهو :

الوالي

يمثل السلطان في دمشق . اتخذ ألقاباً عدة في هذه الفترة ، منها : (الوالي أو الباشا أو الوزير) ، وكان يرأس الصناجق التي تتكون منها الولاية ، والمروسة بدورها من المتسلمين أو بكوات الصناجق (مفردتها صنجق بك) . ويعين الوالي لمدة سنة واحدة فيما أن يجدد له أو يعزل من منصبه ليحل محله وال جديد . وكان العزل يتم في الغالب بعد عودته من الحج كأمر للقافلة .

وفي مثل هذه الحالة تجرى له الحسابات اللازمة لتسلم الولاية لخلفه . ويقوم بمهمة الحسابات الدفتردار . ويقوم الوالي الجديد بإرسال أو تكليف متسلم منه لإدارة شؤون الولاية ريثما يصل إلى دمشق ، وإذا ماعزل الوالي ولم يعين بديل عنه ، يجتمع ديوان الولاية ليعين قائمقام عنه ، وكان التجديد للوالي في منصبه يأتي من استانبول بفرمان جديد يطلق عليه اسم (المقرر) .

وكانت للوالي حاشية كبيرة تشبه حاشية الصدر الأعظم في استانبول^(١) . وترأس ديوان

(١) كانت حاشية الوالي تتكون من الموظفين والقادة العسكريين الكبار في الولاية ، ويأتي على رأس هؤلاء الكتبخدا ثم المتسلم وجمع من الموظفين المختلفين (مدنيون وعسكريين) ، فمن الفئة الأولى المكتوبجي وكتاب الرسائل وحامل الأختام أو المهردار وأمين الصندوق وربما المقصود به هو وكيل الخرج ، حيث ورد في سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٥ ص ١٨٤ أن الحاج عمر آغا بن عمر كان وكيلاً للخرج سنة ١٢١١ هـ لدى والي دمشق عبد الله باشا العظيم ثم مدير غرفة الوزير ثم البقجة جي والمبصرجي . وورد في سجل المحكمة الكبرى بدمشق المذكور آنفاً ص ٧ ، أن الحاج باكير آغا البزجكلي كان محضراً في باب السرايا لدى والي دمشق سعد الدين باشا العظيم . ثم الخزنदार أو وكيل الخزانة وهو غير الصراف مدير المالية ، ثم حامل

الولاية أو مجلسها المكون من المحصل أو الدفتردار ، والقاضي والمفتي ونقيب الأشراف ، وسردار أو آغا الانكشارية أعضاء بالاضافة إلى الشهبندر أو رئيس التجار . أما التجار فلا يدعون للاجتماع في هذا الديوان إلا من كان منهم على صلة أو احتكاك بالباشا أو من كان منهم ، خاصة في المرحلة الأخيرة ، على صلة بعدد من ضباط النظام في الباب العالي . وكان الديوان يجتمع كلما دعت الحاجة إلى ذلك ، وكانت الدعوة توجه من قبل الباشا ، ويحملها إلى الأعضاء شواش (الخدم) . وفي الغالب يتم اللقاء كل جمعة ظهرا في السرايا حيث يلتقي الأفندية أولا في المحكمة ثم يركبون في موكب مع القاضي ، والأفندي الأصغر سنا يسير أولا والقاضي في النهاية . وكانت كل الأعمال والمشاكل التي تتعلق بالولاية تبحث وتحل في الديوان^(١) . إلا أن مجلس الشورى أو الديوان^(٢) تبدل وضعه في ظل الحكم المصري إلى حد كبير ، حيث أدخلت إليه عناصر من أهل الذمة (يهود ونصارى) بالإضافة إلى العناصر الإسلامية الأخرى ، التي تمثل معظم فئات الهيئات الحاكمة السابقة وذات النفوذ السياسي والاقتصادي في دمشق . وشكل المصريون أول مجلس للولاية من الشخصيات التالية : أحمد بك اليوسف والياً على دمشق يساعده مجلس شورى مكون من أشهر عائلات دمشق وأكابرها وأعيانها وشيوخها وهم : محمد حافظ بك العظم وسليم أفندي كيلائي ومحمد أفندي عجلائي ومحمد نسيب أفندي حمزة وعلي آغا كاتب الترجمان وصالح آغا المهائني وعلي آغا كاتب الخزينة كيلاهلي وأحمد أفندي البكري وأحمد أفندي المالكي ومحمد راغب أفندي بحسني وأحمد أفندي انسي وإبراهيم بك المسودن والحاج نعمان آغا باشجي . ومن التجار : الشيخ سعيد والحاج إبراهيم متولي . ومن أغوات الاختيارية صياح آغا الحكيم ومحمد آغا

السلاح أو السلاحدار والبيوقدار والتشريفاني (احتشامات آغاسي) ، ورئيس الاسطبل ، وأمير آخور أو الحاجب (وقبجلر آغاسي) . ولقد ورد في سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠ لعام ١٢١١ هـ - ١٢١٢ هـ ، ص ٤٠٦ ، أن حسن آغا كان في سنة ١٢١٢ هـ (خدم آغاسي) لوالي دمشق عبد الله باشا العظم . وآغا البوابين . كما ورد في سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / سنة ١٢١٦ - ١٢١٧ هـ ، ص ٨٤ أنه كان لوالي دمشق يوسف باشا شمعديجي باشي وإسماعيل آغا جومر . كما كان للولاية موظفون آخرون . انظر : حول ذلك مجهول . مذكرات تاريخية . ص ٢٩ ثم : غرايبة ، عبد الكريم . مقدمة تاريخ العرب الحديث . ج ١ . ص ٦٠ .

1 - Russell, op.cit. VOL.I.PP.32,393.

(٢) كلف المعلم بطرس كرامة وحل الحكمندار المصري بدلاً من الوالي العثماني وخضع تنفيذ قرارات مجلس الشورى لموافقته . انظر : الحصني ، محمد أديب . منتخبات لتواريخ دمشق . ج ١ . ص ٢٦١ .

الكبير وبهي الدين آغا خير، وعبد القادر آغا خطاب، ومن اليهود روفائيل فارحي ومن النصارى ميخائيل كحيل. وبعد خروج المصريين ١٨٤٠م عينت الدولة العثمانية أحمد آغا يوسف متسلما على الشام الذي قام بترتيب ديوان الشورى على الشكل التالي: المفتي ونقيب الأشراف وأغوات وتجار، والخوارج حنا عنجوري روم كاثوليك، والخوارج جبران ميداني روم أرثوذكس وأخذ اليهود^(١). وكانت مهام المجلس في العهد المصري، النظر في القضايا المعروضة عليه وسماع الدعاوى وتحويل الشرعية منها على الشرع الشريف، أما مايتعلق بالأمور الأخرى فكان الفصل فيها برأي الحكمدار بعد التشاور مع أرباب المجلس واتفاق الآراء. وبعد اتخاذ القرار يرفع إلى مجلس «سردار العسكرية» للتنفيذ^(٢). وإذا مارس الحكمدار إهمال المجلس بتراكم الأعمال لديه يقوم بحبس أعضائه في قاعة المجلس إلى أن يتموا رؤية الشؤون المعروضة.

وبما يسترعي انتباهنا أيضا في هذه الفترة عدم تعيين والي على دمشق دون مرتبة الوزير^(٣). ذي الأطوار الثلاثة^(٤)، بل زادت الدولة العثمانية على ذلك فعينت ولاية على دمشق ممن كانوا صدورا عظاما في استانبول، مثل درويش باشا (١٢٤٤ - ١٢٤٦هـ / ١٨٢٨ - ١٨٣٠م) ومحمد سليم باشا (١٢٤٦ - ١٢٤٧هـ / ١٨٣٠ - ١٨٣١م)^(٥) ويمكن تفسير ذلك بما لدمشق من أهمية في وقت كانت الدولة العثمانية تعاني فيه الهزائم المتكررة والمتعددة على الأصبعة العسكرية والسياسية والاقتصادية. فكان لابد لها من رأب بعض الصدوع في سمعتها أمام المسلمين. وكان تأمين قافلة الحج من الأمور الحساسة والهامة. لهذا سعت لتعيين ولاية أكفيا على دمشق ليؤمنوا سلامة القافلة ويزودوها بما تحتاج من الرجال والسلاح والعتاد والتموين، إلا أن معظم هؤلاء الولاة عجزوا عن تحقيق تلك الأماني بشكل دائم

(١) انظر: مجهول. مذكرات تاريخية. ص ٢٣٥ و ٢٣٦.

(٢) انظر: قدامة، أحمد. معالم وأعلام في بلاد العرب. ج ١. قسم ١. ص ٣.

(٣) انظر: ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا. ص ١٢٤. ثم انظر: جيب وباوون، المجتمع الإسلامي والغرب. ج ١. ص ١٩٩. ثم الوثائق التاريخية بدمشق المجلد ٢ الوثيقة رقم ٨٢ و ٨٤. لعام ١٢٤٦هـ. ثم انظر: ميخائيل الدمشقي حوادث الشام ولبنان. ص ١١ و ١٧ و ٢١ و ٣٠ و ٣١ و ٣٢ و ٤٣ و ٤٦ و ٥٨ و ٦٢ و ٦٧ و ٧١ و ٧٢ و ٧٥ و ٧٦ و ٨٠ ثم: سالنامه در العثمانية. سورية ولائي. ص ٩٣.

(٤) الطوغ: ذنب حصان أبيض معقود على صعدة تعلوها أكرة من نحاس مذهب. انظر: الغزي كامل. نهر الذهب في تاريخ حلب. ج ١. ص ٩٣ و ٣١٥.

(٥) سالنامه در العثمانية. سورية ولائي.

نظراً لضخامة المصاعب التي اعترضتهم، والناجمة عن الظروف الخارجية والداخلية. ففي هذه الفترة تعرض ولاية دمشق لزحف قوات المماليك في مصر بقيادة أبي الذهب بهدف استعادة السلطنة المملوكية، وأعقب ذلك نزول ناهليون بونابرت على أرض مصر وزحفه على بلاد الشام، وبرزت على أرض الجزيرة العربية الحركة الوهابية واستفحل أمرها في مدن الحجاز المقدسة وحالت دون أداء مناسك الحج، ووصلت طلائع قواتها إلى جنوب دمشق (مزيريب من حوران). وزاد الصراع الدولي للحصول على الممتلكات العثمانية فتقلصت ممتلكاتها سواء في الشمال والغرب أو شمال أفريقيا والخليج، ناهيك عن تزايد تعدد القوى المحلية في دمشق ودخولها في صراعات مع قوات القبايقول وقوات المرتزقة التابعة للولاة، وماجرته على دمشق من ويلات، وعجز السلطة المركزية عن تأكيد سلطتها من خلال ولايتها بالإضافة إلى تقييد نفوذهم بما وضعته من قيود قضائية وعسكرية ومالية بيد رجالاتها^(١)، المفروضين على الولاية والمبتطنين بها مباشرة، مما خلق نوعاً من الازدواج في السلطة أدى إلى إضعافها خاصة في فترات اضطدام مصالح الطرفين. كل ذلك شكل مصاعب كبيرة في وجه الولاة عجزوا عن تذليلها مما اضطرهم لسلوك أحد سبيلين، أولهما: العمل بشكل روتيني دون الالتفات إلى الإصلاح الجذري ومعاملة الناس بالحسنى بقدر المستطاع، والسعي لتأمين مصالحهم الشخصية رهناً يأتي العزل.

في حين سلكت الفئة الثانية من الولاة السبل الآخر المتمثل بالطمش وفرض سلطتهم بالقوة. وتدرج العنف والظلم بدءاً منهم نحو الأسفل، ليشمل من هم دونهم من الحاشية والأتباع. فأرهبوا الأرواح بلا حساب ولأتفه الأسباب. واستطاع بعض هؤلاء أن يفرضوا أنفسهم على الدولة نفسها، فأبقوا في وظائفهم حتى وفاتهم، كأحمد باشا الجزائر كما سنرى.

ويمثل الشريحة الأولى من الولاة محمد باشا العظم الذي نال رضى السلطة المركزية والقوى المحلية على حد سواء، ثم عبد الرؤوف باشا (١٢٤٤ - ١٢٤٦ هـ / ١٨٢٨ - ١٨٣١ م) ويصف الأكرادي محمد باشا العظم بقوله: «أكثر الوزراء عفة وكالاً وعدلاً ودينياً

(١) كانت قيادة قوات القبايقول وقوات البولية بيد أغوات عينوا من قبل آغا الانكشاهية في استانبول وكانت الأمور المالية بيد الدفتردار الذي عين من استانبول من قبل الدفتردار العام فيها. ثم قاضي القضاة الحنفي وتوايه، والمفتون عينوا بدورهم من شيخ الإسلام في استانبول. وكذلك نقيب الأشراف من نقيب الأشراف في استانبول.

ومروءة وكان واسع الرأي مهابة بحيث أنه لمجرد وقوف المتخاصمين بين يديه يحل المشكلة وكان يحب العلماء والصلحاء والفقراء ويميل إليهم وكان له ميزات كلية وصداقات جليلة^(١).

أما الوالي الثاني عبد الرؤوف باشا الذي كان صدرأ أعظم سابقاً، فعندما تلقى أمراً من استانبول في سنة ١٨٢١م/ ١٢٤٦ - ١٢٤٧هـ لجباية الضرائب انكفأ في بيته ولم يحاول أن يفرض ذلك على الشعب الدمشقي مما أدى إلى استبداله بمحمد سليم باشا. وكذلك علو باشا الذي كان «حسن التدبير والسياسة وعلى جانب عظيم من المروءة واللطف والاستقامة فجذب القلوب إليه ونفذت كلمته وجعل له اعتبار جميع الناس على اختلاف مذاهبهم وقد انتفعت البلاد به»^(٢).

أما الشريحة الثانية من الولاة فهي التي حكمت بقوة السلاح وسفك الدماء وعلى رأس هؤلاء أحمد باشا الجزار الذي حكم ولايته صيدا ودمشق بشكل متقطع (أربع مرات) على امتداد ربع قرن من الزمان، وفاق جميع أقرانه بمظالمه وقضى على حياة أكثر من ٤٠٠ شخص معظمهم من الأبرياء، وشوّه أجساد المئات بجذع الأنوف وصلبم الآذان وقطع الألسنة ووتر الأطراف رفق، والعيون والحرق بالنار^(٣) ولم يرتج الشعب شهراً واحداً من طلب المال ظلماً فأرهب زبائنه «الريف والمدينة بالطروحة والاكراميات»^(٤) ويذكر ميخائيل الدمشقي أن الناس «ما ارتاحت ولا شهراً واحداً من طلب القرش ظلماً»^(٥) وأن «الذي عمله الجزار بالشام من المظالم والمقاهرات أبلغ من كل ماتقدم. وهرب أغلب المستورين إلى حلب والجبل والذي وقع انضمام جدّة»^(٦).

ويبدو أن الدولة العثمانية لم تعر اهتماماً كبيراً لطريقة حكم الولاة ومظالمهم، وجل ما كان يهمها تأمين الاستقرار وإنجاح قافلة الحج ولو كان ذلك مبنياً على الجماعم. لهذا نرى أن أكثر من استمروا في مناصبهم من الولاة هم السفاحون كأحمد باشا الجزار، والولاة

(١) انظر: المرادي. سلك الدرر. ج ٤. ص ٩٧.

(٢) القسطلي، نعمان. الروضة الغناء في دمشق الفيحاء. ص ٩٠.

3 - See: Browne J.op.cit.P.402.

(٤) انظر: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد الأول. ج ٩. ص ٣٦٥. سنة ١٩٢١م.

(٥) انظر: تاريخ حوادث الشام ولبنان. ص ٦ و ٧.

(٦) المصدر السابق. ص ٢٧.

العادلون المخلصون الذين أرضوا أبناء دمشق والبلد على حد سواء ووفروا سلامة قافلة الحج، وعلى رأس هؤلاء محمد باشا العظم الذي بقي في منصبه عشر سنوات حتى وفاته. أما ماتبقى من الولاة فقد تراوحت مددهم في مناصبهم ما بين عدة أيام وثلاث سنوات^(١). ونلاحظ سرعة تبديل ولاة دمشق في الفترة ما بين (١٨٠٤ - ١٨١٨) أكثر من الفترة السابقة، وتُعزى هذه الظاهرة، إلى فشلهم في تأمين قافلة الحج والتصدي للوهابيين وانتزاع الأماكن المقدسة من أيديهم.

ونلاحظ أيضاً تراجع أهمية والي دمشق بالنسبة لولاة صيدا، على عكس ما كان الحال في النصف الأول من القرن الثامن عشر، حيث كان والي دمشق يلعب دوراً في تعيين من يراه من الولاة على صيدا وبقيّة ولايات الشام، كأبنائه وأقربائه أو أتباعه. وكانت العادة عندما يعين والي جديد على دمشق أن يقوم والي صيدا بتهنئته وتقديم الهدايا له والتي كانت تسمى «التقادم». إلا أن هذه القاعدة قد تغيرت في عهد والي صيدا أحمد باشا الجزائر فانعكست الحال في هذه الفترة، وأصبحت الهيمنة لولاة صيدا. ولم تبرز في عهد الجزائر فحسب بل استمرت في عهد من جاء بعده من الولاة. ويمكن تفسير ذلك بضعف السلطة المركزية من جهة والمستجدات في مصر وفلسطين من جهة ثانية، حيث تمكن الجزائر من صد قوات نابليون عن عكا وأمن بما لديه من قوات خاصة سلامة قافلة الحج، في حين عجز ولاة دمشق عن تحقيق ذلك في معظم الأحيان. ثم بروز قوة المماليك في مصر ودخولها في تحالفات مع حكام فلسطين من جهة ثالثة، ثم بروز محمد علي باشا على أنقاضهم كحاكم قوي في مصر وقضائه على الحركة الوهابية ومد نفوذه إلى بلاد الشام. كل ذلك قد غير المعادلات السياسية في المنطقة وأدى إلى تراجع أهمية ولاة دمشق.

(١) بلغ عدد ولاة دمشق ما بين عام ١١٨٤هـ إلى احتلال إبراهيم باشا المصري لدمشق ١٨٣١م / ٢٣ / والياً وكان منهم من حكم لعدة أيام أو من حكم لعدة مرات، فمثلاً محمد باشا العظم عين من ١١٨٤ إلى ١١٨٥هـ ثم عزل وعين مرة أخرى في سنة ١١٨٧هـ إلى وفاته سنة ١١٩٧هـ. ثم أحمد باشا الجزائر الذي عين من سنة ١١٩٨ إلى ١٢٠٠هـ حيث عزل وعين مرة ثانية من ١٢٠٥ - ١٢١٠هـ ثم عزل وللمرة الثالثة من ١٢١٣ - ١٢١٤هـ وللمرة الرابعة من ١٢١٨ - ١٢١٩هـ ثم عبد الله باشا العظم عين من ١٢١٠ - ١٢١٣هـ ثم عزل عنها وعين من ١٢١٤ - ١٢١٨هـ ثم عزل ثم عين للمرة الثالثة من ١٢٢١ - ١٢٢٣هـ. ثم الصدر الأعظم صالح باشا من ١٢٣٨ - ١٢٣٩هـ ثم عين مرة ثانية من ١٢٤٣ - ١٢٤٤هـ انظر: سالنامه در العثمانية، سورية ولايتي، ص ٩٣.

أما فيما يتعلق بدخول والي دمشق فلم تخصص الدولة راتباً محدداً له أو لحاشيته، وإنما كانت الأموال تأتيه من مصادر مختلفة من الولاية. ففي عهد أحمد باشا الجزار كانت قرية حران العواميد تدفع مبلغ / ١٢١٦١ / قرشا ميريا للسرايا في دمشق مما هو مرتب عليها من شعير وتبن وذخاير وقطاني ومعبوك وغير ذلك^(١). وقرية الحرجلة خصص دخلها للأوردي فكان عليها تأمين ذخاير وتين ومعبوك وخدم، أو عوارض ومال ميري وعوايد للسرايا^(٢).

ومنحت الدولة الوالي أقطاعاً على شكل ساليانه لسد نفقاته مع حاشيته. وكان هذا الإقطاع من درجة «خاص» يدر مالا يقل عن ستمائة ألف أفجة ومع ذلك فإن هذه الدخول لم تكن لتكفي الوالي في أحسن الظروف أكثر من ٢ — ٣ شهر في السنة. ناهيك عن الأموال الواجبة عليه لاستانبول لأرضاء الأصدقاء الذي يثبتونه في منصبه^(٣). كما كان عليه أن يحسب حساب الأيام بعد العزل، لهذا كان لابد له من جمع مبالغ ضخمة لسد تلك النفقات من جهة، ولتأمين القرش الأبيض للأيام المقبلة التي قد تكون سوداء بعد العزل. فسلك الولاة طرقاً مختلفة لجمع المال. وفرضوا المغارم في كل مناسبة، واحتكروا بعض الصناعات في دمشق، وهاجموا الفلاحين عند الحصاد وعلى البيادر، والأمثلة على ذلك كثيرة^(٤) ولم تكن تلك المغارم كما يقول كرد علي «لحفظ الأبدان وإنما هي مجرد ظلم وعدوان وكانت لتأمين غالب مصارف الوالي وأتباعه بعمارات منزله ومنزل عساكره»^(٥).

(١) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٥ / ١٢١٠ — ١٢١١ هـ. ص ٢٤ ص ٣٥ ص ١١٦.
(٢) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ١٢٢٦ — ١٢١٧ هـ. ص ٩٧. أما فيما يتعلق بتأمين الوالي لقافلة الحج الشامي فكان يجمع الأموال اللازمة لها من خلال جولاته على الصناجق التابعة لولايته، وكان يطلق عليها اسم «الدورة». وكان يخرج من دمشق قبل خروج قافلة الحج بمدة ثلاثة أشهر أو أقل، وقد تدوم عدة أشهر والعادة أن يخرج الوالي في أواخر رجب أو أوائل شعبان ويعود إليها في أوائل شوال. انظر: رافق. العرب والعثمانيون. ص ٢٠٢ ثم: حوادث دمشق اليومية. ص ٥٠. وكانت نفقات الحج تقدر بـ (٦٠٠) كيساً أو (٧٥٠٠٠٠٠) سبعة ملايين ونصف ليرة فرنسية للتموين بالخططة والشعير والأرز. واستئجار الجمال المطلوبة لجنوده الذين سيراقتونه في الرحلة بالإضافة إلى ما يجب عليه دفعه لبعض القبائل الكائنة على طريق القافلة لتأمين سلامتها وكانت بمقدور / ١٨٠٠ / كيساً.

3- See: Russell, A., op.cit., pp. 315, 316

(٤) انظر: البديري. حوادث دمشق اليومية. ص ٨٨ و ص ٩٤ و ص ٩٥ ثم: بريك ميخائيل ص ٤٥ و ص ٤٩ ثم: رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية العدد الأول، ص ٨٤.
(٥) انظر: مقالة له في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. المجلد الأول. ج ٩. ص ٣٦٥. سنة ١٩٢١ م.

ولقد خلف بعض الولاة قصورا استرعت انتباه الرحالة والسياح كقصر عبد الله باشا العظم والكنج يوسف باشا^(١) كما جمعوا أموالا طائلة^(٢).

ونتساءل بعد كل ماعرضناه من وضع ولاية دمشق كيف كان مصيرهم بعد عزلهم؟ وهل كانت حياتهم هنيئة؟ وهل انتهت نهاية حسنة وطبيعية؟ أم أنها كانت نهاية محزنة؟ ويمكن الإجابة على ذلك بأن معظم ولاية دمشق قد نفوا أو قتلوا، وصودرت أموالهم وممتلكاتهم حتى في حال وفاتهم الطبيعية، فاسماعيل باشا العظم الذي حكم دمشق ست سنوات سجن وصودرت أمواله، وسليمان باشا العظم الذي توفي بشكل طبيعي صادرت الدولة أمواله بعد وفاته، وعذبت أهله ونسائه. وأسعد باشا العظم قتل بعد أن نقل من ولاية دمشق وصودرت أمواله. وعبد الله باشا الجتجي قتل وصودرت أمواله. وغيرهم كثيرون^(٣) والكنج يوسف باشا شلح أمواله وفر هاربا إلى مصر حيث مات فيها.

الدفتردار^(٤)

هو الشخصية الثانية في الهيئة الحاكمة وعضو رئيس في ديوان ولاية دمشق. وهو رأس

- (١) كان دار عبد الله باشا العظم بها كثير من المقاصر والقاعات والحجر البديعة العلوية والسفلية والبرك الكبيرة
(٢) وقيل إن فيها ثلاثمائة وستون حجرة. انظر: عبد الرحمن سامي. القول الحق في بيروت ودمشق. ص ٨٩.
يقول بريك: بلغ الذهب الذي اصطحبه معه الكنج يوسف باشا عند عزله عن ولاية دمشق اثني عشر صندوقاً والياض عشرة أحمال انظر: تاريخ ميخائيل الدمشقي المسمى: تاريخ حوادث الشام ولبنان، ص ٤٥.

- (٣) انظر: عبد الكريم، أحمد عزت مقدمته لحوادث دمشق اليومية. لأحمد البديري الحلالي. ص ٢٩ منها.
(٤) كلمة دفتردار: فارسية تركية وتعني على وجه الدقة (حافظ السجلات) وكان هذا الاسم يطلق في الدولة العثمانية فيما مضى على المشرف على المالية ولا يزال يطلق على مدير المالية في كل ولاية. ولم يكن في عهد محمود الثاني سوى دفتردار واحد هو دفتردار الروملي وكان له معاون خاص في كل ولاية الآسيوية وكان ثمة أربعة أشخاص يحملون لقب الدفتردار في عهد متأخر. - أنشأ سليم الأول منصب الدفتردار الثالث ليشراف على مالية مصر والشام وأنشأ سليمان الأول المنصب رابع للمجر وولايات الدانوب وفي عهد سليم الثالث كان الدفتردار الأول هو وزير المالية والثاني هو الذي يرب على الضرائب التي فرضت باسم النظام الجديد أما الثالث فقد عهد إليه بأمر تمويل العاصمة (حجرات ناظري) وفي القرن الثامن عشر أصبح من مهام الدفتردار أن يقدر دخل كل قرية وأن ينظم التزامها طبقاً لذلك وأن يضعه في يد أحد الأشخاص الأثرياء المستقيمين حتى يمكنهم من الاشراف على التزام أكثر من قرية في نفس الوقت. انظر: جيب هاملتون وهاورلد. المجتمع الإسلامي والغرب. ج ١. ص ١٧٧ و ص ١٨٤ و ص ٢١٠ و ص ٢١٢.
ثم انظر: سجل محكمة الميدان رقم ٣٠٤ / سنة ١٢٣٨ - ١٢٤٠. ص ٣ ثم: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦ / ص ٣٢٦ القضية رقم ٦٥٧.

فئة أهل القلم. كان يرأس دائرة تسمى الخزينة وكان تعيينه من استانبول ويده موارد الولاية المالية. يقوم بجمع ضريبة الأرض (الميري). والجمارك وضريبة الخراج ويكلف بنظارة أوقاف بعض المنشآت الدينية. وكان يساعده في مهامه عدد من الضباط والموظفين والكتاب ينتشرون في مركز الولاية وسناجقها لهذا الغرض^(١).

وكان في كل صنجق تابع لدفتردار ولاية دمشق يطلق عليه اسم «محصل»، ويرأس الملتزمين في الصنجق. ففي سنة ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥ - ١٨٣٦م عين على محصلية صنجق حمه محمد زهني أفندي وفي سنة ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣ - ١٨٤٤م وكلف بتحصيل الأموال الميرية وسائر المرتب المطلوب من الصنجق بجانب الميري بموجب دفاتر الخزينة^(٢). وكان يساعده في الجباية جنود يطلق على الواحد منهم اسم (توفنكجي). كما كان للدفتردار قيم مقام أيضا. ففي سنة ١٢١١هـ/ ١٧٩٢ - ١٧٩٣م كان حسن أفندي قيم مقام دفتردار دمشق، الذي كان والده حسين أفندي الروزنامه جي^(٣).

وكان هناك عدد من الموظفين الصغار مثل: مباشر الخزينة وجاني الخراج وخزينة كاتب^(٤) بالإضافة إلى موظفين رئيسيين هما: خزنदार أول وخزنदार ثاني^(٥).

وكان للدفتردار يدكات وخبول وأغوات ومهتار خانة، وساعده صيارفة يهود^(٦) كانوا يعطون رتبة صنجق بك. وكان يطلق على الدفتردار مع موظفيه لقب (أفندي)، باعتبارهم من «أهل القلم»، وأطلق على دائرته اسم (الخبزينة العامرة) أو الميرية أو أموال الميرة وباختصار الميري، وكان يقوم بضبط واردات ومصروفات الولاية^(٧). واعتبر الدفتردار مسؤولا أمام الباب العالي عن أموال الولاية، فلم يسمح للوالي أو أي موظف آخر، بمغادرة منصبه في ولاية دمشق، إلا بعد أن يجري له حسابا دقيقا ويمنحه بعد ذلك براءة ذمة تعلن في ديوان

1 - See: Russell, op.cit. VOL.1.P.322.

- (٢) انظر: سجل محكمة حمه رقم ١٢٥١/٥٠ - ١٢٤٤هـ. ص ٢٢ و ص ٢٢١.
- (٣) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١٢١١/٢٣٨ - ١٢١٢هـ. ص ٢٧.
- (٤) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١٢٥١/٣٤٠ - ١٢٥٤هـ. ص ١٣٤ ثم انظر سجلها رقم ١٢٥٠/٣٣٦ - ١٢٥١هـ. ص ٧١ و ص ٤٠.
- (٥) انظر: الخلاق أحمد البديري حوادث دمشق اليومية. ص ٨.
- (٦) انظر: تاريخ حسن آغا العبد. ص ٦٤.
- (٧) المصدر السابق ص ١٦ الحاشية.

يعقد بحضور الوالي الجديد^(١). وكان الدفتردار يجيئ المكوس في الولاية ويدفع منها رواتب الانكشارية وحراس الحصون والقلاع القائمة على طريق الحج إلى مكة^(٢).

وبالمخطاط نظام الاقطاعات وأصحابها المخطت بالمقابل الدوائر المتعلقة بهم، وبلغ هذا الانحطاط الذي بدأ في القرن الخامس عشر ذروته في القرن الثامن عشر، فنتج عن ذلك دمج كثير من وظائف الدفترخانة أو إلغاء بعضها، وتناقصت تبعاً لذلك أهمية الدفترأميني، في حين تزايدت أهمية دفتردار الشؤون المالية بازدياد اعتماد الدولة على الموظفين والجند الذين يتقاضون المرتبات منها بدل الاقطاعات. ولقد بلغ بعض الدفتردارين درجة كبيرة من السلطة والنفوذ في ولاية دمشق. وحسبنا هنا أن نسوق مثلاً على ذلك الدفتردار فتحي القلانسي (١١٤٨ - ١١٥٩ هـ / ١٧٣٥ - ١٧٤٦ م)، الذي وصفه معاصره أحمد البديري الحلاق الذي بقوله: «كان السلطان في الشام بصاحب نفوذ الكلام وكلامه يقضي الاشغال»^(٣). ولكنه قتل على يد أسعد باشا العظم بعد أن استصدر الأخير أمراً بذلك من استانبول سنة ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م / وحل محله دفتردار على دمشق فيض الله الأنسحوي إلى سنة ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م، ثم عزل من منصبه ليحل محله محمد أفندي بن فروخ الرومي الأصل الدمشقي المولد حيث استقام دفتردار على دمشق ثلاثين سنة (١١٥٩ هـ / ١١٩٠ هـ / ١٧٤٦ - ١٧٧٦ م)، وتخلل ذلك فترة عزل له حيث جاء مصطفى الحموي في عهد والي دمشق محمد باشا العظم. ولما مات مصطفى الحموي عاد بن فروخ دفتردار إلى أن طلب بنفسه إعفاءه من منصبه من الدولة العثمانية فنزلت عند رغبته^(٤).

وفي سنة ١٢١٥ هـ / ١٨٠٠ - ١٨٠١ م كان دفتردار على دمشق حسن أفندي الرزمنجي الذي كلف، بالإضافة إلى منصبه هذا، بأغوية البرلية في دمشق إلا أنه قتل على يد الجزائر خنقاً مع عبد الرحمن المرادي في قلعة دمشق عام ١٢١٨ هـ / ١٨٠٤ م^(٥). ويلاحظ

(١) انظر: غرايبة، عبد الكريم. مقدمة تاريخ العرب الحديث. ج ١. ص ٦٢.

(٢) انظر: السيوفي حبيب سورية ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. ص ٤٦.

(٣) انظر حوادث دمشق اليومية ص ٤٩.

(٤) انظر المرادي، محمد خليل. سلك الدرر. ج ٣. ص ٢١١. ثم ج ٢. ص ٨. ثم العبد حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد. ص ٦٥.

(٥) انظر: العبد، حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد. ص ٨٧. ص ٨٩.

أن الدفتردارين أقاموا في مناصبهم مدة أطول من إقامة ولاية دمشق . ويمكن تفسير ذلك بأمرين أساسيين أولهما : أن منصب الدفتردار لم يكن ذا صفة عسكرية لهذا لم يكلف بحماية قافلة الحج في وقت قطع طريقه على يد البدو والوهابيين ، فلم يسبب ذلك له حرجاً أمام السلطة المركزية في استانبول والأمر الثاني : كان لدفتردار دمشق المال الكثير بحيث يستطيع أن يرضي ساداته في استانبول للبقاء في منصبه ^(١) .

ومن جهة أخرى ، فقد ورث منصب الدفتردارية ، من الأب إلى الابن وإلى الحفيد أحياناً . وأبرز الأسر التي توارثته هي : أسرة القلانسي والرمنجي وباكير وإمام والبستاني والأزميري ^(٢) وغيرها .

ولقد عاش الدفتردارون حياة مرفهة في دمشق إذا ما قيسوا ببقية أفراد الهيئة الحاكمة ، فامتلكوا الثروات الطائلة والقصور والجواري والعبيد وتمتعوا بالغناء والموسيقى ، وقام البعض منهم بتمتين آواصر الصداقة الشخصية ، فتحالف مع القوى البرلية في دمشق التي كان لها نفوذها السياسي . واستعدوها على الوالي ليوطدوا بذلك نفوذهم السياسي .

وكان بلاط الدفتردار يضم الأغوات وملأك الأراضي وكبار التجار الذين كانوا أعضاء في هيئة ديوان الولاية ^(٣) . وشكل هؤلاء في بعض الأحيان دعامة قوية له .

ولم يكتف الدفتردارون بذلك ، في تدعيم مراكزهم السياسية ، بل انتسب بعضهم إلى البرلية ، كما فعل فتحى القلانسي ، حيث قام بوضع أتباعه في المناصب الهامة بالشام ^(٤) . ولقد قام بعضهم ببناء العديد من المنشآت ذات النفع العام كالمدارس والحمامات وتعمير الطرق ووصف الشوارع في دمشق وذلك تقريباً من الشعب ^(٥) .

(١) كان في سنة ١٢١٥هـ / ١٨٠١م دفتردار على دمشق حسن أفندي الرمننجي . ثم كان من قبله والده

حسين دفتردار واستلم محمد ابن عثمان بن حسن أفندي محاسبه جي خزانة الشام ..

(٢) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ . ص ١٦٤ . ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم

٣٢٣ . ص ١٣١ / ١٢٤٧هـ .

3 - Alex Russell. op.cit. VOL.1.P.312.

(٤) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص ١٧ الحاشية .

(٥) المصدر السابق . ص ١٧ .

وفي حال عزل الدفتردار من منصبه أو نقله إلى مكان آخر كانت الدولة ترسل من استانبول أحد الروزنامجية لأجراء الحساب له^(١). وإذا ما قتل الدفتردار لسبب ما تحتجز أمواله لصالح الدولة العثمانية، كما حصل بعد مقتل فتحي القلانسي سنة ١١٥٩هـ/١٧٤٦م — ١٦٤٧م، ولقد استغل بعض موظفي الضرائب حالة الفوضى بدخول المصريين إلى دمشق فتلاعبوا بما لديهم من سجلات لجر منافع شخصية. وكان السلطان يصدر أوامره بإرسال سجلات الضرائب إلى استانبول سنوياً لتدقيقها. ونتيجة لحاجة المصريين الشديدة للأموال للإيفاء بالتزاماتهم تجاه السلطان من جهة ولسد حاجتهم إليه من جهة أخرى، قاموا بضبط الأمور المالية في دمشق على أسس جديدة وعينوا لذلك موظفين خاصين «مسلمين ونصارى يهود» وفتحوا سجلات للضريبة تحت إشراف مجلس الشوزى. وأطلق على خزانة دمشق اسم «الخزينة العامة»^(٢).

الكاخيا

أو الكتخدا. كلمة تركية محورة من الأصل الفارسي (كتخدا) وتعني بالأصل (سيد البيت) ولقد عنت هذه الكلمة أكثر من معنى مثل: المدير ووكيل أعمال في عرفنا الحاضر أو النائب، واستخدمت في أكثر من مجال فيما يخص مناصب الهيئة الحاكمة، سواء من أهل السيف أو القلم. فهناك كتخدا أوجاق البلية الذي يمثل الأوجاق في اتصاله بالآغا ويحل محل الآغا في المجالس الرسمية، ويحول أوامر الآغا إلى حراس القلاع وصغار ضباط القوات في الميدان وأثناء القتال^(٣)، كما أطلقت على قائد البولكات في أوجاق القاييقولاري (القول كيخياسي) وهو أحد أعضاء ثلاثة يكونون ديوان الفرقة الانكشارية^(٤). ووجد كيخيا للمسلم في الولاية، وكيخيا للدفتردار (دفتردار كيخياسي) وكيخيا الزعامت. وكان يعيش من دخل الزعامت شأنه في ذلك شأن بكوات الألبات^(٥). إلا أن ما يهمننا من هؤلاء هو

(١) المصدر السابق. ص ٨٤.

(٢) انظر: سجل الوثائق التاريخية بدمشق — المجلد ٢. الوثيقة رقم ٦٨ و ١٠٩/ص ٧١ و ص ١١٣. ثم الحصني. منتخبات ... ج ١. ص ٢٦١. ثم سجل القسم البلدية بدمشق رقم ٣٢٧/ص ٧٣.

(٣) انظر: العلوف، عيسى. دواني القطوف في تاريخ بني معلوف. ص ٢٣٢ ثم: عانوتي، أسامة. الحركة الأدبية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر. ص ١١.

(٤) جيب. وبابون. المجتمع الإسلامي والغرب. ج ١. ص ٨٨. الترجمة.

(٥) المصدر السابق. ج ١. ص ٢١٢ و ص ٢١٣.

كيخيا الوالي الذي لعب دوراً هاماً في دمشق وأصبح في عديد من الفترات والياً على دمشق أو على غيرها من الولايات العثمانية .

فقد كان للوالي من المرتبة المتوسطة كاخيا خاص به أو مدبر لمكتبه الخاص يشبه الكاخيا بك الخاص بالصدر الأعظم في استانبول . كما كان أيضاً للوالي كاخيا تشريفاتي^(١) . وكان الكاخيا أقرب الناس إلى الوالي ، ويمثل صلة الوصل بينه وبين الناس وهو نائبه ومتسلمه في حالة مرضه أو غيابه .

ولقد اختلف وضع الكاخيا من ولاية إلى أخرى . وكان يسير في ركاب الوالي إلى باب ديوانه في السرايا ليفتح له الباب ، وينحني أمامه باحترام ، ويبقى واقفاً حتى يأذن له بالجلوس ، ويقدم الكاخيا بعد ذلك تقريراً للوالي عن أعماله المنجزة في اليوم المنصرم وجدول أعمال اليوم الجديد ، ثم يتناول القهوة معه ويغادر السرايا في موكب رسمي قاصداً دار الكتبخداية ليباشر النظر في قضايا اليوم بحسب توجيهات الوالي^(٢) .

وكان الكتبخدا يعين في منصبه لعام واحد^(٣) . إلا أن العديد من الكتبخدات استطاعوا البقاء في مناصبهم طيلة ولاية الوالي على دمشق ، وبعضهم استمر في فترة الوالي الجديد^(٤) . ولقد استلم الكتبخدا منصب المتسلم لدى الوالي ، فالكيخيا موسى أصبح متسلماً لدى أسعد باشا العظم عندما كان الأخير أميراً على قافلة الحج الشامي . والكيخيا غالباً مايكون عسكرياً من أهل السيف ، وفي مثل هذه الحالة يكون بمرتبة آغا^(٥) . وقد رافق الكيخيا والي دمشق في الدورة السنوية لجباية أموال الميري من الصناجق التابعة له ويقود في مثل هذه الحالة القوات العسكرية المرافقة للوالي^(٦) . وكلف الكتبخدا بقيادة قافلة الحج الشامي في بعض السنوات كما حصل في عام ١١٦٩هـ / ١٧٥٥ - ١٧٥٦م / عندما كان والياً على دمشق راغب باشا^(٧) .

(١) جيب هاملتون وبارون هارولد . المجتمع الإسلامي والغرب . ج ١ . ص ٢١٤ و ص ٢١٥ .

(٢) انظر غرابية ، عبد الكريم ، مقدمة تاريخ العرب الحديث . ج ١ . ص ٦٠ و ص ٦١ و ص ٦٢ .

(٣) انظر : جيب وبارون . المجتمع الإسلامي والغرب . ج ٢ . ص ٧ .

(٤) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص ١٥٨ و ص ١٨٣ .

(٥) ورد في سجل المحكمة الكبرى بدمشق أن الحاج حسن آغا كتبخدا لسعادة أفندينا ولي النعم اسماعيل آغا

وذلك ما بين عامي ١٢٢٢ - ١٢٢٣هـ . انظر : سجل المحكمة المذكورة رقم ٢٦٠ . ص ٣٥ .

(٦) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص ١٧٦ .

(٧) المصدر السابق . ص ١١٧ .

ولقد تدرج بعض الكتخندات في المناصب الادارية من آغا إلى متسلم على أحد الصناجق إلى كتخدا للوالي . ومنح بعض الكتخندات اقطاعاً بطريق المالكاتة ثم البكوية أو رتبة بيلر بك أي وزير بطوخين ، وقد يعين بعدها والياً على إحدى الولايات فمثلاً حسين باشا مكّي عمل كيوخيا لدى أسعد باشا العظم وأصبح باشا بطوخين على القدس ثم باشا على صيدا بثلاثة أطواخ ثم باشا على دمشق سنة ١١٦٩هـ / ١٧٥٥ — ١٧٥٦م / خلفاً لسيده أسعد باشا العظم^(١) . ومنح كتخدا أسعد باشا العظم (موسى) طوخان من الدولة العثمانية كأمر لجرده الحج ومات في سنة ١٢٧٠هـ / ١٧٥٧م^(٢) .

ومن جهة أخرى سعى بعض الكتخندات في تعيين أبنائهم متسلمين على الصناجق ، مستغلين نفوذهم في ذلك لدى الولاة الذين يعملون لديهم^(٣) . وسعى بعض الولاة في تعيين أحد أبنائهم كتخدًا لديهم ففي سنة ١٢١١هـ / ١٧٩٦ — ١٧٩٧م / عين عبد الله باشا العظم ابنه خايل بك كاخيا^(٤) . له . وبطبيعة منصب الكتخدا أوكلت إليه العديد من فروع إدارة الولاية مما أتاح له المجال لابتزاز أموال الشعب والإثراء على حسابه ، خاصة في فترات ضعف الولاة وانتشار الفوضى . إلا أن ذلك لم يكن عاماً فقد وجد العديد منهم ممن تصرف بالقناعة والعدل . ويقول أحمد البديري الحلاق : إن موسى كيوخيا أسعد باشا العظم المتوفى عام ١٢٧٠هـ / ١٧٥٦ — ١٧٥٧م / « كان عنده شفقة ورأفة ويحب المسألة ومصالحة الخصوم »^(٥) .

المتسلم

قسمت إيالة دمشق إلى عدة صناجق كان مركز كل منها عبارة عن مدينة أو بلدة . وسميت هذه الصناجق باسم المتسلميات . وكان يحكم كل متسلمية (متسلم) يعين من قبل الباب العالي ويطلق عليه صندق بك ، وأحياناً يعين بمسعى من الوالي نفسه لدى السلطة المركزية في استانبول . ويعتبر المتسلم في المتسلمية كالوالي في ولايته ، ويساعده القاضي ونقيب

(١) انظر المرادي ، محمد خليل . سلك الدرر . ج ٢ . ص ٦٠ و ص ٦٢ . ثم : بريك ، ميخائيل . حوادث الشام ولبنان ، ص ٣٦ .

(٢) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص ٢٠٤ .

(٣) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص ٢٠٤ .

(٤) انظر : العبد ، حسن آغا . تاريخ حسن آغا العبد . ص ٢٩ .

(٥) انظر : حوادث دمشق اليومية . ص ١٨٣ .

الأشراف والمفتي وبعض الضباط والموظفين ، ويعود في أموره إلى الوالي في دمشق وغالباً ماأسند هذا المنصب إلى زعماء القبائل أو أبناء الأسر الاقطاعية المشهورة ذات النفوذ الاجتماعي والسياسي والاقتصادي في الصنجدق ، كما أقر على القبائل البدوية شيونها كمتسلمين عليها . ولقد كان لعظماء الأهالي نفوذهم الكبير لدى المتسلمين حتى أنهم كانوا يعاونونهم في كثير من الأمور أو يساعدونهم على إجراء ما لهم من رغبة أو غايات خصوصية^(١) . إلا أن متسلم ولاية دمشق كان وضعه يختلف عن السابقين من عدة وجوه ، فهو يستقر في دمشق مركز الولاية وينوب عن الوالي في إدارتها . وكان في الغالب من أصول محلية أو من أصول غير عربية . وكانت العادة المتبعة عندما يخلو منصب ولاية دمشق ، أن يعهد الوالي الجديد بإدارة الولاية إلى رجل يلقب بالمتسلم . وإذا لم يعين والٍ جديد يقوم بمهامه في الولاية القائمقام . ويقوم بتنصيب القائمقام أعيان الولاية وهو يمثل الوالي الشرعي وينوب عن السلطان في مثل هذه الحالة^(٢) . ويقوم المتسلم بتسيير أمور الولاية بمجرد وصول التكليف له من الوالي المعين على دمشق ، وفي مثل هذه الحالة يتخذ الإجراءات التالية : يقوم القاضي باستدعاء المتسلم المعين من قبل الوالي الجديد ويعقد ديواناً لمجلس الولاية في المحكمة ويتلو على مسامع أعضاء الديوان التكليف ثم يلبس المتسلم فروة سمور عنواناً لاستلام المتسلم مهام منصبه الجديد^(٣) . ثم يتجه المتسلم بعد ذلك من المحكمة إلى السرايا يرافقه في موكبه القاضي والمفتي ونقيب الأشراف والأعيان^(٤) . وكان هذا الترتيب متبعاً بالنسبة للمتسلمي الصناجق عند مجيء فرمان تعيينهم^(٥) . وكان يرافق أمر التعيين للمتسلم ، أوامر وتوجيهات من الباب العالي أو الوالي تتعلق بكيفية سلوك المتسلم وتصرفاته بشكل عام في متسلميته^(٦) . ويخاطب المتسلم من قبل السلطة الأعلى « بافتخار المشايخ المكرمين أو بقدوة الأماجد الأعيان^(٧) » . وكان غالب متسلمي ولاية دمشق برتبة آغا . فمثلاً في عهد أحمد باشا الجزائر وفي سنة ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٤ م عين متسلماً عليها أحمد آغا

(١) انظر : مجهول . حسر اللثام عن نكبات الشام . ص ٢٦ .

(٢) غراية ، عبد الكريم . مقدمة تاريخ العرب الحديث . ج ١ . ص ٥٩ .

(٣) انظر : العبد ، حسن آغا . تاريخ حسن آغا العبد ، ص ١٨ .

(٤) المصدر السابق . ص ٢٦ .

(٥) انظر : رسم ، أسد . الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا — المجلد الأول . ص ٢٧ .

(٦) انظر : المصدر السابق — المجلد الثاني . ص ٧١ .

(٧) المصدر السابق . ص ٣٠ و ٣٥ .

متولي أوقاف المرحوم سنان باشا، في حين عزل المسلم السابق محمد آغا وسجن في قلعة دمشق^(١).

وكان بعض المسلمين من ضباط السباهية^(٢)، أو البكوات، مثل خليل بك العظم الذي أصبح مسلماً لوالده عبد الله باشا عندما عين والياً على دمشق سنة ١٢٢٠هـ/١٧٩٥م - ١٧٩٦م. وكان البعض الآخر من المسلمين ترجعاً في المحكمة الشرعية في دمشق، مثل الحاج علي آغا الذي عين مسلماً على ولاية أخرى وهي ولاية طرابلس في ٢٩ جمادى الآخرة ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م^(٣). وحصل في بعض الأحيان أن قام الدفتردار في دمشق بتعيين مسلم أو قائم مقام عليها إثر وفاة الوالي، بشكل مؤقت، ريثما يعين والٍ جديد على دمشق، والذي يقوم بدوره بتعيين مسلم له^(٤) يتحول بعد وصول الوالي إلى دمشق ككتخدا له^(٥). وكلف بعض المسلمين بالتولية على أوقاف إحدى المنشآت الخيرية في دمشق بالإضافة إلى منصب المسلم، فمثلاً أحمد آغا مسلم أحمد باشا الجزار على دمشق سنة ١٢٠٩هـ/١٧٩٤م - ١٧٩٥م كان متولياً على أوقاف سنان باشا ومن بعده هاشم آغا وذلك في سنة ١٨٠٤م^(٦). وكلف المسلم بمهام الشوباصي أو المحتسب في أسواق دمشق وكان يقوم بمعاينة اللصوص والنشالين^(٧).

- (١) العبد، حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد ص ٢٣ و ص ٥٥.
- (٢) كان من المسلمين أغوات في أوجاق الانكشاية القاني قول أو الولاية أو في قوات المرتزقة كالبغداديين والمغاربة والأكراد أو من الولاة فمثلاً: الكنج يوسف باشا كان دالي باش. وكان كردياً اشتراه ملا اسماعيل وأصبح في سنة ١٨٠٥م مسلماً لدى عبد الله باشا العظم ثم أصبح والياً على دمشق في سنة ١٨٠٦م بدلاً منه وفي سنة ١٨١٢م أصبح مسلماً لدى سنان باشا علي آغا البغدادي وكان قائداً لقوات قلعة دمشق. انظر: مجهول: حوادث الشام ولبنان. ص ٢٩ و ص ٣٢ و ص ٣٦ و ص ٤٨ و ص ٥٠ و ص ٥١.
- (٣) انظر: رسم، أسد. الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا - المجلد الثاني. ص ١٩.
- (٤) انظر: البديري. حوادث دمشق اليومية. ص ٤٥ و ص ٤٧. وفي حال وفاة الوالي أو عدم تعيين والٍ، يقوم ذبوان الولاية بتعيين قيمقام أو مسلم قيمقام لتسيير أمور الولاية ريثما يعين والٍ جديد. فعندما خرج ابراهيم باشا المصري من سورية قام العثمانيون والإنجليز بتعيين أحمد آغا اليوسف الكردي الذي كان في صيدا مسلماً قيمقام ليضبط البلد، وبعد أيام وردت أخبار ولاية الشام إلى علوش باشا سنة ١٢٥٦هـ/١٨٠٤م انظر: مجهول. تاريخ حوادث الشام ولبنان. ص ٨٣.
- (٥) المصدر السابق. ص ١٨٣ و ص ١٩٤. والكتخدا هو النائب مثله وينفذ أوامره.
- (٦) انظر العبد، حسن آغا. ص ٢٢ ثم مجهول: تاريخ حوادث الشام ولبنان. ص ٢٠ و ص ٢١. تحقيق غسان سبانو.
- (٧) انظر: البديري. حوادث دمشق اليومية. ص ١٧٢.

وساعد متسلم الوالي في دمشق وكيل كان يقوم بتعيينه المتسلم نفسه^(١). ولقد شملت سلطة المتسلم المناطق المحيطة بمدينة دمشق بدءاً من جبل قاسيون إلى الكسوة فالمرج، فشملت بذلك جميع قرى الغوطة الشرقية والغربية بما فيها المرج. وكان تعداد هذه القرى ثمانين قرية^(٢). ومن مهامه أيضاً الضبط والربط في متسلميته والمساعدة على تحصيل أموال الميري وإجراء الأحكام الشرعية^(٣).

ولم يكن للمتسلمين رواتب يتقاضونها من الدولة، بل منحوا إقطاعات من الأرض وحصلوا على الأموال من مصادر عديدة، فكان لهم ضرائب على الشعب تدفع لهم باسم (عوائد متسلمية). وبقيت هذه العوائد على وضعها إلى عهد إبراهيم باشا المصري وكانت توزع على الشعب بشكل ساليانة (سنوية)^(٤).

إلا أننا لا نملك معلومات دقيقة عن دخل المتسلم السنوي، في دمشق؛ فغالباً ما كان يعزل المتسلم بمجرد وصول الوالي الجديد. ولكن هناك بعض الإشارات إلى دخول بعض متسلمي الصناجق التابعين لولاية دمشق. فمثلاً متسلم صنجق القدس كان دخله مئة ألف قرش حيث كان يتقاضى عن كل زائر أو حاج إلى القدس رسماً قدره عشرة قروش كما كان يتقاضى خفارة من الزوار الذين ينوون الذهاب إلى نهر الأردن، فضلاً عن المغام التي كان يفرضها عليهم لدى كل سائحة وبارحة، وكان له على كل دير من أديرة الطوائف المختلفة، مبلغ معلوم من المال يأخذه باسم «رسم طواف أو إصلاح عمار». وبما أن التنافر كان مستحكماً بين أتباع الأديرة المسيحية، لهذا كان كل دير يقدم له المال كي يشمله بعطفه ويؤيده بنفوذه أو يغض الطرف عن مخالفة الدير للأنظمة المتبعة والقائمة عليها حقوق الطوائف والأديار. وهكذا كان متسلم القدس يتقبل الهدايا بدءاً من تقلده لمنصبه أو عندما يتولى عليها رئيس جديد ويتقاضى ضريبة على السلع المختصة بصنعتها مدينة القدس، كالسبح والصليبان وما إليها، التي يصدرن منها كل سنة ثلاثمائة صندوق، والتي كان الأوربيون يشترون منها شيئاً كثيراً. وكان دير اللاتين ينفق في سبيلها خمسين ألف قرش في السنة^(٥). ومع ذلك

(١) انظر: رسم، أسد. الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا. ج ٢. ص ٩٦.

2 - Burckhardt. op.cit. P.28.

(٣) انظر: رسم، أسد. المصدر السابق — المجلد الثاني. ص ٧١.

(٤) انظر: المصدر السابق. المجلد الثاني. ص ٣١.

(٥) انظر: السيوفي، حبيب. سورية ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. ج ٢. ص ٦٦.

فإن بعض المسلمين لم يكن لديهم وفر من المال بعد عزلهم من مناصبهم، كما لم يكن لهم إقطاع يدر عليهم أسباب الرزق. وهناك بعض الإشارات لمثل هذه الحالات في عهد الحكومة المصرية حيث قامت بتخصيص راتب شهري للشيخ جبر أبو غوش الذي كان متسلاً على القدس حيث صدر أمر من محمد شريف باشا بتخصيص ماهية له بمعدل ألف قرش لا غير شهرياً وذلك عام ١٢٥١هـ / ١٨٣٤ - ١٨٣٥م وسجل ذلك في دفاتر الخزينة^(١).

ونتيجة لظروف الضعف وعدم الاستقرار، التي مرت بها الدولة العثمانية في تلك المرحلة من تاريخها، وانعكاس ذلك على معاش الناس، اضطر بعض المسلمين شأن أعضاء الهيئة الحاكمة لابتزاز الأموال من الشعب بغية تغطية مصروفات مناصبهم، ودفع ما يترتب عليهم للدولة، ثم إدخار بعض الأموال لأيام سوداء محتملة يعيشونها بعد عزلهم.

ولهذا سعى المسلمون لتأمين الأموال لمصالحهم الخاص أولاً، ثم لتأمين مصالح الدولة ثانياً ويقول صاحب كتاب (حسر اللثام عن نكبات الشام) إن المسلمين لم يكن لديهم «مخزنت بلاد الشام أو عمرت وساروا بحسب الأهواء والأهوال وكثيراً ما سعوا في تفريق الرعية حتى يساعد الانقسام بين أطرافها على نوال ما يبتغون»^(٢).

ولهذا كان بعض المسلمين يستغلون غياب الوالي عن دمشق لجمع أكبر كمية من المال من الشعب. ففي سنة ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠ - ١٧٩١م قام محمد آغا آغا المزهرية الذي عين متسلاً على دمشق «بظلم الخلق كثير ولبس الخاص وسجن البعض... وعندما ذهب سيده أحمد باشا الجزائر من دمشق إلى مقر عمله في صيدا قام هذا المتسلم بقتل وسلب أموال الخلق»^(٣).

وسعى العديد من المسلمين للبقاء في مناصبهم مدة طويلة، فتزلفوا للقوى البرية صاحبة النفوذ في دمشق ووفروا لزعمائها الامتيازات الكثيرة على حساب الشعب، وكان من الطبيعي أن يلاقي ورود أمر تعيينهم في مناصبهم من استانبول استحساناً لدى هذه القوى في دمشق. فمثلاً عندما عين محمد آغا آغا مزهرية سابقاً كمتسلم على دمشق سنة

(١) انظر: رسم، أسد، المصدر السابق - المجلد ٣ و ٤. ص ١٨.

(٢) النظر: مجهول: ص ٢٦.

(٣) انظر: الصد، حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد. ص ١٩.

١٢١٠هـ/ ١٧٩٥ - ١٧٩٦م «صار الدق والرقص في بيت المسلم والطوايف»^(١). ومع ذلك فقد كانت نهاية العديد من المسلمين في دمشق نهاية محزنة شأن بقية أعضاء الهيئة الحاكمة فلاقوا السجن والتعذيب والبلص ومصادرة الأموال وأحياناً القتل في النهاية^(٢).

أما في العهد المصري فلم يُلغ منصب المسلم بل طُور بحيث أصبح المسلم يتقاضى راتباً شهرياً^(٣). وقام المصريون بوضع مسلم على كل مدينة أو قرية كبيرة وعين من قبل الحكماء بموجب أمر رسمي صادر عنه. وكان المسلم يعنى بأمور الإدارة وبيت في الدعاوى الحقوقية البسيطة، ويتعاون مع مجالس المشورة في حل المشاكل الإدارية المهمة، وكانت تلك المجالس تتألف من عدد معين من أعيان تلك المدن أو القرى وتمثل جميع الطوائف تمثيلاً نسبياً. وعجل تحت إمرة المسلم موظف أو أكثر مختص بالشؤون المالية وأطلق عليه اسم الصراف^(٤)، حفظاً لأموال الدولة ودقة حساباتها في هذا المجال.

كما أمر عزيز مصر حكمदार دمشق محمد شريف بك بوجوب تعيين مساعد له في منصب المسلمية لمساعدته في شؤونها، على أن يكون أحد أعيان دمشق، أو تعيين أحد المصريين إن لم يتوفر رجل كفء من الدمشقيين^(٥).

وقام المصريون بفرض مال الإعانة على المسلمين. وكانت تجمع هذه الضريبة من الشعب لصالح المستخدمين في الدولة بمصالح الميري. وصدر أمر من حكمदार دمشق بتاريخ ٢٨ آذار سنة ١٨٢٨م/ ١٢٥٢هـ لإغفاء المسلمين القائمين على رأس عملهم من

(١) المصدر السابق، ص ٢٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٥. ثم مجهول: تاريخ حوادث الشام ولبنان، ص ٢٠، ص ٥٦، ص ٥٨.

(٣) ورد في كتاب: وجهه ابراهيم باشا إلى حكمदार دمشق مايلي: «إن الموظفين الملكيين مثل المسلم والكاتب أصبحوا في حاجة إلى قوتهم اليومي من جراء عدم صرف مرتباتهم الموقوفة وحيث أنهم أصحاب أولاد وليس لهم مورد رزق آخر فلا يعتمد. والحالة هذه أن يفتروا عن أداء الواجب وأن يمدوا بضغط الضرورة أيدي العبت والتطاول إلى المصالح المهمة المجمولة إلى عهدتهم وإلى أموال الأهالي ولذلك فلاني أقترح ماياقي: يصرف مرتب شهرين لمن أوقف مرتباتهم ستة أشهر ثم يصرف شهر واحد في كل شهرين كما هو جار مع أفراد الجيش. أنظار: ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا، ص ١٢٥ و ص ١٢٦. ولم يكن دخل المسلم ليعادل أكثر من ١٠/١ (عشر) ما كان يأخذه من الفلاحين سابقاً. فلاعجب إذا ماخذ هؤلاء على الحكم المصري وتحمسوا في عدائه.

(٤) انظر: ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا، ص ١٠٠، ص ١٢١.

(٥) انظر: عابدين، دفتر ٢١٠ رقم ٤٢٢ المحفوظة: ج ٢، ص ٢٨٠. نقلاً عن ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا، ص ١١٤.

هذه الضريبة بحيث لا تؤخذ إلا من المسلمين المعزولين وسجل ذلك في السجلات الرسمية^(١).

وكثيراً ما كان يتأخر دفع رواتب المسلمين والموظفين، مما يوقعهم في ضائقات مالية، لأنهم لا يملكون غالباً دخلاً أخرى واعتمادهم في معاشهم على رواتبهم، فلا عجب إذا ما حاول بعضهم استخدام طرق ملتوية لسد حاجتهم إلى المال. كما حصل لتسلم غزة حيث اختلس ما لا يقل عن ألف كيس^(٢).

السوباصي

أو (الصوباشي) (SUPASTI) أو رئيس الشرطة، يجب ألا يراود ذهن اشتقاق هذه الكلمة من الكلمة التركية (SOU) التي تعني الماء^(٣). ولقد درج العامة على ذكره باسم شوباصي، وجمعه على شوابص. ونلاحظ ذلك في كتابات الإخباريين الدمشقيين الذين أرنخوا لهذه الفترة، ولقد أطلقت التسمية على العناصر التي تعمل بإمرة الشوباصي فجمع على (الشوابص). وكلمة شوباصي عنت في بلاد الشام رئيس فرقة من السباهية^(٤). وهو كبير موظفي الأمن في اللواء كأن نقول مدير الشرطة^(٥). ولقد أطلق على هؤلاء في الولايات التي بها إقطاعات من نوع تيمار اسم (تيمار صوباشيليري) أو صوباشية أصحاب التيمارات. على حين صوباشية الولايات الأخرى كانوا يسمون (ميري صوباشيليري) أو صوباشية الخزانة. وكان هؤلاء إقطاعات وكانوا، من الناحية الإدارية، خاضعين لسلطان الآلاي بك الخاضع بدوره لسلطان الصنجق^(٦). ويتضح من هذه الأسماء أن الصوباشية الاقطاعيين كانوا يعيشون

(١) انظر: رسم، أسد. الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا — المجلد ٣ — ٤. ص ٨٥ و ٨٦.

(٢) انظر: ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا. ص ١٢٤.

(٣) انظر: رائق، عبد الكريم. بلاد الشام ومصر ص ٦٨. الطبعة الثانية.

(٤) انظر: العبد، حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد. ص ١٤٨. ثم: المتجد صلاح الدين. ولاية دمشق في العهد العثماني. ص ١٠٩.

(٥) انظر: غراية، عبد الكريم، سورية في القرن التاسع عشر ١٨٤٠ — ١٨٧٦ نقلاً عن د. أسامة عانوتي، الحركة الأدبية. ص ١٢.

(٦) انظر: دائرة المعارف الإسلامية — المجلد ١٤. ص ٣٦٢. الترجمة.

على مصادر دخل الإقطاعات ، إلا أنهم كانوا ملزمين بالقيام بالواجبات الإقطاعية العادية والخاصة وتقديم (جبة لين) وما إلى ذلك بما يتناسب مع دخولهم .

وكان صوباشية الميري يتقاضون مرتبات من الخزانة . ورغم ذلك فقد كان لكل من الفريقين حق في الأتاوات المتحصلة من الغرامات المفروضة على المذنبين . فلم يكن صوباشية الميري وحدهم ضباط الشرطة بل إن ذلك كان ينطبق على الصوباشية الإقطاعيين ، وكان عليهم جميعاً أن ينفذوا أحكام القضاة المقيمين في مديرياتهم وأن يكونوا مسؤولين بوجه عام عن المحافظة على القانون والنظام . ومن الواضح أنه في الأماكن التي كانت تقيم فيه قوات الإنكشارية كانت القوات توفر دوريات من الشرطة تأتمر بأمر الصوباشي^(١) . وإذا ما فرضت ضريبة ما على الشعب كان الشوباصي يقوم بإرسال أحد العناصر للمناداة في الأسواق على ذلك ، أو لإحضار أي فرد من الشعب إليه^(٢) . وكانت مرتبة الجري باشية أو الصوباشية ضباطاً تلي مرتبتهم مرتبة بكوات الآليات (آلي بك) ، وكان هؤلاء يختارون من بين زعماء الوحدات الإدارية الصغرى التي كان منها ما يسمى بالقضاء ، وكانوا يقومون بمهام الشرطة أوقات السلم^(٣) ولقد زودت بهم الولايات في أواسط القرن السابع عشر ، كما كان منهم (صوباشية) على الاقطاع في القرى^(٤) .

أما الصوباشي في مدينة دمشق فقد كلف بمراقبة المدينة وأسواقها ، وتطبيق الأحكام الشرعية فيها والحد من أي تصرف يخل بالشريعة^(٥) ومطاردة المجرمين والبحث عن الجناة^(٦) ، وكلف أيضاً بمراقبة بنات الهوى (العاهرات) في دمشق كما حصل في سنة ١١٦٢هـ / ١٧٤٨م — ١٧٤٩م^(٧) بالإضافة إلى المهام الأخرى الإدارية التي كانت توكل إليه من قبل والي دمشق . فمثلاً في عهد والي دمشق الكنج يوسف باشا الذي قام باحتكار

(١) انظر : جيب هاملتون وباوون هارولد . المجتمع الإسلامي والغرب . ج ١ . ص ٢١٧ . الترجمة .

(٢) ابن طولون ، فمس الدين محمد ، مفاكهة الخللان . ج ٢ . ص ٧٧ .

(٣) انظر : جيب ، هاملتون ، وباوون ، هارولد . المجتمع الإسلامي والغرب . ج ١ . ص ١٧٥ .

(٤) انظر : المصدر السابق . ج ١ . ص ٢١٠ وجاء في سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦ . ص ٣٥٩ أن علي بك ابن عبد الله كان صوباشياً على قرية العريقة .

5 - Gibb . H. and Bowen. op.cit. VOL. 1, Part.2, P.129.

(٦) انظر : رسم ، أسد . الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا . ص ٣ و ص ٦ .

(٧) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص ١٣٤ .

صناعة الصابون في دمشق « كلف الشواييص في جميع غالب البلد بمزاينة صانعي الصابون ... وما أحد استرجا يطبخ صابون إلا هو ويبيعه من تحت يده »^(١) كما كان الصوباشي ينفذ أوامر المحتسب . وهكذا نرى أن الصوباشي كان يقوم بمهام الشرطة في وقتنا الحاضر .

أما دخل الصوباشي فكان بالدرجة الأولى من الإقطاع الذي خصته به الدولة ، كما أعطي راتب سنوي (سليانة) في اللواء أو الصنjq الذي كان خالياً من التنظيمات الإقطاعية . أما إذا ما أعطته إقطاعاً فكانت درجة هذا الإقطاع (زعامت) ويتراوح إيراد السنوي ما بين ٢٠ — ٩٩ ألف أقة وفرض عليه أن يقدم زمن الحرب رجالاً مسلحين بمعدل رجل واحد لكل خمسة آلاف أقة من إيراد إقطاعه^(٢) .

ولكن في ظروف الفوضى السياسية التي شملت مدينة دمشق كان العديد من الصوباشية يستغلون هذه الظروف لابتزاز الأموال من الشعب لصالحهم الخاص ، وفقد بعضهم حياته إثر الصراعات الدموية التي نشبت في دمشق بين الأطراف المتناحرة^(٣) .

ضباط الجيش أو الأغوات والزعماء

شكل أغوات الجند باختلاف صنوفهم ، مع زعماء السباهية « العاملين منهم والمتقاعدين » شريحة هامة من الطبقة الحاكمة ، لما لهم من سلطة عسكرية وإدارية ونفوذ سياسي ، إذ كانوا يتمتعون بامتيازات سياسية واقتصادية في مدينة دمشق والصنjq التابعة لولايتها ، وشكل بعضهم حاشية والي دمشق وأعضاء في مجلس الولاية وفي المناصب المختلفة^(٤) . وزاد في نفوذهم ، حصولهم على الاقطاعات العديدة في الولاية^(٥) . وانخرط بعضهم في طوائف الحرف المختلفة في دمشق أو في التجارة ، وبشكل خاص في تجارة الحبوب ، وقام

(١) انظر : العبد ، حسن آغا . تاريخ حسن آغا العبد . ص ١٤٨ و ١٤٩ .

(٢) انظر : غرايبة ، عبد الكريم . سورية في القرن التاسع عشر ، ١٨٤٠ — ١٨٧٦ م . ج ١ . ص ٦١ .

(٣) انظر : المرادي ، محمد خليل . سلك الدرر . ج ٢ . ص ٨٤ .

(٤) انظر : الذكرى الثوية الأولى لوفاة سعيد الذكر مكسيموس الثالث مظلوم سنة ١٨٥٥ — ١٩٥٥ . ص ٣٠ .

(٥) انظر : المرادي ، محمد خليل . سلك الدرر . ج ٢ . ص ٤٢ و ٦٣ و ١٠٧ و ١١١ و ١٩١ .

العديد منهم باستئجار الأراضي، ومكتنتهم صلتهم بسررايا الوالي في دمشق من النفوذ والجاه لدى العامة. فجمعوا الأتباع حولهم وأدى ذلك إلى زيادة ترسيخ نفوذهم السياسي.

ولقد استقر معظم من قدم من هؤلاء الضباط الزعماء في مدينة دمشق واصطبغوا بالصبغة المحلية، وسعوا بقدر ما استطاعوا لنيل المكاسب السياسية، ودفعتهم مطامعهم للجوء إلى القوة في أغلب الأحيان لفرض ما يريدونه على الهيئة المحكومة، مستغلين بذلك نفوذهم وسلطتهم، في وقت ضعفت فيه الدولة عن فرض القانون وإقامة العدل.

وكان أكثر هؤلاء الضباط التصاقاً بالسلطة المركزية أغوات القاييقول، القادمون مجدداً إلى دمشق، حيث كانوا يعينون من قبل آغا الانكشارية في استانبول وهم غرباء عن دمشق ولم يكونوا بعد قد سعوا لتحقيق مصالحهم الشخصية داخل المدينة على عكس ضباط الانكشارية القدماء أو أغوات الانكشارية اليرلية، الذين أصبحوا مع الزمن من السكان المحليين والذين سعوا لتدعيم نفوذهم المحلي مستغلين رتبهم ومناصبهم في ذلك. وكانت اليرلية تجند من العناصر المحلية في دمشق، وأصبحت العضوية في أوجاقهم وراثية وحتى رتبة الأغوية فيهم أيضاً. ونرى أمثلة عديدة على ذلك وردت في «سجلات محاكم دمشق الشرعية» فمثلاً أحمد آغا ابن المرحوم عثمان آغا كتنخدا سابقاً وأولاده سليم آغا ورشيد وإبراهيم آغا^(١).

ولم يكتف الأغوات بترسيخ نفوذهم في دمشق، بما حصلوا عليه من مكاسب سياسية واقتصادية، بل أقاموا علاقات متعددة مع الطرق الصوفية ونقابات الحرفيين. وربما كان الدعم متبادلاً مع الفئة الأخيرة. إلا أن طبيعة هذا الدعم. مازالت غامضة بالنسبة لنا، على الرغم من وجود بعض الاشارات إلى ذلك. ففي حي الميدان أصبح الأغوات حماة لنقابات التجار (خاصة تجار الحبوب)، وليس عجباً أن نرى بعض الأغوات يدخلون في هذه المهنة في نهاية القرن الثامن عشر فمثلاً عبد الله آغا سكر قد استخدم بنجاح زعامته المحلية كي يصبح في نهاية أمره أكبر تجار القمح في الميدان. ولا شك أن الظروف الاقتصادية العامة السائدة في الدولة العثمانية، وتدني قيمة النقد بدخول الغش إليه وارتفاع الأسعار، وتأثير الثورة الصناعية في أوروبا بشكل سلبي على هذه الأوضاع، وعجز رواتب الجند عن مسايرة ارتفاع الأسعار، كل ذلك دفع بالمتنفذين من الهيئة الحاكمة (أهل السيف والقلم)

(١) انظر: السجل رقم ٤١٢ / محاكم دمشق / لعام ١٢٦٥ هـ. ص ٦٧.

بالالتفات إلى الأرض والتجارة لتأمين سوية مرتفعة من المعيشة لأنفسهم ، ولهذا قام أغوات الجند وخاصة البرية منهم بالاهتمام بالحرف العديدة ، وذلك في أوائل القرن التاسع عشر ، كما سعوا للحصول على المالكانات من الأراضي . وتسبب ذلك في حدوث خلل عام في دمشق . ولقد عبر الكتائب المحليون من الوجهاء الدينيين الذين أُرخوا للقرن الثامن عشر والتاسع عشر عن استمزازهم واحتقارهم لهؤلاء الأغوات ، لأنهم حسب رأي هؤلاء المؤرخين كانوا السبب في هذا الخلل .

وما أن أُرِفَ النصف الأول من القرن التاسع عشر حتى ترسخت سلطة هؤلاء الأغوات من جراء سلسلة من العوامل نوردّها فيما يلي :

أولاً — أصبح الأغوات يسيطرون على تجارتي الحبوب والمواشي في الميدان وغيره من الأحياء الدمشقية . ويحصلون على الالتزامات والمالكانات في حوران .

ثانياً — من خلال تزواج هؤلاء الأغوات مع أسر الأغوات الآخرين والوجهاء المحليين أصحاب النفوذ القوي في أحيائهم الخاصة بهم .

ثالثاً — عندما قامت الدولة العثمانية بتنشيط السلطة المركزية وإصلاح الإدارة فتحت الأبواب أمام هؤلاء الأغوات للعمل في الجيش والبيروقراطية المحلية وقوات الشرطة ، وبما وفر لهم المال والنفوذ .

رابعاً — ما بين عام ١٨٠٠ — ١٨٦٠ م استغل الأغوات تطورين اقتصاديين ليصبحوا جزءاً من فئة الوجهاء العلمانيين . فقد حصل الأغوات عن طريق المنح والاستغلال على أراضي حوران الواسعة وسيطروا على فلاحها وتمكنوا من خلال هذه العملية من السيطرة على تموين دمشق بالقمح من مصدر رئيسي له وتحكموا بأسعار هذه المادة الحيوية ، خاصة وأن الصناعات التقليدية قد تعرضت لضربة ساحقة بسبب تسرب بضائع أوروبية إلى أسواق دمشق ، والتي كانت تتفوق على مثيلاتها المحلية من حيث الاتقان والصباغة والسعر الأرخص ، وأدى ذلك إلى انهيار الصناعات المحلية ، فالتفت الكثيرون من الحرفيين والتجار والمرايين إلى المحاصيل الزراعية والمالكانات ، فاهتموا بها لجني الأرباح ، وحذا حذوهم العديد .

من الأغوات وقام هؤلاء الأغوات بالمصاهرة مع الأسرة الدمشقية البارزة^(١). فمثلاً عبد الله الجرکسي كان أحد أغوات أوجاق اليرلية وكان أيضاً جدياً للمفتي العام محمد خليل المرادي^(٢). وأسرة المرادي كانت أسرة بارزة آتت في دمشق ولها نفوذها. كما سعى بعض أغوات دمشق للحصول على مرتبة الباشوية.

ومن جهة أخرى لم يكن هؤلاء على درجة واحدة من الغنى المادي والثقافة أو النفوذ السياسي والاجتماعي، بل كانوا على درجات متفاوتة في ذلك فمثلاً: أحد الكيواني الدمشقي أحد أعيان أوجاق اليرلية كان عالماً وأديباً وكذلك أحمد السلامي بن أغريوزي المتوفى سنة ١١٢٦هـ/١٧١٤م — ١٧١٥م. كان أحد أعيان جند دمشق، وكان بالإضافة لذلك أديباً ونحويّاً وصوفيّاً بارعاً له شرح على الشاهدي بالعربي وصار تذكرجي دفترخانة التيمارات وكان عليه تيمار قرية حلبون^(٣).

كما تزيت أسر بكاملها في دمشق بزي الأجناد لأنها رأَتْ في عملها ذاك سبيّاً لمعاشها ونفوذها السياسي وجاهاها الاجتماعي. فمثلاً حسين مصلي الدمشقي كان جندياً ترها بزي الأجناد وأقاربه كلهم أجناد زعماء السباهية في أوجاق السلطان ولهم إقطاعات في القرى. ثم حسين بن حسن تركان التركاني الأصل الدمشقي الميداني أحد كبراء الجند بدمشق وأعيانهم وراثتهم كان من رؤساء الأجناد هو وأسلافه لهم خدمة في الرئاسة وربما كانوا من توابعهم ولواحقهم (وأقاربهم يقاربون ربع العسكر)^(٤). ثم عبد الله الجرکسي كان آغا لليرلية ثم ابنه مصطفى وكذلك مصطفى الترزي بن أحمد باشا كان والده أمير الأمراء وكان أول أمره باش جاویش في أوجاق اليرلية في دمشق^(٥).

ومن جهة أخرى فقد اتصف بعض زعماء الجند بالتسامح مع أهل الذمة فقاموا بتقديم الحماية لهم. فمثلاً علي آغا الخزنكاتبی وهو من أكبر أغوات دمشق أخذ على نفسه صيانة

(١) انظر: خوري، فيليب طبيعة السلطة السياسية وتوزيعها في دمشق. المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام. ج ١. ص ٤٥٠.

(٢) انظر: المرادي، محمد خليل. سلك الدرر. ج ١. ص ٤٤٨ و ٤٤٩ و ص ٤٥٠. ثم: ج ٣. ص ٩٠.

(٣) انظر: المرادي، محمد خليل. سلك الدرر. ج ١. ص ٦٩ و ص ١٩٨ و ص ١٨٣.

(٤) انظر: المصدر السابق ترجمة حسين بن حسن تركان.

(٥) المصدر السابق. ج ٣. ص ٩٠. و ج ٤. ص ١٦٦.

أهل الذمة من الأسافل فصانهم وحفظهم بحيث لم يلحق بهم ضرراً^(١). وفي فترة متأخر عمل بعضهم قواصة لدى القناصل في عهد ابراهيم باشا المصري. وعندما زحفت قوات ابراهيم باشا المذكور على دمشق عام ١٨٣١م/١٢٤٦ - ١٢٤٧هـ راسلهم قبل دخول المدينة فأجابوه بقولهم:

«ما عندهم غير رصاص وبارود وبدأوا يهيمون بجميع حارات البلد ليتسلحوا ويتجهزوا لمحاربه وبدأت كل حارة ترم بقواتها أمام والي دمشق العثماني الذي كان يستعرض وهو في السرايا».

ولكن ماأن بدأ الصدام بين قوات هؤلاء الأغوات والقوات المصرية الزاحفة على دمشق حتى بدأت جموعهم تتشتت ولاذ جمعهم بالفرار مع الوزير والقاضي والمفتي وكلارأميني والنقيب^(٢) ولكنهم بعد ثلاثة أيام فاضوا ابراهيم باشا المصري على العودة إلى دمشق فأذن لهم. ويمكن تفسير ذلك، بأن أوجاق الانكشارية كان قد ألغى منذ فترة وجيزة وأهم بتركهم دمشق واللجوء إلى الدولة العثمانية قد لا يوفر لهم مثلما كان بأيديهم من عقارات وأموال ومصالح اقتصادية، الأمر الذي حقق لهم سوية من الحياة مرتفعة.

ولا تخلو المصادر التاريخية لهذه الفترة من تاريخ دمشق من بعض الإشارات إلى سوية حياة هؤلاء الأغوات المادية. فقد امتلكوا القصور الفخمة سواء في داخل المدينة أو في أرباضها ومنتهاتها، وكانت قصورهم من الفخامة بحيث صارت في بعض الأحيان منازل لأغوات استانبول على سبيل الضيافة^(٣). إلا أن حال العديد من هؤلاء قد تغير في عهد المصريين بفعل ما أقاموه من ترتيبات إدارية أدت بدورها إلى اضمحلال سلطتهم ونفوذهم مما دفعهم للاتصال بعملاء الدولة العثمانية سراً للإعداد للثورة في دمشق ضد ابراهيم باشا. فحرضوا العامة واتهموه بالميل إلى النصارى ضد الأساقفة خاصة وأنه طرح المساواة بين أهل الذمة والمسلمين. مما وفر المناخ المناسب لهذا التحريض. وفيما يلي سنرصد أصناف الجند المختلفة في دمشق متوخين من ذلك تصنيفهم بحسب مواقفهم من سلمها الاجتماعي ونفوذهم

(١) انظر: القساطلي، نعمان. الروضة الغناء. ص ٨٨.

(٢) انظر: مجهول: ملكات تاريخية. ص ٥٤ و ٥٩ و ٦٠.

السياسي وإمكاناتهم المادية غير مباين بتسلسل ظهورهم التاريخي إلا بما يخدم هذا التصنيف.

أصناف الجند

كانت القوات العسكرية في دمشق أصنافاً متنوعة ، ولم يشكل هذا التنوع مصدر قوة لها أو لدمشق بل عرضها للمخاطر من جراء تناحرها وإخلالها بالأمن العام في وقت ضعفت فيه السلطة المركزية وعجزت عن ضبطها . وبما يتقدم يأتي على رأس أصناف الجند :

١ - الانكشارية

وهي كلمة تركية مكونة من كلمتين (بني وجاري) وتعني (العسكر الجديد) ولقد أسس هذا الصنف من الجند حوالي القرن الثامن للهجرة من قبل السلطان أورخان العثماني (١٧٢٦ - ١٧٦١هـ / ١٣٢٦ - ١٣٥٩م) . وتم ذلك باقتراح من الوزير قره خليل جندرلي . وكان قوام هذا الصنف من الجند أولاد البلدان المسيحية الأرثوذكسية التي تشكلت من خمس الغنائم التي فتحها العثمانيون في البلقان (كالبوشناق والروم والصرب والبلغار والألبان والأرمن وغيرهم^(١)) . وكانوا يأخذون الفتيان من هذه الأقطار في سن العاشرة إلى الخامسة عشر فيربونهم تربية إسلامية ويقومون بتدريبهم على الحياة العسكرية الخشنة وكان يطلق عليهم قبل انتظامهم في المدارس العسكرية اسم (عجمي أوغلانلر)^(٢) .

وقال إن السلطان العثماني قد أخذ بركة الشيخ (حاج بكطاش) فدعا لهم الشيخ بالنصر على الأعداء وأطلق عليهم اسم (يكيجاري) أو الجيش الجديد ، كما أطلق عليهم اسم قاني قولاري (KAPIKULLARI) أي عبيد الباب أو عبيد السلطان . وارتقى العديد من هؤلاء حتى أصبحوا يتسلمون المناصب العليا في الدولة بما فيها الصدارة العظمى وحكومة الولايات رغم أصولهم الرقبة . ولقد تمتع هذا الصنف من الجند بالطاعة العمياء والانسجام ضمن الفرقة والابتعاد عن كل مالا يليق بالجند الباسل وشرفه من الإسراف بالملذات والرفاهية ولم يقبل في صفوفهم إلا غلمان الأسر (حصيلة الدفشومة) كي لا يساء لهذه التربية العسكرية الصارمة ،

(١) انظر: عوض عبد العزيز . الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ - ١٩١٤م . ص ٣ .

(٢) انظر: قدامة ، أحمد . معالم وأعلام في بلاد العرب . ج ١ . القسم الأول . ص ٧٧ .

وكان الترقى في المراتب يجسد الأقدمية العسكرية . كما منعوا من الزواج كي يبقوا في ثكناتهم على أهبة الاستعداد لأي طارئ وألا ينشغلوا بأسرهم دون واجبهم العسكري . وإذا ما أراد أحد منهم الزواج فكان عليه أن يحصل على ترخيص من الآغا فيسمح له بالنوم خارج الثكنة إلا أنه لا يرقى أبداً لرتبة رئيس غرفة (ODA BASHI) ولهذا أحجم معظمهم عن الزواج^(١) . كما حظّر عليهم تعاطي أي عمل سوى الجندية . وكانوا يقضون أوقاتهم بالتدريب العسكري والرياضة البدنية^(٢) . فلا غرابة إذا ما رأيناهم في البداية سبياً في توسع الامبراطورية العثمانية ومنعتها .

قسم الأوجاق في الدولة العثمانية إلى ١٩٦ / فرقة سميت الواحدة منها (أورطة ORTA) ولما كانت كل واحدة من هذه الأورط تقيم في غرفة التي تسمى بالتركية (أوضة) أطلقت هذه التسمية بدورها على الأورطة . واختلف عدد الأورط من ولاية إلى أخرى . كما كان لكل أورطة شارة خاصة توضع على أعلامها وعلى أبواب ثكنتها . وجرت العادة لدى جنود كل أورطة أن يشموا أذرعهم وسيقانهم بشعار الأورطة التي ينتسبون إليها^(٣) .

أما ضباط كل أورطة فكان أبرزهم (الجوريجي) (مطعم الاحساء) ثم قائد الأورطة والكتخدا ثم الأوضباشي وهو وكيل الكتخدا ويشكل صلة الوصل بين الآغا وجند الانكشارية ثم الباش شاويش والجاويشية . وكان الأوضباشي الذي يمثل الثكنة ملحق بالجوريجي ومهمته حفظ النظام أثناء العرض العسكري ويشرف على تنفيذ أوامر الجوريجي . ونلاحظ أن انكشارية حلب كانت تتألف قيادتها من السردار وكان يمشي أمامه اللواء الأحمر والأصفر والأخضر وكان يشتري وظيفته من الدولة بعشرة آلاف طالاري (قرش تركي ذهبي) أو أكثر . وكان عليه نفقات الفرمان وقد تبلغ ألفي طالاري ولم يكن له معاش من الدولة ولكنه يتقاضى أربع طالانيات عن كل مئة جمل محمل يأتي من الاسكندرون إلى حلب وأربع بارات عن كل دابة محملة أتى أتت وله منح من الدعاوى بين الانكشارية فيأخذ من المدعي والمدعى عليه ، ولا يفيدهما رفع الدعوى إلى القاضي ضد السردار بل يعود وبالا عليهما^(٤) .

ولقد ذكرت المصادر التاريخية بعض الوظائف والرتب الأخرى في أوجاق الانكشارية

(١) انظر : سويد ، ياسين . التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارة . ج ١ . ص ١١٦ .

(٢) انظر : قدامة ، أحمد . معالم وأعلام في بلاد العرب . ج ١ . القسم الأول . ص ٧٨ .

(٣) انظر : دائرة المعارف الإسلامية — المجلد الثالث . ص ٧٩ . الترجمة .

(٤) انظر : قدامة ، أحمد . المعجم السابق . ج ١ القسم الأول . ص ٧٧ و ٧٨ و ٧٩ .

في الولاية مثل : وكيل الخرج وهو المشرف على الانفاق ويتولى أمور المؤونة ، وربما قصد به الكلارأميني ، ثم البيقदार وهو حامل اللواء ، والباش أسكي وهو رئيس الخيول ، ويكون أكبر أفراد الأوضة (الغرفة) سناً . وكان حامل هذا اللقب يتمتع بتقدير عظيم لأنه كان رئيساً للقره قول (الحراس) . ثم الأشجعي باشي ورئيس الطهاة وملك أمين الغرفة الذي كان تحت أمرته مساعدون (ياماق) . وكان هناك رئيس غرفة الحراسة ورئيس سجن الغرفة وشارة منصبه هذا : سكين كبيرة ، ثم سقا باشي وهو رئيس السقائين^(١) . وهناك الوحدة الأصغر من الأورطة وهي الإيرليق أو الإيرلي ، وكان عدد أفراد الإيرليق من الانكشارية في النصف الأول من القرن الثامن عشر في دمشق حوالي خمسين شخصاً في حين كان عدده في النصف الثاني من القرن الثامن عشر عشرة أنفار^(٢) .

والاختلاف بعدد عناصر الإيرليق ربما يعود لبعض التعديلات في تنظيم وحدات الانكشارية ما بين زمن السلم والحرب^(٣) . أما عدد الأورطة فكان يتراوح ما بين ١٠٠ و ٥٠٠ أو حتى ٣٠٠٠ جندي^(٤) . ولقد استخدم الجنود أثناء الحملات العسكرية الطبول والأبواق وهتفوا بالشعارات الدينية وباسم السلطان لتحريض الفعالية القتالية واستثارة النخوة فيهم . ولقد بلغ عدد الجنود الانكشاريين في دمشق بشكل عام من الفرسان والمشاة في هذه الفترة ١٦٠٠ جندي بالإضافة إلى ٤٠٠ جندي في فلسطين ، وكان منهم ألف فارس أما البقية فكانوا ٦٠٠ من المشاة . وكان هذا العدد يزداد بالتحاق عدد آخر بهم عند الحاجة^(٥) . وخالف جنود دمشق عناصر كانت تعمل على العجلات وأطلق عليهم اسم العربية^(٦) إلا أنه لا توجد لدينا معلومات دقيقة عما إذا كان هؤلاء من الانكشارية أو من أصناف أخرى غير الانكشارية .

-
- (١) انظر : دائرة المعارف الإسلامية — المجلد الثالث . ص ٧٨ و ص ٧٩ كلمة (انكشارية) الترجمة .
 - (٢) انظر : العبد ، حسن آغا . تاريخ حسن آغا العبد . ص ٧٨ . ثم ابن الصديق الأوراق . ص ١١ ب و ص ٢٥ ب .
 - (٣) انظر : رافق ، عبد الكريم . مجلة دراسات تاريخية . العدد الأول منتصف ربيع الأول ١٤٠٠ هـ آذار / مارس ١٩٨٠ م .
 - (٤) انظر : دائرة المعارف الإسلامية — المجلد الثالث . ص ٧٨ الترجمة .
 - (٥) انظر : السيوفي ، حبيب . المصدر السابق . ج ٢ . ص ٨٤ .
 - (٦) انظر : المرادي ، محمد خليل . سلك الدرر . ج . ص ١٤ .

١ ولم يبق حال الإنكشاريين القائي قول قوياً بل أصابهم الضعف مع الزمن بفعل عوامل عديدة أوجزها المؤرخ العثماني أحمد جودت باشا في مقدمة تاريخية حيث يقول : « في عهد مراد الثالث ٩٨٣ — ١٠٠٣ هـ / صار ندماؤه يتدخلون في إدخال سلك الانكشارية على غير قانونهم الأصلي من أولاد العجم مما أضر بالقاعدة وكان هذا في عهد يوسف آغا فأدخل الطوائف المرقومة في جند الانكشارية باسم (آغا جيواغي) وهكذا بذرت بذور الفساد . ثم أن خلفاء يوسف آغا الذين جاؤوا من بعده أحدثوا أنواعاً جديدة من الأسماء والألقاب ، وأدخلوا أشخاصاً لا يعرف أصلهم ولا منشئهم في سلك الانكشارية ، فكانوا بذلك علة خراب هذا الأوجاق^(١) . والحقيقة لم يكن ذلك هو السبب الرئيس في خراب أوجاق الانكشارية في دمشق وبروز الانكشارية اليرلية فيها بل لعبت عوامل عدة في فساد هذا الأوجاق ، وكان على رأس ذلك سوء الأحوال الاقتصادية بفعل عوامل داخلية وخارجية ، وكذلك ضعف السلطة المركزية وتراخي قبضتها على دمشق في هذه الفترة ، مما جعل العديد من الإنكشاريين القائي قول يتركون أوجاقهم في قلعة دمشق ويتجهون للعمل في الحرف المختلفة في دمشق أملاً في الحصول على الدخول المرتفعة التي تفوق رواتبهم التي كانوا يتقاضونها من السلطة العثمانية ، فانحط بذلك أوجاقهم وبرز إلى حيز الوجود في دمشق أوجاقان الأول منهما : وهو القائي قول الذي كان يرسل من استانبول ويستقر في قلعة دمشق ، أما الثاني فهو أوجاق اليرلية أو « الانكشارية المحلية » الذي التحق به بعض السكان المحليين بالإضافة إلى العناصر الجديدة التي دخلته بغية الحصول على ما كانوا يتمتعون به من امتيازات اقتصادية وغيرها . ولقد جرت الصدمات العديدة بين هذين الأوجاقين . وأسهمت هذه الصدمات إلى حد كبير في كتابة التاريخ السياسي لمدينة دمشق في هذه المرحلة . وكان هؤلاء شبه عساكر ينقصهم الانضباط ، وجهلة بفنون القتال والحرب وينشرون لواء العصيان في كل ساحة وبارحة . وإذا ما طلبت منهم الدولة القتال تركوا ميدان المعركة . مما دفع الدولة في بعض الأحيان لإعدام زعمائهم . إلا أنهم سرعان ما كانوا يتخذون لأنفسهم زعماء آخرين^(٢) .

ومع ذلك لم يتناقص عدد الانكشارية في دمشق بل ازداد عددهم مع الزمن ، وازداد عدد الرجال الذين يدعون الانتساب إلى أوجاقهم ، « وكان معظمهم من الأسافل والأجلاف

(١) انظر : تاريخ جودت . (المقدمة) . ص ١٠٤ و ص ١٠٥ . ترجمة عبد القادر الدنا . بيروت ١٣٠٨ هـ .

(٢) انظر : السيوي ، حبيب . سورية ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر . ج ٢ . ص ٧ و ص ٨ .

فأرهبوا ميزانية الدولة وأصبحوا أسامي بلا مسمى^(٥). وكانت الدولة العثمانية ترسل دفعة بعد أخرى من القائي قول إلى دمشق أملاً في إثبات وجودها المادي كسلطة فيها^(٦). ولتصبح هذه القوة أكثر خضوعاً للسلطان إلا أنها سرعان ماتذبذب في مجتمع دمشق.

أما رواتب جنود الانكشارية فكانت بحسب تنظيمات السلطان القانوني على ثلاث درجات وهي:

أولاً: الجنود الأحداث أو الكوجك (KOETSCHAK) وكان راتب الواحد منهم من ٣ — ٧ أقة يومياً (جنود الخدمة الفعلية).

ثانياً: الجنود القدماء وهم الذين تميزوا بالشجاعة أثناء القتال أو أصيبوا بالحرب فكان راتب الواحد منهم من ٨ — ٢٩ أقة يومياً.

ثالثاً: الضباط والجنود مشوهو الحرب أو المتقاعدون (OUTOURAC) فكان راتب الواحد منهم من ٣٠ — ١٢٠ أقة يومياً^(٧). ولكن في فترة دراستنا هذه يبدو أن الرواتب لم تعد تكفيهم لمعيشتهم بما دفعهم للسطو على أموال الشعب والقيام بأعمال أخرى، فاختل وضعهم^(٨) وعاثوا فساداً في دمشق.

ثكنات الإنكشارية وتسليحها وتدريبها وطريقة قتالها

تمركزت قوات الإنكشارية في قلعة دمشق وبعض الثكنات الأخرى، وفي القلاع والحصون وعلى الطرق الهامة من بلاد الشام وعلى طريق الحج^(٩). ووجدت ثكنات للإنكشارية في غربي دار السعادة، وكانت مقراً لسر العسكر في عهد إبراهيم باشا. وأوجد إبراهيم باشا المصري ثكنة جديدة خارج أسوار دمشق^(١٠). أما القوات التي كانت تأتي من استانبول بمهام عسكرية في المناطق الجنوبية من بلاد الشام كفلسطين والحجاز، فكانت تنصب خيامها في المرجة والعسالي، أو بالقرب من التكية السليمانية وأحياناً تبني في التكية السليمانية أو في

(١) انظر: دائرة المعارف الإسلامية (الإنكشارية) — المجلد الثالث، ص ٧٦ وما بعدها — الترجمة.

(٢) انظر: رافق، عبد الكريم، بلاد الشام ومصر، ص ٧٦، الطبعة الثانية.

(٣) انظر: سويد، ياسين، التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين، ج ١، ص ٩٣ و ص ٩٤.

(٤) انظر: كرد علي، محمد، خطط الشام، ج ٥، ص ٢٨.

5 - Porter, J.L., op.cit. VOL.1, P.51.

6 - Ibid. P.49.

خانات ومدارس وجوامع دمشق، وفي بعض بيوت الأهالي^(١) وكانت عناصر الانكشارية تأوى إلى خيام واسعة ومستديرة، نقشت على واجهة كل خيمة شارة الأورطة المميزة لها عن غيرها من الأورط^(٢).

أما فيما يتعلق بتدريب قوات الانكشارية في هذه الفترة فليس لدينا معلومات وثيقة حول مستوى التدريب، إلا أن ثمة بعض الإشارات التي تدل على أن تدريبها كان شبه منعدم، بدلالة هزائمها المتكررة أمام القوى التي هددت دمشق، وكذلك هزائم عناصرها التي كانت تقوم بحراسة القلاع، أو بالمهام القتالية التي أوكلت لها إبان حملة نابليون بونابرت على فلسطين. ولقد تحولت مقراتهم (ثكنات وقلاع وحصون) أحياناً إلى مراكز تجارية بدلاً من أن تكون ثكنات تدريب للقتال^(٣).

واستخدم الانكشاريون أسلحة قديمة وحديثة. فمن الأسلحة القديمة المقلع والترس والسهم التي بقيت في استعمالهم إلى جانب الأسلحة النارية الحديثة. كما استخدموا الخناجر والمخارط والمزارق والجريد (رمح قصير) والصولجان (كرز شيشير) والطبوز والسياط ومدقة الحرب والبلطة والمنجل والرمح الطويل ثم الرمح الذي في رأسه بلطة صغيرة والرمح متعدد الأسنان والسيوف المستقيمة ذات الحد أو الحدين والحسام (قليج، بالاياناغان) وخناجر القامة والتروس والزرذ والدروع والخوذ النحاسية أو المصنوعة من الصلب والتي تشبه فتحها الطربوش وتنتهي بالطرف المدبب. ومن الأسلحة النارية البندقية ذات الفتيل والبندقية ذات الزناد والبندقية الصغيرة والطبنجة والقربينة والغدارة واستخدموا الألغام والمتفجرات ضد الحصون والقلاع والأسوار^(٤)، وكذلك المدافع الكبيرة والصغيرة (الزبركات)^(٥).

ولقد استخدم تعبير جبخانة في بلاد الشام للدلالة على الأسلحة ومستلزماتها، وأشير إلى البندقية (المشتقة من كلمة بندق الذي شابه الرصاص) باستدارته وسمي بالتركية التفنك

(١) انظر: العبد، حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد. ص ٥٥ و ص ١٢٢. ويذكر محمد أديب تقي الدين الحصني أن إبراهيم باشا عندما دخل إلى دمشق قام بهبلة ثلاثة مراكز للجيش هدمت في أواخر عهد الأتراك على يد جمال باشا مع مستشفى في أول الصالحية. انظر: مبحثيات التواريخ لدمشق. ج ١. ص ١٠٩١.

(٢) انظر: دائرة المعارف الإسلامية — المجلد الثالث. ص ٧٨. الترجمة.

(٣) انظر: رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية. العدد الأول. ص ٨٣ عام ١٩٨٠.

(٤) انظر: دائرة المعارف الإسلامية — المجلد ٣. ص ٧٩. الترجمة.

(٥) العبد، حسن آغا. تاريخه. ص ٩٢ — الحاشية.

وعرف حاملها بالتفنجكي، كما استخدمت أحياناً كلمة بارودة أو بارود للدلالة على البندقية ... وأشير إلى قنبلة المدفع وهي إما من الحجر أو من الحديد. باسم (قنبرة) أو كَّله وجمعها قنابر أو كلل، وعرف صانعها بالهواويني.

أما طريقة القتال فترمي المدافع على الخصم من جانب القوات ثم يستخدم الجنود السلاح الناري ضده وفي مثل هذه الحالة قد يكون تشكيل الجنود عللاً صفيين. أحدهما في الأمام جاثياً على ركبتيه والصف الآخر واقفاً خلف الأول وكلاهما يطلقان النار في وقت واحد على العدو، ثم بعد ذلك يبدأ الالتحام بالسلاح الأبيض. وكان على الفرسان الذين استخدموا السلاح الناري أن يترجلوا لينحسنوا استخدامه. وفي أواخر الخمسينات من القرن الثامن عشر أدخل عبد الله باشا الجتجي والي دمشق نوعاً من المدافع عرف بالشواهي أو الشاهيات مفرداً «شاهي» تحمل على ظهر الجمال. وكان يستخدم هذا المدفع عنصر واحد، ومن ميزاته سهولة إدارته إلى أحد الجانبين للتسديد والرمي^(١).

أما فيما يتعلق بصناعة الأسلحة والبارود في دمشق في القرن الثامن عشر فكان ثمة مصنع له، وكان لهذا المصنع رئيس يطلق عليه اسم أسطة^(٢)، إلا أننا لا نعلم مكان هذا المصنع ولا كمية البارود التي كان ينتجها، كما لا نعلم فيما إذا كان يسد حاجة قوات الانكشارية من هذه المادة. ويبدو أنه كان يعجز عن سد حاجة القوات إليها، فيما إذا جاءت إلى دمشق قوات إضافية.

ولقد استطاعت دمشق أن تصنع الأسلحة البيضاء ومستلزمات الخيول من نعال ومسامير وغيرها، كما استطاعت أن تصنع البنادق، واستخرجت الحديد اللازم لهذه الصناعات من أماكن متعددة من بلاد الشام. ولقد نشطت صناعة الحديد في القرن التاسع عشر وبقيت كذلك إلى أن أدخل الحديد السويدي إلى بلاد الشام في نفس القرن، فأصيب الانتاج المحلي بضرية كبيرة^(٣). واستخدم البقسماط والخبز المجفف في تموين الجند أثناء الطوارئ.

(١) انظر: مجلة دراسات تاريخية. ص ٨٥ ص ٨٨ العدد الأول لعام ١٩٨٠م.

(٢) انظر: البارودي، فخري. مذكرات البارودي. ج ١. ص ٩.

(٣) انظر: رافق، عبد الكريم. مقالة له في مجلة دراسات تاريخية. العدد الأول ص ٨٨ و ص ٨٩.

وكانت كل أورطة مجهزة بثلاث طناجر كبيرة تستعمل لإعداد الطعام وتقديمه للجنود وكانت طناجرها تلك مساوية لكرامتها، وكانت غيرة الأورطة عليها معادلة تماماً لغيرتها على علمها أو شعارها. فإذا ما انتزع العدو طناجرها في القتال يعاقب ضباطها بتخفيض الرتبة (تكسير)، وإذا ما أعيد الاعتبار لهم فيما بعد فلا يمكن أن يعودوا إلى الأورطة نفسها، كما لا يحق لهذه الأورطة بعد ذلك إطلاقاً أن تحمل طناجرها في عرض عام وتلك إهانة تلحق بهم ولا يتوول أبداً. ومن جهة أخرى فقد عمل الانكشاريون البرلية في مختلف النشاطات الاقتصادية^(١) فتعاطوا الربا وانتسبوا إلى الحرف واحتكروا تجارة الحبوب، وعمل بعضهم كملتزمين لجمع الضرائب ومساعدين للملتزمين، وعينوا «متولين ونظاراً» على الأوقاف وشغلوا وظيفة المحتسب وعملوا في مصلحة الجمارك. وفي حلب سيطروا على طائفة القصابين. وجمعوا ثروات كبيرة، فعين أحدهم شيخاً لطائفة الصاغة واتخذ العديد منهم العبيد لأهمية ثروتهم ومكانتهم الاجتماعية^(٢).

القايي قول والبرلية في دمشق

برزت في دمشق قوتان من الانكشارية: أولاهما الانكشارية البرلية (المحلية) والثانية قوات القايي قول المرسله من استانبول والتي تأتمر بأوامرها وكان مقرها قلعة دمشق. وتشكلت البرلية من قوات القايي قول التي تركت القلعة وبحثت عن الرزق في ربوع دمشق ضاربة عرض الحائط بالانضباط والتدريب العسكري، بالإضافة إلى العناصر المحلية التي انخرطت في صفوفها أملاً في الحصول على امتيازاتها وحمايتها. وكان من الطبيعي أن تحدث الاصطدامات بين القوتين (البرلية والقايي قول) لأن قوات القايي قول كانت تسعى للبحث عن الرزق فتضيق بذلك على البرلية وتنافسها في مصالحها، خاصة وأن ظروف دمشق قد ساءت في نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر بفعل ظروف محلية ودولية.

وتوقفت استانبول عن إرسال قوات القايي قول إلى دمشق بدءاً من عهد الوالي عثمان باشا المحصل، سنة ١١٥٩هـ / ١٧٤٦ — ١٧٤٧م. حيث قام بطلبها الوالي أسعد باشا

(١) انظر: السيد، ياسين. المرجع السابق، ج ١. ص ٩٦ و ص ٩٧ و ص ١١٦.

(٢) رافق، عبد الكريم. مقالته السابقة في مجلة دراسات تاريخية. ص ٩٢.

العظيم بعد أن استفحل أمر البرلية وتناست واجباتها في حفظ الأمن والنظام، فأرسلت الدولة العثمانية له الأورطة (أون طقز) أي الأورطة / ١٩ ، ودخلت هذه الأورطة بموكب عظيم « سرت أناساً وكمدت أناساً »^(١).

وأعد أسعد باشا العدة لضرب قوات البرلية في معاقلها في مدينة دمشق، معتمداً في ذلك على قواته من المرتزقة وعلى قوات القايي قول، فهاجمها في حي الميدان ويصف البديري نتائج الصدام بقوله: « أنا سرت مع من سار فوجدناها قاعاً صفصفاً والقتلى بها مطروحة والأبواب مكسورة والدكاكين مخربة وجدرانها مهدمة والحاصل حالها حال تقشعر منها الأبدان وتشيب منها الأطفال »^(٢).

كما جرى صدام آخر بين هذين الأوجاقين في سنة / ١١٧٠ هـ — ١٧٥٦ م — عندما كان والي دمشق حسين باشا مكّي غائباً عنها كأمر لقافلة الحج. فقتل الكثيرون من القايي قول وحرقت حواصل الانكشارية البرلية المليعة بالخشب في الدرويشية على يد أهل العمارة والقايي قول، وكانت تساوي عدة أكياس من المال^(٣). وعندما عزل حسين باشا مكّي وجاء والياً على دمشق عبد الله باشا الجته جي زودته الدولة العثمانية بخمسة آلاف جندي من القايي قول^(٤). وما أن دخل دمشق في سنة ١١٧٠ هـ / ١٧٥٦ م حتى قام بتوجيه ضربة جديدة لقوات الانكشارية البرلية في حي الميدان ويصف أحمد البديري الخلاق ذلك بقوله: « لم يزل يضرب بأنسياف هو وعساكره إلى أن وصلوا إلى خارج باب الله فقتلوا خلقاً كثيراً والذي ما أرادوا قتله أخذوه ووضعوه في الجنزير ونهبوا العساكر الميدان ولم يتركوا كبيراً ولا صغيراً إلا قتيلاً أو أسيراً ولم يتركوا بيتاً ولا دكاناً ولا امرأة ولا طفلاً إلا استعملوا النهب والسبي وهتك الأعراض من سلب النساء والحلي وسلب البنات الأبكار وغير ذلك مما يعمي الأبصار وتمنوا الموت الدوار ... وانتكبت أهل الشام نكبة في ذلك العام ماعهدت من عهد تيمور »^(٥).

(١) انظر: البديري، حوادث دمشق اليومية. ص ٧٢ و ص ١١٠.

(٢) المصدر السابق. ص ١٢٠.

(٣) المصدر السابق أيضاً. ص ٢٠٢.

(٤) انظر: الدمشقي، ميخائيل. ص ٤٩.

(٥) انظر: البديري، حوادث دمشق اليومية. ص ٢١٤ و ص ٢١٥.

ونظراً لما كانت تجره الصدامات بين أصناف الجند من ويلات وخراب على مجتمع دمشق، سعى القضاء للإصلاح فيما بينها في بعض الأحيان. وحسبنا أن نسوق مثلاً على ذلك ما حصل في سنة ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢ - ١٨٠٣م بين أوجاق الانكشارية (البرلية والقائي قول)، ففي محرم من تلك السنة «حضر مفخر الأعيان مصطفى آغا سرطوناي آغاي ينكجريان... ومفخر الأماجد الكرام حسين آغا وكيل آغاي يرليان بدمشق فالأول وكيل شرعي عن أوجقليوته الثانية وكالته عنهم لديه بشهادة محمد آغا بن علي آغا خنفس الخصكي بالأوجاق... والثاني وكيل شرعي عن أوجقليوته الثابتة وكالته عنهم لديه بشهادة السيد اسماعيل آغا مهاييني... وتوافقاً على أن الضغائن والفسادات الغير مرضية لرب البرية مرفوعة بين الأوجاقين وأنهم عبيد الله وإخوانا لا يصدر من أحد من الأوجاق على الأوجاق الثاني تعدي ولا مناصرة وكل من عمل تعدي يطلع ضابطه من حقه وإذا احتسب أحد بمحلة من محلات الشام لا يحمي أهالي تلك المحلة وإن ظفروا به يوقفوا القبض عليه يسلموه لضابطه يطلع من حقه وينكله بأشد النكال على العادة القديمة»^(١).

وعندما عين أحمد باشا الجزائر بعد عزل عبد الله باشا العظم سنة ١٢١٨هـ/ ١٨٠٤م قامت قوات الجزائر بتوجيه ضربة أخرى إلى البرلية في دمشق بالاعتماد على صنف قوات الدالاتية والسكبان من المرتزقة واستطاعت هذه القوات أن تذلل قوات البرلية وأن تسجن العديد من زعمائها مثل (سعيد آغا بن جعفر آغا ومحمد آغا بن طالو وغيرهم) ولم تتجرأ البرلية أن تتصدى لهذه القوات ويقول حسن آغا العبد الذي عاصر هذه الفترة: «مابقا في الشام رجل كبير له تكلم يخلص مادة أو دعوة إلا حواشي أحمد باشا الجزائر»^(٢). فالحنت قوات البرلية لهذه العاصفة على مايسدو إلى أن مات الجزائر عام ١٢١٩هـ/ ١٨٠٥م فقامت البرلية وأخرجت المساجين وبدأت تصفي حسابها مع قوات الجزائر فأجبرتها على اللجوء إلى قلعة دمشق والاحتباء بها وجرى تبادل لإطلاق النار بين الطرفين إلى أن اضطرت قوات الجزائر إلى التسليم والانسحاب من دمشق بعد أن قتل عدد كبير منهم ومن قوات القائي قول^(٣).

(١) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/ ١٢١٦ - ١٢١٧هـ. ص ١٧٠.

(٢) انظر: تاريخ حسن آغا العبد. ص ٩٧.

(٣) المصدر السابق. ص ١٠١ و ١٠٧ و ١١ و ١١٢.

ولم تستطع الدولة العثمانية القضاء على القوة البيلية في دمشق إلا بعد أن ألغت أوجاق الانكشارية بشكل عام من جميع أرجاء الامبراطورية العثمانية سنة ١٨٢٦م ورغم ذلك بقي لقوات البيلية نفوذها وسطوتها بعد هذا التاريخ في دمشق، حيث استطاعت في سنة ١٨٣١م أن تقتل واليها محمد سليم باشا — مستغلة فرض ضريبة الصليان على دمشق من أجل توفير المال لقوات النظام الجديد. فرأت البيلية الفرصة مواتية لنصب حقدتها على من ألغى أوجاقها وبالتالي امتيازاتها. ويصف أحد كتاب الحكومة الدمشقيين مازذهب إليه زعماء البيلية في تحالفهم ضد الدولة بقوله: «تحالفوا على الطلاق وعلى السيف والمصحف بأنهم يكونوا رأياً واحداً وحالاً واحداً وأن الصليان لا يمشي ولو هلكوا»^(١). ولقد توحدت قوات البيلية في الميدان وباب السرجية والقنوات والعقبة والصالحية والدرويشية وبعد أن قتلوا واليها محمد سليم باشا استقاموا في بيت البكري يتعاطوا الأحكام^(٢).

ورغم تبدل زعامة البيلية بين فترة وأخرى إلا أن معظمهم كانوا من أسر معينة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وأبرز زعماء البيلية الدماشقة في القرن الثامن عشر والذين برزوا أثناء حملة أبي الذهب على دمشق (١١٨٥هـ / ١٧٧١ - ١٧٧٢م) هم: «فارس العضم أحمد العضم وحسين القطيفاني واسماعيل البكري، وعلي خير حسن الحواصلي، وعلي الحيدري محمد وعلي آقبيق وعمر القباني وأحمد الشحادة ومحمد مصطفى السقباي واسماعيل البيطار ومحمد بكداش وأمين شيخ السروجية وعلي حسين وصالح شاويش وباسين ومحمد الصواف وحسين شبيب وإبراهيم عابدون ومصطفى الدوجي وبكر ميرو وعبد الله سكر»^(٣).

وكان معظم هؤلاء من كبار تجار الحبوب في حي الميدان وحي سوق ساروجة (معقلا الانكشارية البيلية)، كما عمل بعضهم في الحرف المختلفة، وكان لبعضهم إقطاعات من رتبة زعامات مثل محمد آغا طالو الذي كان زعيماً لقرية شتورة في ناحية الزيداني سنة ١٢٠١هـ، وكذلك محمد آغا الذي كان زعيماً لقرية حزرما، وأبرز الأسر التي تزعمت البيلية في فترة دراستنا هي أسرة التركاني التي استقرت في الميدان. وكانت من الكثرة بحيث شكلت ربع

(١) انظر: مذكرات تاريخية. ص ٨.

(٢) انظر: المصدر السابق. ص ٢٢.

(٣) رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية — العدد الأول. ص ٧٠.

أوجاق الانكشارية^(١). ومن زعمائها أيضاً أحمد آغا الزعفرنجي^(٢). وأحمد آغا البغدادي ومصطفى آغا الأورفلي ومحمد البحطيطي^(٣). ثم حسن آغا القباني وعدد من آل المهاني^(٤) وآل حيدر^(٥). وغيرهم. ولقد أوكلت قيادة أوجاق اليرلية في بعض الأحيان إلى دفتردار دمشق^(٦) وكان العديد من الدفتردارين على علاقة جيدة بأوجاق اليرلية واعتمدوا على هذا الأوجاق في التصدي لقوات الولاة القباي قول.

٢ — جند المرتزقة

وهم الصنف الثاني من الجند الذين يأتون بأهميتهم السياسية والاقتصادية بعد الانكشارية بنوعها في دمشق. وبرز هؤلاء على الساحة الدمشقية نتيجة لضعف السلطة العثمانية المركزية وتراخي قبضتها، ولتنفس أوجاق الانكشارية وتمرده على الولاة، وتمو القوى المحلية. كل ذلك دفع بالدولة العثمانية للسماح لولايتها بأن يجمعوا لأنفسهم مايشاؤون من الجند، الذين ينصاعون لأوامرهم، لسد الخلل في السلطة وفرض هيبة الدولة في دمشق. وكان بعض الجنود المرتزقة من أفراد العصابات التي ختم بالسلب والنهب، فقام

(١) انظر: الفهر، إحسان. تاريخ جبل نابلس والبلقاء. ج ١. ص ٢١. ثم انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ / ١٢٠١ — ١٢٠٢ هـ. ص ٦٩. ثم سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣١١ / ص ١٤٤.

(٢) انظر: العبد، حسن آغا العبد. ص ١٦.

(٣) انظر: المصدر السابق ص ٨١ و ص ٨٢.

(٤) المصدر السابق. ص ١٠٦.

(٥) كان من آل المهاني أغوات عديدين في أوجاق اليرلية مثل: فتحي جورنجي المهاني و خليل جورنجي المهاني ومحمد علي جورنجي المهاني وعماد جورنجي المهاني — وباسين جورنجي المهاني. انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩ / ١٢١٠ — ١٢١١ هـ كما كان فيه أغاوات من آل حيدر في الميدان: مثل أحمد آغا حيدر ووحيد آغا حيدر ومصطفى آغا حيدر وبدر آغا حيدر وأسعد آغا حيدر وعباس آغا حيدر وموسى آغا حيدر وموسى آغا حيدر. انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق لعامي ١٢٠١ — ١٢٠٢ هـ. أما زعماء القباي قول في هذه الفترة فتعود إلى أصول غير عربية ونسبوا إلى الرتبة العسكرية أو الحرفة أو المتدنية التي ينحدرون منها. فكان منهم على سبيل المثال لا الحصر: طالب آغا وأحمد آغا كتخداي والسيد محمد جورنجي بن باكير آغا ومحمد السروجي وعبد الوهاب القضماني وإبراهيم آغا الموشلي ومحمد أفندي الترابزني وسكن هؤلاء في حي السنجدار وكان لهم دكاكين في القميلة والدرهشة.

انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ / سنة ١٢٦٤ هـ. ص ١٥ و ص ٢٠٢.

(٦) انظر العبد. المصدر السابق. ص ٨٦.

رؤسائهم بعرض خدماتهم على ولاية دمشق وأصحاب العصبية في الجبال والصناعات التابعة للولاية. ورغم أن الجند المرتزقة أصبحوا يتقاضون رواتب من الولاية إلا أنهم لم يتخلوا عما فطروا عليه من عمليات السلب والنهب^(١).

ولقد ازداد الاهتمام بهذا الصنف من الجنود في ولاية دمشق منذ الربع الأول من القرن الثامن عشر، ولقد شابه هؤلاء الجنود المماليك من حيث طريقة الشراء والعلاقة بين الأستاذ والمعوق، إلا أن أنواعهم كانت مختلفة بحيث لم يكونوا من منشأ واحد، بل كانوا من أقطار عربية متعددة أو من قوميات مختلفة. فمن الأصول العربية كان (البغدادى والموصلى والتكريتى والكركوكى، ومن المغاربة كان المراكشى والدرائى والجزائرى والتونسي والسوسى والطرابلسى والهواره من صعيد مصر). ومن القوميات الأخرى كان (الشركسى والتركانى والكردى) وغيرهم.

ولقد صنف هؤلاء بحسب التسليح والمهام القتالية الموكلة إليهم. فكان منهم السكبان والدالاتية واللاوند. والملاحظ أن معظم الجنود المرتزقة الذين عملوا في بلاد الشام والذين كانوا من أصل مغربي أو عراقي عملوا فيها كشرطة^(٢)، إلا أن الجند المرتزقة لم يلعبوا الدور السياسى الذى لعبه المماليك في مصر في نفس الفترة. إذ أصبح ممالك مصر أصحاب السلطة الحقيقية فيها.

ومعلوماتنا عن عدد الجند المرتزقة في ولاية دمشق غير دقيقة، حيث كان عدد من استخدم منهم عائداً لدخول الوالى وحاجته إليهم. ويبدو أن أكبر عدد منهم كان قد استخدم لدى أحمد باشا الجزائر، الذى استطاع بهم أن يفرض سلطته القوية على ولايتي صيدا ودمشق، فاستطاعت هذه القوات مع بعض قوى القابى قول أن تتصدى لقوات البرلية الدمشقية بنجاح طيلة ولاية أحمد باشا الجزائر. وكان أبرز زعمائها في سنة ١٢١٩هـ / هو الشيخ طه الذى كان كردي الأصل، واستطاعت قواته من السكبان والدالاتية واللاوند أن تذيب دمشق الويلات^(٣).

(١) انظر: البديري. حوادث دمشق اليومية، المقدمة. ص ٤٠ و ٤١.

(٢) انظر: رافق، عبد الكريم. بلاد الشام ومصر. ص ٨٠.

(٣) انظر: المبد، حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد. ص ٩٦ و ٩٧ و ٩٨ و ٩٩ و ص ١٠٠ إلى

ومع ذلك فإن هذه القوات لم توفر الاستقرار والنظام في دمشق بل كانت عنصر فوضى وإرباك للحياة الاقتصادية فيها، مما دفع بالقوى البرية للتصدي لها وعندما استفحل أمر الجند المرتزقة اضطر بعض الولاة للاستثناء عن خدماتهم^(١). فتحولوا إلى قطاع طرق مما أجبر الولاة لإعادتهم إلى الخدمة^(٢). وكان الجند المرتزقة يقسمون إلى خمسة أصناف هي: السكبان — واللاوند — والدالاتية — والمغاربة — والتفنجكية — والهوارة.

٣ — السكبان

وهم أقدم أصناف الجند المرتزقة ولقد حرفتها العامة إلى (السكمان) وفي الأصل فإن كلمة السكبان تعني (حارس الكلاب) وأصلها فارسي مكون من مقطعين «سك» وتعني كلب و «بان» وتعني حامي. ولقد أطلقت هذه التسمية في الأصل على فرقة المشاة العثمانية قبل إنشاء الانكشارية، وبقيت إلى جانب فرق الانكشارية كفرقة مستقلة بعد إنشائها، ولم توضع تحت سلطة قائد الانكشارية إلا بعد الاستيلاء على القسطنطينية^(٣). وكان يساعد آغا الانكشارية سكبان باشي، ويبدو أن هذا المنصب بقي في تنظيم أورط الانكشارية إلى فترة متأخرة من القرن الثامن عشر. أما في بلاد الشام فقد برزت أولى فرق السكبان في عهد علي باشا جانبولاد: الأمير الكردي الذي ثار على الدولة في منطقة كلس سنة ١٦٠٥ وحاصر دمشق في العام الثاني مع قوات الأمير فخر الدين المعني أمير جبل لبنان (١٥٩١ — ١٦٣٥ م) حتى قضت الدولة العثمانية عليهما.

وكان السكبان يحمل البندقية على ظهره ويقود الكلب في ساجورة ويمشي أمام الأمير أو الكبير حين يسير إلى الصيد ولقد أطلقت الكلمة على الذين يبيعون خدماتهم القتالية لقاء المال. ويقول «فون هامر» إن السكبان كانوا خليطاً من الناس من كل البلدان. كما يستفاد من عبارات متعددة للإخباري الدمشقي الشيخ حسن البوريني المتوفى سنة ١٦١٥ م، أن السكبان في بلاد الشام كانوا من أصل رومي «أي المنه» الواقعة ماوراء طوروس والقرات، وأنهم ظهروا في بلاد الشام، لأول مرة في صنجق نابلس التابع لولاية الشام، وذلك في النصف الثاني من القرن السادس عشر، في خدمة الوالي العثماني الذي استخدمهم لإخضاع سكان

(١) انظر: رلق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية. ص ٩٣ من العدد الأول.

2- Aaoz Moshe, Ottoman reform in Syria and Palestine, P.58.

(٢) انظر: جيب وهاون، المجتمع الإسلامي والغرب. ج ١. ص ٨٧ الترجمة.

نابلس. ثم شاع استخدامهم في الربع الأول من القرن السابع عشر من قبل الأمراء والإقطاعيين في بلاد الشام. وقد وصف السكبان بأنهم متمرسون في فنون القتال، واستفيد من السكبان في بلاد الشام في حماية القلاع وفي الخدمة كمشاة وفرسان، كما سمح في بعض الأحيان للمتزوجين منهم بإيواء أسرهم معهم في القلاع. وحينما استخدم أحد الأمراء أعداداً جديدة منهم أشير إلى هؤلاء بأنهم الطائفة الجديدة بينما أشير إلى القدامى بأنهم الطائفة القديمة. وتآلف السكبان من فرق متعددة أطلق على الواحدة منها اسم أورطة أو بلك وكان يقود كل واحدة منها سردار برتبة (بولوك باشي) كما أطلق على سردارهم في بعض الأحيان اسم الأقتجي، وحوّرت إلى الكنج. وكانت أعدادهم كبيرة إذا ما قورنت بأعداد بقية قوات المرتزة الأخرى لدى الولاة. وذكر أن فخر الدين المعني كان في خدمته بعد معركة حنجر التي وقعت في سنة ١٦١٣م/ والتي أسر فيها وإلى دمشق مصطفى باشا، حوالي ثلاثة آلاف سكباني واستخدم منافسه يوسف باشا سيفاً وإلى طرابلس مثل هذا العدد. وذكر البوريني أنه كان في خدمة علي جنبلاط (جانبولاد) عشرة آلاف من السكبان. أما فيما يتعلق برواتب هؤلاء (علوفات) فكانت تمنح لهم شهرياً، كما كانوا يمنحون أعطيات دعيت بخشيش.

وتجاوزت هذه الأعطيات في بعض الأحيان قيمة علوفاتهم. وذكر أنه كان من عادة كل فرقة من السكبان أن تجمع الغنائم على حدة وتقوم ببيعها، وبعد ذلك يقوم أفرادها باقتسام ثمنها فيما بينهم^(١). وكثيراً ما صادف أن عجز ولاية دمشق عن السيطرة عليهم فتحولوا إلى متحدرين فوضويين يرعبون سكان دمشق وريفها^(٢).

أما دور هؤلاء فقد تضاعف مع الزمن ليزر مكانهم جنود آخرون من المرتزة، من المغاربة والقطر العراقي، إلا أن أحمد باشا الجزار كان قد أولى السكبان عنايته وشكلوا بذلك أكلة قوات المرتزة التي استخدمها.

ولقد روعت هذه القوات دمشق حتى وفاة الجزار سنة ١٩٢٩هـ/ ١٨٠٤م.

(١) انظر: رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية مقالة له تحت عنوان. مظاهر الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام. العدد الأول. ص ٧١ و ٧٦. ثم العبد، حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد. ص ١٣٣ و ١٥٣.

(٢) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١٠/ سنة ١٠٩١ - ١١٠٢هـ. ص ١٩
٤/أيار/ ١٦٢٥م. ثم: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٣/ سنة ١١٢٤ - ١١٢٥هـ. ص ٣٨٥.

فقامت ساعدت قوات البرية للتصدي لها ، وجرت معارك كبيرة بين الطرفين « فسكرت البلد وأنشحت الحيز وصار حريق من طرف السكمان من العصرية إلى درج الأموي على الضفين والسقف والخانات وأيضاً بعض البيوت واضطر السكمان للالتجاء إلى القلعة إلى أن تدخل أصحاب الأمر وأخرجوا منها وساروا باتجاه عكا عن طريق المزه^(١) . ويبدو أن عدد السكبان قد تضاعف في دمشق مع الزمن إلى عهد محمد سليم باشا ، وعندما ألغى أوجاق الانكشارية في دمشق استقر السكبان برئاسة آغايتهم في قلعتها بدلاً عن قوات الانكشارية وكان عددهم آنذاك ٣٠٠ نفر^(٢) .

٤ - اللاوند

استخدمت هذه التسمية في الأصل 'ا' حارة وذلك تحريفاً لكلمة (ليفانتينو Levantino) التي أطلقت من قبل البنادقة على الشرقيين (اشتقاقاً من كلمة الليفانت أي الشرق) الذين استخدموا في أسطولهم . وأطلق العثمانيون على بحارتهم الأوائل تسمية لاوند التي استعاروها من البنادقة وحرفوها بدورهم . وعندما تورد هؤلاء البحارة من اللاوند وسرحوا واستبدل بهم آخرون ، أطلقت الكلمة على المتمردين ثم عرف بها المرتزقة الذين باعوا خدماتهم .

وكان اللاوند من الفرسان بصورة رئيسة وجندوا مثل السكبان من بلاد الروم . وفي القرن الثامن عشر اقترن اسم اللاوند في دمشق بالأكراد ، ومنهم : القوات التي عرفت آنذاك بلاوند الأكراد^(٣) وكان هؤلاء من أخلاط شتى ، وقد عرفوا بالفساد والإفساد حتى أصدر السلطان فرماناً بإبطال طائفتهم فتنفروا في الأقطار ودخلوا في خدمة الولاة وأصحاب العصبية^(٤) ولقد استخدموا لتنفيذ المهام الصعبة في الجبال والمدن وكانوا من الفرسان لا يفارقون خيولهم^(٥) .

ولقد ترأسهم في دمشق قائد عرف بالآغا أو المقدم . وكان لقاؤهم يتم في خان اللاوند

(١) انظر : تفصيل ذلك في تاريخ حسن آغا العبد من ص ١٠٩ إلى ص ١١١ .

(٢) انظر : مجهول . مذكرات تاريخية ص ١٦ و ص ١٧ و ص ٢٠ .

(٣) انظر : رافق ، عبد الكريم . مجلة دراسات تاريخية العدد الأول ص ٧٦ .

(٤) انظر : البديري حوادث دمشق اليومية . ص ٣٢ الحاشية .

(٥) العبد ، حسن آغا . تاريخ حسن آغا العبد . ص ٧٨ .

في دمشق المنسوب إليهم . وقامت الدولة العثمانية بمحاولات عديدة للقضاء عليهم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، إلا أنها لم تفلح في ذلك ، واستطاع العديد منهم اللجوء إلى خدمة ولاية دمشق وغيرهم ، فخدموا لدى محمد باشا العظم (١١٨٤ — ١١٩٦هـ / ١٧٧١ — ١٧٨٣م) ، وأحمد باشا الجزار (١١٩٣ — ١٢١٩هـ / ١٧٨٠ — ١٨٠٤م) ويذكر الأمير حيدر أحمد الشهاب أن هؤلاء كانوا يشكلون أوجاقاً في الدولة فقامت الدولة بإصدار خط شريف بنفيهم وكان تعدادهم ستة عشر ألفاً فما سلم منهم سوى ستائة خيال قسيس يقال لهم (لاوند) لجأوا إلى أحمد باشا الجزار . وكانوا يلبسون طرايش طوال . وهم رجال أشداء في القتال لا يهابون الموت وكان المقدم عليهم بيق عبد الله آغا وأظن علي آغا والأمير خليل والأظن ابراهيم آغا ، وكان منهم رجل يقال له علي آغا القيصرلي تحت يده ثلاثمائة خيال فتعين عند محمد باشا العظم في دمشق لأنه كان بينه وبين عبد الله آغا نفاق فلم يصاحبه^(١) . ولقد استخدمهم عبد الله باشا الجتجي بالإضافة إلى قوات القايي قول في ضرب قوات الانكشارية اليرلية في حي الميدان عام ١١٧١هـ وكان تعدادهم آتد خمسين يرقاً^(٢) . كما استخدمهم أحمد باشا الجزار في جباية الضرائب فيما بعد .

هـ — الدالاتية أو الدلاة

وكان يطلق على الجندي منهم (دالائي) . وهي مشتقة كما ترى من الأصل التركي DELAI التي تعني الأهوج أو الجنون ، أو المتهور أو الطائش . وكانت طائفة منهم قد استخدمت أول الأمر من قبل والي روميلية في مطلع القرن العاشر للهجرة / السابع عشر للميلاد / ولكنها مالبت أن دب الفساد في صفوفها في القرن الثامن عشر للميلاد . وكانت أصولهم من الأناضول والكرواتيين والبوسنيين والصرب وعرف قائدهم بـ (دالي باش) .

وكان هؤلاء الكنج أو الأقاتجي يعيشون على الغزو لأن الدولة لم تمنحهم رواتب محددة بل كانوا يقومون بمغامراتهم الحربية لتحقيق مجدهم الشخصي والمادي بما يكسبونه من الغزو . ولبس هؤلاء لباساً عجيباً تعمدوا فيه إظهار غرابتهم تجاه العدو لإدخال الرعب إلى قلبه ، فوضعوا جلود الدببة والأسود على أجسادهم ، واعتَمروا بقلانس من جلود الثور والفهود

(١) انظر : نزعة الزمان في تاريخ جبل لبنان من ١١١٠هـ إلى ١٢١٦هـ . ج ٢ . ص ٨٢٨ .

(٢) انظر : البديري ، حوادث دمشق اليومية . ص ٢١٢ .

وزينوها بريش زبل النسر وعلقوا على التروس التي يحملونها ريشاً من جناح النسر أيضاً . أما تسليحهم فكان كالآتي : (الصخائف والنباييت والنبال والحراب والسيف القصير والغدارات والبنادق) . ولم يكتفوا بذلك بل لبسوا خيولهم لباساً من جلد الأسد أو غيره من جلود الوحوش الكاسرة والمفترسة ^(١) .

أما شكل القلنسوة التي كانوا يعتصبون بها فكانت من جلود الحيوانات السابقة الذكر أو من اللباد الأسود . وكانت على شكل أسطواني ليس بها كفات طولها حوالي ٢٥ سم ، ولكنها لا تقي العينين من أشعة الشمس وتنزلق بسهولة عن رؤوس هؤلاء الجند المخلوق الرأس . وكانت أفراسهم متباينة القد واللون . كل ذلك جعلهم يشبهون اللصوص . وفي الحقيقة فإن معظمهم كانوا لصوصاً وقطاع طرق . وكان أفراد هذا الصنف في مدينة دمشق من الأكراد والتركمان والقرمان بالإضافة إلى أصول قومية أخرى . وربما كان العديد منهم قتلة في أوطانهم فروا من وجه العدالة ولجؤوا للاحتواء والعمل لدى ولاية دمشق وغيرهم ، ولم يكونوا ليتقيدوا بنظام عسكري ، لهذا بقيت أخلاقهم على حالها وأصبحوا آفة المدينة والريف ، واعتدوا على الجميع ولم يسلم من أذيتهم أحد لدى أية سائحة أو بارحة ^(٢) .

وكان هؤلاء يتجمعون في قرية « رفينة » غرب مدينة حمص ثم يأتون إلى والي دمشق ليعرضوا خدماتهم عليه تحت إمرة آغا أو مقدم منهم . وشكل هؤلاء طائفة من الجند على غرار اللاوند والمغاربة وكان لهم في دمشق خان يلتقون فيه سمي بخان الدالاتية . ولقد اعتمد ولاية دمشق عليهم في حملاتهم ضد الحكام المتمردين التابعين لهم وفي ضرب الشيوخ الإقطاعيين ، وكذلك في حماية قافلة الحج الشامي ، وفي التصدي لقوى الانكشارية البرلية في دمشق ^(٣) . ومن جهة أخرى . لم يكن هؤلاء الجند على علاقة جيدة مع بقية أصناف الجند المرتزقة في دمشق بل شاهدت دمشق الصدامات الكثيرة التي جرت بينهم وبين أصناف الجند الأخرى ، كما حصل في سنة ١١٥٥ هـ عندما اصطدموا مع قوات اللاوند ^(٤) وكذلك في سنة ١١٥٦ هـ عندما اصطدموا مع المغاربة والانكشارية ^(٥) . ولقد زاد جورهم شأن بقية

(١) انظر : سويد ، ياسين . المرجع السابق . ج ١ . ص ١١٩ .

(٢) انظر : السويدي ، حبيب . المصدر السابق . ج ٢ . ص ٨ و ٩ .

(٣) انظر : رافق ، عبد الكريم . مجلة دراسات تاريخية . العدد الأول . ص ٧٧ .

(٤) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص ٣١ .

(٥) البديري . ص ٤٧ .

الجنود المرتزقة على سكان دمشق وريفها . ففي عهد أسعد باشا العظمى اشتكى الأهليون منهم فأصدر أمراً بإبعادهم وأرسل منادياً في شوارع دمشق ينادي « كل من أقام من الدالاتية في الشام أكثر من ثلاثة أيام قدمه مهذور » . ويبدو أن أسعد باشا لم يكن جاداً في ضربه أو أنه لم يقو على تصفيتهم ولقد لاحظ ذلك أحمد البديري الحلاق حيث يقول : (وبعد أيام ظهرت الدالاتية) وفي سنة ١١٦٠ هـ حاول أحمد باشا استخدامهم في ضرب جبل الدروز إلا أنهم تقاعسوا عن تنفيذ المهمة الموكلة إليهم فغضب أسعد باشا العظمى وقال : « تباً لكم من أعوان ولبن اتخذكم من أنصار تأخذون العلايف والمال وتهربون من الحرب والقتال »^(١).

٦ — الجنود المغاربة

أولى الإشارات لوجود حامية مغربية في دمشق تعود إلى العهد المملوكي حيث كانت لهم زاوية في دمشق بنيت عام ٧٠٢ هـ / ١٤٠٠ م . كما وجد مثل ذلك في القدس وطرابلس . ولقد ذكر الشيخ عبد الغني نابلسي في زيارته للقدس في القرن الثامن عشر ١١٠٥ هـ / ١٦٩٣ م جامع المغاربة فيها .

وكان المغاربة من أقطار ومدن عدة فكان منهم الفاسيون والجزائريون والسوسيون والتوانسة والطرابلسيون والدرأوة والمراكشيون . وعمل المغاربة المقيمون في بلاد الشام حراساً في الخانات والحارات والأسواق . ومراقبين في البساتين والحقول المجاورة لمدينة دمشق . وكان لكل فئة منهم شيخ . وكان ثمة شيخ مشايخ لهم جميعاً مسؤول أمام السلطات العثمانية عن سلوك أفراد طوائفهم . وخضع العسكريون من المغاربة لآغا المغاربة . ويعتقد أن المغاربة أقاموا في دمشق بغية المجاورة وطلب العلم أو التجارة أو إيجاد عمل لهم مهما كان متواضعاً . أما عملهم كطائفة عسكرية فهو ما يهملنا . فقد برزوا كطائفة في القرن الثامن عشر وهذا ما يستلزم متناً تفسيراً . فمن الصحيح أن ازدياد اعتماد الولاة في ذلك القرن على القوات المرتزقة أدى إلى ازدياد اعتماد الولاة عليهم ولكن من الملاحظ أن تدفق قوات المغاربة إلى بلاد الشام ودمشق آنذاك لا يوازيه تدفق أية قوات أخرى لهذا نتساءل لماذا كان هذا التدفق ؟ وماهي الأسباب والدوافع التي كانت وراءه ؟

ويمكن الإجابة على ذلك بالآتي : كان المورد الأساسي للعديد من هؤلاء هو القرصنة .

(١) البديري أيضاً . ص ٨٧ و ص ٨٨ و ص ٩٦ .

والغزو في البحر ولما توقف هذا المورد بضعف البحرية الجزائرية والمغربية بشكل عام لتعاظم القوى البحرية الأوربية وتصددها للبحرية المغربية بأقطارها الثلاثة، ومهاجمتها الموانئ المغربية نفسها، انقطع هذا المورد الضخم للعديد من المغاربة. وحتى الجنود الذين كانوا يعملون لدى الداي في الجزائر، والذين كانوا من أصول مشرقية اضطروا للعودة إلى المشرق للبحث عن الرزق، فقدّموا خدماتهم لولاة بلاد الشام في المجالات العسكرية كما عملوا في المرافق الاقتصادية المتعددة^(١) وقد وصل عدد قوات المغاربة لدى أحد ولاء دمشق في القرن التاسع عشر ما بين ٥٠٠ و ٦٠٠ جندي، وكان منهم في حوران ما بين ٣٠٥ — ٤٠٠ جندي تقريباً في قلعة مزيريب وغيرها^(٢).

واستخدم عدداً كبيراً منهم أحمد باشا الجزائر والي صيدا. ولقد استخدمهم الولاة في مهام متعددة، وكان أبرزها حماية قافلة الحج الشامي. ويبدو أن بعضهم قد عاش في دمشق بـ ١٠٠ بائة بئسة بدلالة أن بعضهم سعى للحصول على الرزق من خلال تشليح أو قتل الآخرين^(٣).

أما تنظيم الجنود المغاربة لدى والي دمشق فكان تنظيمياً شبه بدوي. وكان جلهم من المشاة وقلة منهم من الفرسان. وكان الواحد منهم لا يمتلك سوى البندقية الصدئة والخنجر وحقيبة الجلد ويضع داخلها قميصاً وسراويل وطاقيّة حمراء وخفّاً. أما راتب الواحد من هؤلاء فكان خمسة قروش في الشهر، وتقع نفقات أكلهم على عاتق الوالي هذا بالنسبة للمشاة منهم، أما الفرسان فكان راتب الواحد منهم ضعف راتب الجندي من المشاة، وكان تصنيفهم يجري على حسب الأسلوب التتري القديم فيجعلون شرازم، والشزيمة عشرة رجال وقلما تكون كاملة، وكان يقودها آغا. وكان الآغا المكلف بصرف الرواتب يحاول أن لا تكون الشزيمة كاملة لأنه كان يأخذ راتب عشرة ومن صالحه أن تكون الشزيمة دون العشرة، فالفائض من الرواتب يدخل إلى جيبه، وكان الرؤساء المسؤولون يغيضون الطرف عن هذا المال المختلس على هذا المنوال لأنه في بعضه يعود إليهم^(٤).

(١) انظر: رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية. العدد الأول. ص ٧٨ و ص ٧٩.

2 - Burekhardt, J.L. op.cit. P.291.

(٣) انظر: البديري. حوادث دمشق اليومية. ص ١٥٨.

(٤) انظر: السيوطي، حبيب. المصدر السابق. ج ٢. ص ٩.

وإذا مات ترك الجندي المغربي الخدمة العسكرية لسبب ما أصبح في عهدة شيخ الطائفة المغربية التي ينتمي إليها^(١). وكان للمغاربة زاوية صوفية خاصة بهم وكان لهم خان في دمشق أطلق عليه خان المغاربة، وكانت الزاوية والخان ملقى للمغاربة في دمشق. ولقد استخدم المغاربة من قبل حكام صيدا وعكا، فكان للشيخ ظاهر العمر، حاكم عكا وبلاد صغد، قوات مغربية، وكثيراً ماصادف أن قاتل المغاربة في بلاد الشام، وفي أكثر من مناسبة في جهتين متعاديتين، وحسبنا أن نورد مثلاً على ذلك ما حصل في حملة أبي الذهب على دمشق في حزيران عام ١٧٧١هـ. ففي الوقت الذي كان بعض قواته من المغاربة كان لدى والي دمشق قوات مغربية تدافع ضدهم عن المدينة^(٢).

٧ — التفنكجية

أطلقت هذه التسمية على صنف من الجنود المرتزقة، أغلبهم من المشاة، مسلحون بالبنادق. ولقد اشتقت التسمية من كلمة (التفك) أي البارود، وكان يقودهم التفنكجي باشي. واشتهر هؤلاء في القرن الثامن عشر في بلاد الشام، ولكننا لا نعرف بالتأكيد المناطق التي جندوا منها^(٣). ويلاحظ أن التفنكجي باشي في عهد أسعد باشا العظم (١٧٤٣ — ١٧٥٧م) كان بغدادياً^(٤) ولقد انحاز التفنكجية إلى جانب البغداديين والمواصلة في صراعهم مع الأكراد في دمشق في عهد أسعد باشا العظم.

أما مهام التفنكجية في دمشق فكان ينصب على حفظ الأمن داخل المدينة^(٥)، وكلفوا في الأوقات التي تعرضت لها ولاية الشام بمهام عسكرية خارج دمشق، وكانوا على وجه العموم أكثر تنظيمًا وانضباطاً من القوات العسكرية الأخرى، إلا أنهم كانوا أقل أهمية من الناحية العسكرية وحتى السياسية. وكان يرأس أوجاقهم الخاص تفنكجي باشي الذي كان بمرتبة آغا ويأثمرون بأوامر والي، وفي القرن الثامن عشر كان معظمهم من أصول عراقية (بغداد — الموصل — كركوك)، ووصل عددهم لدى والي دمشق من ١٠٠ — ١٥٠ تفنكجي.

(١) انظر: السجل رقم ٥٩ / محاكم دمشق / ص ٢٢٠.

(٢) انظر: رافق، عبد الكريم: مجلة دراسات تاريخية، العدد الأول. ص ٧٩.

(٣) رافق: أيضاً مجلة دراسات تاريخية، العدد الأول. ص ٧٧.

(٤) انظر: البديري، أحمد. حوادث دمشق اليومية. ص ١٤٨.

(٥) انظر: كرد علي، محمد. خطط الشام. ج ٥. ص ٢٨.

أما في حلب فكان تحت إمرة التفنكجي باشي يوقدار وأوضباشي وقهوجي ، ومن مائتين إلى ثلاثمائة توفنكجي ، وكان راتب التفنكجي ، «محمسون خرجاً من القهوة» وله نصيب من الجزء النقدي الذي يفرضه الباشا على المتداعين^(١)، ووجد هذا الصنف من الجند لدى والي صيدا . وفي دمشق كلف هؤلاء بمهام الشرطة وعملوا كمراسلين . لدى القضاة والمتسلمين ، وكانوا يتقاضون مقابل خدماتهم بعض النقود يطلقون عليها اسم الخدمة . ففي سنة ١٢١٣ هـ استدعى متسلم دمشق ابن خير أحد زعماء البرلية بواسطة أحدهم توفنكجي وقام بطلب الخدمة وكاد يحصل صدام بين البرلية والمتسلم من جراء ذلك . ولقد كلف بقيادتهم في مدينة دمشق باش شاويش البرلية^(٢) ، في حال غياب التوفنكجي باشي أو عزله أو وفاته ، ريثما يعين بديل عنه ، كما كلف توفنكجي باشي بدوره بقيادة قوات القايي قول في دمشق ، ريثما يعين آغا جديد للقايي قول من استانبول . فمثلاً سنة ١٢١٧ هـ قام والي دمشق عبد الله باشا العظم بتعيين مصطفى آغا التفنكجية آغا قول وعزل الآغا الضعيف^(٣) . وكان التفنكجية عندما يتركبون الخدمة يستقرون في دمشق ويحتفظون بألقابهم السابقة . ولقد تعرض بعض هؤلاء لضبطهاد زبانية الجزار سنة ١٢١٨ هـ . ففي السنة المذكورة كان السيد عبيد تفنكجي باشي سابقاً في السجن مع زعماء البرلية وعندما توفي الجزار سنة ١٢١٩ هـ أفرج عنه^(٤) .

٨ — الهوارة

عمل لدى ولاية دمشق صنف آخر من الجنود المرتزقة أطلق عليه اسم الهوارة ، ويعود هؤلاء في أصولهم إلى قبيلة هوارة التي تستقر في صعيد مصر أو إلى قبيلة الهوارة التي تستقر في المغرب . ومعظم جنود الهوارة كانوا من الفرسان . وكان يرأس هذا الصنف آغا . ففي سنة ١٢١٣ هـ كان لدى والي دمشق ابراهيم باشا قوات من الهوارة . وفي سنة ١٢٣٧ هـ استخدم هذا الصنف من الجند عبد الله باشا والي صيدا ، ولقد ورد ذكر لأحد آغواتهم وهو أبو زايد . وكان يطلق على قائدهم اسم هواري باشي أي رئيس الهوارة^(٥) . وعندما دخل ابراهيم باشا

(١) انظر: العبد، حسن آغا . تاريخ حسن آغا العبد . ص ١٠٧ . الحاشية .

(٢) انظر: العبد . ص ٤٢ .

(٣) العبد . ص ٨٢ .

(٤) العبد . ص ١٥٧ .

(٥) العبد . ص ٣٩ و ١٧٦ .

المصري دمشق سنة ١٨٣١م، كانت ضمن تشكيلات جيشه مجموعة من قوات الهوارة الفرسان^(١)، استخدمهم كطليعة تستطلع أمام قوات الجيش المصري، إلا أن معلوماتنا مازالت محدودة عن هذه القوات التي عملت كجنود مرتزقة في فترات مختلفة، كما لا توجد لدينا معلومات دقيقة عن أول استخدام لهذه القوات من قبل ولاية دمشق وعن سبب استخدامها، وإن كان من المرجح أن كلمة هوارة كانت تستخدم للدلالة على الجنود الذين ينحدرون في أصولهم من الهوارة في صعيد مصر أو للدلالة على الجنود المغاربة وبعض البدو بشكل عام.

٩ - قوات الإقطاع أو السباهية

يعتبر هذا الصنف أقدم أصناف الجند العثمانيين على الإطلاق وكان يطلق عليهم اسم السباهية (SIPAHIS) أي الفرسان الذين منحوا إقطاعات من الدولة مقابل خدمتهم في جيشها. وهذا النظام موروث من عهد السلاجقة. فعندما سيطرت الدولة العثمانية على بلاد الشام أقرت ثلاثة أنواع من الإقطاعات على الأراضي الميرية وهي (الخاص) ويقدر وارده بما يزيد على مائة ألف أقة «الأقجة وحدة نقدية فضية» وأعطى هذا النوع من الإقطاع لأفراد الأسرة العثمانية وكبار الموظفين وألحق بمناصب الولاة لينفقوا من وارداته على مناصبهم. ثم هناك النوع الثاني من الإقطاع وهو (الزعامات) وهذا النوع من الإقطاع يزيد وارده عن عشرين ألف أقة، وأعطى هذا النوع من الإقطاع للضباط الكبار. ثم (التيمار) الذي قدر وارده بأقل من عشرين ألف أقة، ووزع على أفراد الجيش من الفرسان السباهية ليكون معاشاً لهم، ومازاد عن حاجة الفرسان جندوا به الأتباع. وعرف مجموع هذا الجيش الذي أعطي الإقطاع من النوعين الأخيرين (زعامات وتيمار) بمجنود السباهية^(٢).

ولقد عين قادة السباهية حكاماً على الولايات، حيث كان البيلري (بك البكوات أو

- (١) انظر: قرألي، بولس. فتوحات ابراهيم باشا المصري في فلسطين ولبنان وسورية. ص ١١. وكان من قوات ابراهيم باشا مجموعات غير نظامية لقوات المرتزقة غالبها من الفرسان كلفت بمهام متعددة وكان لكل مجموعة أو جماعة رئيسها الذي كان يطلق عليه اسم «باش». كباش الهوارة، وقوات المغاربة والبغداديين والأكراد وقوات من الأناضول وبدو سيناء وغيرهم. انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١٢٥٠ / ٣٤٠ - ١٢٥٤ هـ. ص ٣٣. ثم ص ٦٤ و ص ٣٧ و ص ١٢٢ و ص ١٢٣ و ص ١٩٢ من السجل المذكور. ثم سجل الحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٥٧ / سنة ١٢٥٥ هـ - ١٢٥٦ هـ. ص ٨٤ و ص ٩٧ و ص ١٢٨.
- (٢) انظر: رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية. العدد الأول. ص ٧٢.

أمير الأمراء) أعلى هؤلاء الحكام رتبة، وكان هذا الحاكم هو الذي يمنح الإقطاعات إلى عام ٩٣٧هـ / ١٥٢٠م أي في عهد السلطان سليمان القانوني، حيث قامت الحكومة العثمانية في استانبول بسحب هذه الصلاحية، وتركزت لهم منح إقطاع فقط من درجة التيمار. ولكن بالخطط جند الإقطاع أصبح بإمكان الإقطاعيين دفع ما يعرف بمال البدل مقابل إعفاء الدولة لهم من الخدمة العسكرية.

وكان يقود السباهية إبان الحرب حكام الولايات وقيد هؤلاء من قبل التشرى باشي أو الصوباشي وكانت الوحدة الأساسية هؤلاء الجند (الالاي) وكان يقود الالاي (آلاي بك). وكان هذا القائد يملك بدوره إقطاعاً. وكانت الوحدة العسكرية تلك متفرعة من وحدة أكبر وهي البلق (بيلوك) وكان يقود البلق (البلوك باشي) وكان يقود البلوكات قائد عام يطلق عليه اسم السباهي آغا. أما رواتب السباهية كجنود فكان يصرف عليهم من دخل الإقطاع التابعين له، بالإضافة إلى غنائم الحرب التي يحصلون عليها من ميادين القتال. وكان راتب الفارس يختلف باختلاف مدة خدمته، وكانت السباهية على نوعين من حيث الراتب: أحدهما يتقاضى راتباً والآخر يعتمد في معاشه على ما يدره الإقطاع، وكانت هذه الإقطاعات متوارثة من الآباء إلى الأبناء^(١). أما سلاح قوات السباهية فكان الرمح والطبنجة والنبال والسيوف والبنادق والقوس والسهام والترس، ثم بنادق الفتيل والصوان، ويرتدون الثياب الخضراء والمخططة بخطوط بيضاء وفوقها يرتدون سترة الزرد، وكان لهم تدريب خاص^(٢). وكان جنود السباهية من قوميات مختلفة فمنهم العربي والكردي والمملوكي والتركي.. الخ. وقد تناقص عدد السباهية بشكل عام في ولاية بلاد الشام في القرن السابع عشر حيث لم يكن ليتجاوز عددهم في دمشق وحلب وطرابلس سنة ١٦٨٧هـ / ١٤٠٠ / رجلاً^(٣). وتفسير ذلك يعود لتعلق هؤلاء بالأرض دون الجندية، ودفعهم مال البدل للدولة. وكان للإقطاعيين السباهيين في مدينة دمشق دفتر دار خاص وبك أو أمير معترف به من الدولة العثمانية، ولقد شكل هؤلاء جانباً من أعيانها، وكان يطلق على هؤلاء اسم (الزعماء). ورغم ضعف هذا الصنف من الجند في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فقد كلف ببعض المهام خاصة عندما كانت تتعرض الدولة العثمانية لتهديد خارجي، كما حصل في سنة ١٢١٣هـ عندما

(١) انظر: سويد، ياسين. المرجع السابق. ج ١. ص ١٠١.

(٢) انظر: سويد، ياسين. تاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارة. ج ١. ص ١٠٣ و ١٠٤.

(٣) انظر: رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية العدد الأول. ص ٧٢ و ٧٣.

نزلت قوات نابليون بونابرت في مصر وزحفت بعدها على فلسطين ، فكلفت آتخذ قوات السباهية الدمشقية بالتصدي للفرنسيين مع بقية القوات العثمانية الأخرى . ويقول حسن آغا العبد الذي عاصر هذه الأحداث : (طلع من الشام أيضاً عسكر آلاي بك والزعما وتوجهوا نحو الفرنسيين)^(١) . في فلسطين .

وكلف سباهية دمشق بمهام أخرى تحت قيادة زعمائهم . ففي عام ١٢١٦هـ / ١٨٠١ - ١٨٠٢م وعندما عاد الصدر الأعظم يوسف باشا من مصر باتجاه دمشق أصدر فرماناً خاصاً إلى آلاي بك في دمشق « بأن يطلعوا الزعما ويكوموا تلال تراب من الشام إلى أن يوصلوا إلى عند الوزير مابين التل والتل ساعة لأن هذا معتاد الاسفار لأجل يعلموا أن عرضي هامايون مرة من هذا الطريق بعد حين »^(٢) .

ولقد شكل زعماء السباهية جانباً من الهيئة الحاكمة في دمشق . فكان منهم الأعيان والزعما ، انطلاقاً من مناصبهم التي أوكلت إليهم ، بالإضافة إلى الشوباصي الذي قام بدور رئيس الشرطة^(٣) ، وكان بعضهم عضواً في مجلس ولاية دمشق . فشارك هؤلاء في تسليم المتسلم الجديد منصبه^(٤) . وكلف بعضهم بمنصب قائم مقام الوالي^(٥) ، وشاركوا القاضي والمفتي ونقيب الأشراف في جرد تركات الولاة المتوفين وموجودات المعزولين منهم^(٦) ، وسعى بعض زعمائهم في دمشق للصلح بين اليرلية والقبائي قول كما حصل في عام ١٢٢٠هـ^(٧) .

كما سعوا في إجراء الصلح بين والي دمشق وقوى الانكشارية اليرلية كما حصل في عام ١٢٢١هـ عندما عزل عبد الله باشا العظم عن ولاية الشام^(٨) .

ولقد امتلك زعماء السباهية قصوراً عديدة في دمشق ، كانت بمثابة منازل لاستضافة العديد من الموظفين الكبار وأتباع السلطان العثماني القادمين إلى دمشق^(٩) . واستطاعت أسر

(١) انظر : تاريخ حسن آغا العبد . ص ٥١ .

(٢) العبد . ص ٦٥ .

(٣) العبد . ص ٢٣ .

(٤) تاريخ حسن آغا العبد . ص ٢٣ .

(٥) المصدر السابق . ص ٦٢ .

(٦) المصدر السابق . ص ١٦٠ .

(٧) المصدر السابق . ص ١٢٥ .

(٨) انظر المصدر السابق . ص ١٣٠ و ١٣١ .

(٩) المصدر السابق . ص ٦٨ .

عديدة في دمشق، أن ترمخ نفوذها السياسي والاجتماعي في دمشق، من خلال الإقطاعات، وأن يحصل أفرادها على الرتبة العسكرية الخاصة بضباط الإقطاع، فمثلاً أسرة أغريوط (أو أغريوزي) كان منهم آلاي بك هو أحمد السلامي المتوفى سنة ١١٥٦هـ/١٧٤٣ - ١٧٤٤م، ثم مصطفى آغا بن أغريوط أصبح آلاي بك سنة ١٢٢٥هـ/١٨١٠ - ١٨١١م في عهد والي دمشق يوسف باشا وتعاطى الأحكام فيها، ثم أحمد بك كان أحد أعيان دمشق وتوفي سنة ١٢٧٦هـ/١٨٥٩ - ١٨٦٠م^(١).

ولقد أصاب جند الإقطاع السباهية ما أصاب الإنكشارية في عام ١٨٢٦م/١٢٤١ - ١٢٤٢هـ، على يد السلطان محمود الثاني. وليحافظ زعماء السباهية وفرسانهم على امتيازاتهم، قاموا بالانضمام إلى النظام الجديد، وتبعاً لذلك كان على إقطاعيي الزعامات. أن يتنافسوا فيما بينهم في تقديم خدماتهم العسكرية للدولة، ولم يكن لهم مجال للتهرب من الإنضواء تحت لواء النظام الجديد للجندية. وإذا ما حصل وتهرب أحدهم من ذلك فإن إقطاعه كان ينتزع منه ليعاد توزيعه على أناس آخرين، بحسب رغبة السلطان، وذلك على قواعد التعاقد والالتزام. أما من كان ميتاً أو غائباً من مالكي الإقطاع دون أن يخلف ولداً فكان إقطاعه يخصص لأناس جدد، سنهم ما بين ١٥ إلى ٤٠ سنة، وكان يفضل الشخص المقيم على الإقطاع. ولم يقيم السلطان من ذلك التاريخ بتخصيص إقطاع الزعامات، وأصبح من كان من الإقطاعيين مريضاً أو مسناً أو مجروحاً بسبب الحرب يخصص له معاش تقاعدي.

وفي الحقيقة فإن القوانين الجديدة التي أصدرها السلطان محمود الثاني من أجل إنعاش القوى العسكرية للدولة العثمانية، كانت ذات مغزى هام من جهة أخرى بالنسبة للنظام الإقطاعي، حيث شكلت الضربة القاضية لهذا النظام الذي ساد لفترة طويلة من الزمن.

وطبقاً للتنظيمات الجديدة فإن ولاية دمشق، وعلى رأسهم صالح باشا، الذي كان في أصله صدر أعظم في استانبول، ثم والي الدين باشا الذي كلف بمتابعة تنفيذ التنظيمات الجديدة في دمشق، قاموا بتكليف إقطاعيي القدس و نابلس بتقديم خدماتهم للحج، كما قام الوالي بتكليف العناصر الأخرى من الإقطاعيين بالخدمة العسكرية في النظام الجديد، وكلف

(١) انظر: قدامة، أحمد. معالم وأعلام في بلاد العرب. ج ١. قسم ١ - كلمة أغريوزي. ثم: العبد. تاريخه. ص ١٥٠.

هؤلاء بمهام عسكرية من أجل السلطان . وأصدر السلطان أوامره إلى ولاية دمشق لتتبع مدى استجابة مالكي الإقطاع للنظام الجديد ، وتحرى مدى انسجام هؤلاء مع ماتريده استانبول من النظام الجديد^(١) . وفي عهد ابراهيم باشا المصري توقفت إجراءات تطبيق النظام الجديد . وبقي الإقطاعيون على رأس إقطاعاتهم . لهذا قام ابراهيم باشا بتكليف هؤلاء بدفع أموال الميري للسلطة المصرية^(٢) .

١٠ - القوات الرديفة

وتشمل هذه القوات بصورة رئيسة على المجندين من القوى والقبائل البدوية . وبما تجدر ملاحظته ، أن الزعماء المحليين ، مثل المعنيين والشهابيين وآل سيف وآل عساف وآل حروفش وآل علم الدين والمتاول والزبادنة وغيرهم ، اعتمدوا بالدرجة الأولى على دعم أسرهم وأبناء مذهبهم ومؤيديهم من الحزبيين القيسي واليميني ، ولكن مثل هذا التأييد لم يقو على مجابهة الجيوش النظامية . وأشار إلى قوات الدعم المحلية باسم العشير ، وإذا ما أسهمت منطقة بقواتها إلى جانب أمير ما ، عرفت هذه القوات باسم المنطقة التي خرجت منها ، مثل الشوافنة نسبة إلى الشوف . ولم يكن مثل هذه القوات لتتلقى مرتبات من الأمير الذي دعمته واقتصر عطاؤه لها على أعطيات مالية وعينية لتكريمها ، وكانت تدعمه لأسباب أسرية أو دينية أو حزبية وغيرها . ولقد عمد الولاة العثمانيون إلى تجنيد القوات من بين الفلاحين وطالبوا سكان القرى بتقديم المؤونة والمرتبات لهم . وذكر أن والي دمشق سليمان باشا العظم أمر القرى المجاورة لدمشق بتقديم عشرة أنفار من كل قرية ، ليساهموا في إقامة النظام والأمن في المنطقة ، وذلك في صيف ١٧٤٣م بعد انقضاء موسم الحصاد^(٣) . وبعد ثلاثة أعوام وفي عهد أسعد باشا العظم وفي عام ١١٦٠هـ / ١٧٤٦م عندما أراد مهاجمة جبل الدروز « كتب إلى حمص وحماة والمرة والشام بأن يجردوا له الرجال وذلك من كل قرية خمسة عشر نفرًا وعمل على أهلها كل واحد أجرته نصف قرش وأرسل فرض عليهم بعض أنفار^(٤) » كما حمل أهل دمشق السلاح في الحالات الطارئة للدفاع عن مدينتهم ، وحصل ذلك عندما زحف عليها محمد بك

1 - Koury, G.op.cit.PP.182,183.

(٢) انظر : رستم ، أسد . المصدر السابق — المجلد ٣ و ٤ / ص ٢٢٢ .

(٣) انظر : ذكر هذه القوى في حوادث دمشق اليومية لأحمد البديري الحلاق . ص ٤٢ .

(٤) المصدر السابق . ص ٩٧ .

أبي الذهب وكذلك الأمير بشير الشهابي وإبراهيم باشا المصري . ولقد لعب شباب دمشق والحرفيون دوراً بارزاً في حمل السلاح للدفاع عن المدينة ، ولعب رجال الدين دوراً في تحريض أبناء الشعب على القتال ضد مهاجمي دمشق إبان الحملات الأوربية على بلاد الشام . فعندما زحفت قوات نابليون بونابرت على فلسطين في سنة ١٢١٢ هـ «اجتمعت أعيان البلد واعتمد رأيهم أن يعملوا ركبة من الشام ... وغالب أولاد البلد اعتمدت على المغازات في سبيل الله»^(١) .

وكثيراً ما لعب شباب الأحياء والحرفيون ، وهم أصحاب البأس ، دوراً هاماً في الدفاع عن بلدهم ، وكانوا يحملون السلاح بمعرفة الدولة . لأنها كانت مستضعفة في القرن التاسع عشر وغير قادرة على حماية السكان المحليين ... وكما حصل إبان ثورة دمشق ضد محمد سليم باشا ومقتله إثرها^(٢) أو كما حصل في سنة ١٢٤٨ هـ ، عندما تهيأت جميع حارات دمشق لمحاربة إبراهيم باشا المصري «فقامت أهل البلد جميعها بالسلاح الكامل ونظر الناس كل جوقه ألف ويعرضوا في البلد وكل حارة بحارتها تعرض وتدخل إلى السرايا حتى ينظر الوزير ويطمئن فبقوا على هذا الحال ثلاثة أيام إلى نهار الأربعاء رابع عشر محرم سنة ١٢٤٨ وصل إبراهيم باشا المصري وعساكره الظهر إلى سهل كوكب فطلعت أهالي البلد جميعها للمحاربة»^(٣) .

وهناك قوات البدو ، التي لعبت دوراً إيجابياً وسلبياً ، وأخذت تسميات (عرب وأعراب وعربان) ، فقد سيطروا على المناطق في البادية ، وهددوا الحواضر ، وفرضوا الخوات على الفلاحين والقرى المتاخمة للبادية ، خاصة في المناطق الجنوبية من بلاد الشام . وهاجموا القوافل التجارية ، وفرضوا عليها أتاوات معينة ، ومن جهة أخرى وفروا الحماية لها مقابل مبالغ من المال . ومن القبائل العربية ما عملت في نقل وحراسة قافلة الحج ، واستخدم بعضهم إبراهيم باشا المصري في جيشه عندما احتل سورية وكلفهم بالتصدي للبدو .

ومن القوات التي لعبت دوراً هاماً في بلاد الشام ، المماليك الذين بلغ استخدامهم الذروة في عهد أحمد باشا الجزار ، الذي جمع بين ولايتي صيدا ودمشق ، حيث اصطنع جيشاً من المماليك ليدعم بهم سلطته . وبعد وفاته في ١٨٠٤م خلفه أحد مماليكه وهو سليمان

(١) العبد ، حسن آغا . ص ٤٩ و ص ٥٠ .

(٢) انظر : مجهول . مذكرات تاريخية . ص ٢٣ و ص ٢٦ و ص ٣٦ و ص ٣٧ .

(٣) انظر : مجهول . مذكرات تاريخية . ص ٤٨ و ص ٤٩ .

باشا في حكم ولاية صيدا . ولا علاقة لممالك الجزائر بالممالك الذين اشتهروا آنذاك في مصر أو في بغداد إلا بالاسم وطرق التجنيد والتدريب ، وكانت كل كتلة منهم مستقلة عن الأخرى . ولكن مما يلفت الانتباه سيطرة هؤلاء الممالك الأغراب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر في كل من مصر وبلاد الشام والعراق ، مما يدل على ضعف السلطات العثمانية مما أتاح لهؤلاء السيطرة على تلك الأقطار^(١) .

محاولات إصلاح الدولة العثمانية للهيئة العسكرية وأثر ذلك على دمشق

كانت أولى المحاولات لإصلاح أوجاق الإنكشارية وإقامة النظام الجديد على الأسس الأوربية العصرية في عهد السلطان سليم الثالث (١١٩٢ - ١٢٠٢ هـ / ١٧٧٩ - ١٧٨٧ م) ، حيث قام بإعلان النظام الجديد طبقاً للنظم الفرنسية وذلك ما بين عامي (١٧٩٢ - ١٧٩٣ م / ١٢٠٦ - ١٢٠٧ هـ) وبمساعدة من الحكومة الفرنسية ، إلا أنه جوبه بثورة الانكشارية في عام (١٨٠٥ م / ١٢١٩ - ١٢٢٠ هـ) ، الذين أجبروه على إلغاء النظام الجديد ، وقاموا بعزله في أيار سنة ١٨٠٧ م ، حيث استصعدوا فتوى من شيخ الإسلام بذلك ، وجاؤوا بالسلطان مصطفى الرابع إلى السلطة ، إلا أنه لم يستمر طويلاً حيث جوبه بثورة عنيفة عندما أراد تطبيق النظام الجديد ، وفقد السلطان مصطفى الرابع منصبه وحياته ليحل محله محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩ م / ١٢٢٢ - ١٢٤٤ هـ) . وقام هذا السلطان بتحاشي الوقوع في أخطاء السلطانين السابقين فيما يتعلق بالنظام الجديد وإلغاء أوجاق الانكشارية ، فقبل أن يلغي أوجاق الانكشارية قام بإعداد النظام الجديد وذلك ليتمكن من التصدي للإنكشارية فيما إذا ثارت ضده إذا ما أعلن إلغاء أوجاقها . وفي سنة ١٨٢٦ م / ١٢٤١ - ١٢٤٢ هـ أعلن إلغاء أوجاقها فثارت عليه كما توقع ، فتصدى لها في عدة معارك أطلق عليها اسم الوقائع الخيرية كما أطلق على قوات النظام الجديد اسم (الجيوش المنصورة المحمدية) .

ولقد قام بتدريب قوات النظام الجديد ضباط من إنكلترا^(٢) . أما فيما يتعلق بإلغاء أوجاق الانكشارية في دمشق ، فقد قامت السلطات العثمانية بتعيين الصدر الأعظم صالح

(١) انظر : رافق ، عبد الكريم . مجلة دراسات تاريخية . العدد الأول . ص ٨٢ .

2 - Maoz, Moshe, op.cit. P.3.

باشا والياً عليها . وأرسل هذا الوالي متسلمه في سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦ — ١٨٢٧م ، ولقد سبق له القيام بأعباء تنظيم « النظام الجديد » في العاصمة استانبول ، كما خطط لهذا النظام في دمشق على أن يركز في جميع قواته على التجنيد الإجباري للدماشقة ، وكان من الصعب تقدير ماسيلاقيه هذا الوالي من نجاح في تنفيذ مخططه في دمشق . وطبقاً لتقرير القنصل الروسي في دمشق والمؤرخ بتاريخ ١٨٢٧م إن هذا الوالي حاول عبثاً تطبيق ذلك واعتمد في التنفيذ على قواته الخاصة ، وضحي ببعض قواته في البداية بأن شكلوا نواة النظام الجديد ، كي لا يثير عليه شعب دمشق بتجنيد شبابها ، إلا أنه كان يدرك أن ذلك سوف يجره إلى مجابهة مع أبناء دمشق ، قد لا تمكنه قواته من الصمود في وجهها ، خاصة وأن عناصر الانكشارية البرلية سوف تتضرر مصالحها وتهدد امتيازاتها في دمشق . ولم يستطع من جاء بعده أن يتم المهمة لأنه لم يتمكن من تأمين اللاح للجند الجديد^(١) . وثار أوجاق الإنكشاريون في دمشق في سنة ١٨٣١م ضد والي دمشق محمد سليم باشا واعتبروه كصدر أعظم سابق ، مسؤولاً عن تنظيم الجيش في استانبول ، فحات الفرصة لهم للانتقام منه في دمشق . متذرعين بفرض ضريبة الصليان لصالح هذا النظام الجديد . وفقد الوالي حياته إثر ذلك .

ومن جهة أخرى قامت الدولة العثمانية برفع الضرائب على الأراضي إلى أربعة أمثال ماكانت عليه في السابق ، لتأمين المال اللازم للنظام الجديد . ولم يقلح والي دمشق في جمع هذه الضرائب^(٢) ، كما لم يقلح من بعده محمد سليم باشا في فرض ضريبة الصليان على حوانيت وعقارات مدينة دمشق . وعندما دخل ابراهيم باشا المصري إلى دمشق قام باحتواء عدد كبير من صنوف الجند في الجيش المصري ، كما قام بإلغاء امتيازات جنود الانكشارية وغيرها . فلاغربة إذا ما تخيئت هذه القوى الفرصة للثورة ضد الحكم المصري . وفي سنة ١٨٣٣م عندما حاول مير لواء عمر بك المصري جمع الجمال من الأهلين لاستخدامها في نقل الجيش ، ثارت البرلية في حي الميدان ولكن ثورتها قمعت بمنتهى القسوة^(٣) . ثم وجهت

1 - Koury, George, op.cit.P.183.

(٢) انظر : مجهول ، مذكرات تاريخية . ص ٨٥ و ص ٨٦ . ثم : انظر : KOURY, OP.CIT. P.184.

(٣) انظر : مشاققة ، ميخائيل . مشهد العيان بمحادث سورية ولبنان . ص ١٠٥ . ويذكر وليم بولك أن تعداد الجيش المصري في بلاد الشام كان يزيد على ٩٠ ألف رجل تحت السلاح وكان مسلحاً تسليحاً حديثاً واعتمد في تموينه عملياً مما أدى الى ارتفاع أسعار القمح في سورية . Sec: Opening of South Lebanon. P.169.

الضربة الثانية للقوى المحلية في دمشق بجمع السلاح من جميع حارات دمشق. وقد جمع (٤٥٠٠ بارودة) إلا أن هذا العدد لم يرض إبراهيم باشا المصري فأمر « بأن يجمع من دمشق بارود قدر زلم الفرد والذي ماعنده بارود يلتزم يشتري بأعلى ثمن ويقدمها والذين عليهم العين طلب من كل فرد منهم عشرة بواريد حتى التم جميع البارود الذي في الشام^(١) ». وشكل ذلك ضربة موجعة للقوى المحلية في دمشق. ولم يكتف إبراهيم باشا بذلك بل قام يفرض نظام التجنيد الإجباري على الدماشقة المسلمين دون أهل الذمة، حيث كان هؤلاء يدفعون مال الفردة. ويصف أحد كتاب الحكومة الدمشقيين عملية جمع عناصر التجنيد في دمشق بقوله: « يبادر بمسك النظام من العشرة واخذ فصادف مسك النظام قبل حضور شريف باشا بيوم فصار في الشام شي مهول ومسكوا جملة من النصارى واليهود مع الإسلام لسبب أن اليهود كانوا يلبسوا الإسلام لفاتهم ويرطلوا العسكر حتى ماينمسك الذي يكون اليهودي لبسه لفته فبلغ ذلك الحكم فنزل يوزباشي أسود اللون لعين المنظر صار ينبه على العسكر أنهم يمسكوا إسلام ونصارى ويهود وصار العسكر يدخلوا على البيوت وأيمن وجدوه وكان شب يمسكوه^(٢) ». ويقول قنصل فرنسا آنفذا في دمشق في تقرير له، مؤرخ في ١٥ كانون سنة ١٨٣٧م: « إن المصريين لم يكتفوا بالقبض على من يلاقونه في الطريق من الأفراد... بل كانوا يدخلون عنوة وحتى الحرمك في البيوت الإسلامية^(٣) ». « ولم يراعوا في ذلك حرمة الكبير ولا الصغير فساقوا الثري قبل الفقير^(٤) ». ورفض المصريون أخذ أموال البدل عن الخدمة الإجبارية، مما زاد في خنق الأهلىن عليهم، فهرب العديد من أبناء دمشق إلى الريف والقرى والصحارى والواحات. كما تطالعنا سجلات محاكم دمشق لهذه الفترة بتزايد نسبة عدد الزوجات الدمشقيات اللواتي يطلبن الطلاق من القاضي أو نائبه لغياب أزواجهن عن دمشق في أماكن مجهولة، كما يجهلن وقت عودتهم. ومن جهة أخرى وتهربا من الجندية أجبر العديد من الآباء أبناءهم على التلوث بداء الزهري والأمراض التناسلية وخلافه من العلل التي تنهك الجسم وتقتل الحيوية فيه^(٥). ويصف هذه الحالة إخباري آخر عاش في هذه الفترة في اللاذقية

(١) انظر: مجهول. مذكرات تاريخية. ص ١١٥ و ص ١١٦.

(٢) المصدر المطلق. ص ١١٨.

(٣) كميذ. ميشيل سليم. مجازفات اللادي استراستانهوب. ص ٤٣ و ص ٤٤.

(٤) انظر: مشاققة، ميخائيل مشهد العيان بموادث سورية ولبنان. ص ١١٦.

(٥) انظر: كميذ، ميشيل سليم. مجازفات اللادي استراستانهوب. ص ٣٨ و ص ٤٣. ثم انظر على سبيل

المثال: سجل القسمة العسكرية بدمشق. رقم ٣٣٦ / ١٢٥٠ - ١٢٥١ هـ. ص ١٥٣ و ص ١٩٨.

وهو فتح الله بن أنطون الصايغ عملية تهريب الأهليين من التجنيد الإجباري « بتقليع العينين وقطع أصابع وتكسير أيادي شيء يقشعر الأبدان والتخاية تحت الأرض وفي المغاير الخفية وصارت الكبار تخفي أولادها في بيوت القناصل ومنهم يسفر أولادو خارج لإيالة الحكم المصري مثل قبرص وكريد وأضاليا وير الترك وإسلام وأزمير وغيرها ». وإذا ما وقع أحد المخبيين بيد السلطة المضرية أثناء البحث « يقوم الصباح والأصوات والولولات والضجيج والمراخ بالطرقات من أمهاتهم وأهاليهم تقشعر الأبدان ويغم القلب^(١) ». ولم يكتف إبراهيم باشا بذلك بل أخذ العديد من أبناء الأعيان والزعماء والأغوات السابقين وأرياب المناصب ومن أرياب مناصب الشورى ومن العلماء والمشايخ وأكابر الإسلام رهائن لضمان عدم تعاونهم مع العثمانيين أو التمرد، ويقول صاحب المقرب في حوادث الحضر والعرب « إن ذلك الرهن كي لا يخونوا عليه^(٢) ». ومع ذلك حاولت الدولة العثمانية بواسطة عملائها، أن تتصل بالعديد من الزعماء، كما اتصلت بالقوات التي انضمت إلى إبراهيم باشا، لتترك الخدمة في جيشه ممنية بإياها بإغراءات عديدة^(٣). وبعد خروج الجيش المصري من سورية سنة ١٨٤٠ استمرت الدولة العثمانية بتطبيق النظام الجديد في دمشق وطبقت التجنيد الإجباري وهكذا اضمحل شأن أصناف الجند القديمة في دمشق وأصبح الجيش النظامي العثماني الجديد « الدراع الأيمن للسلطان^(٤) ».

(١) انظر: المقرب في حوادث الحضر والعرب. ص ٨٠. آ. ب. / صورة للمخطوطة في مكتبي الخاصة.

(٢) انظر المصدر السابق. ص ٨١.

(٣) انظر: رسم، أسد. المصدر السابق. ص ١٥٩.

ب - هيئة المحكومين

رغم أن فئات هيئة المحكومين كانت بصورة عامة هدفاً لمظالم الهيئة الحاكمة ، إلا أن هذه الفئات لم تشكل فيما بينها وحدة متماسكة ، كما لم تسكن في مراكز منعزلة عن الحاكمين . فنرى مثلاً أن جبال الشام وأطراف البادية . التي كانت في معظمها مناطق لجوء لعدد من الأقليات الدينية والمذهبية . قد استقرت فيها فئات الحاكمين والمحكومين على أسس عشائرية قبلية أو دينية مذهبية . وكنا نرى السكن مختلطاً بين الفئتين المذكورتين مع المحافظة فيه على الفروق الاجتماعية . أما وضع سكان أحياء مدينة دمشق وأرباضها فكان آتخذ في حالة مشابهة للحالة السابقة ، فأهل الدمة في دمشق كانوا يسكنون في أحياء خاصة بهم وضمن أسوارها ، ويقع الحي اليهودي في الزاوية الجنوبية الشرقية منها على حين أن النصارى بمذاهبهم المختلفة كانوا يقطنون غالباً في الأحياء المجاورة لليهودية ، وكانت أحياءهم تقع في المنطقة الشمالية والشرقية من المدينة وقلة منهم كانت تقطن خارج أسوار المدينة في حي الميدان .

أما بقية أحياء دمشق سواء ما كان منها داخل الأسوار أو في الأرباض ، يسكنها المسلمون على اختلاف مذاهبهم وقومياتهم وأصولهم الإقليمية والطبقية . وعلى الرغم من ذلك فقد كان ثمة تمايز واضح في هذه الأحياء ، فبعضها ومنذ البداية سكن على أسس قبلية (عرب جنوب عرب. شمال) ، أو على أسس عشائرية كحي الميدان وحي الشاغور ، أو على أسس

قومية كحي الصالحية وحي الميدان (أكرد) . ووجدت بعض الأحياء وفقاً على أبناء بعض الأقاليم الشامية ، أو بعض الأقاليم العربية ، مثل حي السودان في دمشق الذي يقع في شمال المدينة خارج أسوارها ، كما سكنت بعض الأحياء بالعناصر العسكرية مع أسرها من الأصناف المختلفة ، كالأرباض التي تقع غرب القلعة وفي حي العقبة وحي البحصنة وسوق ساروجة والسنجدار .

ومع ذلك بقيت الروابط الدينية هي أقوى الروابط الأخرى ، في وقت سيطر على الأفكار والعقول ظلام التعصب الديني مدعماً بالجهل . خاصة وأن الظروف التاريخية والخارجية المحيطة بالدولة العثمانية كانت تساعد على ذلك . فحركة الحروب الصليبية وعداء بعض الدول المسيحية الأوربية أسهما في ترسيخ روح التعصب وتأجيج نارها .

ومع ذلك كان استقرار العناصر الحاكمة والمحكومة لهذه الفئات في حي واحد ، مع بقاء الفروق الاجتماعية بينهما . ومن من جهة أخرى برزت ظاهرة اجتماعية شملت طبقتي الحاكمين والمحكومين في مدينة دمشق على حد سواء ، وتبدو في النفور من أبناء الريف ، على الرغم من أننا نلاحظ بعض حالات المشاركة بين أبناء الريف والمدينة في الخصومات السياسية التي كانت تنشب بين الحين والآخر في دمشق ، لطبيعة الروابط القبلية التي كانت تربطهما (أبناء الريف و المدينة) مع بعضهم البعض فمثلاً في عام ١١٧٠ هـ قامت أهل العمارة مع القايي قول ضد الانكشارية البرلية وهاجمت الدرويشية وهجموا على حواصل الانكشارية الملائنة أخشاب وأحرقوها وكانت تساوي عدة أكياس مال فقامت الانكشارية على أهل العمارة وشردت أهلها ونساءها وأولادها إلى الجامع الأموي وأحرقت أسواق هذه الحارة حتى صارت ساحة سماوية فاشتد الأمر على أهل العمارة من ظلم وعدوان الانكشارية فأعانهم بالحماية الجاهلية أولاد الحلقة من الميدان ومعهم بعض رجال من الدروز^(١) . وهكذا تغلبت العصبية على ماعداها من الروابط التي تربط أبناء الحلقة بأبناء الميدان «أبناء حي واحد من دمشق» .

وعلى الرغم من وجود مصالح متبادلة بين أبناء الريف والمدينة ، كالزراعة وتربية المواشي أو حاجة الريف للعديد من الصناعات المدنية ، إلا أنه كانت لكل مجتمع من هذين

(١) انظر : حوادث دمشق اليومية . ص ٢٠٢ .

المجتمعين سماته الاقتصادية والاجتماعية المتميزة، فمدينة دمشق شأن بقية المدن الأخرى كان اقتصادها أكثر تركيزاً بطبيعة التجمع والكثافة السكانية، في حين لم يكن الريف المحيط بها في مثل هذا التركيز بل كان مشتتاً وانعكس ذلك على وضعه الاجتماعي وطبع كل مجتمع من هذين المجتمعين بصفات خاصة.

ونرصدها هذا النفور بين بين مجتمعي المدينة والريف من خلال الوقائع التي يوردها مفتي دمشق الحنفي محمد خليل المرادي، ففي النقاش الذي دار بين عبد الرحمن المنيني وفتح الله الداديجي حيث قال الأول للثاني: « كم ساعة بين داديج وحلب فأجاب الثاني بالحال مقدار ما بين قرية منين ودمشق فأفحمه وأراد أن أصلك كذلك مثلي قروي » كما يورد المرادي حادثة أخرى من هذا القبيل. إجابة المنيني المذكور لأحد تجار دمشق المشاهير ويعرف بابن الزراييلي حيث سأله قائلاً: « مولانا متى خلعتم الزراييل من أرجلكم قاصداً التنكيت عليه بأنه قروي فأجابه المنيني بالارتجال من حين تركتم صنعتها والاشتغال بها فأفحمه بالجواب^(١) ». فإن دلت هذه الحوادث التي أوردها المرادي على شيء فإنما تدل على ازدياد ابن المدينة لابن الريف في تلك الفترة من التاريخ.

وعلى الرغم من وجود حالات من اللقاء المذهبي بين أبناء مدينة دمشق والريف فقد بقي ذلك أبعد من إقامة علاقات واسعة وروابط اجتماعية متينة بينهما، وإن جرت بعض المحاولات لإقامة أية علاقة اجتماعية فقد قضى عليها (احتقار ابن المدينة للفلاح)^(٢).

وساد شعور عام لدى أبناء ريف دمشق على أن أبناء المدينة هم مصدر معظم الظلم الذي كانوا يعانون منه وربما رسخت هذه القناعة إقامة أعضاء الهيئة الحاكمة وزبائنها في المدينة.

ومن جهة أخرى، فقد بقيت الفروق الاجتماعية مهيمنة على المجتمع الدمشقي إلى مجيء الزخوف المصرية، حيث استطاعت أن تهز هذا البنيان الموروثة منذ قرون عديدة هزاً عنيفاً. ولقد شكل العقد الزماني، الذي حكم المرديون فيه دمشق وبلاد الشام، نقطة بارزة في تاريخ بلاد الشام الحديث، فقد تبدلت فيه طرق الحياة القديمة وبرزت فيه قوى جديدة، ومطامح ومخاوف جديدة، وأصاب التغيير فئات المجتمع ودرجات متفاوتة، لهذا احتل التوازن

(١) سلك الدرر . ج ٣ . ص ٢٧٦ . ترجمة فتح الله الداديجي .

(٢) انظر : جيب وبارون . المجتمع الإسلامي والغرب . ص ٢٤ . ص ١٣ .

المعهود بين البدو والحضر والقرويين وسكان المدن... الخ، فاندفع الحضر إلى السهول الداخلية وأجبر البدو على الاستقرار والتوقف عن غاراتهم على الحضر، وأصبح سكان المدن، بعد انقطاع، يمدون نشاطهم الزراعي إلى الريف والضواحي، ويشترون الأراضي أو يستأجرونها. ويقرضون المال واندمج الاقتصاد الريفي بتجارة المدينة، وقام الفرد المدني بتغيير نهج الموروث، وبقي الريفي أكثر عزلة وأقل احتكاكاً وتأثراً، وتمسك بطرقه القديمة في عالمه الصغير، وأزاحت السلطات القديمة أو كادت^(١). وذلك بتقويض أسس القيادة المحلية السابقة بانتزاع صلاحياتها وبوضعها بيد الموظفين المصريين الأقوياء، ثم قيامه بفرض التجنيد الإجباري، ونزعه السلاح من القوى التي كانت تعتمد عليها الطبقة الحاكمة في فرض نفوذها السياسي، بالإضافة إلى علمنة النظام القضائي، الذي أدى بدوره إلى حرمان هذه الفئة من الطبقة الحاكمة من مركزها المتسلط، كما لم تسمح السلطات المصرية للمعالم الشرعية بالنظر إلا في القضايا الشرعية للأفراد أو التدخل في ملكية الأرض^(٢). بالإضافة إلى تنظيم المصريين للمالية ووضعهم نظاماً جديداً للجباية ومعاملة الرعية أمام القانون بالتساوي، لافرق بين ذمي أو مسلم، كل ذلك أثر إلى حد كبير على مركز الطبقة الحاكمة السابقة، وأنعش إلى حد ما الطبقة المحكومة. ويصف هذا الحال الدكتور ميخائيل مشاققة بقوله: «اهتم وجه الضعيف للدولة المصرية لأنه شعر برفع حمل ثقيل كان يئن أنيناً حزناً تحته ولا مجير له منه وأصبح ضوت المستضعفين المتقطع يبلغ آذان الحاكم ولو على مراحل عديدة بعد أن كان يذوب بالفضاء ويتلاشى^(٣)». وهكذا استبشرت أغلبية الشعب الدمشقي التي تمثل أوسع، عدة في مجتمعا من المحكومين بالحكم المصري واستقبلوا إبراهيم باشا بفرح عظيم^(٤). إلا أن المحكومين مالوا أن يخاف أملاهم من جراء العديد من الاجراءات التي اتخذتها الحكومة المصرية، وتسببت في تضيق أسباب الرزق، كاحتكارها لبيع الحرير وتجهدها لأسعار السوق، واحتكارها لبعض المنتجات وأخذ أبنائهم إلى الخدمة الإجبارية في الجيش المصري، بالإضافة لصادرة الجمال والبغال وغيرها من الرواحل لنقل الجيش ومؤناته، واتخاذها لبعض بيوتها مآرى للجيش المصري وفرضهم لأنواع من الضرائب ورفع نسب

١ - See: Polk, William. op.cit. PP.213,214.

٢ - Maoz, Moshe. op.cit.PP.14,15.

(٣) انظر : مشهد العيان بمحادث سورية ولبنان . ص ١١١ .

٤ - Douja, George. la. Mission du paron de boisle conte cuministre.

الضرائب السابقة ونزع السلاح منهم، فضاق فكر الناس وقصر عن استيعاب إجراءات السلطة المصرية في تحديث مجتمع دمشق وكانت أكثر الإجراءات إثارة لحق هؤلاء مساواتهم بأهل الذمة وفرضهم التجنيد الإجباري. ورغم نفور الشعب الدمشقي من السلطة المصرية بسبب إجراءاتها تلك إلا أن إجراءاتها لم تذهب هدراً مع الزمن بل مهدت الطريق لتغييرات جذرية تبنتها فيما بعد السلطات العثمانية، التي أدرجت سلطتها على دمشق، وبرزت على المستوى الرسمي للدولة العثمانية في إصدارها التنظيمات الخيرية في عهد السلطان عبد المجيد، وذلك في أواخر رمضان عام ١٢٥٥هـ^(١). وتسارع تغلغل البضائع والرساميل الأوربية بعد سنة ١٨٤١م في الممتلكات العثمانية..

ولم تكن فئات الهيئة المحكومة على درجة واحدة من حيث دخلها المادي أو نفوذها السياسي أو اتساعها العددي، وحتى اضطهاد الهيئة الحاكمة عليها. بل اختلف وضع كل فئة عن الأخرى. وعلى ضوء ذلك فلنرصد تباعاً أهم هذه الفئات الاجتماعية التي تشكلت منها هيئة المحكومين في مدينة دمشق ونوردها بحسب أهميتها فيما يلي:

تجار دمشق

انضوى تجار دمشق في طوائف حرفية بحسب نوع التجارة التي مارسوها. وسبقت طوائفهم هذه في تنظيمها العهد العثماني، شأن معظم طوائف الحرف الأخرى، ولم يكن تجار دمشق على درجة واحدة من الثروة والغنى وحتى الاعتبار الاجتماعي، كما لم تكن التجارة وفقاً على أبناء مذهب ديني دون آخر في دمشق، بل كان منهم المسلمون واليهود والنصارى من الدماشقة أو من بعض الأقطار العربية أو من غير العرب المقيمين في دمشق كالفرس والأتراك والأرمن، وبعض الأوربيين في الفترة الأخيرة. وكان على التاجر أن يدفع رسماً عند تسجيله «المسلم من التجار إذا وصل رأسماله إلى ١٢٠٠ قرش والتاجر الذمي إلى ١٥٠٠ قرش»^(٢).

وغالباً ما كان لكل طائفة تجارية تنظيمها الخاص بها وشيخها المنتخب أو المعين، وكان

(١) انظر: رستم، أسد. المصدر السابق — المجلد ٤، ص ٢٧١.

(٢) انظر: سجلات الوثائق التاريخية بدمشق — المجلد ٢ الوثيقة رقم ١٢٩ و ١٣٧ ثم الوثيقة رقم ١١٦ و ١٢١/١٢٣ ص ١٤٢ و ص ١٤٣ سنة ١٢٤٧هـ.

لطوائف التجارات المختلفة ينبغى مشايخ يطلق عليه اسم (الشهبندر)، وكان له الحكم على جميع التجار وأهل الحرف والمتسبين في قضايا التجارة وقوانينها وله الأمر والنهي فيها^(١).

وعلى الرغم من أن التجار بشكل عام قد صنفوا كفئة أساسية من هيئة المحكومين، إلا أننا نلاحظ عديداً من أبناء الفئة الحاكمة قد عملت في مجال التجارة وجنت أرباحاً طائلة. وكان يأتي على رأس هؤلاء بعض ولاة دمشق كأُسعد باشا العظم الذي عمل مع شريكه يونس بتجارة الحج في مزيريب ١١٦٢هـ/ ١٧٤٨ - ١٧٤٩م^(٢)، وكذلك مفتي الأحناف حامد العمادي الذي عمل في تجارة القمح وقام باحتكاره في سنة ١١٦٢هـ/ ١٧٤٨ - ١٧٤٩م، ليحقق المرباح الطائلة من ذلك. ويعلق الإخباري أحمد البديري الحلاق على ذلك بقوله: (خزن القمح مثل الأكابر والأعيان الذين لا يخافون الرحيم الرحمن)^(٣).

ومن جهة أخرى كان على التاجر الذي يريد ممارسة مهنة التجارة أو ممارسة صناعة يبيع منتجاتها في أحد أسواق دمشق، أن يحصل على امتياز من الدولة يطلق عليه اسم (الكدك). ولم يطلق هذا التعبير في مجال التجارة إلا بعد أن فقدت هذه الكلمة ارتباطها بأدوات إحدى الحرف^(٤)، ولقد كانت كلمة الكدك معروفة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وكانت تعني آخذ حق استعمال وإيجار عقار معين بغرض انتاجي أو تجاري محدد. وكان عدد الكدكات مراقباً من قبل طوائف الحرف والتجار. كما كان مالكو الكدك من أعضاء النقابة التي تقوم بمراقبة ذلك. وكان الكدك يورث للأبناء من الآباء.

ونلاحظ ظهور النساء كمشتريات للكدك وبائعات أو وراثات له^(٥). رغم أنه ليس لدينا ما يثبت أن النساء قد مارست عمل التجارة في أسواق دمشق.

(١) انظر: الجبري، عبد الرحمن. عجائب الآثار في التراجم والأخبار — المجلد ٣. ص ٤٠٢. العبد، حسن آغا. تاريخ حسن آغا العبد، ص ١٣٨. الحاشية.

(٢) انظر: البديري. حوادث دمشق اليومية. ص ١٣٣.

(٣) المصدر السابق. ص ١٢٧.

(٤) انظر: جيب وهارون. المجتمع الإسلامي والغرب. ج ١. ص ١٣٢.

(٥) سجلات محاكم دمشق الشريعة — المجلد ٢١٣ / ص ٢٠١ و ٢٠٢ و ص ٢٩٥. ويذكر محمد أمين عابدين أن الكدك هو ما ينيه المستأجر في حانوت الوقف ولا يحسب على الوقف فيقوم المستأجر بجميع لوازمه من عمارة وترميم وأغلاق ولحو ذلك ويبيعونه بثمن كثير فياعتبار ما ينفعه المستأجر من هذا الثمن الكثير

وكانت قيمة كدك الممتلكات التجارية في دمشق، أعلى من قيمة الأرض والبناء في أغلب الأحيان ولا سيما بالنسبة للدكاكين والمستودعات خاصة عندما كانت التجارة نشطة ومربحة.

وأطلق على موجودات الحوانيت والمخازن في الأسواق اسم الكدك. وكان شاغلو هذه الحوانيت والمخازن يدفعون سنوياً أجراً معيناً للدولة. وكان من حق هؤلاء بيع امتيازهم أو التنازل عنه لأي فرد كفاء ويتم ذلك في المحكمة الشرعية وأمام القاضي ويسجل في سجلاتها.

ولقد أدلت الانكشارية البرلية بدلوها في تجارة دمشق، وكان انتزاع كدكاتها منها يسبب لها ضيقاً شديداً، ففي سنة ١١٥٥هـ/ ١٧٤٢ - ١٧٤٣م قام والي دمشق سليمان باشا العظم بمضايقة البرلية في الميدان حيث أزال عنهم كدكاتهم ووجهها على غيرهم وأعطى أسماءهم للدلال^(١) ليعلم الدلال بدوره على الملأ هذا المنع من ممارسة التجارة. ونرى أن الكدكات كانت تعني هنا الإذن أو السماح بممارسة التجارة أو الحرفة.

ومن جهة أخرى فقد كانت الغاية من إقامة التنظيمات الحرفية مراعاة الاحتساب والضوابط الأخلاقية في الأسعار، وعدم الغش ومراعاة الجودة في الإنتاج، والدفاع عن مصالح الحرفيين أيضاً، وكان المحتسب يقوم بمراقبة ذلك. ويسترعى انتباهنا في هذه الفترة غياب المحتسب المسؤول عن أسواق دمشق. وقام بمهامه القاضي وغيره من أفراد السلطة. ولم يظهر المحتسب إلا في العهد المصري. وسبب غياب المحتسب والاحتساب عن الأسواق يعود لتفسيخ الأجهزة الإدارية وضعف السلطة العامة في دمشق في هذه الفترة. الأمر الذي أدى إلى انتشار القوضى وعدم تقيد التجار بالأسعار. وجّل ما قامت به طائفتهم أن حاولت توفير الحماية لأعضائها وتوفير تدفق المرباح الكبيرة إلى جيوبهم، خاصة وأن بعض أبناء الهيئة الحاكمة قد عمل بالتجارة. فبدأ التجار يتلاعبون بالأسعار والأوزان والمقاييس، ولم يقو أبناء الشعب على ردعهم. وجّل ما استطاعته العامة في دمشق أن تجمهرت في أكثر من مناسبة

وما يبرزه في المستقبل على أرض الوقف تكون أجرة المثل تلك الأجرة قليلة التي تدفعونها وقد تكون أصل عمارة الوقف من صاحب الكدك يأخذها منه الواقف ويعمرها بها ويجعلها للمستأجر ويؤجره بإجرة قليلة وهو المسمى بالخلو. انظر: رد المحتار على الدر المختار. ج ٥. ص ٢١.

(١) البنديري. حوادث دمشق اليومية. ص ١٩.

أمام الولاة أو القضاة وسارت في مواكب معينة لتشكو ظلامتها وإذا ما آنتست من نفسها القوة ترجم القضاة بالحجارة وتقوم بمهاجمة المحكمة نفسها . ذلك لأن القضاة لم يقوموا بمهمة الاحتساب أو الضرب على يد التجار الذين كانوا يتلاعبون بقوت الشعب من خلال تلاعبهم بالأسعار والمقاييس والأوزان . فمثلاً قامت العامة في سنة ١١٥٦هـ بالهجوم على المحكمة فطردوا القاضي ونهبوا الأفران وسبب ذلك كثرة الغلاء والازدحام على الأفران^(١) .

كما قام الولاة العادلون والصدور العظام ، الذين صادف مرورهم ارتفاع الأسعار في دمشق ، بمهام المحتسب وذلك لكسب ود جنودهم والعامة في دمشق . فمثلاً في ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م تخفى الصدر الأعظم يوسف باشا ، الذي كان في دمشق قائداً للحملة العثمانية ضد نابليون بونابرت « ونزل إلى الشام وصار للخلق وهمة فبسمر خبازين وبسمر سمبوسكاني^(٢) » . إلا أن ظاهرة الغلاء وارتفاع الأسعار بشكل عام في دمشق لم يكن التجار مسؤولين عنها فحسب بل لعبت في ذلك ظروف داخلية وخارجية على مستوى الامبراطورية العثمانية ، ولم يكن البطش بالتجار والتنكيل بهم ليحل مشكلة اقتصادية عامة ومستعصية أدت بدورها إلى ارتفاع الأسعار .

وكان تعامل تجار دمشق مع زبائنهم يختلف من فرد إلى آخر ، إلا أن بعض الأجانب الذين أقاموا في دمشق يصفونهم على أنهم مخادعون . ونسوق مثلاً على ذلك (بورتر) الذي أقام فيها في سنة ١٨٥٥م إذ يقول : « يجلس التجار مفتعلين الهدوء والوقار كالأمراء وسط مخازنهم وعندما يلمحون أحد الزبائن قادماً إليهم يجهزون أنفسهم مسبقاً لحلف الأيمان الغلاظ الكاذبة على أن أسعار كلفة سلعتهم أعلى مما طلبوه من الزبون ، وقد يخسرون في بيعها ، إذا ما كان الزبون افرنجياً فإنهم يطلبون منه خمسة أضعاف ثمنها الحقيقي في حين لو دفع هذا الزبون مثلين ونصف مما طلبه التاجر لباعه إياها مع قسمه له بأنه قد خسر فيها^(٣) » . كما لم تسلم السلع التجارية من الغش أحياناً ، ويورد لنا المؤرخ الدمشقي محمد سعيد القاسمي الذي كتب عن ذلك في القرن التاسع عشر مايلى : (أن تاجر البزوهي أمتعة البيت من ثياب ونحوها غالب بضاعته مغشوشة ، وصاحب هذه الحرفة لا يثري ، لأنه لا يستعمل النصح في

(١) انظر : البديري . حوادث دمشق اليومية . ص ٤٣ .

(٢) انظر : العبد ، حسن آغا . تاريخ حسن آغا العبد . ص ٥٧ .

بيعه ، بل غالبهم يظن أن نفاق بضاعته يتم بالغش والكذب والايان الفاجرة وغير ذلك من الخداع ، فيصير آخر أمره إلى ذهاب رأسماله^(١) .

وكان من تجار دمشق من عمل في تجارة الجملة أو المفرق ومنهم من اختص بتجارة سلعة معينة كتجار الأقمشة والقطن والصوف والحرير والبز ، وهناك من تاجر بالتوابل والعطورات أو الحبوب والدقيق ، وهناك من تاجر في الأسواق الأسبوعية أو الفصلية أو السنوية ، كتجار قافلة الحج فكان منهم من يبيع للحجاج في المرحلة وداخل أسواق دمشق أو على طريق الحج كمزريب ومهائن صالح وبعض قلاع طريق الحج وفي الديار المقدسة نفسها . كما كان من التجار من هو صانع للسلعة التي يبيعها . وكان بعض التجار محط أطماع الولاة للاستدانة والابتزاز . ومع ذلك كان حال التجار أفضل من الفلاحين حيث كان الأخيرون موضع ابتزاز السلطة الحاكمة في معظم الأحيان^(٢) . ولقد وفر الحماية للتجار دخول العديد من عناصر الهيئة الحاكمة تحت لواء التجارة . كالانكشارية اليرلية والولاة وبعض القضاة والمفتين .

ورغم ماكانت تعانيه مدن بلاد الشام من الناحية الاقتصادية في تلك الفترة ، إلا أن دمشق بقيت في وضع أفضل من بقية تلك المدن . حيث استمرت ميناءً داخلياً لقوافل تجارة فارس والهند^(٣)

وكانت بضائع هذه البلدان تشكل جانباً هاماً من قافلة بغداد ، التي أصبحت تتجه إلى دمشق بدلاً من مدينة حلب ، نتيجة لانهيار تجارة حلب بفعل عوامل عدة أهمها : تدهور العلاقات الفرنسية العثمانية بفعل غزو نابليون لمصر ، وبالتالي لسوء معاملة الفرنسيين في حلب ، الذين كانوا يسيطرون على جانب هام من تجارتها الخارجية ، ثم تزايد الفوضى في تلك المدينة نتيجة للصراع الدموي بين الانكشارية والأشراف ، وانعكاس ذلك بشكل سلبي على تجارتها واقتصادها ، ثم تعرض هذه المدينة للأوبئة والطواعين . ومثل ذروة المصائب الاقتصادية التي أصابتها الزلزال الذي ضربها سنة ١٨٢٢م ، حيث دمر قسماً كبيراً من أسواقها . كل ذلك جعل مدينة دمشق بديلة عنها ودخلت في ارتباط تجاري مباشر مع بغداد^(٤) . كما دخلت

(١) انظر : قاموس الصناعات الشامية . ج ١ ص ٤٣ .

2 - Volney. Voyage en egypte et en Syrie. P.381.

3 - Porter. op.cit. VOL.1.PP.147.148.

(٤) انظر : الحسني ، علي . تاريخ سورية الاقتصادي . ص ١٧٢ . ثم كرد علي ، محمد . خطط الشام . ج ٤ . ص ٢٧٠ .

دمشق في تجارتها الخارجية مع أرمينيا، هذا بالإضافة إلى تجارة قافلة الحج التي كانت تهتم بها بشكل خاص الدولة العثمانية لأنها تحقق سمعة دينية جيدة .

وفي نهاية القرن الثامن عشر كان في دمشق قوافل منتظمة تربطها بالمدن الساحلية والداخلية . وكانت تجارتها مع المدن الساحلية يسيطر عليها التجار الفرنسيون والإنجليز والأرمن، وأحياناً اليهود، ونادراً ما نرى في هذه المدن الساحلية تجاراً مسلمين يقومون بالتجارة مع أوروبا، ذلك لأن العثمانيين فرضوا ضريبة المكوس على التجار الأتراك، وكانت مرتفعة تتراوح ما بين ٧ — ١٠٪. على حين لم يفرضوا على التجار الإنجليز وعلى حمايتهم (براعتية) من السوريين أكثر من ٢٪. ناهيك عن أن هؤلاء (الحمايات) كانوا إذا مانشب خلاف تجاري بينهم وبين أي طرف آخر كانت تنظر في أمرهم بحكم قناصلهم^(١). ومن جهة أخرى لم يكن في دمشق إلا قلة من التجار الأوربيين . وكان يأتي على رأسهم الفرنسيون . وكان هناك تاجر واحد إنكليزي وهو (المستر روبرت وود)، وكان رحمه لا يتجاوز ٧٪. ولم يعامله الدمشقيون معاملة حسنة^(٢).

وبقي الحال كذلك إلى دخول إبراهيم باشا المصري إلى دمشق، حيث تغير الحال بعد ذلك كثيراً فتدفق العديد من التجار الأوربيين إليها بمعية قناصلهم . وأنشئت في دمشق محكمة تجارية للبت في الخصومات بين التجار . وحلت بذلك محل المحاكم الشرعية العادية .

كانت القضية تحال إلى الاستانة الطرفان المتخاصمان من رعايا الدولة العثمانية، وكان المبلغ لا يتجاوز ٤٠٠ قرش، أو إذا كان أحد المتخاصمين من رعايا إحدى الدول الأجنبية ودولته داخلية في معاهدة تجارية مع العثمانيين وكان المبلغ يربو على ٤٠٠ قرش، وينظر فيها بإشراف المصدر الأعظم الذي يُنيب عنه شهيندر التاجر في الاستانة . وكان شهيندر دمشق يحاول فض النزاع قبل إحالتها إلى استانبول .

1 - Volney.op.cit.P.382.

2 - Douin .G. op.cit. Troisieme partie.P.256.

ولم يكن دوان أن ميناء صيدا بقي الميناء الرئيس لمدينة دمشق حتى وصول الحملة الفرنسية إلى فلسطين ولم تكن بيروت ذات أهمية في تجارة دمشق لقلة سكانها وقلة مستودعاتها، وخصوصاً طريقها عبر الجبل الذي كان محفوفاً بالخطاطر، إلا أن أهميتها زادت في ظل الحكم المصري وأصبحت مركز الاستيراد الرئيسي، وارتفع وزن حمولة ما يصلها من السلع والبضائع من ٥ مليون طن إلى ١١ مليون طن سنوياً . ولم تفقد صيدا أهميتها في هذه الفترة بالنسبة لدمشق نتيجة لما أدخله المصريون من تحسينات . انظر : EGUIN. Ibid.

ولقد تضاعفت أرباح مدينة دمشق من التجارة الخارجية ، نتيجة لبيعها سلعاً آسيوية أكثر من بيعها سلعاً أوروبية واستخدمت دمشق سنة ١٨٢٥م في نقل البضائع التجارية ٥٣٣٣٦ جمل و ٢٢٨٧ بغل . والجدول التالي يوضح لنا حجم تجارة دمشق الخارجية وعدد القوافل وعدد الحيوانات المستخدمة فيها . وأثمان السلع التجارية المحمولة إليها :

المدينة	القافلة	الجمال	البغال	التمن بالفرنكات	
بغداد	١	٣٤٤٠	—	٨٨٧٠.٠٠٠	فرنك
مكة	١	٣٢٠	—	٢٨١٠.٠٠٠	فرنك
القسطنطينية	٣	—	٢٦٤	٢٤٣٧.٠٠٠	فرنك
أرزروم	١	—	١٢٠	٧٧٠.٠٠٠	فرنك
أزمير	٣	—	١٤٨	٦٤١.٠٠٠	فرنك

تجارة دمشق مع المناطق الداخلية والساحلية

المدينة	القافلة	الجمال	البغال	التمن بالفرنكات	
حلب	١١	٤٧٨	٣٠٣	٥١٠.٠٠٠	فرنك
نابلس	١٢	٥١٥	٤٢	٤٣٢.٠٠٠	فرنك
بيروت	٥١	٥١٤	٩٨٦	٩٩١.٠٠٠	فرنك
صيدا	١٨	٥١٤	١٦٩	٢٣٢.٠٠٠	فرنك
طرابلس	٤	٥١٤	٦١	١٥٠.٠٠٠	فرنك
عكا	٦	٥١٤	٦٩	٣٦٠.٠٠٠	فرنك
صور	٥	—	٦٣	٧٣.٠٠	فرنك
المجموع العام/١٢٤	٥١٢٤٦	٥٤٢٦	٢٢٣١	١٨٥٢٣٣.٠٠	فرنك ^(١)

ورغم الحذر في قبول هذه الأرقام ، إلا أنها بشكل عام تعطينا فكرة عن حجم تجارة دمشق الخارجية والداخلية في تلك الفترة . والملاحظ هنا ازدياد تجارة بغداد مع دمشق ، حيث أرسلت في عام ١٨٢٦م ثلاث قوافل مؤلفة من ٤٧٤٤ جملاً . قدرت قيمة حملتها بـ

1 - Douin, G. op.cit. Troisième partie. P.254.

/١٠٧٠٠٠ فرنك. وقبل الاحتلال المصري لدمشق اهتم الانكليز بالتجارة في بلاد الشام، فطلبوا من الباب العالي إقامة قنصلية لهم في دمشق، في الوقت الذي لم يكن لدول أوروبا من قنصل فيها سوى وكيل قنصل لفرنسا. وبدخول المصريين رفع الحظر عن الممثلين والقناصل الأوربيين وإقامتهم في دمشق^(١). وقام ابراهيم باشا المصري بتشجيع إقامة الأجانب، وتنشيط تجارتهم، فيها حيث خفض الرسوم على بضائعهم، وكان مايدفعونه من رسوم دون مايدفعه تجار دمشق أنفسهم، مما دفع بالآخرين للحصول على حماية القناصل الأجانب فيها للتهرب من دفع الضرائب والحصول على مايمتاز به الأجانب^(٢). وأدخل الحكم المصري تحسينات عدة على وسائل المواصلات والنقل والموانئ، وتدخل محمد علي باشا بنفسه في شؤون التجارة الأجنبية، خاصة فيما يتعلق بالتجارة الفرنسية ببلاد الشام، التي مالبت أن تطورت فيما بعد^(٣).

والإسهام الآخر في تنشيط التجارة الذي قام به ابراهيم باشا هو توفير الحماية للمال والأرواح للناس جميعاً، مما دفع بالتجار لإظهار أموالهم التي كانت مخبأة في العهد العثماني، وذلك خوفاً من البلس والسلب والتعدي^(٤) فوفر للسوق سيولة نقدية وأسهمت في تنشيط حركة التجارة وقام الحكم المصري بإعادة المحتسب إلى الأسواق التي كان غائبا عنها منذ مدة طويلة، وعمل إلى جانب المحتسب مندوب من التجار، ولتسعر السلع التجارية ومراقبة الأسواق، وكان التكليف بهذه المهمة من قبل المجلس الاستشاري. واشترط الحكم المصري بالمحتسب أن يكون أخلاقياً ودينياً. كما قام المصريون بترميم العديد من الدكاكين لاستخدامها في التجارة^(٥).

وبلغ عدد المؤسسات التجارية في دمشق سنة ١٨٣٨م (٦٦ مؤسسة تجارية إسلامية)، دخلت في تجارتها مع الخارج، وقدر رأسمالها ما بين (٢٠ — ٢٥ مليون قرش)، ومن بين أصحاب هذه المؤسسات التجارية ثمانية تجار رأس مال كل واحد منهم مليون

1 - Ibid. PP.255.227.261.

2 - Bowring, John, report on the commercial statistics of Syria, part.1.P.94.

3 - Douin, opcit, PP/253.254.

(٤) .. انظر: الصايغ، فتح الله. المقرب في حوادث الحضر والعرب، ص ١٧٧.

(٥) انظر: رسم، أسد. المصدر السابق — المجلد ٣ — ٤. ص ١٨٥ و ص ١٩٣ و ص ١٩٥.

قرش . وأبرز هؤلاء التجار عبد الرحمن هاشم ومحمود آغا البغدادي اللذان دخلا في تجارتها الخارجية مع بغداد ، وكان رأسمالهما ما بين (١٥ إلى ١٢ مليون قرش)^(١) .

وفي سنة ١٢٤٥ - ١٢٤٧ هـ / ١٨٢٩ - ١٨٣٢ م كان من تجار دمشق البارزين مع الخارج كل من : الحاج محمد صالح صواف زادة الذي كان شهنذر التجار^(٢) ، ثم السيد مصطفى السمان الذي كان مقيماً في الاستانة وعين له وكيلاً في خان الزعفران في دمشق علي زاهدة^(٣) ، ثم مصطفى الادلي وعبد الرحمن بايزيد الحلبي الذي أقام في خان الحماصنة^(٤) ، والسيد محمد طاهر الحريري الذي أقام في الاستانة وكان وكيلاً عنه في خان الجمرك السيد محمد الادلي^(٥) ، ثم أحمد قزيبا الذي أقام في خان السفرجلاني^(٦) وسليمان فارحي سيف^(٧) ، ثم حنا جبزا عنحوري الذي أقام في خان العامود^(٨) ، ومحمد نجيب العقادة الذي كان مقيماً في خان المرادنة^(٩) ، ومحمد قصاب حسن في خان الزعفران^(١٠) ، والحاج محمد سبانو ولقد عين وكيلاً عنه السيد طالب غيرة^(١١) ، ثم سليم بن سان كرمونة الذي أقام في خان النجمة في الاستانة وكان وكيلاً عنه في دمشق أبراهام بن عبد الله^(١٢) ، ثم الحاج بكر قباقيب الذي أقام في خان اللار بالأستانة وكان وكيلاً عنه الشيخ عباس سليق وأقام الأخير في خان الزيت^(١٣) . والسيد شاكر بلال الذي أقام في خان الزعفران^(١٤) ، والسيد عبد الرحمن

1 - Bowring. John. opcit. part.1. P.94.

(٢) انظر : سجلات الوثائق التاريخية في المتحف الوطني بدمشق — المجلد ٢ الوثيقة ٥٤/ص ٥٩ و ص ٦٠

ص ٦١ .

(٣) المصدر السابق — الوثيقة رقم ٥٨/ص ٦٤ .

(٤) المصدر السابق — الوثيقة رقم ٨٩/ص ٩٠ و ص ٩١ .

(٥) المصدر السابق — الوثيقة رقم ٩٠/ص ٩٠ و ص ٩١ و ص ٩٤ .

(٦) المصدر السابق — الوثيقة رقم ٩١/ص ٩٥ .

(٧) المصدر السابق الوثيقة رقم ٩٧/ص ١٠١ و ص ١٠٣ . ثم الوثيقة رقم ١١٥/ص ١١٦ و ص ١٢٣ .

(٨) المصدر السابق — الوثيقة رقم ٩٩/ص ١٠٤ و ص ١٠٦ .

(٩) المصدر السابق — الوثيقة رقم ١٥٢/ص ١٤٩ و ص ١٥٠ ثم الوثيقة رقم ١٠٧/ص ١١٢ .

(١٠) المصدر السابق — الوثيقة رقم ١٣٥/ص ١٥٠ و ص ١٥١ و ص ١٥٢ .

(١١) المصدر السابق — الوثيقة رقم ١٥٥/ص ١٥٣ عام ١٢٤٧ هـ .

(١٢) المصدر السابق — الوثيقة رقم ١٤٣/ص ١٤٢ عام ١٢٤٧ هـ .

(١٣) المصدر السابق — الوثيقة رقم ١٢٧/ص ١٢٨ لعام ١٢٤٦ هـ .

(١٤) المصدر السابق — الوثيقة رقم ١٢٨/ص ١٢٩ و ص ٣١ و ص ١٣١ .

خانجي الذي أقام في خان الزعفران^(١) أيضاً . والحاج محمد القوتلي وكان وكيله في دمشق أحمد العريسي وأقام الأول في بيروت^(٢) .

أما الفئة الثانية من التجار فكانت أقل غنى من الفئة السابقة ودخلت في تجارتها مع القسطنطينية وأزمير والقاهرة والاسكندرية ، وبلغ عدد هذه البيوت عشرين بيتاً تجارياً ، ودخل بعضهم في تجارته مع الحجاز (مكة والمدينة) ومع القدس ونابلس ، ولكنهم كانوا قلة ولقد امتد تجار دمشق في تجارتهم إلى جزر الهند الشرقية^(٣) .

ولم يكن هؤلاء التجار الكبار المسلمون دمشقيين فحسب بل كانوا من استانبول أو بغداد أو غيرها . فمثلاً سليم آغا بن السقا أميني الذي كان تاجراً مشهوراً في دمشق عام ١٨٣٠م ، وكذلك جاسم آغا البقيلي البغدادي الذي ضمن ضريبة الصليان من الدولة العثمانية عندما حاولت فرضها على الدماشقة على يد والي دمشق محمد سليم باشا . وفقد هذا التاجر حياته في الصالحية من دمشق على يد اليرلية الثائرة^(٤) .

أما تجار دمشق المسيحيون فقد بلغ عدد بيوتهم التجارية البارزة ٢٩ / بيتاً . وبلغ رأسمال هؤلاء التجار ما بين (٤٥ — ٥٥) مليون قرش . وكان أغناهم على الإطلاق (حنا عنجوري) حيث بلغ رأسماله الشخصي ما بين (١٥ — ٢) مليون قرش وقد دخل في تجارته مع انكلترا وفرنسا وإيطاليا ، وعمل أفراد أسرته بدورهم في تجارة دمشق الداخلية وكانوا أغنى تجار النصارى فيها على الإطلاق .

أما تجار دمشق اليهود فكانوا أغنى تجارها على الإطلاق على اختلاف مذاهبهم . ولقد بلغ عدد بيوتهم التجارية الشهيرة ٢٤ بيتاً ، وبلغ مجموع رأسمالهم ما بين (١٨ — ٢٦) مليون قرش ، وكان المعدل الوسطي لرأسمال كل تاجر منهم يتراوح ما بين (٦٠٠ — ٧٠٠) ليرة ذهبية استرلينية . وكان من بينهم تسعة تجار ، رأس مال كل واحد منهم ما بين مليون ومليون ونصف من القروش ، وكان لأكبر بيوتهم التجارية علاقة قوية مع إنكلترا^(٥) .

(١) المصدر السابق — الوثيقة رقم ١٣٠ / ص ١٣٠ و ص ١٣٣ لعام ١٢٤٧هـ .

(٢) المصدر السابق الوثيقة رقم ١٤٨ و ١٤٧ لعام ١٢٤٧هـ .

3 - Douin, G. op.cit. PP.267-270.

(٤) انظر : مجهول . مذكرات تاريخية . ص ١٧ و ص ١٨ و ص ٢٠ .

5 - Bowring, John. op.cit. part. I. P.94.

أما قوافل التجارة فكانت تستخدم في نقلها الجمال والبغال في الغالب. وكانت تفضل الجمال في المناطق الصحراوية أما البغال فكانت تستخدم في المناطق الوعرة. وكان يقود القافلة المكارى الخبير بالطرق والأماكن الآمنة منها، وأماكن الاستراحات ومصادر المياه خاصة في البوادي والصحارى. وكانت تقدم هذه القوافل العطايا والهدايا للبدو لضمان سلامتها. كما أدخل البدو أنفسهم في عملية النقل باستخدام جمالهم أو في حماية القافلة أو في إرشادها. ومع ذلك فقد تعرضت بعض قوافل دمشق التجارية لاعتداء البدو، ففي عام ١١٥٦هـ/ ١٧٤٤م «أخذ العرب قافلة بغداد وكان بها من الأموال ما لا يحصى بقلم ومن جعلتها هدية وافية من حضرة سليمان باشا والي الشام إلى أحمد باشا ابن حسين باشا والي بغداد»^(١). وتعرضت أيضاً هذه القافلة للنهب على يد البدو في ١١٨٧هـ/ ١٧٧٢م، (وكان بها أرزاق غير محصية. كما نهبت قافلة مكة وأتت بذلك قبائل عنزة. وصار من جراء ذلك وقوف حال وذل في الشام).^(٢).

ولقد شارك البدو في تزويد قوافل التجارة بالابل عدد من المكارية الدماشقة، فكان الواحد منهم يملك ما بين (٥ — ١٠) من الابل والدواب الأخرى يؤجرها للتجار والبوايكة والخاناتية^(٣).

ولقد أرسل بعض تجار دمشق عبيدهم وماليكهم كمرافقين لبضائعهم ضمن هذه القوافل. وكان هؤلاء مسلحين بالأسلحة المختلفة للدفاع عنها، فيما إذا دومت من قطاع الطرق أو البدو.

وكان سفر المكارية بمواعيد منتظمة. وكان بعض المسافرين العاديين بين دمشق وغيرها من المدن يستغلون القافلة المنطلقة منها إلى هذه المدن ليسيروا ضمنها حفاظاً على مالهم وحالهم من الأخطار التي قد يتعرضون لها فيما لو سافروا فرادى أو قلة. وكان المكارية يتحكمون بدقة في خطط سير القوافل واستراحاتها، خاصة في المناطق التي تقع على أطراف البادية أو في المناطق الجبلية الوعرة. وكان على الجميع أن ينصاعوا لأوامر المكارى، حتى برز في دمشق مثل يقول: (هي ليلة يامكارى) وهذا المثل يضرب على الصبر على المكارة. كما

(١) انظر: ألبديري. حوادث دمشق اليومية. ص ٤٤.

(٢) انظر: الدمشقي، ميخائيل بريك. تاريخ الشام. ص ١٠١.

(٣) انظر: القاسمي، محمد سعيد. قاموس الصناعات الشامية. ج ٢، ص ٤٦٦.

كان بعض التجار الدماشقة يسافرون بصحبة بضائعهم المصدرة، أو يسافرون إلى مصادر إنتاج البضائع التي يريدون استيرادها، وذلك لشراؤها بأثمان مناسبة من جهة، ولحفاظها عليها إبان نقلها إلى دمشق من التلف من جهة أخرى، فيحققوا بذلك مرباح كبيرة^(١)، إلا أن بعضها كان يذهب إلى جيوب الحكام المحليين. وكان هؤلاء يبتزون التجار عند كل سائحة وبارحة فمثلاً في عهد الجزار في سنة ١٢١٨هـ / ١٧٩٦ - ١٧٩٧م قام زبانية من جنود السكبان والدالاتية باعتقال كبار تجار دمشق وفرضوا عليهم أموالاً كثيرة، وكان من بين التجار محمد الصواف وأمين القباقي وابن شحادة، كما أرسل بعضهم إلى عكا، ولم يخل سبيلهم إلا بعد أن دفعوا ما فرض عليهم من المبالغ الضخمة. وفرض على التجار في دمشق تجهيز قافلة الحج الشامي، وتوفير المال اللازم لها عندما تحدث الإضطرابات السياسية أو تسوء المواسم الزراعية. فمثلاً والي دمشق ولي الدين باشا فرض على تجار دمشق / ١٠٠٠,٠٠٠ / قرش لهذه الغاية، حيث عجزت مواسم فلسطين عن تموين وتمويل القافلة لسوئها في ذلك العام^(٢).

وعلى الرغم من هذه الظواهر السلبية بالنسبة لتجار دمشق فإن أوضاعهم كانت ممتازة رغم ما أحاط بدمشق من ظروف سياسية واقتصادية سيئة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. ولقد برزت بمجيء الحكم المصري إلى دمشق في سنة ١٨٣١م. وعلى امتداد عقد من الزمن حقائق اقتصادية عميقة وهامة أثرت بدورها على البنى الاجتماعية في دمشق وبلاد الشام.

قامت السلطات المصرية بتشجيع الزراعة إلا أنها زراعات مخصصة سلعها للتجارة، كالزيتون والحرير والقطن، وقامت باحتكار تجارتها لدعم الاقتصاد المصري، وقيدت نشاط التجار الأجانب الذين أنشأوا سوقاً للمحاصيل خصوصية. وأنشأ الجيش المصري سوقاً خاصة وضخمة للقمح والثياب والخشب لسد حاجته. فأسهم ذلك في النشاط التجاري وزاد من التخصيص من جهة أخرى.

ونتج عن هذا أن اهتم المزارعون بإنتاج سلع زراعية فاضة عن حاجة الاستهلاك المحلي

(١) انظر: فولني، نقلاً عن السيوفي، حبيب. سورية ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. ج ٢ ص ٨٣ و ٩٤.

2 - See: Koury, George. opcit. P.180.

واحتاجت لسوق خارجية لتسويقها، واضطر المزارعون أن يعتمدوا في انتاجهم على صنف واحد مخالفين بذلك ما اعتادوه قبل الفتح المصري من زراعة مايكفيهم ذاتياً من المنتجات، وأدى ذلك إلى شرائهم السلع الغريبة (الأوربية) لسد حاجتهم من السلع الأخرى، كما فعلت مصر نفسها. ومارس الأوربيون ضغوطاً كبيرة للحصول على تسهيلات تجارية لبضائعهم، خاصة وأن هذه الفترة شهدت توسعاً كبيراً في التجارة الانكليزية. ووصلت المنافسة في منسوجات مانشستر وبرمنغهام للمنسوجات السورية ذروتها. ولم تقو الأخيرة على الصمود فانهارت أمام ضرباتها القوية. كما لم تستطع سورية أن تنتج إلا القليل مما تريده أوروبا أو تقدم سلعاً أجود من السلع الأوربية.

وقام رأس المال الأوربي بتأليل غزل الحرير المحلي ليصلح للصناعة الأوربية عند تصديره. وأجبر السوريون على الاستيراد بالنقد بدلاً من المقايضة، كما كان يجري في السابق^(١)، خاصة مع الانكليز. وأدى ذلك إلى هجرة المعادن الثمينة من دمشق وبلاد الشام والدولة العثمانية.

وأدى ذلك إلى تضخم نقدي بدخول المعادن الحسيسة إلى النقود المسكوكة، مما نتج عنه ارتفاع كبير في الأسعار.

واستطاع التجار الأوربيون مع عملائهم، بعد كسرهم القيود المفروضة^(٢) على تجارتهم، من السيطرة على التجارة في سورية، وتوقف تجار دمشق عن التعامل مع الشرق تقريباً لانعكاس حركة التجارة (من الساحل إلى الداخل). وبقيت مشاغل وأنوال الحرفيين تنتج بعض السلع والأنسجة لسد حاجة أبناء الريف بأدواتهم البسيطة الموروثة عن السلف. وبقيت بعض الأقمشة تحاك وتخاط في القرى نفسها للاستعمال المحلي. إلا أن الثياب الفلاحية الثمينة التي تلبس في المناسبات الهامة كانت تشتري من مراكز المقاطعات أو المدن

1 - See: Polk, William, opcit. PP. 161, 223.

(٢) يقول الدكتور عبد الكريم رافق: لقد استاءت الدول الأوربية وخاصة بريطانيا من القيود التي فرضها ابراهيم باشا في بلاد الشام على التجارة الخارجية وكذلك من إعادته نظام احتكار الموارد الذي اتبعه كما في مصر وفرضه الأسعار التي يريدونها. وبيعه السلع لمن يحب خاصة وأن نشاط الزراعة في بلاد الشام أثر الاستقرار الذي حققه المصريون في أول عهدهم قد زاد من الإنتاج وبالتالي ومنتهى التجار الأجانب في المتاجر مع بلاد الشام واضطرت شدة احتياج الدول الغربية وخاصة الانكليز محمد علي إلى إلغاء الاحتكار في سنة ١٨٣٦م وفي سنة ١٨٣٨م وقعت بريطانيا معاهدة تجارية مع السلطان ولكن محمد علي رفض تطبيقها في المناطق التي يسيطر عليها مما زاد في عداوة الانكليز له. انظر: العرب والعثمانيون. ص ٤٠٩.

المجاورة^(١). ولقد انصب اهتمام صناعة النسيج البهطاني على حياكة الأقمشة الرمادية التي تخط منها الثياب الوطنية الطويلة .

وبرز نتيجة لذلك ، تجار جدد ، تعاملوا مع السلع الأوربية والقناصل ، وكان على رأس هؤلاء تجار مسيحيون وغيرهم ، وزاد ذلك في ثرائهم في حين وقع تجار السلع الشرقية السابقون في عجز ، ونقلوا في الفترة اللاحقة للحكم المصري ، إلى مجالات اقتصادية أخرى ليحافظوا بذلك على سوية دخولهم المرتفعة ، فزادوا من شرائهم للأراضي ، وأقرضوا الفلاحين المحتاجين الأموال بالفائدة^(٢) . وقام بعضهم بالاتجار بالسلع الأوربية . وحتى البدو الذين كانوا يلعبون دوراً اقتصادياً هاماً في نقل وحماية قوافل التجارة بغداد والشرق ، بدأوا يلعبون دوراً مماثلاً في نقل التجارة الأوربية بشكل معكوس ويقول بولك : « هناك مجموعات قبلية صحراوية يعتقد أنها تعد حوالي ٢٠٠ / ألف رجل عاشت على البضائع البريطانية »^(٣) . ومهما يكن من أمر فإن الفترة التي أعقبت الحكم المصري قد شهدت دخول الرأسمال الأجنبي إلى بلاد الشام وغيرها من المناطق العثمانية ، وبدأ الاستعمار الغربي الفعلي وانعكس ذلك بشكل فعال على الوضع الاقتصادي والبنى الاجتماعية .

الحرفيون وطوائفهم

أورد محمد سعيد القاسمي ، وهو أحد علماء دمشق ، الذي عاش حتى أوائل القرن التاسع عشر / ٤٣٥ / صنعة فيها وقد ميّز بين الصناعة والحرفة بقوله « إن الانسان إذا سعى في تحصيل مايعيش به ، جعل له سبباً فإذا كان السبب عمل يده فهو الصناعة وإلا فهي الحرفة وقال إنه من الحرف ما هو ضروري كالزراعة والبناء والخياطة والتجارة والحياكة ، ومنها ما هو شريف كالتوليد والكتابة والطب الخ . وما سوى ذلك من الصنائع والحرف فهي متشابهة وممتنة في الغالب^(٤) » إلا أن مايمتتا هنا هي التنظيمات الحرفية كظاهرة اجتماعية واقتصادية وسياسية ، فمن المعلوم أن العديد من الصناعيين والحرفيين في دمشق كانوا ينضون في

1 - Polk. PP.166.161.

(٢) كانت معدلات الربح قبل ١٨٣٠م لا تزيد في حدودها القصوى عن ٢٠٪ في حين بلغت في نهاية الحكم المصري معدلات مدمرة حيث تراوحت ما بين ٣٥ — ٤٠٪ انظر : المرجع السابق PoLK.225.

| 3 - Polk. Ibid.P.224

(٤) انظر : قاموس الصناعات الشامية . ج ١ . ص ٥ و ص ٢٨ و ص ٣٠ .

تنظيمات حرفية خاصة بهم. أما أصول هذه التنظيمات الحرفية فتعود إلى عهود قديمة، ويعتقد أنها برزت في العهد الفاطمي لتسهيل على الفاطميين الدعوة لأفكارهم في صفوف الحرفيين، وهذا أخذت صفة سياسية بالإضافة إلى مهامها الاقتصادية والاجتماعية. وبزوال الدولة الفاطمية الشيعية برزت الدويلات السنية، فالتفتت هذه الدويلات إلى هذه التنظيمات واحتوتها بوضعها تحت إشرافها، لتبعد عنها الدعوة القرمطية المناهضة للسنة، ووضعت المحتسب ليصرف عليها وكان الصق الموظفين بالأسواق^(١).

ولقد بلغت الطوائف الحرفية درجة كبيرة من التنظيم في الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية. إلا أن هذه الطوائف لم تكن متساوية العدد، كما لم يستمر معظمها إلى فترة دراستنا من العهد ثنائي، فبعضها انقرض مع الزمن أو تضاعف شأنه بتناقص الحاجة إلى منتجاته، في حين أن البعض الآخر قد ازدهر وتعددت أنواعه، لازدياد الحاجة إليه. فمثلاً في دمشق وفي الربع الأول من القرن الثامن عشر «ظهرت طائفة الطواقية الذين يشتغلون الطواقي للقوالب. وبطلت ثلاث طوائف مقابل ذلك هي طائفة الطواقي الزربا، وطائفة الزرباوية، وطائفة طواقي الخمل»^(٢).

وتميز التنظيم الحرفي بالتخصص وتوزيع العمل، فهناك طوائف عنيت بالانتاج وأخرى بالخدمات وثالثة بالتسويق وهكذا. ولقد أورد جمال الدين يوسف بن عبد الهادي المعروف بابن المبرد الدمشقي، الذي عاش في القرن العاشر للهجرة، ذكراً لـ ١٠٢ / حرفة في دمشق مع تفرعاتها في كتابه الحسبة، إلا أنه لم يذكر لنا عدد من دخل من هذه الحرف في تنظيمات حرفية، إضافة إلى ذلك فإن العديد من هذه الحرف التي ذكرها قد انقرضت مع الزمن وبرز غيرها من الطوائف الحرفية^(٣).

ولكن بمطالعة سجلات محاكم دمشق الشرعية لفترة دراستنا، وغيرها من المراجع، نرصد عدداً كبيراً من الطوائف الحرفية. ويجب الاعتراف بأن هذه الطوائف التي تلمسناها لم

(١) انظر: زيادة، نقولا. الحسبة والمحتسب في الإسلام. ص ٣٢.

(٢) انظر: رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية. العدد ٤. ص ٣١.

(٣) انظر: الزيات، حبيب. مقالة له حول كتاب الطباخة من ضمنه كتاب الحسبة في مجلة المشرق — العدد

٣٥ / ص ٣٨٤ إلى ص ٣٩٠.

تكن وحدها التي تعمل في دمشق بل ربما غاب عنا العديد منها ، وما استطعنا رصدده منها بلغ
٢٩٤ / طائفة تقريباً وهم :

الأبارون — الأديون — الأساكفة — الأشجية — الأقساموية (البقساموية)
— الأمشاطية^(١) — الأطرقجية — الأركلجية — الأكمكجية^(٢) — الالاجاتية الأساورية^(٣)
البارودية بائعو البن بائعو جلال الخليل (الجليالية) بائعو السختيان الملون بائعو العبي بائعو
لحم الجاموس — بائعو النعال البذورون^(٤) البوابجية^(٥) البندقجية^(٦) والبطاينية^(٧) البيزراتية
البويعية البسانتية^(٨) البغجاتية وبائعو الزبيب — البوشية — البلطجية البوقسماطية^(٩) البوايكية
والبياطرة — البرادعية^(١٠) البغالة والبقارون — البقالون البوزجية بنات الهوى^(١١) التكجيون
التدكرجيون^(١٢) التنوريون^(١٣) التخنرونجية التوتنجية^(١٤) التتكجيون التتكجيون^(١٥) الجراكسية
الجراحون^(١٦) .

- (١) انظر : رافق ، عبد الكريم . مقالته في مجلة دراسات تاريخية تحت عنوان (مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني) العدد الرابع . ص ٣٢ و ص ٣٣ دمشق نيسان ١٩٨١ م .
- (٢) انظر سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / سنة ١٢٢١ — ١٢٠٣ هـ . ص ٣٢٥ . ثم : سجلها رقم ٢٤٠ / ١٢١١ — ١٢١٦ هـ . ص ١٦٥ . ثم : سجلها رقم ٣٢٤ / ١٢٤٧ هـ . ص ٧٢ .
- (٣) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ / ١٢٦٤ — ١٢٦٥ هـ . ص ٢٧ و ص ٧٧ .
- (٤) رافق ، عبد الكريم . المرجع السابق . ص ٣٢ .
- (٥) سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ / ١٢٠١ — ١٢٠٢ هـ . ص ١٨٤ .
- (٦) سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦ / ص ٩١ و ص ٣٣٢ .
- (٧) سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ١٢٠١ — ١٢٠٣ هـ . ص ١٨٤ .
- (٨) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ١٢١٦ — ١٢١٧ هـ . ص ١٤١ و ص ٢٧١ .
- (٩) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ / ١٢٦٤ — ١٢٦٥ هـ . ص ٤ و ص ٧٤ و ص ٢٣٢ و ص ٦٢ .
- (١٠) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ١٢١٦ — ١٢١٧ هـ . ص ١٩٠ و ص ١٠٧ ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ص ٢٧٥ .
- (١١) انظر : رافق ، عبد الكريم . المرجع السابق . ص ٣٢ . ثم انظر العبد ، حسن آغا . (تاريخه) . ص ١٣٩ .
- (١٢) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ / ١٢٠١ — ١٢٠٢ هـ . ص ٤٢٩ و ص ٤٧٢ .
- (١٣) انظر سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ / ص ٢٦٢ و ص ١٦٤ .
- (١٤) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ص ٣٠٨ و ص ٣٥٥ .
- (١٥) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ / ١٢٦٤ — ١٢٦٥ هـ . ص ٨١ .
- (١٦) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ١٢١٦ — ١٢١٧ هـ . ص ٤٤ .

الجمالون^(١) الجبانون والجنباظون^(٢) الجعيدون^(٣) الجوهريون^(٤) الجزماتيون الجفانون^(٥)
 الحفارون الخطابون^(٦) الحدادون^(٧) الحسكيون الحمامية^(٨) الحكواتيون المحارون^(٩) الجبالون
 الحلوانية والحوارية والحواصلية^(١٠) الحزيرانية الحناوية^(١١) الحمصانيون^(١٢) الحريريون^(١٣)
 الحياكون^(١٤) الحوريون (بائعو الجلد الحور)^(١٥) الحبوباتية^(١٦) الخلايجون والحشاشون
 والحصاصون^(١٧) الخاناتية والخبازون أو الخوامون^(١٨) الخيميون الحزيرانيون الختانون^(١٩)
 الخشافون^(٢٠) الخياطون والخراطون^(٢١) الخرامون والخروجية الخشابون والخضرجية الخفافون^(٢٢)

- (١) انظر: رافق، عبد الكريم. المرجع السابق. ص ١٠٢.
- (٢) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٢٠ / ١٢٠١ — ١٢٠٢ هـ / ص ٣٢ و ص ٤٢٨.
- (٣) أيضاً سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠ / ص ٣٢١.
- (٤) أيضاً سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ص ١٣.
- (٥) أيضاً سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠ / ص ٢٢٦ و ص ٩٧ و ص ٢٦٤ ثم سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ / ص ٢٨٣.
- (٦) أيضاً سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ / ص ٢٧ و ص ٤٣١.
- (٧) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦ / ص ١٧٧.
- (٨) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ص ٤٨ و ص ٢١٨.
- (٩) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ص ١٩٥ و ص ٢٨٤ ثم السجل رقم ٢٤٠ / ص ١٥٨.
- (١٠) انظر: رافق، عبد الكريم. المرجع السابق. ص ٣٢.
- (١١) انظر: السجل رقم ٤٢٠ / ص ٣٣٩. ثم: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠ / ص ٥٠.
- (١٢) انظر: السجل رقم ٢٤٠ / محاكم دمشق / ص ٤٠٢.
- (١٣) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩ / ١٢١٠ — ١٢١١ هـ. ص ٨٦.
- (١٤) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١٨٢ / سنة ١١٨٣ — ١١٩٠ هـ / ص ٥٠٨. ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠ / ص ٢٩٩.
- (١٥) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ / ١٢٦٤ — ١٢٦٥ هـ. ص ١٨٣.
- (١٦) المصدر السابق. ص ٢١٩.
- (١٧) المصدر السابق. ص ٢٥٣ و ص ٢٤٦ و ص ٦٢.
- (١٨) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ص ٤٥ ثم: رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية. العدد الرابع ص ٣٢ و ص ٣٣.
- (١٩) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ص ٣١٢ و ص ٤٤٥ و ص ٦٧.
- (٢٠) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩ / ص ٣٥٢.
- (٢١) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ / ١٢١٠ — ١٢١١ هـ / ص ٩١ و ص ٢٦١.
- (٢٢) انظر: رافق، عبد الكريم. المرجع السابق. ص ٣٢.

الدقاقون للقمماش الدباحون^(١) الدلالون^(٢) الدكاكون الدباسون الدواليبيون الدوجية الدمغجية
دقاقو الدودة الدكدكجية^(٣) دلالو العفص ودلالو الخام الكلزي^(٤) صانعو الركاب الرماحون^(٥)
الرهونجية^(٦) الرزنجيون الرواسون ورماة البخور^(٧).

الذهبيون^(٨) الزرابليون^(٩) الزبركجية الزياتون^(١٠) الزنانييون^(١١) الزبالون^(١٢) الزراميزية^(١٣)
السقالون^(١٤) السجادون السراجون^(١٥) (صانعو السراجات) الساعاتيون^(١٦) السمانون
— السنكرية — السواطلية — السلالون — السراجية^(١٧) السرفجية — السعاة — السقاؤون
— السكاكنية — السماسرة — السمرجية السنبسوسكيون (تذكر أحياناً مع الطبّاخين
والشوايين) السيورية — السيوفية (أحياناً مع السكاكنية والقواسين والخناجرية والتروسية)^(١٨)

- (١) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ / ١٢٠١ — ١٢٠٢ هـ / ص ٤٣٩ و ص ٤٥٨ .
- (٢) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ص ٤٣ .
- (٣) انظر: المصدر السابق. ص ٦٠ و ص ١٠٩ و ص ٢٤٤ و ص ٣١٥ و ص ٣٤٣ و ص ٣٩٨ . ثم: سجلها
رقم ٤٢٠ / ص ٢٩٠ . ثم: رافق، عبد الكريم. المرجع السابق. ص ٣٢ .
- (٤) انظر: رافق، عبد الكريم. المرجع السابق. ص ٣٢ .
- (٥) انظر: السجل رقم ٢٢١ / محاكم دمشق / ص ٣٠٣ .
- (٦) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ / ص ٨٩ .
- (٧) انظر: سجل القسمة البلدية بدمشق رقم ٢٩٠ / سنة ١٢٣٢ — ١٢٣٧ هـ. ص ٩٢ . ثم: رافق عبد
الكريم. المرجع السابق. ص ٣٢ و ص ٣٣ .
- (٨) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩ / ص ٤٢٠ . ثم السجل رقم ٤١٩ / ص ١٩٤ .
- (٩) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ / ص ٤٢٩ .
- (١٠) انظر: السجل رقم ٢٢١ / ص ٣٧٢ و ص ١١ .
- (١١) انظر: سجل محكمة الميدان رقم ٣٧٨ / ١٢٥٩ هـ / ص ٤٨ .
- (١٢) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ / سنة ١٢٦٤ — ١٢٦٥ هـ / ص ٢٣٢ .
- (١٣) انظر: رافق. عبد الكريم، المرجع السابق / ص ٣٢ .
- (١٤) انظر: السجل رقم ٢٢١ / ص ٥٩ و ص ١٠٠ .
- (١٥) السجل السابق ص ٢٤ و ص ٣٨٦ .
- (١٦) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ / ص ٥٦ و ص ٥٥ و ص ١٦٢ و ص ١٦٣ و
ص ٢٤٠ .
- (١٧) انظر: سجل محكمة الميدان بدمشق رقم ٣٢٣ / سنة ١٢٤٧ هـ. ص ٦ .
- (١٨) انظر: رافق، عبد الكريم، المرجع السابق ص ٣٢ و ص ٣٣ .

الشماطون الشالاتية — الشماعون — الشرايتون الشحاذون^(١) الشعالون — الشعارون
 الشلاحون الشدودية الشراقطلية^(٢) الشاويون^(٣) الشبقجية^(٤) أو الجوبوقجية الشخشاريون^(٥)
 (الجخاجيريون) الصاجاتيون^(٦) الصياغون^(٧) الصابونية الصاغرجية الصباغون — صباغو
 الأزرق — صباغو الأحمر — صباغو الألوان (غير الأزرق) الصرمياتية — الصنادقية
 — الطباخون — الطحانون (طحانو الجلب — طحانو الخاص) الطوافة — الطواقية طواقي
 المخمل^(٨) الطباغون^(٩) الطوبجية^(١٠) قطاعو النعل^(١١) الطرابيشية^(١٢) الطوقطيون^(١٣)
 العرقسوسية^(١٤) العقادون^(١٥) العلبون^(١٦) العربجيون^(١٧) العنبرجيون^(١٨).

العباجية — العاياتية — العتالون — العجانون — العرقجية — (أو العرقياتية)

(١) السجل رقم ٢٢٠ / ص ٤٤٣.

(٢) السجل رقم ٢٢١ / ص ٤٤ و ص ٣٣٧. ثم: رافق، دراسات تاريخية. العدد الرابع ص ٣٢ و ص ٣٣.

(٣) سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٩ / ص ٤٣٥ و ص ٥٢٧. ثم: رافق، المرجع السابق. ص ٣٢ و ص ٣٣.

(٤) سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٦ / ص ٥٠٩.

(٥) السجل رقم ٤٠٩ / ص ١٨٠.

(٦) السجل رقم ٢٢١ / ص ٣٢٨.

(٧) السجل السابق. ص ١٣٤.

(٨) انظر: رافق. المرجع السابق. ص ٣٢. ثم: سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٦ / ص ١٥٠.

(٩) السجل رقم ٢٤٠ / ص ٣٢٧.

(١٠) السجل رقم ٢٣٩ / ص ٣٨٥.

(١١) السجل السابق. ص ٥٠٩.

(١٢) السجل رقم ٤٠٩ / ص ٢٠٩.

(١٣) السجل رقم ٢٩٠ / ص ١٢.

(١٤) السجل رقم ٢٢٠ / ص ٤٥١.

(١٥) السجل رقم ٢٤٠ / ص ١٩٧.

(١٦) السجل رقم ٤٠٩ / ص ١٣٧.

(١٧) المصدر السابق. ص ١٨٢.

(١٨) السجل رقم ٢٥٠ / ص ١٠٢.

العتارون العقارون — العلافون — العنابانية^(١) — الغنامة — الغزولية — الغراوية^(٢) —
 الغلايينون^(٣) الفوالون^(٤) الفطارية^(٥) الفتالة^(٦) ومنهم فتالة الحرير وفتالة الحرير العندارى والفتالون
 بالدولاب الكبير^(٧) الفاكهاينون^(٨) الفكاكون^(٩) الفراؤون — الفواخرية^(١٠) القريصائية^(١١)
 القصبياتية^(١٢) القرييون^(١٣) القلبنجيون^(١٤) القرداحيون^(١٥) القساطليون^(١٦) القندقجية^(١٧)
 القوزمية^(١٨) القطاينجية^(١٩) القضمانيون^(٢٠) القباقجية والقبانيون^(٢١) القصابون^(٢٢) القزازون^(٢٣)
 صانعو القيشاني^(٢٤) القلاعون^(٢٥) القداحون^(٢٦) القصارون القصابون القواقجية — قطاعو

- (١) انظر : رافق ، عبد الكريم ، المرجع السابق . ص ٣٢ .
- (٢) انظر : السجل رقم ٢٥٠ / ص ٢١٥ . ثم : سجل رقم ٢٢١ / ص ٢٣٦ . ثم : السجل رقم ٢٢٠ / ص ٤٤٥ .
- (٣) انظر : السجل رقم ٢٩٠ / ص ٢ .
- (٤) انظر : السجل رقم ٢٢٠ / ص ٣١ . ثم : رافق ، المرجع السابق . ص ٣٢ .
- (٥) انظر : السجل رقم ٢٦ / ص ٣٣٣ .
- (٦) انظر السجل رقم ٢٢١ / ص ١٨٤ .
- (٧) رافق . المرجع السابق . ص ٣٢ .
- (٨) السجل رقم ٤٠٩ / ص ٤٥ .
- (٩) السجل السابق . ص ٤٣ .
- (١٠) رافق ، عبد الكريم . المرجع السابق . ص ٣٢ .
- (١١) السجل رقم ٢٢١ / ص ٢٠٩ .
- (١٢) السجل السابق . ص ٤٣٢ .
- (١٣) أيضاً السجل السابق . ص ٢٧٢ .
- (١٤) وأيضاً السجل السابق . ص ٣٤٠ .
- (١٥) السجل رقم ٢٣٩ . ص ٣٨٥ .
- (١٦) السجل السابق . ص ٤٠٦ .
- (١٧) السجل رقم ٢٦ / ص ٢٨٧ .
- (١٨) السجل السابق . ص ٢٨٩ .
- (١٩) نفس السجل / ٥١٢ .
- (٢٠) السجل رقم ٤٠٩ / ص ٦١ .
- (٢١) أيضاً نفس السجل / ص ١٦٣ .
- (٢٢) وأيضاً نفس السجل / ص ٢٢٩ .
- (٢٣) السجل رقم ٤٢٠ / ص ١١٩ .
- (٢٤) السجل السابق . ص ٩٥ .
- (٢٥) نفس السجل / ص ٢٩٢ .
- (٢٦) أيضاً نفس السجل / ص ١٣٧ .

النعل — القطنون^(١) — الفلاشينية — القلفات — القنوية — القهوة — القوافون^(٢)
الكلايون^(٣) الكحالون^(٤) الكباشية^(٥) (ربما اللحامون) الكتبيين^(٦) .
الكركجيون^(٧) (الفراؤون) الكعيكاتية — الكلاسون — الكوايون — الكونجية
— الكيالون اللبابدية اللحفيون^(٨) المبلطون — المعماريون^(٩) — المنزجية^(١٠) — المكارية
— المكلسون^(١١) المخلاتية^(١٢) المجافية^(١٣) المحملجية^(١٤) المغسلون^(١٥) المهتارية^(١٦) المعاجينية
المعمارية المخلعون^(١٧) المخليون المراتية المخشنون المكتبيون المّاسة — مقصصو الذراع^(١٨)
المطافجية — المسدية — المرادنيون — المراشحية^(١٩) المعقدون — المرجلية المراحلية
— المنجدون^(٢٠) المقحطون المقومون — المزغرون^(٢١) الملاعبية^(٢٢) الملبنجية^(٢٣) المناديليون^(٢٤)

- (١) رافق . المرجع السابق . ص ٣٢ .
- (٢) أيضاً رافق . المرجع السابق . ص ٣٣ .
- (٣) السجل رقم ٢٢٠ / ص ٢١ .
- (٤) السجل السابق ، ص ٤٦٦ .
- (٥) السجل رقم ٤٠٩ / ص ٣٩ .
- (٦) نفس السجل ، ص ٢٨٨ .
- (٧) السجل رقم ٢٤٠ / ص ٢٦٨ . ثم : السجل رقم ٢٦ / ص ٣٢٤ .
- (٨) رافق . المرجع السابق . ص ٣٣ .
- (٩) السجل رقم ٢٢٠ / ص ٤٣٥ و ص ٤٤١ .
- (١٠) السجل رقم ٢٢٠ / ص ٤٧٠ و ص ٤٥١ .
- (١١) السجل رقم ٢٢١ / ص ١١٠ . ثم : رافق . المرجع السابق . ص ٣٢ و ص ٣٣ .
- (١٢) نفس السجل . ص ١٦ .
- (١٣) نفس السجل . ص ١٣١ .
- (١٤) نفس السجل . ص ١٦٦ .
- (١٥) نفس السجل . ص ١٨٦ .
- (١٦) نفس السجل . ص ١٨٤ .
- (١٧) نفس السجل . ص ١٩٧ و ص ٢٦ و ص ٢٥٢ و ص ٤٠٩ .
- (١٨) نفس السجل . ص ٤١٦ و ص ٤٦٠ و ص ٣٨٦ و ص ٢٣٦ .
- (١٩) السجل رقم ٢٧٩ / ص ٢٨٨ و ص ٢٨٧ و ص ٢٢٠ و ص ٢٨٩ .
- (٢٠) السجل رقم ٤٠٩ / ص ٤٢ و ص ١٩٠ و ص ١٣٧ . ثم : رافق . المرجع السابق . ص ٣٢ و ص ٣٣ .
- (٢١) السجل رقم ٤٠٩ / ص ٢٤٢ و ص ٢٧٥ . ثم : رافق . المرجع السابق . ص ٣٤ و ص ٣٣ .
- (٢٢) السجل رقم ٢٥٠ / ص ١٠٥ .
- (٢٣) السجل رقم ٣٢٥ / ص ١٢٤ .
- (٢٤) السجل رقم ٣٣٤ / ص ١٢ .

المهاترة والمساميرية^(١) مداحو الرسول وجكوبة السير النبوية — المدادون — المرويصون — المزيكيون — المسالخية — المسلاتية — المعاريكية^(٢) النعلية^(٣) النويلاتية^(٤) النطفجية^(٥) الناياتية^(٦) النحاتون — النحاسون^(٧) النشارون النشواتية والنعالون — نعالو البوابيج — نقاشو الجبس — النهودية — الهوانوية^(٨) الوتارون والوزانة^(٩) الياطرجية^(١٠).

ويصعب تحديد نسبة الطوائف المعنية منها بالإنتاج إلى الطوائف المعنية بالتسويق، لأن بعضها قام بالعملتين معاً، أي قام بصنع السلعة وبيعها، كما في طائفة الحبالين مثلاً، حيث أدى هذا الازدواج في العمل إلى منازعات بين الفريقين، أما طوائف الخدمات فبعضها واضح الحدود وسهل فرزه، كالدلالين والحمالين والعتالين والقنوية والكوايين. وبعضها ما يجمع بين أعمال الخدمات والتسويق والإنتاج، مثل الخاناتية والمنجدين واللمحيين^(١١).

ويصعب بالاستناد إلى المصادر المتوفرة معرفة عدد الأفراد الذين تشكلت منهم كل طائفة حرفية إلا في القليل النادر، فمثلاً في أواخر عام ١٦٨٩م بلغ عدد طائفة النحاتين في دمشق ٢٧ نحّاتاً^(١٢). ولو أمكننا معرفة عدد أفراد كل طائفة حرفية وعدد طوائف الحرف لقادنا ذلك إلى معرفة نسبة الذين يعملون في الإنتاج إلى الذين يعملون في الخدمات، وبالتالي معرفة الطوائف المزدهرة والطوائف التي آل أمرها إلى الانقراض، ولعلمنا من خلال ذلك السمات الأساسية لحياة دمشق الاقتصادية في فترة دراستنا التاريخية هذه.

(١) السجل رقم ٣٥٧/ص ١٣٧ و ص ٢٠٢. ثم: السجل رقم ٢٢١/ص ٢٤٥.

(٢) رافق. المرجع السابق. ص ٣٣.

(٣) السجل رقم ٢٢١/ص ٢٦٧.

(٤) السجل رقم ٢٣٩/ص ٥١٨. ثم: رافق. المرجع السابق. ص ٣٢ و ص ٣٣.

(٥) السجل رقم ٢٤٠/ص ٨١.

(٦) السجل رقم ٣٢٥/ص ٥٢.

(٧) السجل رقم ٢٥٠/ص ٢٦٧. ثم: رافق. المرجع السابق. ص ٣٢.

(٨) السجل رقم ٢٣٩/ص ٤٨٦ و ص ٣٦٤.

(٩) رافق. المرجع السابق. ص ٣٣.

(١٠) سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/ص ٢٨٠.

(١١) انظر: رافق، عبد الكريم. مقالة له تحت عنوان «مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني» مجلة دراسات تاريخية العدد الرابع ص ٣٢ و ٣٣ / دمشق نيسان ١٩٨١م.

(١٢) انظر: رافق. المرجع السابق. ص ٣٣.

والملاحظ في الطوائف التي ذكرناها غياب أسماء النساء بين أعضائها. وأن غياب طوائف خاصة بالنساء لا يعني أن المرأة لا تقوم بأعمال حرفية في دمشق أو ريفها، فقد قامت المرأة بأعمال حرفية هامة مثل نشر القطن وغزله، وتفریق قطع الآلاجة قطعاً حسب الصنف، ثم جعل كل صنف شموطة (أي ما يطلق عليه العامة اسم شلة) على حدة، وهي مهنة خاصة بالنساء^(١). وكذلك قامت المرأة بحبك حبال القش لصنع الحصر وعملت كحالة وداية وفي الحمام في دور النساء، والتعليم إلا أننا لا نعلم فيما إذا انتظمت النساء ضمن طوائف خاصة بهن، ولو حصل ذلك لكنا وقعنا على ذكر لها في سجلات محاكم دمشق الشرعية، الخالية من ذكر طوائفهن، رغم أنها ليست خالية من ذكر نشاطاتهن المختلفة، سواء المسلمات منهن أو الذميات.

البنية التنظيمية للطائفة الحرفية

أطلقت كلمة طائفة على التنظيم الحرفي، كما استخدمت للدلالة على طائفة دينية أو طائفة قطرية. (كطائفة المغاربة أو البغادة الخ) الأعجم، أو طائفة عسكرية، أو على قطاع الطرق من البدو أو الحرامية أو اللصوص أو الشحاذين. ولقد ورد ذكر لامرأة قامت بسرقة امرأة أخرى في سوق الأروام في دمشق واعترفت المرأة أمام القاضي على أنها من طائفة السراقين وتتخذ ذلك حرفة ودأباً^(٢). ولقد ترأس الطائفة الحرفية شخص عرف عادة بالشيخ، وكان ذلك يتم باختيار أعضاء طائفته وينصبه القاضي ويقر اختياره، ويصدر حجة بالواقعة ويسجل ذلك في سجلات المحكمة في دمشق. والعبارة المستخدمة في هذا السجل تذكر أن القاضي فلاناً نصب فلاناً شيخاً ومتكلماً على الطائفة الفلانية. وكلمة (متكلم) تعني أن صاحبها يتكلم في مصالح الطائفة. وأطلق عليه لقب «باشي» في بعض الأحيان، مثل طائفة القصابين التي عرف رئيسها «بالقصاب باشي»، وكذلك طائفة المعمارية التي عرف رئيسها «بالمعمار باشي» وأطلق على رئيس طائفة الدباغين «أنخي بابا — وأحياناً بابا» وكلمة أنخي مشتقة من الكلمة العربية (أخ).

وهناك المعلمون والأساتذة أو الاسطاوات والباباوات في الطائفة، وهم الذين يشار إليهم باسم (اختيارية الطائفة). ويلاحظ أن بعض مشايخ الحرف ورثوا المشيخة عن آبائهم

(١) انظر: القاسمي، محمد سعيد. قاموس الصناعات الشامية. ج ٢. ص ٣٣٤ و ص ٣٣٥.

(٢) انظر: رافق، عبد الكريم. المرجع السابق. ص ٣٤.

أو اخوتهم، ومع ذلك كان عليهم الحصول على موافقة الاختيارية. ويقوم القاضي بالتنصيب رسمياً، كما يجب على الشيخ أن يلم بأصول الحرفة وإذا ماتين أنه غير ملم بها فإن اختيارية الحرفة، تقوم بعزله، فمثلاً: عزل شيخ طائفة الدباغين في دمشق محمد بن السيد أحمد البابا (لأنه ليس له خبرة في أحوال الدباغة وليس له وقوف على معرفة الكار وليس له قدرة على تعاطي أمور الباباوية) فتنازل هذا عن الباباوية واختارت الطائفة بابا آخر لها ونصبه القاضي^(١).

واشترط في شيخ الطائفة أن يكون رجلاً ديناً مستقيماً قادراً على أداء مهام المشيخة صالحاً لها وأن يكون أعضاء الطائفة راضين عنه. وعندما تشغر مشيخة حرفة تعين المحكمة شيخاً، أو تصدر براءة سلطانية بتعيين شيخ جديد، ويقوم القاضي آنئذ بالتأكد من صحة البراءة السلطانية التي حاز عليها صاحبها ويقوم بتنصيبه شيخاً على الطائفة^(٢). ومن مهام الشيخ لم شمل الطائفة وإنزال العقاب بالمخالفين من أعضائها، ويتدارس مع الحكومة الضرائب على طائفته ويوزع أموال هذه الضريبة بحسب دخل كل واحد من أعضائها^(٣). ويقوم المعلمون بتعيين شيخ الطائفة عندما يجمعون عليه وإلا فيبقى الأمر بيد شيخ المشايخ. وهذا المنصب يلوم فيه مدى الحياة إلا إذا طلب المعلمون تبديله، وقد يرغب في ذلك شيخ المشايخ.

وعندما يموت شيخ الطائفة يعين مكانه ابنه اعترافاً من الطائفة بجميل صنعه. ومن الشروط الواجب توافرها في الشيخ أن يكون كريماً وأميناً وصادقاً وشجاعاً وغنياً، لأن شيخ الطائفة عليه أن يبر بتعهداته المادية والمنعوية لدى السلطة وغيرها، ولا يستطيع أن يفني بذلك إن لم يكن غنياً، وكان مقره في حانوته الذي يقع ضمن السوق أو في أحد المقاهي نهراً أما في الليل فيكون مقره منزله^(٤). وتطالعنا سجلات محاكم دمشق بعدد من مشايخ الحرف المختلفة وأغلبهم كان من الأشراف والانكشارية، كشيوخ سوق الأروام وطايفة البزازية والدالين^(٥).

(١) انظر: رافق، مجلة دراسات تاريخية. العدد الرابع ص ٣٥.

(٢) أيضاً رافق. المرجع السابق. ص ٣٥.

(٣) انظر: عانوتي، أسامة. الحركة الأدبية في بلاد الشام خلال القرن السادس عشر. ص ٢٠.

(٤) انظر: كيال، منير. فنون وصناعات دمشقية. ص ٢٠٦ و ٢٠٧ و ص ٢٠٨.

(٥) انظر: سجل القسمة العسكرية والعربية رقم ١٨٢ / سنة ١١٨٣ - ١١٨٤ / ص ١.

وشيوخ اللحامة^(١) وشيوخ طايفة البساتنة (أحياناً ترد باسم شيخ البستانيين)^(٢)، ثم شيخ العطارين^(٣) وكان شيخاً عليهم في سنة ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢ — ١٨٠٣م السيد عبد الوهاب بن السيد نصرى وفي سنة ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١ — ١٨٣٢م السيد نصرى، ثم شيخ المغربلين^(٤) وشيوخ البزورية. وكان شيخاً عليهم سنة ١٢١٦هـ/ ١٨٠١ — ١٨٠٢م الشيخ حسن الحلبي^(٥). وشيوخ المكارية^(٦) وشيوخ الطحانة وكان شيخاً عليهم سنة ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢ — ١٨٠٣م السيد عمر بحصاصة، ثم شيخ النحاسين، وكان في سنة ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢ — ١٨٠٣م شيخاً عليهم سعيد آغا بن الحاج مصطفى، وكان له دكاكين في سوق الأروام. وفي سنة ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨ — ١٨٣٩م كان شيخاً عليهم محمد آغا بن محمد آغا^(٧). ثم شيخ السروجية وكان شيخاً عليهم سنة ١٣١١هـ/ ١٧٩٦ — ١٧٩٧م السيد محمد سعيد الشهير بأبي أمين^(٨) ثم شيخ الدباغين والشلحين والحدادين والقراوية^(٩) والحلوانية الذي كان شيخاً عليهم سنة ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢ — ١٨٠٣م عبد القادر، ثم شيخ الحلاقين وكان شيخاً عليهم الأسطة محمد البوشي، وشيوخ القواقجية الأسطة محمد^(١٠). ثم شيخ القفلة الذي كان عليهم السيد

-
- (١) انظر: سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٤٠٩ / سنة ١٢٦٤هـ / ص ١٠١.
(٢) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ / ١٢٠١ — ١٢٠٢هـ. ص ٥٥١. ثم سجلها رقم ١٢٥٥ / ٣٥٧ — ١٢٥٦هـ، ص ١.
(٣) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٣ / ١٢٤٧هـ / ص ١٤٤. ثم: سجلها رقم ٢٥٠ / ص ١٥٩.
(٤) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٦ / ١٢٤٨هـ / ص ٥٥ و ص ٥٦. ثم سجلها رقم ٢٢١ / سنة ١٢٠١ — ١٢٠٢هـ. ص ١٣.
(٥) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٦ / ص ١٠٦. ثم سجلها رقم ٢٤٠ / ١٢١١ — ١٢١٦هـ. ص ٩٤.
(٦) انظر: السجل رقم ٣٣٠ / محاكم دمشق / سنة ١٢٤٨ — ١٢٦٦هـ، ص ٣٨.
(٧) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ١٢١٦ — ١٢١٧هـ. وأيضاً سجلها رقم ٢٤٠ / ١٢١١ — ١٢١٦هـ / ص ٥٤٣. ثم: سجلها رقم ٣٥٧ / سنة ١٢٥٥ — ١٢٦٠هـ. ص ٨٨.
(٨) انظر: سجل القسم العسكرية رقم ٣٣٠ / ١٢٤٨ — ١٢٦٥هـ. ص ٩٢. ثم: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠ / ١٢١١ — ١٢١٦هـ / ص ٢٣٢.
(٩) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ١٢١٦ — ١٢١٧هـ. ص ٢١٥.
(١٠) انظر: سجل القسم البلدية بدمشق رقم ٣٢٧ / ص ٣٧.

اسماعيل^(١). ثم شيخ العقارين الذي كان شيخاً عليهم السيد محمد جليبي بن السيد أحمد ثم شيخ العقادين وكان شيخاً عليهم نفس شيخ العقادين المذكور سابقاً^(٢) ثم شيخ العلبية وكان في سنة ١٢٥٠ هـ شيخاً عليهم السيد علي بن الحاج خليل^(٣). ثم شيخ الصباغة (الساغة) وكان شيخاً عليهم صالح آغا بن يحيى^(٤). ثم شيخ الصباغين وكان شيخاً عليهم السيد محمد بن السيد ابراهيم^(٥). ثم شيخ التجارين^(٦) ثم شيخ التوتنجية^(٧) ثم شيخ الجبالين وكان شيخاً عليهم الحاج صالح^(٨). ثم شيخ الفحامة وكان شيخاً عليهم محمود آغا^(٩). ثم شيخ الخياطين وكان شيخاً عليهم اسماعيل^(١٠). ثم شيخ المغربلين الذي كان شيخاً عليهم في سنة ١٢٠١ هـ / ١٧٨٦ - ١٧٨٧ م محمد عويرة^(١١). ويبدو أن شيخ الحرفة كان وقفاً على المسلمين دون أهل الذمة. ويمكن تفسير ذلك بارتباط الشيخ الديني بإحدى الطرق الصوفية التي كانت تخص المسلمين دون غيرهم.

أما فيما يتعلق بتناول شيخ الطائفة لراتب ما، فلا توجد إلا بعض الأدلة البسيطة على ذلك. فكان في الغالب يعيش من عمله إلا أنه تمتع ببعض الإمتيازات. ولقد ذكر أن طائفة المسالخية بدمشق والتي كانت تابعة (يحق) لطائفة القصابين، قد دفعت لشيخ طائفة القصابين كل سنة عشرين قرشاً لقاء مال المشيخة^(١٢). ومن جهة أخرى كان لكل مشغل من الحرفة شيخ يطلق عليه اسم «أستاذ»، والأستاذ كلمة فارسية الأصل حوّرت إلى (الاسطة). وأشار إليه بكلمة (معلم) بالعربية. ويقول محمد سعيد القاسمي كان «لكل حرفة في دمشق معلم مخصوص يقوم بشؤون ومصالح أرباب حرفته وهو رئيس الصنعة أو الحرفة

- (١) انظر: البديري. حوادث دمشق اليومية. ص ١٦٦ و ص ٨٣ و ص ٩٨.
- (٢) انظر: سجل القسم البلدية بدمشق رقم ٣٢٧ / ١٢٤٧ - ١٢٤٨ هـ / ص ٢٢١ و ص ٣١٤.
- (٣) انظر: سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٤٠ / ١٢٥٠ - ١٢٥٤ هـ / ص ٦٦.
- (٤) نفس السجل السابق. ص ٩٤.
- (٥) انظر: سجل القسم العسكرية رقم ٣٤٠ / ١٢٥٠ - ١٢٥٤ هـ / ص ١٤٠.
- (٦) انظر: سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٣٣٦ / ١٢٥٠ - ١٢٥١ هـ / ص ٢٤٧.
- (٧) انظر: سجل القسم البلدية بدمشق رقم ١٨٢ / ١١٨٣ - ١١٩٠ هـ / ص ٦١.
- (٨) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ / ١٢٠١ - ١٢٠٢ هـ / ص ٥٣٢.
- (٩) انظر: سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٣٨ / ١٢١١ - ١٢١٢ هـ / ص ٧٠.
- (١٠) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ص ١٦٩.
- (١١) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٥٧ / ١٢٥٥ - ١٢٥٦ هـ / ص ٨٨.
- (١٢) انظر: رافق. مجلة دراسات تاريخية العدد الرابع ص ٣٣.

ومتقنها ويشغل تحت يده الصناعات الأجراء^(١) وهو التاجر المستقل ويتمتع بحق ممارسة الحرفة ويشترك في إجتماعاتها واتخاذ قراراتها . ومسؤول عن أخلاق الأجراء لديه ونشاطهم وغذائهم ، ويجب أن لا يفسد علاقته مع المعلمين الآخرين بالمزاحمة ويجب أن يكون مثال الاستقامة . ونلاحظ وجود أساتذة أو اسطاوات من المسلمين غير المسلمين ، فمثلاً في سنة ١٢٥٠هـ كان المعلم الياس الذمي النصراني خواماً ، ثم المعلم نسيم أبراهام ماير كان معلماً في (الفتالة) سنة ١٢٠١هـ . ثم المعلم موسى بن المعلم جرجس السيوري النصراني . ثم الاسطه حجازي الحلاق ، والاسطه عبد الرزاق بن الاسطه عمر الحموي الخياط^(٢) .

أما الصانع فهو من يحسن الصنعة ولم يصل إلى مهارة المعلم^(٣) . ولا نعلم إذا كانت هناك مدة زمنية لا بد له من أن يلتزم بها قبل أن يرتقى إلى مرتبة أستاذ (معلم أو اسطة) . ويظن أن إتقانه للمهنة ، بغض النظر عن المدة التي أمضاها في وضعية الصانع ، هي الكفيلة بنقله إلى المرتبة الأعلى . ويبدو أن هناك استثناءات على عدم الالتزام بهذا التدرج المهني . مما يدل على انهيار القواعد المهنية . فيذكر القدسي أن « من الصناعات من يشد في النهار ذاته صانعاً ومعلماً »^(٤) .

ولقد شكل الصناعات العدد الأكبر من الحرفيين بالمقارنة مع عدد المعلمين والأجراء . وحاول المعلمون تأخير ترقية الصناعات إلى رتبة معلم لتحاشي منافستهم . وكان يقع على عاتق المعلم دون الصناعات أجرة الدكان ومصرفها وتصليح عدة الصنعة^(٥) .

أما الأجير فيأتي في أسفل السلم المهني ، وهو المبتدئ بالصنعة ، ويكون عادة فتى يافعاً . ويتم استخدامه من قبل المعلم بموجب عقد رسمي ، فمثلاً : « استأجر محمود الحلبي

(١) انظر : قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ . ص ٤٥٨ .

(٢) انظر : كيال ، منير . فنون وصناعات دمشقية . ص ٢٠٩ . ثم انظر : السجل رقم ٣٣٦ / بحكم دمشق / سنة ١٢٥٠ — ١٢٥١هـ / ص ١٣٦ . ثم انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ص ٢٥٤ . ثم انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ١٢١٦ — ١٢١٧هـ / ص ٩١ و ص ٩٢ .

(٣) انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ص ٣٥ .

(٤) انظر : رافق ، عبد الكريم . (مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني) مقالة له في مجلة دراسات تاريخية ، العدد الرابع . ص ٢٦ / دمشق نيسان ١٩٨١م .

(٥) انظر : سجل محكمة دمشق الشرعية رقم ١١ / ص ١٢١ / ٢٢ محرم ١٢٦١هـ / ٣١ كانون الثاني عام ١٨٤٥م . نقلاً عن رافق . مجلة دراسات تاريخية . العدد الرابع . ص ٥٣ .

الطبايع لدى القاضي الشافعي بدمشق ابن أخيه البالغ — عبد الرحمن فأجره نفسه بإذن الحاكم ليشتغل عنده في صناعة الطباعة لعقدين كاملين — مدة كل عقد منهما ثلاث سنوات تبدأ في يوم العقد وكان أجر عبد الرحمن اليومي ست قطع فضة مصرية أربع منها يحتفظ بها المستأجر السيد محمد الحلبي لتغطية نفقات عبد الرحمن من مأكوله ومشربه وزينته وسائر لوازمه التي لا بد منها، والمصريتان الباقيتان تدفعان إلى عبد الرحمن. ولقد تم العقد بحضور عبد الرحمن^(١). ويجب على الصانع والمعلم لحظ الأجير بالعناية والتأديب ومشقات الخدمة لأجل أن يكتسب الصنعة^(٢).

وهناك إشارات إلى وجود رئيس أعلى للطوائف، وهو شيخ المشايخ. ولكن وثائق المحاكم الشرعية قلما أشارت إليه. إلا أن كتاب التراجم الدماشقة، في القرن السابع عشر والثامن عشر، وكذلك كتاب الحوليات أشاروا إلى ذلك^(٣).

ويبدو أن هذا المنصب كان دينياً أكثر منه حرفياً. فهو الذي يقوم بالاحتفالات والطقوس الرمزية وكان على علاقة وطيدة بالطرق الصوفية أو بالإشراف أو بكليهما، وهي أهم من علاقته بالمهن والصناعات. فمثلاً أحمد أفندي العجلاني لم يكن على شيء من صنعة أو حرفة ومع ذلك كان شيخ مشايخ الطوائف الحرفية. وكانت هذه الرتبة موروثية في آل عجلاني الذين اختصوا بنقابة الأشراف ومشيخة الطرق الصوفية^(٤)، وبقيت فيهم إلى فترة متأخرة من القرن التاسع عشر.

وكان شيخ المشايخ يتمتع بسلطة واسعة أكثر من سلطة شيخ الطائفة، فكان بإمكانه

(١) انظر: سجل محكمة دمشق الشرعية رقم ٥٠ / ص ٢٨ ص ٢٥ / ذي الحجة ١١٣٤هـ / تشرين الأول عام ١٧٢٢م. نقلاً عن رافق: مجلة دراسات تاريخية. العدد الرابع. ص ٣٧.

(٢) انظر: القدسي، نبذة تاريخية للحرف الدمشقية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ص ١١.

(٣) يقول المحيي: إن السيد محمد بن السيد محمد كمال الدين بن عجلان الدمشقي المبدئي الشافعي المتوفى سنة ١٠٠٤هـ / ١٥٩٦م كان شيخ مشايخ الحرف ولكن أهم كما يبدو بإقامة التكر بانتظام أكثر من عمله كحرفي وكان لا يأكل إلا من كسب يمينه في نسج الحرير وكان هو الذي يقعد الشد والعهد لأهل الصنائع. انظر: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. ج ١. ص ١٤٤ و ص ١٤٥.

(٤) انظر: القدسي، نبذة تاريخية للحرف الدمشقية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ص ١٠. ثم انظر: الحصني — محمد أدهب منتخبات التواريخ لدمشق. ج ٢. ص ٥٩٤.

إلقاء من يسمىء من مشايخ الحرف بالسجن وضربه ، وذلك حتى عهد السلطان عبد المجيد
العثماني (١٨٣٩ — ١٨٦١م) .

وكان شيخ الطائفة ينيب عنه النقيب في عملية الشد للأجير أو الصانع ، ويكلفه
بالسهر على حسن انتظام قواعد الطائفة وأخلاق أفرادها . ومما يدل على علو شأن النقيب في
الطائفة أنه كان يرد ذكره في المحكمة بعد الشيخ مباشرة . وعلى غرار شيخ المشايخ ، وجد
لنقباء طوائف الحرف (نقيب نقباء) . أعلى عرف (بنقيب النقباء) وذكر أحمد البديري
الحلاق أن الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ محمد الحلاق القادري صاحب الحلقة في الجامع
الأموي المتوفى / ٢٦ / ربيع الأول ١١٥٦هـ / ٢٠ أيار عام ١٧٤٣م ، كان نقيب النقباء في
دمشق على الحرف والصنائع والطرق^(١) . ويدل جمع نقيب النقباء للسلطة بين يديه على بقاء
الحرف والصنائع والطرق على أهميتها الاجتماعية والدينية ، كما يدل على الارتباط بين الحرف
والطرق الصوفية . ولقد ضعفت أهمية النقيب كثيراً في النصف الثاني من القرن التاسع
عشر^(٢) .

ولم بجانب النقيب وجد منصب (اليكيت باشي) . والكلمة مشتقة من (يكيت)
وتعني الفتى والرجل الأخلاقي في اللغة التركية ، و(باشي) وتعني الرئيس . وعين اليكيت باشي
للطائفة من قبل شيخها الذي اشترك معه أحياناً في عملية الإبتقاء لكبار أعضاء الطائفة ،
وروعي في اختياره أن يكون أهلاً لعمله قادراً على القيام به على الوجه المرضي . وذكر أن طائفة
العطارين اليهود في حلب قد نصب القاضي عليها يكيت باشي يهودياً ، وذلك بطلب من شيخ
طائفة العطارين ، وكان أعضاؤها من المسلمين واليهود^(٣) . وناب اليكيت باشي عن شيخ
الطائفة في بعض الأحيان في الأمور المتعلقة بطائفته ، ومع ذلك كان النقيب أكثر حضوراً
وربما استمراراً من اليكيت باشي . بدليل أن القدسي الذي أرخ للحرف في الربع الأخير من

(١) انظر : حوادث دمشق اليومية . ص ٣٩ .

(٢) انظر : رافق ، عبد الكريم . مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني . ص ٣٨ من مجلة
دراسات تاريخية . العدد الرابع / نيسان ١٩٨١م .

(٣) انظر : سجل محكمة حلب الشرعية رقم ١٥ / ص ٦٨٨ تاريخ القضية / ٤ ربيع الثاني ١٠٤٣هـ / الثامن من
تشرين أول ١٦٣٣م . ثم : المصدر السابق . ص ٨٥ ، منه تاريخ القضية / ٢٤ ذي القعدة عام
١٠٣٥هـ / ١٧ آب ١٦٢٦م . ثم : ص ٧٦١ تاريخ القضية / ٩ ربيع الثاني ١٠٤٥هـ / ٢٢ أيلول عام
١٦٣٥م .

القرن التاسع عشر لم يشر إليه^(١). كما ذكرت الوثائق صاحب رتبة أخرى في الطائفة وهو «الأنجي باشي» خاصة فيما يتعلق بطائفة طحاني الخاص بحلب، وقد نصب على غرار النقيب واليكييت باشي من القاضي بناء على طلب شيخ طائفة الطحانيين وكبار أفرادها.

كما ورد ذكر لوظيفة (الكتخدا) لطائفة الدالين في حلب. وتعني هذه الكلمة المساعد وربما كان أحد مساعدي شيخ الدالين^(٢). كما ورد ذكر وظيفة مقدم في أحد طوائف مدينة حلب في عام ١٥٩٩هـ / ١٥٩١م وتعني هذه الكلمة رئيس سبع طوائف حرفية لكل منها شيخها وتعني بالخدمات مثل: العتالين — والحمالين — والعكامين — والسقائين — والبالغة وكان أحد الأشخاص، هو تقي الدين بن الحاج محمد قد حصل على براءة سلطانية في منصب مقدم هذه الطوائف بديلاً عن مقدمها الحاج أحمد بن محمد. ولكن القاضي بناء على طلب عدد من أعضاء هذه الطوائف، أبقى عليها مقدمها الحاج أحمد بن محمد لأنه (رجل مستقيم في أمور المقدمة المذكورة وخبير بأحوالها أكثر من غيره وهو أولى بها من تقي الدين)^(٣). ويبدو أن هذه الوظيفة قد شاعت في الفترة الأولى للعهد العثماني ولكنها لم تستمر بدلالة عدم وجود ذكر لها في سجلات محاكم دمشق وبلاد الشام الشرعية بعد هذا التاريخ.

ولقد عين شيخ واحد لأكثر من طائفة متقاربة في الاختصاص. فطائفة الحلاقين والجراحين كان لهما شيخ واحد، ففي سنة ١٢١٧هـ كان شيخاً للقصارين والعقادين في دمشق السيد محمد حليبي بن الشيخ أحمد.

وعرفت الطائفة التي اتبعت طائفة أخرى، رغم أن لكل منهما شيخاً مستقلاً، بأنها (يحق) أي أنها مساعدة لها. والتبعية هذه من أجل جمع الضرائب للدولة وتوزيعها فيما بينها فمثلاً: «طائفة المسالحية في دمشق كانت يماً لطائفة القضايين» واقتضى ذلك أن تدفع الطائفة الأولى عشرين قرشاً في السنة عرفت بمال المشيخة إلى القصاب باشي وذلك بالإضافة إلى ثلاثين قرشاً مساهمة في ضريبة الجيش (مال العرضي أو الأوردي)^(٤).

(١) انظر: رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية العدد الرابع. ص ٣٨.

(٢) انظر: رافق، عبد الكريم. المرجع السابق. ص ٣٩.

(٣) انظر: رافق، عبد الكريم. المرجع السابق. ص ٣٩.

(٤) انظر: رافق، عبد الكريم. مجلة دراسات تاريخية. العدد الرابع. ص ٣٩.

وكان في الطوائف الحرفية منصب (البابا) ، الذي كان يعين بموجب براءة سلطانية .
ويبدو أن من مهامه الإشراف على القاصرين من أبناء الحرفيين المتوفين ، فمثلاً في سنة
١٢٠٦ هـ عين مصطفى بن محمد آغا الطيلوني بابا في دمشق بموجب البراءة السلطانية .
وكان الحرفيون يبرئون ذمته لدى المحاكم عند وفاته^(١) .

التخصص الحرفي في دمشق

عرفت طوائف الحرف في دمشق تخصصاً دقيقاً ، وهذا من صفات الاقتصاد المنظم .
ففي مجال الصناعة وجد صباغون متخصصون بالصباغة بالأحمر وآخرون بالأزرق الغامق
(الكحلي والنيلي) وآخرون ببقية الألوان ، في حين اقتصر هؤلاء في عملهم على صباغة الخام
القطني ، ووجد هناك صباغون آخرون يصبغون الحرير الملون . ووجدت طوائف خاصة
بالمسلمين ، كالجزارة مثلاً ، كما تخصص اليهود فيها بحرف عديدة منها البروكار والدامسكو
والحفر والتنزيل بالذهب أو الفضة والعاج وفي النحاس (الظاهري) والحديد والخشب . وكان
يتوارث هذه الحرف الأبناء عن الآباء^(٢) .

وتخصص بعض النزلاء العرب في دمشق بحرفة معينة ، فالمغاربة مثلاً عملوا في الحراسة
والبريد^(٣) . كما وجدت أسواق متخصصة بحرف معينة على اعتبار أن الصانع هو البائع لسبعته
التي يصنعها . فكان ، مثلاً لطوائف الصباغة والسيوفية والسروجية أسواق خاصة بها . ولقد
سهل ذلك على شيخ الطائفة مراقبة طائفته وقيامه بالمهام الأخرى المتعلقة بها . ووجدت بعض
المصانع الحرفية في الأماكن اللائقة بها ، فمثلاً حرفة الدباغين في دمشق كانت تقع محلاتها
بالقرب من باب السلام وذلك لتوفر المياه اللازمة لها من نهر بردى من جهة ، ولبعدها عن
المدينة نسبياً . خوفاً من روائحها الكريهة من جهة أخرى . ولقد حرم على كل من حاول
العمل بها منفرداً بأمر من قاضي المدينة^(٤) . وهناك حرف كانت خطيرة على حياة السكان
لذا اقتضى النظام عدم تركيزها في مكان واحد بل توزيعها على أماكن متعددة من المدينة
كحرفة البارودية .

(١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ص ٢١٤ و ص ٢١٥ . ثم : انظر سجل القسم

المسكينة بدمشق رقم ٣٢٧ / ص ٢٢١ ص ٣١٤ سنة ١٢٠٧ هـ - ١٢٤٩ هـ .

(٢) انظر : كيال ، منير ، فنون وصناعات دمشقية . ص ٢٧ ، ص ٣٠ .

(٣) انظر : سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٥٩ / ١٠ رمضان عام ١١٤١ هـ / ٩ شباط ١٧٢٩ م .

(٤) انظر : سجل رقم ٢٨ / محاكم دمشق / ص ٢٢٠ / ١٠ محرم ١١١٤ هـ / ٩ تموز ١٦٩٩ م .

أما فيما يتعلق بالدور الأخلاقي لطوائف الحرف فقد حافظت هذه الطوائف على بعض الميزات الأخلاقية التي كانت سائدة في مجتمع دمشق، وذلك من خلال تنظيماتها وأخلاقياتها المهنية. فقد حلت أخلاقياتها محل المحتسب الذي تضاعف شأنه في بلاد الشام في العهد العثماني وغاب في كثير من الأحيان عن الأسواق. وكان يقوم بدوره القضاة أو الولاة أو المتسلمون أو الصوباصي أو بعض الضباط، وحتى الصدور العظام إذا ماصادف وجودهم في دمشق لسبب ما. وقد قام الحكم المصري بإعادة المحتسب إلى أسواق دمشق، واختير لهذا المنصب من كان يتصف بالأخلاق والدين. ويقول صاحب «مذكرات تاريخية» «أنهم اختاروا مصطفى آغا بن شبيب حيث نبه على الأسعار جميعها ولم أحد عاد باع بسعر زايد مصرية الفرد لأنهم (التجار) حبسوا الأرزاق. يومين ثلاثة ظنوا مثل غير حكم كالسابق ولما نظروا أنه مافيه فائدة تواجدت الأرزاق. وصار المحتسب يدور كل يوم في البلد يمشي قدامه نحو عشرة أجواق ناس حاملين العصي وناس حاملين الفلق وناس حاملين جواب (الوسط) وناس حاملين الميزان والأواق كل يوم على هذا الترتيب»^(١). إلا أن وجود المحتسب لم يكن عاماً طيلة فترة دراستنا في أسواق دمشق.

ومن جهة ثانية فقد طبعت الحرفة حياة الحرفيين بطابعها، وغدت بديلة عن كنيثهم الأصلية نظراً لوراثة الحرفة. وهكذا نرى العديد من أسر دمشق قد اكتسبت اسم الحرفة التي احترفتها مثل: أسرة الخشاب — والمسالحي — والحواصلي — والحداد — والقنواقي — والشاوي — والبقسماوي — والصباغ — والشار — وغيرهم. كما نرى أن الحرفيين من رجال الدين عوملوا معاملة خاصة، ويستدل على ذلك من إعفاء الشيخ عبد الرحمن بن محمد من طائفة النشارين بدمشق من الكلف والمغارم المترتبة على هذه الحرفة لكونه إماماً ونحطياً ويتعاطى مهنة النشارة من أجل معيشته وأنه قبل تاريخه منع التعرض له بموجب حجة شرعية أبرزها من يده^(٢). ولقي الفقراء والمفلسون من الحرفيين الاهتمام والرعاية. فالذي كانت بذمته ديون ولم يستطع الوفاء بها قسط عليه الدين بنسبة دخله أو ثروته. ولقد ورد في سجل محكمة دمشق أنه «تبين لدى القاضي فقر أحد العاملين في صناعة تحميل البضائع إذ كان مديناً

(١) انظر: مجهول. ص ٧٧ ص ٧٨.

(٢) انظر: سجل محكمة دمشق الشرعية رقم ٢١ / ص ٢٧٦. غرة جمادى الثانية عام ١١٠١ هـ / ٥ آذار عام ١٩٥٣ م.

لعدد من الناس بخمسائة قرش . فقرر القاضي أن يدفع المدين خمساً وعشرين قرشاً من فاضل كسبه كل سنة ليوزع على أبواب الديون بنسبة ديونهم^(١) .

ولقد عرفت الطوائف الحرفية درجة متميزة من الأخلاقية المهنية التي ظهرت على مختلف المستويات ، فشيخ الطائفة اشترط فيه إلى جانب معرفته بأمور الحرفة وقدرته على أداء واجبات المشيخة ، أن يكون متحلياً بالعفة والاستقامة والتدين ، واشترطت نفس الصفات في النقيب واليكييت باشي . وإذا مآخل الشيخ ومساعدته بالثقة التي وضعت فيهما ، حق لأفراد الطائفة طلب عزلهما ويوافقهم القاضي على ذلك بعد إثبات صحة دعواهم .

واستطاعت الطائفة الحرفية أن تصهر الحرفيين على اختلاف مذاهبهم في بوتقتها . وهذا الاعتبار فقد تجاوزت حدود التمييز المذهبي أو الديني ، فشارك المسلمون والمسيحيون بانتخاب شيخ الطائفة على أساس المقدرة والاستقامة والتدين . وكانت الطوائف الحرفية على علاقة واشجة مع الطرق الصوفية ولقد لعبت هذه العلاقة دوراً مؤثراً من الناحية السلوكية ، وكانت إلى حد كبير ، طريقة تسليك المريد في الطرق الصوفية تشبه مايتم للأجير أو الصانع عند الشد في الحرفة ، وارتبطت كل طائفة حرفية بشخصية دينية قديمة تدعي لنفسها الانتفاء إليها^(٢) .

وبرز التعاون فيما بين أعضاء الحرفة في مجال دفع الضرائب للدولة . فإذا ماعجزت فئة منها أو تعطلت عن دفع ما ترتب عليها ، كانت بقية الطائفة تدفع كامل المبلغ المترتب على كل الطائفة . فمثلاً في دمشق في الربع الثاني من القرن الثامن عشر كان في دمشق تسعة محامص للبن موزعة في أنحاء دمشق ، وشكل أصحابها طائفة حرفية للبن وكان على الطائفة مائتا قرش ضريبة في الشهر . وقد تعهد أفراد هذه الطائفة لدى القاضي بدفع كامل المبلغ حتى ولو تعطلت إحدى المحامص بحيث لا ينقص مال الميري^(٣) .

(١) انظر : سجل رقم ١٤٨ / ص ١٥٧ . القضية تاريخ / ١٩ جمادى الأولى عام ١١٦٨ هـ / ٣ آذار عام ١٧٥٥ م .

(٢) انظر : جيب وبلاون . المجتمع الإسلامي والغرب . ج ٣ . ص ١٢٣ الترجمة . ثم : قدامة ، أحمد . معالم وأعلام في بلاد العرب . ج ١ . قسم ١ . ص ٤١ .

(٣) انظر : سجل محكمة دمشق الشرعية رقم ١٠١ / ص ٢ تاريخ / ٢ جمادى الثاني عام ١١٥١ هـ / ٧ تشرين الثاني سنة ١٧٣٨ م .

وعلى المستوى الاجتماعي نرى أن معظم الحرفيين كانوا يتزوجون من بنات رجال الحرفة الواحدة أو الحرف الأخرى. وتطالعنا سجلات محاكم دمشق بالأمثلة العديدة على ذلك — ملح أخذهم بعين الاعتبار الانتفاء الديني والمذهبي^(١).

حال الطوائف الحرفية ما بين نهاية القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر

حاولت الدولة العثمانية إبعاد التنظيم السياسي عن طوائف الحرف وذلك بالإشراف عليها. إلا أن هذه الطوائف لعبت دوراً سياسياً في فترة ضعف الدولة العثمانية في دمشق حيث انضمت إليها زمر الانكشارية البرلية^(٢) ومحضت الطوائف الحرفية حماية معينة نظراً

(١) انظر: على سبيل المثال سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ١٢١٦ — ١٢١٧ هـ / حيث تطالعنا معظم حالات الزواج والطلاق على طبيعة هذه العلاقة.

(٢) استطعنا أن نرصد بعض الحرف التي انضمت إليها الانكشارية عليها وكذلك بالنسبة لأشراف دمشق. فالانكشاري عمل: قواصاً لدى القناصل وقضمانياً وغزالياً وقصاباً وسراجاً ولباناً ونحاساً ومرادياً ودلال عقارات ومراشحياً ومقهوياً وجزمانياً وخانجياً وكبلاً وعطاراً وبيعاً وقوافاً وحبالاً ومكاريماً وقطاع نعل ومعماراً وتختار وغنياً وشعاراً وقاطرجياً وقوافجياً يبيع القوافيق الملونة من الجورخ لليكجيرية وكلنجياً يصنع الكنديك الأسود المقصب، وشعلاً وسروجياً وخانجياً وبرادعاً وحمامياً وشالاتياً ومكلساً ونقلياً وزنبركجياً أو سلالاً وصاغرجياً وشاوباً وحبالاً وتاجراً للقماش الأسيوطي ومغبرلاً وغيرها من الحرف.

أما الأشراف فعمل الواحد منهم شعاراً أو جنباطاً أو حججاً أو عطاراً أو ركايباً أو مكتيباً أو كبريتياً أو حبالاً أو جليلاتياً أو دكاكاً أو ترجماناً أو جباناً أو شاوباً أو قضمانياً أو بازرباشياً أو طحاناً أو حمامياً أو منادياً أو مجلخاً أو بقسموياً أو قزازاً أو محاييراً أو سوقياً أو حكواتياً أو جونجياً أو ياسرجياً أو ذفاقاً أو دوجياً أو كهيكاتياً أو نعالاً أو صرمانياتياً أو جعبيدياً أو شعلاً أو دباغاً أو شعلاً أو زرابلياً أو معماراً أو قوافاً أو آلاجاتياً أو نحاساً أو صاجاتياً أو بيع المغربية أو حداداً أو عقاداً أو غلبياً أو جراحاً أو بستانياً إلى غير ذلك من الحرف. انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠ / ص ٥٤٢ و ص ٥٤٢ و ص ١٥٨ و ص ٢٠٨ و ص ٢٤١ و ص ٢٦٦ و ص ٢٧٤ و ص ٢٧٧.

ثم: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ص ٧٥ و ص ١٥٩ و ص ٢٧٩.

ثم: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٨ / ص ١٦ و ص ٣٤ و ص ٥٠ و ص ٧٥ و ص ٨٠.

ثم: سجل محكمة الميدان رقم ٣٢٣ / ص ١٤٩ و ص ١٨٦ و ص ١٩٥ و ص ٢٣٥ و ص ٣٣٦.

ثم: سجل محكمة الميدان رقم ٢٢١ / ص ١٣ و ص ١٨٦ و ص ١١٠ و ص ٢٥٠ و ص ٢٦٥.

ثم: سجل محكمة الميدان رقم ٢٣٥ / ص ١٨٥.

ثم: سجل محكمة الميدان رقم ٢٣٩ / ص ٢٧٦ و ص ٤٣٥ و ص ٥٢٣.

لمصالحهما المشتركة، وكان يصعب التمييز بين قوى البرلية والطوائف الحرفية في دمشق، ولقد حاول معظم الولاة الذين دخلوا في صراع مع قوى البرلية، أن يفصلوا بينهما ليسهل عليهم ضرب البرلية دون استعداد طوائف الحرف عليهم. فعبد الله باشا الجته جي والي دمشق في (١٧٧١هـ/ ١٧٥٧م) سعى لتصفية البرلية الدمشقية فطلب أشقياء البرلية الخارجين عن الطاعة في حي الميدان دون أصحاب العرض (طوائف الحرف)، فتغلظت عليه أكباد

-
- ثم: سجل القسم العسكرية رقم ٤٠٩ / ص ٤٢ و ص ٤٧ و ص ٥٥ و ص ٦٥.
 ثم: سجل محكمة الميدان رقم ١٩٨ / ص ٥٤٥.
 ثم: سجل القسم البلدية رقم ٣٢٧ / ص ٥٢ و ص ٥٣ و ص ٥٤.
 ثم: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٤ / ص ٢٢١.
 ثم: سجل القسم العسكرية رقم ٣٤٠ / ص ٦٦.
 ثم: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ص ٢٥٨ و ص ٢٨٠.
 ثم: سجل سجل محكمة الميدان رقم ٣٢٣ / ص ٦٤.
 ثم: سجل القسم العسكرية رقم ٣٤٠ / ص ١١٩ و ص ١٢٥.
 ثم: سجل سجل رقم ٢٣٥ / ص ٤٣.
 ثم: سجل رقم ٣٧٨ / ص ٧٩.
 ثم: سجل سجل القسم العسكرية رقم ٢٦ / ص ٢٢٠.
 ثم: سجل القسم العسكرية رقم ٢٦ / ص ٢٨٧ و ص ٢٨٩ و ص ٢٩٤ و ص ٤٣٥ و ص ٤٣٦.
 ثم: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ / ص ٤٩١.
 ثم: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٤ / ص ٣٩.
 ثم: سجل القسم العسكرية رقم ٢٣٨ / ص ٧٦.
 ثم: سجل القسم العسكرية رقم ٢٦ / ص ١٣٩.
 ثم: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ / ص ٣٥ و ص ٥٠.
 ثم: سجل القسم العسكرية رقم ٢٦ / ص ٢٦٠ و ص ٣٤٨ و ص ٣٥٠ و ص ٣٧٤ و ص ٤١١.
 ثم: سجل رقم ٢٣٥ / محاكم دمشق / ص ٣٧ و ص ١٧٥.
 ثم: سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٣٨ / ص ٣٢ و ص ٤٦ و ص ٥٤.
 ثم: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ص ١٨٠ و ص ٢٦ و ص ٤٤ و ص ١٠٩.
 ثم: سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٦ / ص ٢٢٧.
 ثم: سجل رقم ٣٢٤ / ص ١٣٠.
 ثم: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠ / ص ٤١١ و ص ٢٧٧.
 ثم: سجل القسم العسكرية بدمشق رقم ٢٦ / ص ١٣٩.
 ثم: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠ / ص ٥٤ و ص ٢٣٢.

الانكسارية^(١). بسبب ذلك . كما وجهت ضربة أخرى إلى طوائف الحرف على يد والي دمشق وصيدا أحمد باشا الجزار « حيث أمر بتحضير أرباب الحرف والصنائع إليه فحضر إليه التاجر والفاعل والاسكاف والسيمان وكل صاحب حرفة من المدينة فأمر أن يدخلوا عليه فرداً فرداً وكان الداخل إليه يكشف عن رأسه ويتقدم من الجزار وكان يطلق سراح البعض ويبقي على البعض الآخر . وكان عدد الباقي عنده مائتين وثلاثين رجلاً على اختلاف عملهم وحرفهم ، وفي مؤخر النهار أمر بلديهم ظهرياً على شاطئ البحر ، وأبقاهم طعماً للوحوش إلى ثاني يوم^(٢) . وكان من الطبيعي أن يفر العديد ممن تبقى من الحرفيين خوفاً على حياتهم .

هذا ناهيك عن ابتزاز العديد من الولاة وبطرق شتى لأموال طوائف الحرف والحرفيين . وحاول بعض الولاة احتكار بعض الصناعات ومنع حرفييها من ممارستها بغية جني أرباحها لنفسه ، فوالى دمشق الكنج يوسف باشا في عام ١٢٢٢هـ / ١٢٢٣ / ١٨٠٦ - ١٨٠٨م أبطل الشهبندر ثم الزناير الطرابلسية ومنع المومسات من ممارسة أعمالهن وكن يشكلن طائفة حرفية معترفاً بها^(٣) . كما أبطل عدداً كبيراً من صناعات الحلوى ومنع تناولها من قبل الشعب كالكنافة والبغاجة — والبقلاوة — والقطايف — والعوامة — وغيرها ويقول حسن آغا العبد معلقاً « حصل لأهل الشام كدر لأن ماسبق مثل هذا الأمر من قديم الزمان^(٤) » ولم يكتف هذا الوالي بذلك بل قام باحتكار صناعة الصابون دون حرفييها في دمشق ويقول حسن آغا العبد : « ماأحد استرجا يطبخ صابون إلا هو يبيعه من تحت يده^(٥) » . كما أبطل العديد من الحرف كاللامي والملاعيب والنوبات والآلات فحرم حرفييها من التكبسب بها ، وفرض على الحرفيين مائة وخمسين كيساً من المال^(٦) .

والحقيقة أنه عندما كانت طوائف الحرف تأنس في نفسها القوة ، كانت تتصدى لمظالم الهيأة الحاكمة فتفرض ماتريده ، فمثلاً في عام ١٨٣١م وعندما حاولت الدولة العثمانية

(١) انظر : البديري ، حوادث دمشق اليومية . ص ٢١٤ .

(٢) انظر : مشاققة ، ميخائيل . مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان . ص ٤٨ ثم شهاب ، حيدر تاريخ أحمد باشا الجزار . ص ١١٣ .

(٣) انظر : العبد ، حسن آغا ، ص ١٣٩ .

(٤) المصدر السابق . ص ١٤٣ . وربما الشنبر بدلاً من الشهبندر وهو نوع من غطاء الرأس للنساء .

(٥) انظر : المصدر السابق . ص ١٤٨ و ١٤٩ .

(٦) انظر : المصدر السابق . ص ١٤٠ و ١٤١ ثم الدمشقي ، ميخائيل ، حوادث الشام ولبنان . ص ١١٠ .

فرض ضريبة الصليان على يد واليها محمد سليم باشا، نصبت طوائف الحرف وبقية أبناء الشعب المتأريس في شوارع مدينة دمشق وأعلنت الثورة وقتلت والي . وعندما عين بديلاً عنه والي علو باشا « قامت أهل البلد الصناعية مرادها تقب وتثور على مادة غلا الخبز فنزل التوفكجي بالدورة وقصد يكمش الناس المتظاهرين وتبين له أن الحرف ثائرة لأنها تريد تزويد أجرة الصنعة من أجل الغلاء فأخذ الصناعية زود دورة (حياكة القماش) القطني كانت ٦ صارت زود ٦ والفتالة (للغزل) كانوا يأخذوا على رطل الحرير أحد عشر صار اثني عشر الالاجة زادت نصف قرش . وحرفة الكريشانية (نشارو الخشب) طلبت زود »^(١) .

وعندما بدأت قوات ابراهيم باشا تزحف على بلاد الشام واقتربت من دمشق اضطربت أحوالها وعلت الأسعار فيها فاضطرت طوائف الحرف لرفع أسعار منتجاتها كي توازن بين دخلها ومصرفها^(٢) .

وبالرغم من كل ماتعرضت له طوائف الحرف من مظالم فقد بقي دخل أصحابها يؤمن لهم معيشتهم إلى قيام الثورة الصناعية في أوروبا . نتيجة لاختراع ريتشارد كرايت أولى آلات غزل القطن في سنة ١٧٦٧م / ١١٨٠ - ١١٨١هـ ، ولاستخدامه طاقة الماء في إدارتها بدلاً عن طاقة الانسان في ١٧٧١م / ١١٨٤ - ١١٨٥هـ ، ولاختراع آلة تمشيط الغزل في ١٧٧٥م / ١١٨٨ - ١١٨٩هـ ، وإدخال تحسينات على آلات الغزل في ١٧٩٠م / ١٢٠٤ - ١٢٠٥هـ ، بإدخال طاقة البخار في إدارتها . فعندما عم استخدام هذه الآلات أدى إلى زيادة في إنتاج النسيج في الدول الأوروبية ، وفاض عن حاجتها المحلية ، مما دفع بهذه الدول للبحث عن أسواق لتصريف فائض إنتاجها ، فرأت في الأسواق العثمانية القرية ضالتها ، واستغلت المعاهدات التجارية مع العثمانيين . وقامت بتطوير وسائل النقل البحري بإدخال طاقة البخار في تسيير السفن ، وأدى ذلك إلى زيادة في حملتها وإمكانية سفرها في مختلف الظروف والأجواء^(٣) ، ونتج عن ذلك أن أغرقت موانئ شرق المتوسط (بلاد

(١) انظر : مجهول . مذكرات تاريخية . ص ٢١ و ص ٤٤ و ص ٤٥ و ص ٤٦ .

2 - Koury.G, opcit, P.196.

3 - Chevallier, D. «Beginning of modernization in the middle east the nineteenth Century» partie4, PP.206-207.

ثم مجلة المعرفة . ص ١١٢ إصدار سويسرة — ترجمة مصر سنة ١٩٧١م .

الشام) بمنتجاتها، ونقلت إلى الداخل لتنافس المنسوجات المحلية، لرخص ثمنها وثبات ألوانها وجودة صناعتها.

وعجزت المنسوجات المحلية عن الصمود في وجه المنافسة الأوربية. وزاد في الطين بلة اتباع الأوربيين الأساليب الجديدة في تعاملهم التجاري مع الدولة العثمانية، ومنها بلاد الشام. ففرنسا مثلاً اصطفت لنفسها المواد الأولية، كالأصباغ وخيوط الغزل والألياف والزيت والجلود مقابل بضائع مصنوعة لديها، كما أخذت مافاض عن ذلك نقداً. أما إنكلترا فقامت ببيع أقمشتها من القطن الرقيق ببلاد الشام مقابل المعادن الثمينة في، وأصبح الاتاج السوري باستثناء الحرير لا يلائم الصناعة الأوربية، وحتى الحرير المنتج، لم يتوفر منه أكثر من حمولة ٣ — ٤ بواخر أوربية. وماتبقى من السلع الشامية قد أهمل، وأصبح ميزان التجارة العثماني في عجز دائم لصالح دول أوربا^(١). وجاءت الضربة القاضية للصناعات الشامية في عهد ابراهيم المصري، فبالرغم من أنه أنعش بعض الحرف التي كانت تعمل لصالح الجيش المصري، إلا أنه من جهة ثانية فتح أبواب دمشق على مصراعها للقناصل الأجانب وتجارهم، وشجع تجارتها مع أوربة، فلم تقو حرفها وصناعاتها على مقاومة الصناعات الأوربية التي أدخلت منتوجاتها إلى السوق الدمشقية على نطاق واسع، فأفلس العديد من تجارها وصناعيها، وكنتست بضائع أوربا من طريقها العديد من منتجات أنوالها النسيجية، فزاد عدد العاطلين عن العمل وانخفض ثمن الخلو (كدك الحوانيت)، وعجز معظم الحرفيين عن دفع الضرائب المترتبة عليهم للدولة. وسجلات محاكم دمشق الشرعية لتلك الفترة، مليئة بالإشارات التي تدل على مآل إليه حالة الحرفيين من جراء ذلك.

ومما كتبه بوال كومت لحكومته في سنة ١٨٣٣م «إن قدوم الأقمشة الانكليزية قد تسبب في تعطيل /١٠ر٠٠٠/ عامل عن العمل في سنة واحدة. ومايين عامي ١٨٢٨ — ١٨٢٩م وجد في مدينة دمشق وحدها /١٠٧/ مخازن تبيع المنتجات الانكليزية. وكان إدراك تأثير ذلك على الصناعات المحلية سهلاً وواضحاً. وكان عدد أنوال القطن والحرير في حلب محدود /١٢٠٠/ نول تنسج في اليوم /١٢٠٠/ قطعة تقريباً، وكان يعمل فيها في سنة ١٨٢٩م ماين /٥٦٠٠ — ٦٠٠٠/ عامل وكانت تنتج نوعاً من

١ - Chevallier, op.cit. PP.209-210.

القماش المرتفع الثمن سواء أكان من الحرير أو القطن، ولم يبق منها عاملاً في مجال نسيج القطن سوى / ٥٠٠ / نول^(١).

وفي إحدى القضايا المسجلة في ٥ محرم عام ١٢٦١هـ / ١٤ كانون الثاني عام ١٨٤٥م، يطلب أحد كبار الملتزمين للضريبة على بعض طوائف الحرف النسيجية في دمشق، من السلطات المسؤولة، تخفيض قيمة الالتزام لهذه الضريبة بسبب «حالة الكار وقلة تشغيله من قبل تكاثر وجود أجناس بضائع افريقية. فالأقمشة الشامية كل مالها على تدني ومن ذلك يزيد بالاقلام (الالتزام) المذكورة تتدنى حاصلاتها، وهذا شيء معلوم عند حضرتركم»^(٢).

وهكذا اضطر معظم حرفيي صناعة النسيج في دمشق لترك حرفتهم والبحث عن مصادر أخرى للعيش «لوقوف حال أغلبهم أصبحوا يبيعوا خبز وخضر من قلة السبب»^(٣)، في حين استطاع العديد من تجار دمشق أن يكيّفوا أنفسهم مع الواقع الجديد، فبدأوا يبيعون البضائع الأجنبية في متاجرهم، وأصبح تعاملهم مع (لوندرا) وغيرها مألوفاً، وبرزت نتيجة لذلك طبقة برجوازية تجارية محلية أثرت على حساب اقتصاد دمشق وقوت حرفيها. وكان هؤلاء التجار من مختلف المذاهب الدينية. ولقد أدى التداخل بين الاقتصاد الأوربي والاقتصاد الدمشقي إلى تعقيدات عدة، فاقتضت الحاجة لإنشاء محكمة تجارية في العهد المصري، ثم أُلغيت، إلى أن أقيمت بشكل دائم في عام ١٨٥٠م^(٤). وترتب على هذه التحولات الكبيرة أن أصبح الاقتصاد المحلي تابعاً للاقتصاد الأوربي. وأدى ذلك بدوره إلى تحولات عميقة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في بلاد الشام.

الفلاحون

شكل هؤلاء قاعدة عريضة في الهرم الاجتماعي لبلاد الشام، لأن مجتمعها كان زراعياً يتخذه بعض الحرف والتجارات. وعاش الفلاحون على الزراعة وتربية المواشي. وكان فلاحو

1 - See: Polk, William. opcit .P.166.

(٢) انظر: السجل رقم ١١ / محاكم دمشق / ص ٩٩ / ٥ محرم ١٢٦١هـ / ١٤ كانون الثاني سنة ١٨٤٥م.

(٣) انظر: مجهول. مذكرات تاريخية. ص ١٦٣.

(٤) انظر: رافق، عبد الكريم. مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني. مقالة له في مجلة دراسات تاريخية. العدد الرابع. ص ٥٥ / نيسان ١٩٨١م.

دمشق يعتمدون في زراعتهم على مياه بردى وبعض الينابيع المتفرقة، كما كان البعض الآخر يعتمد في ذلك على ما تجود به السماء من الأمطار (الزراعة البعلية). إلا أن ذلك كان خارج غوطتها وفي المناطق الجنوبية منها بشكل خاص.

ورغم أن الفلاحين كانوا أكثر عدداً من بقية السكان إلا أن نفوذهم السياسي كان من الضحالة بحيث لم يأت بعدهم في الترتيب الاجتماعي سوى البغايا والعبيد.

استقر الفلاحون في دمشق وضواحيها وأريافها، وفي المناطق الجبلية المحيطة بها وسهولها الجنوبية، وقامت تجمعاتهم في الغالب على أصول قبلية عشائرية أو أسرية (ضمن القرية الواحدة أو مجموعة من القرى المجاورة) أو على أساس طائفي، وفي القليل النادر على أساس عرقي (قومي) كحيتية التركان في غوطة دمشق أو سريان جبعلين ومعلولا، وأكراد ريف ركن الدين وقرية قلدون والزبداني. ومع ذلك لم يحرم الفلاحون الروابط الحرفية. كغيرهم من الحرفيين الآخرين في دمشق. إلا أن شيخ حرفتهم كان شيخ القرية، كما كان للبساتنة شيخ يطلق عليه اسم شيخ البساتنة.

وكان شيخ القرية رئيس الأسرة القوية فيها، وينظر إلى الشعب نظرة السيد فيسلبه راحته فضلاً عن ماله أنى شاء وكيف شاء^(١). هذا إذا أرضى سادته من هيئة الحكام التابع لهم كالمقدمين والأعيان أو القضاة أو المفتين أو الأغوات، الذين كانوا يضمّنون مال الميري من الدولة بالمزاد العلني. وكان هؤلاء السادة يحاولون وبشتى الوسائل جمع أضعاف مضاعفة مقابل ما دفعوه للدولة من جيوب الفلاحين. لهذا قاموا بافتعال الخلافات بين مشايخ القرى وغرمائهم، وأزكوا نار الفتنة بينهم، وتوجوا ذلك بعزل شيخ الضيعة بغية ابتزاز الأموال منه ومن غريمه الطامع للمشيخة. ويذكر صاحب «المقترّب في حوادث الحضر والعرب»: بأن الآغا الملتزم يرسل «وراء كبار الضيعة ويقول له أنا أعملك شيخ على الضيعة وأعزل فلاناً ماذا تعطيني؟ فيرغب التعيس بهذا الكلام ويدفع ألف قرش أم ألفين الذي يرتضوا عليه فيعزل الشيخ الحاضر وينصب الجديد. ومن المعلوم أن الشيخ الذي انعزل من منصبه وترزل لا يسكت ولا يقبل عليه الذل والعار قدام أهل الضيعة فينزل على البلد ويترامى على الآغا الضمان ويدفع أكثر مما دفع الشيخ الجديد فحينئذ الضمان يعمل ذنب إلى الشيخ الجديد

(١) انظر: مشاقفة، ميخائيل، مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان. ص ٣٠.

ويرجع القديم إلى المشيخة يكون كسب بهذه الحركة مقدار نصف الضمان ويوجد من الضمانة الطماعين الذين يعملون هذه الحركة مرتين في السنة»^(١).

ومن جهة أخرى ترأس شيوخ القرى شخص يطلق عليه اسم «شيخ مشايخ القرى أو المقاطعة» واعترفت الدولة العثمانية بسلطته. وكان شيخ المشايخ غالباً من الإقطاعيين أو من رؤساء القبائل أو العشائر القاطنة في تلك المقاطعة، أو من زعماء السباهية أو رجال الدين أو الانكشارية أو شيخ قرية. وكان يقوم بجمع الضرائب للدولة من مشايخ القرى التابعة له، كما كانت له قوات خاصة مسلحة تساعد في ذلك^(٢). وكان شيخ المشايخ يقيم له معاونين ووكلاء يطلق عليهم اسم مشايخ تعزيزاً لهم. وكان يفرض عليهم مالاً محدداً ولا يسألهم عن أعمالهم، فيمرحون ويطلقون لمطامعهم الأشعبية الأعنة في مص حياة الشعب من عروقه بلا شفقة، وكانوا يستعبدون ويأتون المنكرات في أكثر أعمالهم الجائرة، والفلاحون يؤدون الطاعة العمياء^(٣).

أما الفلاحون فيمكن تصنيفهم آتخذ إلى درجات، يأتي في أدنى المراتب الفلاحون الخاضعون لنير الإقطاعي مباشرة. وكانوا أفقر فئات الفلاحين، حتى أن زواجهم خضع لموافقة الآغا أو البك أو الشيخ. ثم هناك الفئة الثانية من الفلاحين، وهم العمال الزراعيون الذين تمتعوا بحرية التجوال للحصول على لقمة العيش. والفئة الثالثة من الفلاحين، الفلاحون الفقراء، الذين كانوا يملكون قطعة أرض صغيرة لا تكفيهم للحصول على لقمة العيش فاضطروا لتقديم خدماتهم لأغنياء الفلاحين، أو عملوا في المدينة أعمالاً مختلفة. ثم الفئة الرابعة وهم الفلاحون متوسطو الحال، وهؤلاء ملكوا قطعة من الأرض تغل عليهم مايكفيهم لمستوى حياة متواضعة في القرية. أما الفئة الخامسة من الفلاحين فهم الفلاحون الأغنياء. وهؤلاء كانوا يقومون بتشغيل فلاحين آخرين في أرضهم وتحت إشرافهم مباشرة. وهم غير منتجين ولكن مصارفهم لا تعرف التبذير. ثم الفئة السادسة من الفلاحين وهم فلاحو الدولة الذين عاشوا في قلق دائم، إلا أن أحوالهم المادية كانت أحسن من الفلاحين الذين عملوا لدى الإقطاعيين^(٤).

(١) انظر: الصايغ، فتح الله ص ١٦٧ و ٦٧ ب.

(٢) انظر: السيوي، حبيب. سورية ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. ج ٢. ص ٦٠.

(٣) انظر: مشافة، ميخائيل. المصدر السابق. ص ٣٠.

(٤) انظر: حنا، عبد الله. القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان. القسم الأول. ص ١٢٧.

ومن جهة أخرى فقد ساد البرود علاقة الفلاحين بالمدينة ، وكانت علاقة اقتصادية ذات منفعة متبادلة والنقد^(١) . على حين كانت علاقة الفلاحين مع بعضهم تقوم على النقد أو على أساس المقايضة . ورغم المنفعة المتبادلة بين أبناء الريف والمدينة فلم يكن الفلاح ليحظى بالاحترام من أبناء المدينة بل كان محط سخريتهم^(٢) .

ومع ذلك فإن فلاحي الغوطة شاركوا بعض أبناء مدينة دمشق في الصراعات السياسية . وانتصروا لهم بتأثير روابط العصبية الجاهلية . فمثلاً أهل الحلقة انتصروا لأهل العمارة في صراعهم مع أهل الميدان ، كما اعتمد أبناء دمشق على الفلاحين عندما ثاروا على محمد سليم باشا بسبب ضريبة الصليان في عام ١٨٣١م ، حيث « نهوا على أهل الضيع بأن الذي ماعنده بارود يشتري ، والذي ماعنده سلاح يشتري . وحينئذ جميع الناس صاروا يشتروا بواريد والسلاح صار عند جميع الناس »^(٣) .

وبالرغم من أن الروابط العشائرية أو العائلية بشكل عام قد وفرت الأمن والتعاون بين الفلاحين ، إلا أنها من جهة أخرى قد جرت الويلات عليهم . ولم تكن السلطات العثمانية بعيدة عن إثارة النزاعات العشائرية بين الفلاحين لتبتزهم جميعاً . ويقول صاحب (المقرب في حوادث الخضر والعرب) « كان ديدبان الحكام وكبار البلد إلقاء البغضى وعدم الوفاء والمحبة بين الفلاحين .. ولو لا وجود البغضى بينهم لما كان أحد قدر شرب ماء من عندهم »^(٤) .

وجرت الصدامات ، على الفلاحين ، الويلات والكوارث . فأزهقت الأرواح وهدمت البيوت ونهبت المواشي والأرزاق وقطعت الأشجار وحرقت البيادر وردمت آبار المياه ، فهجر العديد منهم قراهم . ولم تحدث الصدامات بين فئتين تنازعتا في القرية الواحدة ، بل نراها أحياناً تجري بين قرية وأخرى ، أو بين عدة قرى في المقاطعة الواحدة . هذا ناهيك عن ضغط البدو على فلاحي قرى منطقة المرج من دمشق أو القرى التي تقع على حوافي البادية بشكل عام ، ففرضوا الخوات على هذه القرى ورعوا كل أخضر ، خاصة في السنين العجاف ، وزاد في الطين بلة ضعف السلطة العثمانية وعجزها عن دفع أذية البدو ، مما أجبر الفلاحين على

(١) انظر : جيب وباورن . المجتمع الإسلامي والغرب . ج ٢ . ص ٨ و ٢٣ — الترجمة .

(٢) انظر : المرادي ، محمد خليل . سلك الدرر . ج ٣ . ص ٢٧٦ .

(٣) انظر : مجهول مذكرات تاريخية . ص ٣٥ .

(٤) انظر : الصايغ ، فتح الله بن أنطون . ص ٦٠ و ٦١ .

هجر قراهم . ويقول الرحالة بوركهارت : « قليلاً ما نرى من الفلاحين الذين ولدوا في قرية من حوران يموتون فيها لكثرة ترحالهم كالبدو تقريباً فلا يستقرون في قرية ما حتى يمارس عليهم نوع من الاضطهاد والعسف فيدفعهم ذلك للهجرة إلى قرية أخرى » . وكثيراً ما لعب ضغط شيخ القرية دوراً في هذه الهجرة ، وأدى ذلك بدوره إلى بروز ظاهرة عدم تشجير الأراضي الزراعية في حوران ، وانتفاء الأرض المزروعة بالخضروات . حيث يقول الفلاحون : « نحن لا نزرع هذه الأرض من أجل الغبراء »^(١) أي أنهم لن يقطعوا ثمار مازرعوا لاضطرارهم للهجرة بسبب تلك المظالم والخلافات .

ولقد أسهم في بلاء الفلاحين الذين عاشوا في الأراضي الزراعية البعلية ، شح الماء في بعض السنين العجاف ، وانتشار أسراب الجراد والفئران الحقلية والأمراض الوبائية والصقيع والسيول في أحيان أخرى ، وإذا ما حاول الفلاح مجابهة هذه الآفات والأدواء ، فبأساليب لم تستطع ، في أحسن الأحوال ، أن تنقذ إلا القليل من مواسمه ، ولم تقو مواسمه حتى الجيدة منها في أحسن السنوات على أن التصدي لحالات الطوارئ الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية التي كانت تجابهه .

والحقيقة أن وضع الفلاحين كان مختلفاً إلى حد ما بين غوطة دمشق التي تروىها مياه بردى وفروعه معظم فصول السنة ، والمناطق البعلية الأخرى التي تعتمد في زراعتها على مياه الأمطار ، إذ أن حال فلاحي الغوطة كان أفضل ، لإمكان زراعة أرضهم بأكثر من موسم واحد في السنة . مما يوفر دخلاً جيداً إذا ما قيس بدخول فلاحي المناطق الأخرى خارج الغوطة . وأدى بدوره إلى وضع اجتماعي أفضل . ولقد زرع فلاحو الغوطة أرضهم مرتين في السنة ، واستخدموا في ذلك أساليب الزراعة الحثيثة الموروثة منذ أجيال ، كما لعب التشجير المثمر في تلك الغوطة دوراً في رفع سوية دخل الفلاح المادية ، على عكس المناطق البعلية في حوران مثلاً .

ومن جهة أخرى فإن نظام توزيع مياه بردى على القرى كان يتم بشكل دقيق ، فلكل قرية من الغوطة أيام مخصصة تعرف بالعدان . ولتحافظ كل قرية على عدائها عينت عدة

1 - Travels in Syria and the Holy Land. P.299.

أشخاص لهذه الغاية، وكان يسمى أحدهم «الشاري»^(١) ولهم أجرة معلومة يتقاضوها سنوياً. وكانت مهمة هؤلاء تسريب المياه بنسب معينة، ومنع أي اعتداء على هذه النسبة من المياه، وهم الذين يحددون أدوار سوق المياه من قرية إلى أخرى. وكان شيخ البساتنة والشوفاصي يلعبان دوراً في تحديد البساتين ويشهدان على بيعها في المحاكم^(٢) وكان على كل نهر عدد من «المصاصات» لصرف المياه بنسب معينة تقدر بالقراريط، ومن المصاصات إلى مجاري لتروي بدورها البساتين من خلال الطواريق. ويقسم الطاروق إلى أشعاب (مفردها شعب)^(٣).

ولقد استخدم فلاحو الغوطة الذين لا تقع أراضيهم تحت مياه الأنهار، أو الذين لا تصل إليهم مياه الأنهار في فترات التحريق من السنة، مياه الآبار لري أراضيهم، واستخدموا في رفع مياهها النواعير العادية أو الفارسية التي تقوم بتدويرها الحيوانات، كما

(١) انظر: سجل محكمة الميدان رقم ١٩٨، ص ٣٢. وكان هناك نوعان من العدان عدان كبير وعدان صغير فمثلاً قرية الحيازة كانت تروي من نهر الزلف لها عدنان كبير وصغير، الكبير كل ١٤ يوم نهار الخميس وليلة الجمعة كامل النهر أما عدانها الصغير فكان يوم الجمعة الثانية وليلة السبت نصف النهر وكما ترى فقد حدد العدان بأحد أيام الأسبوع وساعات من اليوم. ونسوق مثلاً على ذلك بستان الزاغة من أراضي القنية والحمرية شربه من نهر المعلقات ومن ماء الحرق ومن الخللخال يوم الاثنين من الفجر إلى غروب الشمس في كل أسبوع ومن المعلقات والكلاّب نهار الجمعة من الفجر إلى غروب الشمس وليلة الأربعاء في خمسة عشر يوماً من غروب الشمس إلى فجر نهار الخميس. انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٢٣ / ص ١٢٩.

وكذلك أراضي التطابع بالجورة بها أراضي فواكه وزيتون تروي من نهر الأنباط عدنانان في كل سبعة عشر يوماً على نوب أهله وفي كل أربعة وثلاثين يوماً خمس ساعات من نهر الأنباط والشاغور على نوب أهله أربعة أيام وثلاثاً يوم مع ليالها وفي أوائل تشرين السبت من نهر الأنباط والأحد من نهر بانياس. انظر: السجل رقم ٣٣٦ / محاكم دمشق / ص ٧٢.

كما كان مستأجر وبساتين الوقف في دمشق والتي كانت تروي من فروع بردى. يدفعون للدولة مبلغاً من المال مقابل ما يدخل إلى بساتينهم من الماء من ماهية النهر.

انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / لسنة ١٢٠١ — ١٢٠٣ هـ. ص ٤٩٠.

(٢) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٣٥ / ص ١٨٩ تاريخ القضية / محرم ١٢١١ هـ / ثم: ص ٥ من نفس السجل.

(٣) وهي فروع من بردى مثل: يزيد — قنوات — بانياس — الداراني — تورا — العقرباني — الدعايني — المليحي — الزبديني — الزابون — البيلاني — الملك — الشعراي — الأبيض — وغيرها وكان كل واحد من هذه الفروع يروي جهة معينة من غوطة دمشق. أما تقسيمها فكان يعود إلى عهود قديمة وكان لكل قرية أيام مخصوصة تعرف بالعدان.

انظر: القاسمي، محمد سعيد. قاموس الصناعات الشامية. ج ٢. ص ٢٤٩.

استخدموا في تسميد أراضيهم القمامة واشتروها من كناسي القمامة وبعض الخانات في دمشق. واستخدم الفلاحون الأتنية القدية في مناطق القلمون، وهذه القنوات كانت عبارة عن آبار متتالية محفور كل واحدة منها على مسافة محددة عن الأخرى بحيث تسمح المسافة لمياه البئر الأولى للوصول إلى البئر الثانية تحت الأرض وهكذا، إلى أن تخرج في النهاية على شكل نبع ماء متدفق يروي الأراضي التي تقع تحت منسوبه بالراحة.

وكان يشرف على هذه القنوات والآبار في القلمون شخص يطلق عليه (السواط) ويتناول أجراً عن ذلك مبلغاً من المال سنوياً^(١). وفي غوطة دمشق كان الفلاحون يملكون مساحات قليلة من الأرض. وكان منهم الحراس أو الأجراء، وكانوا يستخدمون البغال والجمال والحمير والبقر في جر المحراث الروماني القديم. وكان الفلاح يقوم بسوق هذه الحيوانات بهدف الانتهاء من الحراثة إلى المعالف الخاصة بها حيث يقدم إليها التبن والكرسة أو الفول أو الجلبان، والماء لسقايتها. وكان لبعض هؤلاء أجر سنوي على ذلك. وكان من الفلاحين (الشداد) أو المستأجر أو المزارع للحراث. كما وجد منهم الخولي، وكان يعمل لدى شداد الفلاحة أو مستأجرها، وهو ذو خبرة ومعرفة بسائر متعلقات الفلاحة، وكان يلاحظ مزروعات سيده الشداد ويقوم بالتنقيش على أشجاره خوفاً من التكسير ويراقب المربعين، ويستأجر الفعلة في أيام الزهر والعزق والتجبير والتعشيب والتنقيش ويقدم لهم، بديلاً عن سيده، أجورهم. ويسلم قطعة خشبية محفورة يطلق عليها اسم (الروشم) منقوش عليها اسم سيده أو كلمة: يا كريم — أو يا حافظ — أو بركة — فيرشم بها أكوام الحنطة أو الحبوب الأخرى^(٢). فإذا ماسق أي شيء من هذه الكومة كان ينفطر عقدها ويختفي الرشم، فيكشف ذلك ويعاقب الفلاح الذي قام بالسرقة.

ولقد تنوعت أشكال المزارعة واختلف الاستغلال من منطقة إلى أخرى. فكان الزراع يقومون بخدمة الأرض وحراثها وزرعها وحصد محصولها ودرسها وذرئها، ولهم على ذلك ثلث المحصول^(٣). وكانت طريقة المربعة من أشهر أشكال المزارعة فيها يقدم الإقطاعي أو المعلم

(١) انظر: القاسمي، محمد سعيد: قاموس الصناعات الشامية. ج ٢. ص ٢٤٩، ص ٢٥٠، ص ٢٤٢، ص ٢٤٣.

(٢) انظر: خنشت، يوسف، موسى. طرائف الأس غرائب اليوم. أو صورة من حياة النبك وجبل القلمون في أواسط القرن التاسع عشر، ص ٤٨.

(٣) انظر: القاسمي، محمد سعيد. قاموس الصناعات الشامية. ج ١. ص ٩٦.

(البقر والبدارات الميري وجميع المصارف والفلاح يحط تعبهُ فقط ويأخذ ربع الرزق من جميع الأشياء من حبوب وتوتون وحرير وقطن وذرة ومشمم وغير ذلك لهذا اسمه رابع يعني شريكه في الربع^(١)). ثم هناك طريق الشراكة الحموية وفيها يقدم المالك السكن والأرض في حين يقدم الفلاح العمل، أما النفقات الأخرى من بذار وغيره فكانت تدفع مثالثة وبعد دفع الضرائب وغيرها من النفقات يقسم المحصول مناصفة.

أما النوع الثاني (فالمعلم يحط النصف والفلاح النصف من جميع الأمور من الميري إلى كل مصروف ويقسم الرزق مناصفة وبعد القسمة يأخذ الفلاح الربع من حصّة شريكه نظير أتعايه عليها^(٢)) والنوع الثالث (المعلم يحط كل شيء من كيسه من غير الميري إلى شيخ الضيعة عليها مبلغ معلوم يطلب من الشيخ والشيخ بدوره يطلبه من الرعية وقبل تقسيم الرزق فيما بين الفلاح ومعلمه يأخذ الشيخ الحاصل من جميع الذي يطلع السنة واحد وفي محلات أخرى من الخمسة واحد وهذا يتبع الأراضي الجيدات والتسعات أما النوع الرابع في الجبال والمقاطعات المحيطة بدمشق إذا أحد أراد يضمن ضيعة من المقدم فلا يتكلف إلى شيء كلياً ولا يحط الفلاح شيء كلياً فقط عليه يدفع الميري المرتب على الضيعة من الفلاحين ويأخذ من الحنطة والشعير وكامل الحبوب الربع ومن الحرير والتوتون النصف ومن الزيتون والفواكه كلها وله على الفلاحين أشياء راتبة أربعة مرات في السنة زخاير معلومة كبار من فحم وحطب وخواريف وجاج وبيض ولبن وحليب وهكذا أشياء فهذه ظاهرة لكن دائماً متصلة الزخاير الخدمات إلى بيت الضامن ولكن لا يقدر الضامن يعمل حركات مثلما يصير في الضيع الساحلي مثل حكاية العرايس خوفاً من المقدم بل يقتضي يمشي بكل ضبط مع الفلاح^(٣)).

وكانت نسبة الميري في قرى الغوطة تقدر بـ ١٢.٥٪، في حين كانت في قرى حوران تقدر بحسب الفدان وهكذا كانت القرية تدفع ١٢ كيساً للميري، فإذا كان هناك ٣٠ زوجاً من الثيران فإن صاحب كل زوج من الثيران يدفع جزءاً من ثلاثين جزء. وكل قرية مسعرة بالنسبة لضريبة الميري في سجل ضريبة الأرض الموجودة لدى الباشا أو الدفتردار

(١) المصدر السابق. ج ١. ص ١٢٨، ص ١٥٥.

(٢) حنا، بحمد الله. القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان. القسم ١، ص ١٢٠ ثم: القاسمي، قاموس الصناعات المشامة. ج ١. ص ١٥٦، ص ١٦٣، ص ١٦٨.

(٣) انظر: الصايغ، فتح الله بن أنطون. المقرب في حوادث الحضر والعرب. ص ١٠٠ و ص ١٧١.

وبمبلغ محدد وهذا المبلغ ينسجم مع تعداد سكان القرية، وفي كل ثاني أو ثالث ربيع كانت أرض القرية تقاس بحبال طويلة، وعندما يترك أي فلاح القرية، فإن المبلغ المترتب عليه يوزع على مجموعة سكان القرية من قبل شيخها، وكان الفلاحون يتحملون كامل الضريبة المترتبة على الأفدنة المزروعة في ذلك العام. ويمكن أن تزداد أو تنقص كمية المال فيما إذا كانت الثيران قوية أو ضعيفة، أو إذا كانت كمية البذار المزروعة أو الأرض التي زرعت بواسطة أصحابها. فإن كل ذلك لا يؤخذ بعين الاعتبار ولهذا كان على الفلاح أن يحوي قطعاً قوياً من الماشية وعليه أن يحرث ما يستطيع من الأرض. فالبعض كان يزرع ٦ غرارات من القمح أو الشعير في الفدان الواحد، والبعض الآخر يزرع ٥ غرارات أو ٧ غرارات. أما حدود الحقول فكانت تحدد بواسطة حجارة ضخمة. وكان الميري يدفع عيناً أو نقداً، بحسب رغبة الباشا، إلا أن الفلاحين كانوا يفضلون دفعه نقداً لأنهم كانوا الراجحين بذلك.

وأما قرى جبل حوران فكانت تدفع مغارم أكثر من فلاحي سهل حوران المحيط بهم، لأنهم كانوا يدفعون بالإضافة إلى الميري الخوات للبدو. فمثلاً قرية «عمارة» كانت تدفع عن الفدان الواحد ١٥٠ قرشاً وقرية ازرع من حوران كانت تدفع ١٨٠ قرشاً. وكانت بعض قرى سهل حوران تدفع ١٢٠ قرشاً. وفي عام ١٨١٢م وصل ربيع الفدان الواحد إلى ٥٠٠ قرش^(١). ويشكل عام فقد ارتبط وضع الفلاحين بالظروف السياسية لولاية دمشق، لهذا مر وضعهم في مرحلتين متميزتين، أولاهما مابين بداية القرن الثامن عشر ونهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر، والمرحلة الثانية من نهاية المرحلة الأولى إلى بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر، أما المرحلة الأولى فتبدأ من أوائل القرن الثامن عشر (١١٢٠هـ/ ٧٠٩م) حيث كلف ولايتها بإمرة الحج وتجهيز قافلته بما تحتاجه من مواد تموينية. وكان ذلك يعتمد على ماتغله أرض الولاية. ولضمان زرع الأرض كان لابد من توفير الأمن للفلاح وتوفير أسباب الاستقرار له. ولقد استطاع ولاية دمشق الأقوياء في هذه المرحلة أن يوفروا ذلك، خاصة وأن معظمهم قد طالت مدة إقامته في منصبه وكان معظم الولاة في هذه الفترة من آل العظم حيث استطاع هؤلاء أن يدفعوا غائلة البدو عن الفلاحين واعتداءات الجند. ويقول البديري الحلاق: إن أسعد باشا العظم «قد أربب الكبار والصغار وعظم صيته في البراري والقفار»^(٢).

1 - Burckhardt, J.L. PP.299,300,301.

(٢) انظر: حوادث دمشق اليومية، ص ٧١.

أما المرحلة الثانية بالنسبة لوضع الفلاحين فتبدأ بانتهاء فترة ولاية دمشق الأقوياء حيث أعقبهم ولاية كان للأحداث الخارجية والداخلية دورها في عجزهم عن تحقيق ما حققه الولاية السابقون للفلاحين ، من توفير الأمن والاستقرار ، حيث سادت الفوضى في عهدهم ، وانعدم الأمن وزاد تعدي الأقوياء من الجند والبدو والهيئة الحاكمة على الفلاحين . وعجز الولاية عن التصدي للحركة الوهابية التي اشتد ساعدها في الجزيرة العربية وسيطرت على الأماكن المقدسة في الحجاز ، ومنعت الحجاج من الدخول إليها ، فانصب جام غضب الدولة العثمانية على ولاية دمشق الذين عجزوا عن تسيير قافلة الحج إليها ، فقصرت لذلك مدة بقائهم في مناصبهم . وهكذا سادت الفوضى وزاد التعدي على الفلاحين فمثلاً : عام ١٢١٨ / ١٨٠٤م عندما خرج السكان والدالاتية من دمشق نهبا في طريقهم « قري المزة والمعضمية والجديدة وعرطوز .. وهكذا جميع البلاد هلي في طريقهم من حمير وخيل وأواعي وغير ذلك »^(١) . وفي العام التالي قام جند والي دمشق ابراهيم باشا بعد عودته من الحج بنهب القرى^(٢) . وكان الجند يتصرفون مع الفلاحين كسادة مستبدين ، فيطلبون الخبز والقهوة والتبغ واللحم ويذبحون الدواجن ويرافق ذلك الإهانات والإذلال ، فكان سيف الجنود مسلطاً فوق رقاب الفلاحين يجبرون على السكوت على مظالمهم^(٣) . وكثيراً ما أجبروا فلاحي الغوطة المحيطة بدمشق للجوء إلى أسوارها خوفاً من الاعتداء . فمثلاً عندما جرى الصدام بين والي دمشق ووالي صيدا في عام ١٢٢٥هـ / ١٨١٠ - ١٨١١م « انتقلت أهل القرى والميدان إلى داخل الصور خوفاً من النهب والحرق »^(٤) .

ولم تكن عناصر الهيئة الحاكمة وزبائنها مصدر المتاعب والمظالم التي تعرض لها الفلاحون فحسب ، بل أسهم تجار دمشق بدورهم في هذه المظالم ، فكانوا يستغلون وضع الفلاح وحاجته للمال لشراء البذار والحيوانات أو لدفع غائلة الجوع عن أسرته في بعض السنين العجاف ، فتلقفه في مثل هذه الحالة أيادي المرايين من التجار وعناصر الهيئة الحاكمة الثرية ليسلفوه على مواسمه فلا يبقى للفلاح « بعد عذابه في الفلاحة والزراعة والحصاد والدراس وغير ذلك من المشاق العظيمة ودفع الضرائب للدولة من غلاله سوى النذر اليسير

(١) العبد حسن آغا . تاريخ حسن آغا العبد . ص ١١٢ .

(٢) المصدر السابق . ص ١٢٠ .

3 - Volney, op.cit. p.379.

(٤) انظر : العبد ، حسن آغا المصدر السابق . ص ١٥٢ .

وحتى الأوزان لم تسلم من تلاعب التاجر عندما يستلم الحبوب منه فتصبح عشرة الفلاح تسعة وإذا ما اشترى الفلاح الغلال من التاجر تصبح عشرة التاجر إحدى عشر، فيرجع الفلاح المسكين صفر اليدين بعد أتعابه طول السنة وتعاد الكرة مرة أخرى وهكذا^(١).

ويذكر الرحالة فولني الذي زار بلاد الشام في مطلع القرن التاسع عشر، أن المرايين كانوا يفرضون على الفلاحين نسبة من القوائد تتراوح ما بين ١٢ — ١٣٪. ويقول فولني: «إن حالة الفلاح أصبحت بائسة وأصبح يأكله الذرة والبشعر مع البصل والعدس... وإذا ماتوا له الزيت والشحم فيعتبر ذلك من المأكّل الشهية^(٢)» أما ضريبة الأعشار فكانت أشدّ الضرائب وطأة على الفلاح لما يضاف إلى هذه الأعشار من الزوائد للسماسة والمتزيمين وأرباب النفوذ. وكانت تجبى منه هذه الأعشار سواء أثمرت أرضه أو لم تثمر. بالإضافة إلى دفعه ضريبة الخراج التي بقيت على الفلاحين المسلمين إلى أن ألغيت في ٧ أيار ١٨٥٥م^(٣). ولقد استطاع ضامنو الأعشار من الدولة أن (يحصلوا) من الفلاحين نصف حاصلاتهم^(٤). أما صيارفة اليهود فقد لعبوا دوراً أمر وأدهى في ظلم الفلاحين، إذ استطاعوا أن يملكوا حتى نهاية منتصف القرن التاسع عشر جزءاً كبيراً من أراضي الغوطة والربوة والمزة^(٥) واستخدموا طرقاً ملتوية للحصول على الأموال عندما كانوا مكلفين، كصيارفة، بتمويل قافلة الحج وجنود حراستها.

وكانوا ينصبون حبالهم الخبيثة لابتزاز أموال الفلاحين على الشكل الآتي:

- ١ — يقومون بتخفيض سعر النقد قبل موعد خروج قافلة الحج، وكان أمر ذلك ييدهم بطبيعة عملهم.
- ٢ — ثم يسلفون جنود حراسة قافلة الحج على شكل سندات تؤخذ منهم على حساب الضرائب التي ستجمع من الفلاحين من أموال الميري بعد نضج محاصيلهم.

(١) القاسمي، محمد سعيد. قاموس الصناعات الشامية. ج ١. ص ٥٥، ص ٥٦.

2 - Volney. op.cit. p.379.

(٣) انظر: الرفاعي، مصطفى. الإسلام نظام إنساني. ص ١٢٥. ثم: حنا، عبد الله، القضية الزراعية. قسم ١ ص ١١٠.

(٤) القاسمي المصدر السابق. ج ٢، ص ٣١٠.

(٥) انظر: حنا، عبد الله. المرجع السابق. ص ١٠١ و ١٠٢.

- ٣ — ولحاجة الجنود الماسة إلى المال يقوم سماسرة اليهود الذين كانوا يترصدونهم خارج السرايا ، فيشترون منهم هذه السندات مع أخذهم عمولة على ذلك ، على أن يحصل هؤلاء السماسرة على أموال السندات المشتراة فيما بعد من الفلاحين .
- ٤ — يقوم الصيارفة اليهود بالتواطؤ مع أبناء دينهم السماسرة برفع سعر النقد ، قبل جمع أموال الميري من الفلاحين .
- ٥ — يضطر الفلاحون عند دفعهم ما عليهم من أموال الميري للدولة للدفع بالسعر المرتفع فيجني اليهود بذلك الأرباح الطائلة من هذه العمليات . ولا غرابة إذا ما أصبح بعض اليهود أغنى سكان دمشق^(١) ، كما أضحي الفلاحون أشقى فئات الهيئة المحكومة . وارتضى الفلاحون الاستعباد على أن يكونوا أحراراً مالكين الأرض ، وذلك تخلصاً من الأعباء والضرائب الثقيلة التي لا تتحملها نفس بشرية^(٢) ، فهجر العديد من الفلاحين قراهم حتى أصبح تدهور الإنتاج الزراعي مشكلة خطيرة ، مما دفع بالسلطات العثمانية في استانبول لإصدار أوامرها إلى والي دمشق في سنة ١٢٤٤هـ للاهتمام بالأرض والفلاحين وعدم السماح لهم بالتسكع بالشوارع^(٣) .

ملكية الأرض والفلاحون

شكلت ملكية الأرض ونوعيتها دعامة أساسية في الوضع الاجتماعي . لهذا كان لا بد من التعرف على أنواعها ، بحسب ما كان منها تحت تصرفهم وبحسب مساحاتها . ولكن تحقيق ذلك بالنسبة لنا يبدو صعباً نظراً لتعقيد نظام الملكية ، واختلافه من مقاطعة إلى أخرى في ولاية الشام . كما لا تسعفنا في هذا المجال إحصاءات دقيقة . ونستطيع مع ذلك رصد أربعة أصناف من الملكية هي :

- ١ — أراضي الدولة أو الأراضي الأميرية أو الميرية : وكانت هذه الأراضي تعتبر ملكاً للسلطان (أمير المؤمنين) .

(١) انظر : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق العدد ٩/ص ٦٤٥ ، ص ٦٤٦/١٩٢٩م .
 (٢) انظر : كرد علي ، محمد . جباية الشام في الإسلام مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق العدد ١/ص ٢٦٥ . سنة ١٩٢٩م .
 (٣) انظر : الوثائق التاريخية في دمشق — المجلد الثاني /ص ٣٦ ، ص ٣٧ — الوثيقة رقم ٣٠/ سنة ١٢٤٥هـ دار الوثائق التاريخية — المتحف الوطني بدمشق .

٢ — أراضي الأوقاف: وحسبت هذه الأراضي على وجوه خيرية عديدة، وكان منها الإسلامي والمسيحي واليهودي، كما كان منها أوقاف ذرية، حسبت على ذرية الواقف.

٣ — أراضي الملكية الخاصة: وكانت قليلة إذا ماقيست بسابقاتها من الملكيات ولصاحبها حق التصرف بها من بيع وشراء أو إهداء، وكانت الدولة تتقاضى عنها ضريبة العشر والخراج. وتجبى الضريبة منها على أساس الغلة ويسمى في مثل هذه الحالة (خراجاً مقسماً) أو على أساس المساحة ويسمى (خراجاً موظفاً)^(١).

٤ — وهناك نوع من الأراضي لا عشرية ولا خراجية وهي ماكانت تسمى «بأرض الخوز» وهي: مامات أربابها عنها بلا وارث وآلت إلى بيت المال، ويجوز للإمام دفعها للزراع بإحدى طريقتين: إما بإقامتهم مقام الملاك في الزراعة ويدفعون الخراج عنها، وإما بإجارتها لهم بقدر الخراج. فيكون المأخوذ من حق الإمام خراجاً، وإن كان دراهم فهو خراج موظف، وإن كان بعض الخراج ثمراً فهو خراج مقاسمة^(٢) وينتج عن تأجير مثل هذه الأراضي إقامة المتأجرين بيوتاً عليها أو زرعهم شجراً.

وبقيت أصوله وأطلق على ذلك تعبير (القمامة والكراب) ولقد استفتي في شأنه عدد من المفتين في دمشق في هذه الفترة^(٣).

ولكن أوسع المساحات من الأراضي الزراعية كانت تنضوي تحت نظام الإقطاع. ولعجز الإقطاعيين عن تلبية حاجات الدولة في المجالات العسكرية، أصروا على الاعتماد على صنف جديد من الجنود خصصت لهم الرواتب. وكان لابد من توفير المال لهؤلاء. لذلك فرض العثمانيون نظام الإلتزام للضرائب الميرية بتحصيلها من الأراضي. إلا أن هذا النظام قد

(١) انظر: لوتسكي. تاريخ الأقطار العربية الحديث. ص ٩.

(٢) انظر: ابن عابدين، محمد أمين. رد المختار على الدر المختار. ج ٣. ص ٣٥٣.

(٣) يذكر محمد عابدين الذي كان آنذاك أحد أمناء الفتوى في دمشق، أن المفتي محمد خليل المرادي قد استفتي أكثر من مرة بشأن مثل هذه الأراضي، وأصدر فتواه في ذلك. انظر: رد المختار على الدر المختار. ج ٥. ص ٢١. ووجد في غوطة دمشق نوع من المزارعة في مثل هذه الأراضي أطلق عليها (مشد السكة) وكانت الأرض تبقى بيد المزارع مدى حياته ويسجل ذلك في سجلات محاكم دمشق، وكان تركها والفرار عنها لفلان آخر يتم مقابل مبلغ من المال وعن طريق المحكمة. وهذا حق يورث للأبناء. انظر: السجل رقم ٣٣٦ / محاكم دمشق سنة ١٢٥٠ — ١٢٥١ هـ / ص ١٤٠.

فسد بدوره ، نظراً لما سببه من مظالم للفلاحين ، وتنتج عنها تقلص المساحات المزروعة بسبب هجرها من قبل الفلاحين ، وتناقص الإنتاج الزراعي فاضطرت الدولة لاتباع نظام ثالث جديد في هذا المجال وهو نظام «المالكانة» وحيث أعطت للإقطاعي حقاً في استثماره للأراضي الميية مدى الحياة ، وذلك من أجل رفع المظالم عن الفلاحين والسعي لاستزراع الأراضي وزيادة الإنتاج . وخصصت المالكانات في دمشق لزعماء الجند والسباهية ورجال الدين وغيرهم . فمثلاً : حسين الموصلبي المتوفى سنة ١١٥٢هـ / ١٧٢٩م كان من زعماء السباهية له إقطاعات في القرى^(١) ثم درويش آغا البيلية في دمشق المولود سنة ١١٢٦هـ / ١٧١٥م تولى بطريقة المالكانة قرية معلولا النصارى وقرية عيتا وقرية غزة وقرية قبر الياس^(٢) . وأراضي غيضة السلطانية بناحية المرج من غوطة دمشق كانت مالكانة محمد خليل أفندي الصديقي^(٣) . وعلي العجلاني (من أشرف دمشق) كانت له إقطاعات وقرى بطريقة المالكانة^(٤) . ثم شاكر العمري الحنفي المذهب الدمشقي المولود في سنة ١١٤٠هـ / ١٧٢٧م ، والذي كان مدرساً . حصل على رتبة «أتمشلي» وتولى قضاء جبلة بطريق «الأرلق» وتولى القسمة العسكرية ونيابة محكمة الباب في دمشق مراراً رست عليه قرية بسيمة من نواحي دمشق بطريقة المالكانة^(٥) .

وكان بعض أصحاب المالكانات يقيمون في دمشق أو في الاستانة ، ويلزمون مالكاناتهم لانس آخرين مقابل مبلغ من المال ، وعقد يكتب في إحدى محاكم دمشق . فمثلاً كان لأحمد بك بن حافظ علي باشا مالكانات كفر بطنه وخرزمية ، وكانت هذه المالكانات بتلزم حافظ عثمان آغا بموجب شرطنامه مؤرخة في ١٢٥١هـ / ١٨٣٦م . ولما توفي الملتزم المذكور لزم لحسين آغا كمخلي الشهير بالبلطجي من طرف الشرع الشريف ، ودفع بدل الالتزام على المتوال السابق لتركه المرحوم حافظ آغا وقدره ٦٥٠٠ / قرش وتوجهت إليه جميع ما يتصرف حافظ آغا من ملك المالكانة على جري العادة والقانون^(٦) . وكذلك مالكانة عين

(١) المرادي . سلك الدور . ج ٢ . ص ٤٣ .

(٢) المرادي . المصدر السابق . ج ٢ . ص ١٠٧ ، ص ١٠٨ .

(٣) انظر : سجل رقم ٢٢١ / محاكم دمشق . ص ٣٨٢ .

(٤) انظر : المرادي ، المصدر السابق . ج ٣ . ص ٢٠٦ .

(٥) انظر : المرادي ، المصدر السابق . ج ٢ . ص ١٨٢ .

(٦) انظر : سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١٢٥٠ / ٣٤٠ — ١٢٥١هـ ص ٥٣ القضية بتاريخ

٢١ / صفر / سنة ١٢٥٢هـ .

التينة كانت للحاج سليمان أفندي العلمي « كلار أميني » والذي كان يقيم في الاستانة وكان وكيله عليها في دمشق عبد الرزاق قباقيبي^(١).

وكان على تلك القرى موظفون مثل الصوباشي والأستاذ. أما الصوباشي فكان له على كل قرية عدد من غرائر الحنطة والشعير نظير مكبول الشوبصة فمثلاً: في سنة ١٢١٧هـ كان على قرية العمارة نظير مكبول الشوبصة (٨ غرائر حنطة و١٧ غرارة شعير)^(٢). ويبدو أن منصب الأستاذ كان موروثاً من عهد الإقطاع في زمن المماليك وبقي في العهد العثماني سائداً، إلا أننا لم نعرف مهامه بدقة وجل ماعلمناه أنه يقيم في دمشق بدلاً من قرى المالكانات، وتجري المعاملات المتعلقة بالمالكانة بمعرفته وبحضوره في محاكم دمشق.

واستطعنا أن نرصد عدداً من أساتذة هذه المالكانات التابعة لدمشق مثل: أستاذ قرية الجعيدية^(٣) وعين التينة^(٤) وأستاذ جبعدين^(٥) والبلاية^(٦) وأستاذ حوش عرب بالقرب من قرية العال بالجولان^(٧) ثم أستاذ قرية سكا وأستاذ زبدين ثم أستاذ الصنمين وأستاذ قرية حلبون^(٨) ثم أستاذ قرية الحناصر وكامد اللوز من البقاع^(٩).

وكان من جملة الخن التي أصابت الفلاحين، دفعهم أموال الميري للدولة على الأشهر القمرية في حين تنضج محاصيلهم بحسب الأشهر الشمسية، ولهذا كانوا يضطرون للاستدانة من تجار دمشق، وبالفائدة وكان تجار دمشق يأخذون منهم فائدة ما بين ٨ — ١٠٪ بحجة بيع هؤلاء الفلاحين مقادير من الصابون أو البن أو القمح أو الشعير أو الآلاجة. وكان من

(١) انظر: سجل محكمة الميდან رقم ١٢٥٩/٣٧٨هـ، ص ١.

(٢) انظر: السجل رقم ٢٥٠/ص ١٤ و ص ١٣٧ وفي سنة ١٢١٧هـ كان صوباشياً على قرية بركة السيد ناجي جوريجي.

(٣) انظر: السجل رقم ١٢٠١/٢٢١ — ١٢٠٢هـ/ص ٧٢ ص ٣٨٨ ص ٣٨٩ ص ٧٢.

(٤) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٢٢/٢٦٠ — ١٢٢٣هـ، ص ٣٩ ثم سجلها رقم ٣٤٠/ص ٣٨.

(٥) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٦/٢٥٠ — ١٢١٧/ص ٢١٧.

(٦) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ١٣١٢/٢٤١ — ١٢١٣هـ، ص ٤٢.

(٧) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢١٦/٢٥٠ — ١٢١٧هـ، ص ٧٩.

(٨) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٠١/٢٢١ — ١٢٠٢هـ، ص ٧٢ و ص ٢١٢ و ص ٣٤٣ و ص ٣٦٩ و ص ٣٧٠.

(٩) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٢١/٢٦٠ — ١٢٢٣هـ، ص ١٤٩.

أبرز تجار دمشق في سنة ١٢٠٣هـ الذين سلبوا الفلاحين أموالهم عن طريق الفائدة هو خليل آغا ابن عبد الرزاق المسودن . ففي سنة ١٢٠٣هـ استدان أهل قرية سكا منه / ٩٦٩٦ / قرشاً فضة صحيحة معاملة شامية على حكم التفصيل الآتي ذكره / ٨٣٣٠ / قرشاً من جهة دين شرعي / ١٦٦٦ / قرشاً ثمن بن حجازي ، وتم ذلك في المحكمة وشهد شاهدان على ذلك ^(١) .

إلا أن نظام المالكاتنة لم يخفف بدوره الأعباء عن كاهل الفلاحين فاضطر العديد منهم لهجر قراهم طلباً للرزق في رحاب مدينة دمشق ^(٢) وغيرها ، واضطرت الدولة لالغاء جند الإقطاع مع جند الإنكشارية في عام ١٨٢٦م فألغت مع السباهية نظام التيمار في ١٨٣١م وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر عندما أصيب الاقتصاد المديني وخاصة القطاع الصناعي بضرية موجعة إثر منافسة البضائع الأوربية ، أدى ذلك بدوره إلى ضرب العديد من الحرفيين فاتجه بعض هؤلاء إلى امتلاك الأرض وقام العديد من الزعماء المحليين والتجار ورجال الدين في دمشق بالحصول على المالكاتنات من الدولة لأنفسهم ولعائلاتهم عن طريق المزاد العلني وذلك في الغوطة وحووران والبقاع ^(٣) والمرج والقلمون .

وقبل دخول المصريين ، وبحسب ماجاء في تقارير جون باورنج ، فإن عدداً كبيراً من سكنوا الريف قد هجروا قراهم ولجأوا إلى المدن ، تاركين أرضهم دون زرع . إلا أن المصريين حاولوا القضاء على هذه المظاهرة السلبية ^(٤) . ففي عهدهم أصبح وضع الفلاح أفضل من الفترة السابقة ، إذ قام هذا الحكم بتشجيع الفلاحين على الاستقرار في الأرض وزراعتها ، وضيق على بعض الزعماء السياسيين وخفض من هيبتهم وسلطتهم وبسط الأمن على الريف والمدن ، مما وفر الجو المناسب للفلاحين للاستقرار ، فعاد معظمهم إلى قراهم التي هجروها في السابق ^(٥) « ووزعت الأراضي البور كما قام الحكم المصري بإعطاء الفلاحين الدراهم من أجل

(١) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ص ٣٨٨ . وكما ترى فإن الفلاحين لم يكونوا بحاجة لهذه الكمية من البن الأمر الذي اضطرهم في النهاية لبيع البن للتاجر الدائن وبأنخس الأثمان ، واعتقد التاجر أنه خدع الشرع ولكنه لم يخدع إلا نفسه .

(٢) خوري ، فيليب . مؤتم تاريخ بلاد الشام الثاني . ج ١ . ص ٤٤٩ .

(٣) المصدر السابق . ج ١ . ص ٤٥٤ .

4 - Polk. op.cit.P.180.

(٥) انظر : رسم ، أسد ، المصدر السابق . ص ٨٢ و ص ٨٥ و ص ٩٨ .

زراعة الأراضي البور وأدى ذلك إلى كثرة الخيرات في بلاد سورية مع كل ذلك ما كان يكلف البلاد شيء أبداً وكانت ذخاير دائماً متواصلة من مصر. من بكسمات وشعير وحنطة وعدس وفول وذرة ومن وأرز وغيره ثم أوعد بتشغيل كامل أراضي البور وعمارة كامل ضيع الخربانة^(١) وتخفيف المستنقعات فتوسعت المساحات المزروعة. ولم يكتف الحكم المصري بذلك في مساعدة الفلاحين بل أعطاهم التقاوي والبذار للمحتاجين منهم «حتى لا يصير ولا يبقى غدر للفلاحين في أمر الزراعة وفي الفلاح بما عليه من أموال الميري وإذا لم تستطع فلاحو قرية ما أو أكثر من دفع أموال الميري كان يعرض شأنها على المجلس ويدعى للمذاكرة»^(٢).

وقامت الحكومة المصرية أيضاً بنزع سلاح البدو وتشجيعهم على الاستقرار وترك حياة الترحال وزراعة الأرض فأعفت من أقام منهم على الأرض من الضرائب. والتفت الحكم المصري إلى ناحية هامة في الإنتاج الزراعي وهي عدم إثقال كاهل الفلاحين الذين استقروا مجدداً في الأرض بالضرائب. وأجل دفعهم للضرائب من سنة إلى أخرى كما حصل مثلاً «بقريه تلعران في ولاية حلب فكانت القرى المسجلة بدفتر الشواهي بثلاثة أرباع شاهية وحيث أنها عمار جديد وعمار الجديد يلزم له مساعدة لأجل ترغيب الفلاحين بالعمار فينبغي أن تنقيد القرية المرقومة بنصف شاهية يكون ترتيب المال عليها من ابتداء سنة ١٢٥٢هـ»^(٣) واستخدم الحكم المصري قواته، وخاصة الضباط، في زرع الأرض.

كما أتاح للفلاحين أن يتقدموا بشكواهم إلى الحكمدار، فيما إذا وقع أي ظلم عليهم في مجال تقدير القدن في القرى والضرائب على الأشجار المثمرة^(٤). وكانت شكوى الفلاحين تلقى آذاناً صاغية من قبل ذلك الحكم. وتساهل المصريون في جمع أموال الميري بحسب رغبة الفلاح الذي كان يفضل دفع أموال الميري نقداً، مما خفف عنه مسؤولية تمويل الجيش

(١) انظر: الصايغ، فتح الله. المقرب في حوادث الحضر العرب. ص ٧٦ ب ص ١٧٧ و ص ٨١ ثم انظر: POLK. OP. CIT. P. 226.

(٢) انظر: رسم، أسد، المصدر السابق. المجلد ٣ — ٤. ص ٨١.

(٣) انظر: رسم، أسد، المصدر السابق — المجلد ٣ — ٤. ص ١٥٠ — ١٥١. ولقد سكنت ٧٤ / قرية في منطقة حلب وزادت مساحة الأراضي التي غرست بالأشجار أو زرعت أراضيها، وزاد عدد القرى من ٢٣٨ إلى ٦٨٣ ما بين عامي ١٨٣٦ — ١٨٣٨ م. انظر: Polk. op. cit. P. 168.

(٤) انظر: رسم، أسد، المصدر السابق — المجلد ٣ — ٤. ص ٢٢٦. ثم انظر: Polk. op. cit. P. 223.

(الشونة) قدر الإمكان^(١) ووضع المصريون موظفاً خاصاً لتحصيل أموال الميري من الفلاحين وهو الناظر أو أغاسي، وحددوا لناظر القرايا المبلغ الواجب أخذه من الفلاحين دون أن يظلمهم. وكان ثمة دفاتر لشونة الجيش فإذا ما اضطرت الدولة لأخذ الشونة قامت بتوزيعها بالعدل على قرى الصنجق^(٢). كما عين ناظر نظار في الصنجق وقسم أموال الميري الذي كان يقوم بجمعها من الفلاحين.

والحق يقال إن ذلك كان بمثابة تحول كبير في حياة الفلاحين آنذاك، إذا ما قيس بعهود الظلام التي عاشها الفلاح في الفترة السابقة للحكم المصري. إلا أنه مع ذلك، بقي الفلاحون يشكون من بعض المظالم، وكان على رأسها ابتزاز الجند وبعض عناصر الهيئة الحاكمة وتأمين مبيتهم وطعامهم وتأمين عليق خيولهم والجراية.

وشكل التجنيد عقبة في وجه الإنتاج الزراعي، مما دفع بأبناء الفلاحين الشباب للفرار والاختفاء. وافتقرت بذلك الأرض لليد العاملة. وطلب مشايخ القرى من السلطات المصرية إرسال الجنود من القشلة إلى القرى لجني المحصول، وليمكن المشايخ من دفع أموال الميري المترتبة على قراهم^(٣). ومع ذلك بقيت شعاب الجبال والمناطق النائية بعيدة عن متناول السلطات المصرية. وأثر ذلك على حركة الهجرة فأصبحت بشكل معكوس من المدينة إلى الريف لتلافي السوق إلى الجندية. ومع ذلك فقد بقي حال الفلاحين والزراعة أفضل من الفترة السابقة للحكم المصري، وزادت المساحات المزروعة وعدد القرى المسكونة^(٤).

ومن جهة أخرى سعى الحكم المصري لتصدير المنتجات الزراعية إلى الخارج، فزادت المساحات المزروعة من الزيتون والقطن والحرير على حساب الزراعات الأخرى، فاضطر المزارعون الصغار لزراعة صنف واحد دون ما يكفيهم ويسد حاجته من المزروعات الأخرى التي كانت سائدة قبل دخول المصريين، فأوقعه ذلك في عجزه عن كفايته الذاتية واضطره لشراء السلع الأوربية والتعامل بالنقد بدلاً من المقايضة وأثر ذلك على مستواه المعاشي^(٥).

(١) انظر المصدر السابق، ص ١٦٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٨.

(٣) انظر سجل محكمة حماه رقم ١٢٥٠/٥٠ - ١٢٦٣ هـ، ص ١١١.

4 - Polk. op.cit.P.169.

5 - Polk. op.cit.P.223.

وحاول المصريون تخفيف وطأة المتغيرات الاقتصادية على الفلاحين فقام متسلمو الصنائج بالتخفيف من وطأة الجند المصريين على الفلاحين بأن خصصوا (قوناكات) في القرية لنزول الجند فيها عند الحاجة وصرفوا لهم العليق والجراية من مرتبات استحقاق المري على القرية ، وكلفوا ناظر الشونة بتسجيل ذلك في سجلات خاصة ، وإذا ما حصل أي اعتداء من الجند على الفلاحين كان يوقع بهم «جزاء لا يق»^(١).

وما أن استعاد العثمانيون بلاد الشام من المصريين ، حتى أصدر السلطان فرماناً بإعادة الأراضي التي سيطر عليها المصريون ، بشكل ما ، إلى ملاكها الأصليين . وقام هؤلاء بابتزاز الفلاحين ، وزادت الأحوال العامة من سوء أحوال الفلاحين ، فاضطروا للاستدانة لسد ماعليهم من الأموال للدولة . وتطالبنا سجلات محاكم دمشق بما آل إليه وضع الفلاحين . ففي ١٢٥٩هـ / ١٨٤٤م نرى مرسالة بين أهالي قرية الشفونية من غوطة دمشق إلى القاضي يطلبون فيها تقسيط ماعليهم من الأموال والديون^(٢).

(١) انظر : رسم ، أمد ، المصدر السابق — المجلد ٣ — ٤ / ص ١٧٥ .

(٢) ولقد جاء في مراسلة أهالي قرية الشفونية إلى القاضي العام مايلي : «إعلاماً به لكل واقف عليه وناظر فيه ومستمع إليه من أسباب الديون المترتبة بذمة أهالي قرية الشفونية بوجه العموم يحيطون علماً ويدركون إذعاناً وفهماً أنه ثبت لدينا وتحقق عندنا كثرة ديون أهالي القرية وفرة مطلوباتهم واضمحلال أحوالهم وتلف مزرعاتهم وموت بقرهم وآل حالهم إلى الدثور والاضمحلال وخراب قريتهم وتعطيل الأموال الميرية المترتبة عليهم وإن عليهم ديون كثيرة ومطالب وفيرة لا قدرة لهم على أدائها إلا على حكم التقسيط بأن يدفعوا أولاً الأموال الميرية الذي عليهم وثمن مزرعاتهم وبقريهم ومصارف تمشية أحوالهم وبعد ذلك يدفعوا ماعليهم من الديون لأربابها في عشرة أقساط متساوية كل سنة عشر الديون الذي بذمتهم لأربابها لكل صاحب مائة غرش عشرة غروش من فاضل كسبهم بعد أداء مصاريفهم اللازمة وبعد أداء الأموال الميرية وبعد أداء الستة آلاف الذي بذمتهم لأيتام الشيخ محمود وبعد ماأبرزوا ما في يدهم عرضحال مشروح عليه لنا من قبل حضرة كتبخدا أفندينا ولي النعم والي الشام حالاً .. عرض ذلك القاضي العام وقام بدوره برفعها إلى الوالي ... تحريراً في تاسع عشر من شوال / سنة ١٢٥٩هـ .

الداعي

السيد محمد نظيف القاضي بدمشق

انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٣٧٩ / ١٢٥٩هـ / ص ٣٧ وما بعدها .
كما ترى مثيلاً لهذه العريضة في ١٦ شهر أيلول شوال ١٢٥٩هـ ثم ختام ذي الحجة ١٢٥٩هـ وثلاث عشر ربيع الأول سنة ١٢٦٠هـ .

البدو

شكل البدو فئة اجتماعية متميزة في هيئة المحكومين . ومرد ذلك يعود لطبيعة حياتهم التي تنصب بالترحال ، بعيدين عن متناول سلطة الحكام ، كما كانت لهم تنظيماتهم الاجتماعية الخاصة . ولقد ساعدتهم طبيعة حياتها على التمتع بحرية كبيرة إذا ما قيسوا ببقية فئات الهيئات المحكومة .

ولقد أسهم البدو بشكل إيجابي أو سلبي في الحياة الاقتصادية لمدينة دمشق . فمن الناحية الإيجابية عملت بعض قبائلهم في خدمة قوافل الحجاج الشامية إلى مكة ، سواء بحمايتها أو بتأمين أدوات النقل الأساسية ، وكلف البعض منهم بحماية بعض القلاع المحيطة بدمشق .

ومن جهة أخرى شكل البدو ، بما لديهم من ماشية ، مصدراً هاماً من مصادر اللحوم والألبان والسمن والأجبان والأصواف وغيرها لمدينة دمشق ، كما وفر هؤلاء مورد رزق لبعض تجار دمشق وحرفييها ، فاعتمدوا عليهم في سد حاجاتهم من « الحنطة والرز والدبس والزبيب والتين والطحين والبرغل وآلات النحاس للطبخ مثل الدسوت والطناجر والمقالي والصحون والحلل وأنواع الملابس والمشالح والقمصان والمناديل والكفافي التي يستخدمها كافة البدو من أكبرهم إلى أصغر راعي وذلك لدرء وهج الشمس صيفاً والبرد في الشتاء وكذلك الجزمات وعدد الخيل من سروج ولجم وركابات والخرز للنسوان والمرايا والمقصات والإبر والدبابيس وغيرها ... واسوارات وحرار ملونة وقمصان قز ملبوس النساء وأصناف عطارة من فلقل وقرقة وقرنفل وحب الهال .. وقهوة وسكر ثم كافة لوازم الحرب مثل سيوف وتفنك وطبنجات وبارود ورمصاص ورماح وغير ذلك وشكل ذلك نفع كلي للناس وكثير الناسات من أهالي دمشق والمدن الشامية الأخرى عملوا كارهم على العرب . وكان الراجح دائماً هم أبناء دمشق ... » وكثيراً ما حصل هؤلاء على الثروة من جراء ذلك ، إذ أن عادة البدو هو الحصول على ما يحتاجون دون المفاصلة بالسعر فلا يميزون (إن كان غالي أو رخيص)^(١) . ولقد خرج بعض تجار دمشق بصحبة قافلة الحج للتجارة مع البدو ، في أماكن مختلفة من طريق الحج ، كمزريب ومداين صالح . وأطلق على هؤلاء التجار اسم « الجرادون »^(٢) وذهب بعض التجار

(١) انظر : الصايغ المقرب في حوادث الحضر والعرب . ص ٨ و ص ٢٩ .

(٢) انظر : القاسمي . قاموس الصناعات الشامية . ج ١ . ص ٧٩ و ص ١٣٠ ثم ج ٢ . ص ١٠٩ .

إلى البدو عندما كانوا يقتربون من أطراف الغوطة للمتاجرة معهم ، وأطلق على هؤلاء التجار اسم « القيسية »^(١) وعمل بعض الحرفيين أمثال (الجزائين) الذين كانوا يخرجون إلى البدو عندما يقتربون بإبلهم وأغنامهم إلى أطراف دمشق في فصل الربيع فيجزون لهم الأغنام مقابل أجرة معينة^(٢) ولقد أقيمت أيضاً علاقات من نوع آخر بين بعض أبناء دمشق ، الذين اهتموا بتربية الأغنام ، وبين البدو ، وكانت علاقة الطرفين في ذلك مبنية على أحد الأشكال التالية :

أولاً : الغنومية — وهي أن يشتري الدمشقي الأغنام ويسلمها للبدوي ، فينتقل هذا بها بين المعمورة والبادية . وتقوم أسرة البدوي بتقديم كل ما تحتاجه الأغنام من العناية والخدمة وحلب نعاجها الرغوث وتحويل ألبانها إلى زبدة وسمن وخاتر . ويتناول الحضري عن كل نعجة رطلاً من السمن علاوة على حملها الصغير ويأخذ البدوي مازاد عن الرطل . أما الصوف فيعود كله للبدوي لقاء تعبه . أما الرسوم الأُميرية المترتبة دفعها على الأغنام فالحضري كان يدفع رسوم الأغنام الرغوث والبدوي يدفع رسم الحائل . وتطالعنا سجلات المحاكم بين الحين والآخر بمثل هذه العلاقة بين البدو والحضر^(٣).

ثانياً : شركة العظم أو الحلبية وهذه تكون على شكلين :

- أ — يتناع كل من البدوي والحضري عدداً متساوياً من الأغنام فيأخذ البدوي بتريتها واستئجارها وفقاً لما ذكرناه (في الغنومية) وتقسم الجسائر والأرباح والنفقات مناصفة .
- ب — أو يشتري الحضري مائة نعجة ويقدمها للبدوي بعد أن يأخذ عليه

(١) جاءت هذه التسمية من قرية بالقرب من بغداد تسمى (قيس) .. انظر : الصايغ فتح الله . المقترَّب في حوادث الحضرة والعرب . ص ٢٠ ب و ص ٢١ آ و ص ٢١ ب وكان القيسي يبيع للبدو ريش النعام والتفلك ويشتري الخيول والجمال والصوف والغنم والسمن وغيره ..

(٢) انظر : المصدر السابق ص ١٢٣ آ . ثم : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج ١ . ص ٧٨ .

(٣) فمثلاً : ادعت — لدى قاضي حماه — عائشة بنت الشيخ أحمد الوارثة لوالدها أنه قبل وفاته أقام علاقة تربية أغنام مع أحمد بن خلف من عشيرة بني خالد على ٣٠٠ رأس بطريقة الشركة . وبعد وفاة والدها ادعى البدوي المذكور أن جميع رؤوس الأغنام المذبورة قد نفقت .. وأقام القاضي بالصلح بينهما على أن يدفع البدوي مبلغ ٣٠٠ قرش للمدعية المذبورة . انظر : سجل محكمة حماه رقم ١٢٥١ / ٥٠ — ١٢٦٣ هـ . ص ٣٣ .

١ سنداً بتسديد قيمتها حتى يتم تسديدها لمدة ١ — ٣ سنوات ثم تصبح الأغنام مناصفة^(١).

ولقد قامت بعض العناصر البدوية المستضعفة والتي استقرت في ضواحي دمشق وأرياضها بالخدمات المتواضعة، كالعمل في القيساريات أو في البيوت. وكان بعض النساء البدويات يلتحقن في حرم ملك الأعيان كخادومات إلا أنهن حافظن مع ذلك على زهن وعاداتهن^(٢).

ومن جهة أخرى فإن علاقة البدو بأبناء دمشق، لم تكن تتصف بالثقة المطلقة. فإذا ما اضطرت أحدهم حاجة ما للنزول إليها، كنت تراه متأهباً بسلاحه للتصدي لأي طارئ يعترضه.

ولقد انقسم البدو إلى قسمين أساسيين أولهما: (البدو الأقحاح) وهم «أهل الإبل» وكانوا يضيرون في أعماق بادية الشام إلى الجزيرة العربية، ثم «الشوایا» الذين كانوا يربون الشياه وهؤلاء ينتقلون بالقرب من الحواضر ولا يتوغلون بعيداً في البادية كأهل الإبل. هذا بالإضافة إلى بعض البدو الذين استقروا في الحواضر وهجروا بيوت الشعر، وأطلق عليهم اسم (الفلايخ). وكانت بيوتهم متواضعة من الطين وانصرفوا إلى الزراعة بالإضافة إلى تربية المواشي^(٣). واعتبر هؤلاء منحطي القدر في نظر إخوانهم البدو الرحل^(٤) أما مجتمع البدو فقد انقسم بدوره إلى (البيت) ويعنون به العائلة أو الأسرة، ثم (الفخذ أو الآل) وهو مجموعة بيوت ثم (فرقة أو الفندة) وهي مجموعة أفخاذ. ثم تجمع الأفناد أو الفرق لتكوّن (العشيرة)، وتجمع العشائر لتكوّن (الضناً)، وتجمع الضنات لتشكل (القبيلة)^(٥). وانقسمت العشيرة البدوية إلى أربع طبقات. طبقة الشيوخ — حتى ولو كانوا حديثي السن. ثم الرواسي — وهم يلون الشيوخ بالمنزلة الاجتماعية، وطبقة العامة وهم سواد العشيرة، ثم العبيد وهم أحط الطبقات في العشيرة لا يباهرهم أحد ولو أعتقوا. ونلاحظ أن التمييز لم يكن على مستوى العشيرة وفي داخلها فحسب، بل كان التمييز بارزاً بين مشايخ العشائر البدوية^(٦).

(١) انظر: ذكريا، أحمد وصفي، عشائر الشام. ج ١. ص ٦٧ و ص ٢٦٧.

2 - Russell, Alex. op.cit. PP.162,163.

(٣) انظر: الصايغ المقرب في ... ص ٢٢٢ و ص ٢٢٦ و ص ٢٢٦ ب.

(٤) انظر: ذكريا، أحمد وصفي. عشائر الشام. ج ٢. ص ٧ و ص ٨.

(٥) المصدر السابق. ج ١. ص ١٩٦. ص ٢٠٤. ص ٢٠٥. ص ٩٤.

6 - Burckhardt, J.L. op.cit. PP.306,307.

وأبرز القبائل والعشائر التي أحاطت بدمشق والمناطق التابعة لها كانت في تلك الفترة هي : الفحيلي — السردية — بنو صخر — السرحان — وعرب اللجاة « السلوط » — وكان هؤلاء يتجولون في أراضي حوران واللجاة والجولان وشرقي الأردن . فمثلاً بنو صخر كانوا يتجولون بالقرب من سفوح جبال البلقاء والهيش أما السرحان فتجمعوا بالقرب منهم والفحيلي والسردية في وسط المناطق المزروعة أو بالقرب منها ، وسمي هؤلاء بأهل الديار لأنهم كانوا يدفعون الضريبة لوالي دمشق وكان البعض منهم يعيش في الجولان^(١) . وهناك قبائل الفضل في الجولان وهذه القبيلة تنسب إلى طي من كهلان القحطانية ، وكان هؤلاء ثلاثة أفخاذ هي : آل فضل بن ربيعة وآل مرة وآل علي . كما وجدت هؤلاء منازل في مرج دمشق وغوطتها .

ولكن الفخذ الأخير قد تبدل اسمه في العصور الحديثة إلى آل مهنا بن عيسى وآل حيار وأبي رهشة ، ولم يحتفظ بالاسم الأصل إلا آل الفضل في الجولان^(٢) . وكان آل الفضل يتجولون ما بين الجولان وسفوح جبل الشيخ ، وكلف حاكم حوش خان أرنبة في مطلع القرن التاسع عشر بجمع أموال الميري منهم . وتجول بعض البدو في منطقة عدرا والمرج وكانوا يرفضون على المسافرين أموالاً وإذا مارفضوا دفعها تعرضوا للتشليح^(٣) . وأبرز عشائر البدو التي كانت حول دمشق في سنة ١٢٢٣ — ١٢٢٤ هـ هي طائفة النعيم من الحديديين حيث كانوا بالقرب من قرية البحارية في أطراف المرج من ناحية الشمال الشرقي ، ثم عرب الحمامة^(٤) .

وأكبر القبائل العربية التي كانت على علاقة قوية مع دمشق والتي لعبت دوراً سياسياً واقتصادياً ودينياً ، هي قبيلة العنزة العربية ، التي هاجرت من نجد خلال القرن الثامن عشر وفي حدود ١١١٢ هـ / ١٧٠١ م ، ومن قائل إنها هاجرت قبل ذلك بقرن من الزمان . وألحق

(١) انظر : زكريا . عشار الشام . ج ١ . ص ٩٢ و ص ٩٣ .

2 - Burckhardt, J.L., op.cit.P.31.

3 - Barker, Edward, B.B «Syria and Egypt under the last fivesultans of turkey VOL.1.PP.158,159»

(٤) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٦٠ / سنة ١٢٢٢ — ١٢٢٣ هـ / ص ٩٧ . ثم سجل محكمة الميدان رقم ٣٢٣ / ١٢٤٧ هـ / ص ١١١ . ثم سجل القسمة البلدية بدمشق رقم ٣٢٧ / سنة ١٢٤٧ — ١٢٤٩ هـ . ص ٢٩ .

بهذه القبيلة عدد من العشائر العربية الصغيرة أطلق عليها اسم (المخلف) أو (الأخلف). وقبيلة عنزة من أعظم القبائل العدنانية ويرتقي نسبها إلى عنز بن وائل بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان. واستطاعت هذه القبيلة أن تسيطر على المنطقة الواقعة ما بين الفرات والأردن وما بين حلب ونجد. واختلفت الأقوال أيضاً فيمن كانت أول عشائرها التي جاءت إلى بلاد الشام والمرجح أنهما عشيرتا الأحسنة (الحسنة) والولد علي. ثم بعد مدة لحقتهم عشائر الفدعان والأسبعة والعمارات، وآخر من جاء منها الرولة. وكانت كل واحدة من هذه العشائر تستطيع أن تقدم عدة آلاف من المسلحين المقاتلين، فلا غرابة إن شكلت أكبر تهديد للسلطات العثمانية والقبائل البدوية الشامية الأخرى، والفلاحين. ولقد تبنت المذهب الوهابي في ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٥م، إلا أنها لم تدفع الضريبة للوهابيين، وكانت متقلبة الولاء على ضوء مصالحها^(١). وكانت الرولة أقرب عشائرها إلى مدينة دمشق، فقد كانت تضرب بعض خيامها بالقرب من قرية الضمير، وكانت تملك أعداداً كبيرة من الجمال، حتى ليخيل للناظر إليها وهي تسرح في البادية أنها سيل دافق من الجمال، فهي أكثر عشائر عنزة ثاغية وراغية. أما عشيرة الأسبعة فكانت تشتت في بادية السماوة بالقرب من دمشق في منطقة يقال لها الكمرة^(٢).

ولم تكن هذه العشائر واحدة في مواقفها تجاه الدولة العثمانية، ولقد حاولت بعض الدول الأوروبية، كفرنسا وإنكلترا، والتي كان لهما مصالح في المنطقة، الإتصال بها. فمثلاً قام الفرنسيون في أوائل القرن التاسع عشر بإرسال قنصلهم العام في طرابلس المسيو لاسكاريس إلى مضارب خيامهم في الصحراء، واصطحب معه ترجماناً فتح الله بن أنطون الصايغ، وسار الرجلان في رحلة طويلة عبر بادية الشام إلى نجد، حيث قاما بالاتصال بشيوخ هذه العشائر، وحاولوا أن يجلبا العديد منهم إلى صف الفرنسيين ويوغرا صدورهم ضد الحكومة العثمانية. ولم تأل الدولة العثمانية جهداً في تمزيقهم، بجلب بعض شيوخ عنزة إلى جانبها. وقام واليها سليمان باشا الذي كان والياً على دمشق وضياداً بعد وفاة أحمد باشا الجزائر بإرسال مندوب من طرفه إلى ابن شيخ الحسنة ناصر لاستقدمه إلى دمشق ليسلمه قيادة

1 - Maoz Moshe. op.cit.P.130.

ثم ذكرها عشائر الشام. ج ٢. ص ١٢ و ص ١٥ و ص ١٧.

(٢) انظر: الشيببي، محمد رضا. رحلة في بادية السماوة المقدمة، ص ٥.

البدو العامة على كل الصحراء وإعطائه لقب «أمير البدو» وكان ناصر متحمساً للتعاون مع العثمانيين حيث قام بمهاجمة مضارب عشيرة الدافير وسلب مواشيها وجماها^(١).

ولم يقتصر العثمانيون في سياستهم تجاه البدو على ذلك بل استخدموا بعضهم في أكثر من مجال، كقبيلة الموالي. واستقدم ولاية الشام عرب الهنادي من مصر في نهاية القرن الثامن عشر، ليعملوا كمرتزقة، كما فعل أحمد باشا الجزائر في سنة ١٨٣٢م، وكان منهم حوالي ١٠٠٠ فارس ضمن قوات إبراهيم باشا المصري، التي احتلت سورية، والذي كلفهم بالدفاع عن الحدود الصحراوية، وبالتصدي لبدو الشام، ومنع اعتدائهم على الحواضر. وبقي هؤلاء في بلاد الشام بعد انسحاب قوات إبراهيم باشا من سورية، وقدموا خدماتهم للدولة العثمانية. وكان أبرز زعمائهم في هذه الفترة عقلة آغا^(٢).

سياسة السلطة العثمانية في دمشق تجاه البدو

لم تكن سياسة السلطة العثمانية، المتمثلة بولاتها على دمشق، ثابتة تجاه البدو. فأُسعد باشا العظم استطاع أن يدخل في اتفاقات مع البدو، وأن يؤمن سلامة قافلة الحج، في حين عجز خلفه حسين باشا مكّي عن تأمين ذلك، فأصبحت القافلة في عهده بنكية لم تشهدا من سنين طويلة على يد البدو. واعتبرت الدولة العثمانية أسعد باشا العظم متواطئاً مع البدو، فدفع حياته ثمناً لهذه التهمة، وأُرسلت الدولة العثمانية بديلاً عن حسين باشا مكّي عبد الله باشا الجته جي والياً على دمشق، وكلفته بالتصدي للبدو، والانتقام منهم، وتأمين طريق قافلة الحج، وزودته بقوات إضافية. ورغم أنه استطاع في ذلك العام أن يشق طريقه إلى الديار المقدسة وأن يقتل من البدو عدداً كبيراً، إلا أن تأمين طريق الحج بشكل دائم، كانت مهمة صعبة للغاية، إن لم يكن ولاية دمشق على علاقة جيدة مع القبائل البدوية التي تتواجد على طريق الحج، وأسهمت سياسة العثمانيين العدوانية تجاه البدو في خلق الجفاء بين الطرفين. علماً بأن البدو لم يكن لهم غنى عن الحواضر ومن التعامل مع العثمانيين، كنقل قافلة الحج والقوافل التجارية وغيرها. فمثلاً قبيلة بني صخر كلفت بشيل قافلة الحج أكثر من مرة؛

1 - Maoz Moshe. op.cit, PP.131.137.138.

2 - Maoz Moshe. op.cit, P.130.

ثم: ذكرها عشائر الشام. ج ٢. ص ١٢ و ص ١٧.

وحافظ باشا والي دمشق استأجر من البدو المحيطين بدمشق عشرة آلاف جمل لصالح هذه القافلة^(١)، وذلك في عام ١٢٣١هـ/ تموز ١٨١٦م، كما قدم الشيخ رحال العروق ٢٠٠ جمل في عام ١٨٣٢م لقافلة الحج^(٢). ودخل ولاية دمشق في اتفاق مماثل مع قبيلة العنزة. وكان على رأس عشائر هذه القبيلة التي تم الاتفاق معها عشيرة ولد علي التي كان شيخها عطايير بن سماير^(٣). وكلف البدو أيضاً بحمل بضائع القوافل التجارية الخاصة بدمشق. ففي عام ١٨٣٢م عقد سليمان باشا اتفاقاً مع قبيلة عقيل التي كانت تقيم في نجد لحراسة قافلة دمشق التجارية ما بين بغداد وحلب ودمشق^(٤). هذا ناهيك عن المصالح الأخرى التي كانت تربط البدو بالحضر والسلطات العثمانية. وكان من الواجب اتخاذ جانب الحكمة والتعقل في التعامل بين الطرفين للحفاظ على المصالح المشتركة بينهما. إلا أنه في الغالب لم يتحقق ذلك، كما لم تمنح السلطات العثمانية الثقة للبدو، وقامت بتوجيه ضربات متتالية لهم ودونما سبب في بعض الأحيان، كما حصل في عام ١٨١٨م عندما كان والي دمشق صالح باشا عائداً بقافلة الحج من الديار المقدسة، فوجد مجموعة كبيرة من البدو ضاربة خيامها بالقرب من قلعة مزيريب، فأمر جنوده باعتقال شيوخهم، وأطلق الحرية لجنوده في نهب خيامهم، ومطاردة من لاذ منهم بالفرار^(٥).

ويعتقد الإخباري فتح الله بن أنطون الصايغ الذي قام بزيارته المشهورة في النصف الأول من القرن التاسع عشر للبدو بصحبة المسيو لاسكاريس لمدة عشرة سنوات، أن السلطة العثمانية هي المسببة لمواقف البدو السلبية تجاهها فيقول: «إن الذي لا يعرفهم (البدو) عيبتهم دني رزيل يفرع الناس لسبب كثرة غاراتهم سلبهم القفول من الطرقات وهجومهم على القرى وسلبهم أموال الناس والحال أن لا يفعلون ذلك إلا لأسباب فقد تأكد لنا سماعاً وعياناً أن جميع غاراتهم إن كان على القفول أم على القرى أم على البلاد من غباوة الحكام العثمانية. فأعيان البلد وأوجهها جميعهم لهم قرى ومخلات في البر وحقول ومصالح شتى وقديماً موجودة العداوة بينهم وبين العرب فيصبروا يتكلموا ما يناسبهم ضد العرب مع الوزير أو المتسلم أملاً

1 - Koury, George. op.cit.F.154.

2 - Lamartine, Voyage en Orient VOL.2,partie.6. PP.271.272.

3 - Burckhardt, J.L. op.cit.P.308.

(٤) انظر: فرير، جيمس، رحلة فرير إلى بغداد عام ١٨٣٤م. ص ١٧٨ ترجمة جعفر الخياط.

5- Koury, G. op.cit.P.157.

بواسطة سطوة الوزير تحقيق مآربهم من العرب وبشتوهم . ومن غباوة الوزير وبسبب غشمنتته وجهله في حل الأمور فيقبل راياتهم ويمشي على مجرى مائهم وهوامهم ويبتديء يركب عسكر عليهم ويفتح حروب معها وكلما لها تزداد العداوة ثم يردف قائلاً « والحاصل أن عدم الوفق والحجة الحاصلة فيما بين العرب والترك تسبب مضرة جسيمة للطرفين وأن البدو لا يثقون بالعثمانيين لأن العثمانيين في رأيهم مشهورين بالغدر والخيانة »^(١) .

والحقيقة أن مواقف البدو السلبية لم تكن من مسؤولية السلطة العثمانية فحسب ، بل تحكمت فيها ظروف عديدة انعكست بشكل سلبي على معاش البدو . فشح السماء في السنين العجاف ونذرة الكلاً في البوادي ، كانا يدفعان بهم للزحف غرباً باتجاه الخواضر ومزارعها طلباً للماء والكلاً ، كما اضطروا في مثل هذه السنوات للهجوم على مخازن الحبوب ونهبها لضمان غذائهم ، كما فعلت قبيلة عنزة عام ١٨١٥ — ١٨١٦ م ، عندما قامت بالهجوم على مخازن الحبوب في حماه^(٢) . وعندما كانت تنتشر الأوبئة والطواعين وتقضي على العديد من الناس وتشل الحركة الاقتصادية وبالتالي الإنتاج ، كانت القبائل البدوية تهاجم الخواضر كما حصل في عام ١٢٤٣ هـ / ١٨٢٧ م ، حيث قامت قبيلة عنزة بمهاجمة حماه أيضاً واضطر والي دمشق لإرسال حملة ضدها . إلا أن هذه الحملة قد فشلت وألحقت بها هزيمة منكزة^(٣) . وتأثرت القبائل البدوية بظهور الحركة الوهابية في الجزيرة العربية واحتلالها للمدينتين المقدستين (مكة والمدينة) . مما أدى إلى توقف قافلة الحج التي كانت تشكل مورداً رئيساً بالنسبة لقبيلة عنزة واضطرت بعض عشائرها لقطع الطرق ، وبقيت على هذا المنوال إلى أن استطاعت قوات محمد علي باشا أن تحرر هاتين المدينتين ، فعاودت قافلة الحج سيرها ما بين عامي (١٨١٢ — ١٨١٣ م / ١٢٢٦ — ١٢٢٧ هـ) وتغير بذلك حال قبيلة عنزة^(٤) .

وكان لضعف السلطات العثمانية وعجزها عن ضبط الأمن ، داخل دمشق ، وعلى طريق قافلة الحج ، دور بارز في دفع البدو للاعتداء على الخواضر ، وعلى ذلك الطريق . وبقي الحال كذلك إلى أن جاءت قوات ابراهيم باشا المصري إلى دمشق ، فشاهدت قبيلة عنزة تحرق الفلاحين وهم أحياء في منطقة القدس ، لامتناعهم عن دفع الخوة لها . وكان أمام ابراهيم

(١) النظر : المقرب في حوادث الحضر والعرب . ص ٣٣ و ص ٣١ و ص ١٠ ب .

2 - Koury .G. op.cit. P.152.

3 - Ibid. P.185.

4 - Ibid. PP.143,144,149.

باشا خياران، أولهما: أن يسترضي هذه القبائل وثانيهما أن يستخدم القوة عند الحاجة ضدها. فاستطاع بحنكته السياسية أن يسترضي البدو، وأن يفرض الضرائب عليهم. إلا أن قبائل الأردن بقيت على حالها من التمرد^(١). وفي سنة ١٢٥٤هـ تمكن ابراهيم باشا من جمع ضريبة للقسلق والسمنية من عرب العبيد بالقرب من حلب، كما فتح أبوابه للنظر في شكوى القبائل^(٢). وحاول أن يستخدم بعض عناصر البدو، كقوات غير نظامية في عمليات الاستكشاف، في قتاله مع الجيش العثماني. إلا أنه لم يستطع أن يعتمد على هذه العناصر البدوية في عمليات الدفاع لأنه يصعب عليهم التثبيت بالأرض والاستقرار عليها^(٣). وقام ابراهيم باشا من جهة أخرى بوضع العديد من قواته في القرى المتاخمة للبادية، لمنع غارات البدو، كما حاول أن يغري بعض القبائل البدوية بالاستقرار بالحواضر والمزارع. ومع ذلك فإننا نرصد بعض غارات البدو على الحواضر الشامية في هذا العهد ففي سنة ١٨٣٧م قامت بعض قوات عنزة بمهاجمة حاكم غزة وأجبرته على الفرار من وجهها وذلك رداً منها على ابراهيم باشا الذي قتل زعماء قبائل الأردن الذين استجاروا بهم^(٤).

ويبدو أن استرضاء ابراهيم باشا للبدو في بادية الشام، كان بإيعاز من والده محمد علي باشا، الذي كان يريد لتجارة أوربا عبرها أن تستمر ولا تصاب بأذى^(٥). وأن البدو لم يقفوا مكتوفي الأيدي تجاه استقرار بعض أبناء جلدتهم بتخطيط من السلطات المصرية، بل كانوا يهاجمونهم. وهكذا لم يكتب لمستوطنات البدو الجديدة كبير النجاح. ومن جهة أخرى فإن المتغيرات الاقتصادية التي حصلت بالثورة الصناعية في أوربا، لم تؤثر تأثيراً كبيراً على البدو، فعوضاً عن نقل بضائع الشرق من بغداد إلى دمشق أصبحوا ينقلون البضائع الأوربية من بلاد الشام إلى بغداد. ويقول بولك: (لقد وجدت مجموعات قبلية صحراوية يعتقد أنها تعد / ٢٠٠.٠٠٠ / شخص كانوا يعيشون على نقل بضائع الإنكليز من الساحل عبر الصحراء

1 - Douin .G. op.cit. partie.3.PP.225.231.

(٢) انظر رسم، أسد، المصدر السابق — المجلد ٣ — ٤. ص ١٧٤.

(٣) انظر: زكي، عبد الرحمن. التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير. ص ٤٠٩. وأبرز القبائل البدوية التي استخدم رجالها ابراهيم باشا المصري ضمن قواته كانت قبائل عرب: العمائم — وعرب الجواز — وعرب الهنادي — والهواره وغيرها. انظر: سجل محكمة حماه رقم ٥٠ / ص ٩٧ و ص ٩٨ و ص ١٠٩ / سنة ١٢٥١ — ١٢٦٤هـ.

(٤) انظر: كاتا فاكو. أنطون. فتوحات ابراهيم باشا المصري في فلسطين ولبنان وسورية. ص ٢٤ و ص ٢٥.

5 - Douin. G. op.cit. partie.3.P.233.

وإلى الشرق^(١). وبعد استعادة الدولة العثمانية للسلطة على بلاد الشام، حاولت أن تغير نمط حياة بعض القبائل البدوية الرحل، وأن تجعلها تستقر في القرى المهجورة أو المدمرة. ولم يكتب لهذه السياسة النجاح إلا في عام ١٨٤٥ م^(٢).

أهل الذمة

هذا الاصطلاح عرفه الفقه الإسلامي، بأنه يطلق على من يجوز عقد الذمة معهم من أهل الكتاب، كاليهود والنصارى في ديار الإسلام، واعتبر المجوس أهل ذمة وأخذت منهم الجزية، واعتبر السامرة أيضاً أهل ذمة والصابئة أهل ذمة بشرط أن يوافقوا اليهود والنصارى في أصل عقيدتهم وكان دفعهم الجزية^(٣) مقابل حماية الإسلام لهم وكانوا يعفون من الخدمة العسكرية. ووجد في دمشق (ديوان الجوالي) لجمع مال الجزية من أهل الذمة، وكلف في بعض الأحيان ملتزمون بجمعها، إلا أن أموال الجزية لم تدخل في شروط التزام الميري^(٤). ولقد ورثت الدولة العثمانية وضع الدميّين من عهد المماليك وتركهم على حالهم السابقة، وشكل أهل الذمة فئات متعددة من هيئة المحكومين في دمشق، فكان منهم النصارى واليهود والسامرة إلا أننا لم نرصد في كتب المؤرخين ما يشير إلى وجود الصابئة أو المجوس في دمشق في هذه الفترة.

وكان ثمة شروط لدخول أهل الذمة في ذمة الإسلام. ومن هذه الشروط شروط مستحقة ومنها شروط مستحبة — أما الشروط المستحقة فكان على الدمي أن لا يذکر

1 - Polk .W. op.cit.P.224.

2 - Maoz, Moshe. op.cit,PP.141.142.

(٣) يقول ابن عابدين: الجزية خراج رأس وهذا أمانة المجاز ونيت على فعله دلالة على الهيئة التي هي الإذلال عند الإعطاء، أو تسمى جالية من جلوت عن البلد جلاء الفتح والجد خرجت وجلت مثله والجالية الجماعية ومن قيل لأهل الذمة الذين جلاهم عمر (ض) عن جزيرة العرب جالية، ثم نقلت الجالية إلى الجزية التي أخذت منهم واستعملت في كل جزية تؤخذ وإن لم يكن صاحبها جلي عن وطنه. فقيل استعمل فلان على الجالية والجمع الجوالي، فإطلاقها على الجزية مجاز يبرزين لأنها جرت عن القتل أي قضت وكفت عنه، فإذا قبلها سقط عنه القتل. وكانت الجزية تؤخذ من الدمي بنفسه فيعطها قائماً والقابض قاعداً وتدفع الجزية بأول السنة على عكس خراج الأرض. انظر: ابن عابدين، محمد. رد المختار على الدر المختار. ج ٣. ص ٣٦٨.

(٤) ويذكر المرادي: أن الشيخ حسن بن مصطفى البغدادي القادري النقشبندي المتوفى سنة ١١٨٢ هـ. صارت له «عشاً منه» أيضاً في الجوال الميعة من طرف الدولة. انظر: سلك الدرر. ج ٢. ص ٣٣.

الإسلام بدم، أو القرآن بطعن، أو الرسول بتكذيب، وألا يصيب مسلمة بزنى، وألا يثني مسلماً عن دينه، وألا يتعرض لمال المسلم، وألا يعين أهل الحرب على المسلمين^(١).

أما الشروط المستحبة فكان على الذميين أن يلبسوا الزي (وهي ملابس ذابت لون مخالف للون لباس المسلمين)، وألا تعلق أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم، وألا يتجاهروا بشرب الخمر، وإظهار صلبانهم وخنازيرهم، وألا تعلق أبنيتهم فوق أبنية المسلمين، وألا يخفوا دفن موتاهم، وألا يجاهزوا بالنذب عليهم والإناحة، وأن يتمتعوا من ركوب الخيل^(٢). ولكن لا تعتبر مخالفة الشروط المستحبة نقضاً للعقد، إلا أننا نلاحظ أن نقض أهل الذمة لهذه الشروط في دمشق في هذه الفترة، كانت صعبة عليهم، كما عرضتهم لأذية جهلة المسلمين، وبعض السلطات العثمانية. ولا غرابة في ذلك، فالعصر آنفذ عصر جهل وتعصب، ولعبت تركة الحروب الصليبية مع استمرار الصدام بين الدولة العثمانية المسلمة والدول الأوربية المسيحية، دوراً في إزكاء نار التعصب^(٣). ولقد انصب في هذه الفترة جام غضب الحكام على المسيحيين من أهل الذمة أكثر من اليهود، وربما يعود ذلك لاعتقادهم بأن المسيحيين كانوا على صلة بالدول الأوربية التي تربطهم معها رابطة الدين. ولم يكن أهل الذمة في دمشق، على درجة واحدة في السلم الاجتماعي والدخل المادي. فكان منهم من استلم مناصب مالية أو كتابية حساسة لدى ولاية دمشق. ومنهم من عمل في أخط الحرف، فكان منهم الفقراء والأغنياء. إلا أن أحوالهم قد تغيرت بشكل ملحوظ إلى الأفضل، في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، كما اختلف وضعهم ما بين مدينة حلب ومدينة دمشق. ففي الوقت الذي استطاع فيه أبناء أهل الذمة الحصول على البراءات السلطانية والحماية من القناصل في حلب كان أهل الذمة في دمشق محرومين منها، وذلك لانفتاح مدينة حلب على الأجانب والقناصل الأوربيين، في حين لم تكن دمشق كذلك في تلك الفترة، وما أن دخل ابراهيم باشا دمشق حتى بدأ حالهم يتغير إلى الأفضل، فدخل القناصل الأوربيون إلى دمشق ودخلت بضائع أوربا على نطاق واسع إليها ودخل التجار الأوربيون ليسهلوا تصريف

(١) انظر: رسم، أسد، المصدر السابق — المجلد ٢ / ص ٢٥.

(٢) انظر: الماوردي الأحكام السلطانية. ص ١٣٧ و ١٣٨ و ص ١٣٩. ثم: ابن قيم الجوزية. أحكام أهل الذمة. ج ١. ص ٢٢ ص ٢٣.

(٣) انظر: عاشور، سعيد. الحركة الصليبية. ج ١. ص ٢٤١ و ص ١٤٤.

بضائعهم ، أو اعتمدوا في ذلك على أبناء أهل الدمة . ووفروا لهم الحماية والبزوات السلطانية ، وقام هؤلاء بالدخول في تجارات واسعة مع أوروبا فتغير ، حالهم وأصبحوا من أغنى أغنياء تجار دمشق .

ومن جهة ثانية لم يكن أهل الدمة ، بأديانهم المختلفة على مذهب واحد . فالنصارى مثلاً كانوا أكثر عدداً من اليهود من جهة ، وكانوا على مذاهب متعددة . وكان أكثر مذاهب النصارى عدداً الأرثوذكس ، إلا أن عددهم بدأ يتناقص لصالح الكاثوليك وغيرهم من المذاهب المسيحية الأخرى ، بفعل حركة التبشير التي نشطت في القرن التاسع عشر ، والتي دعمت من قبل النمسة وفرنسا وغيرهما . ولم تعترف الدولة العثمانية بملة الكاثوليك إلا في فترة متأخرة من القرن الثامن عشر ، على حين كانت ملة الأرثوذكس هي المعترف بها ولها بطريركها برتبة باشا بثلاثة أطواخ . كما اعترف العثمانيون بملة الأرمن وكان لهم بطريرك في القسطنطينية ، واعترفت لليهود على أنهم ملة ، وكان لهم حاخام في العاصمة يمثلهم .

أما الأرثوذكس فكانوا ينقسمون بدورهم إلى طوائف عدة ، أبرزها في دمشق النساطرة واليعاقبة والسريان . أما اليعاقبة فهم أتباع يعقوب البرادعي أسقف أنطاكية في القرن السادس للميلاد ، ويؤمن هؤلاء باتحاد اللاهوت بالناسوت ، ويعرفون بأصحاب الطبيعة الواحدة ، وسُموا بالسريان القدماء أو السريان الأرثوذكس ، وكانت لغة طقوسهم الدينية السريانية .

أما الروم الأرثوذكس فكانت تسميتهم تطلق على مجموعتين من الكنائس المسيحية ، الأولى هي : الكنائس المسيحية البيزنطية شق الكنيسة الرومانية وبرز أتباعها منذ القرن الحادي عشر للميلاد في كل من روسيا واليونان ودول البلقان والبلاد العربية ومنها دمشق ، ثم المجموعة الثانية وتشمل أربع طوائف مسيحية تقول أيضاً بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح . وتتكون طوائفهم من السريان — والأقباط — والأحباش والأرمن ، ^(١) . وكان منهم في دمشق السريان والأرمن أما الأقباط والأحباش فكانت لهم كنيسة في القدس .

كان للروم الأرثوذكس طقوس يونانية ولهم ثلاث بطريركيات هي (أنطاكية والقدس والاسكندرية) وأتباعها كانوا من العرب ، وأصبحت دمشق مقراً لبطركية أنطاكية منذ القرن

(١) انظر : الخطيب ، عدنان . مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مقالة له تحت عنوان : نظرات في المعجم الوسيط . ج ٢ — المجلد ٣٩ / ص ٢٧١ . دمشق نيسان — ابريل — ١٩٦٤ م . ذو القعدة ١٣٨٣ هـ .

الرابع عشر، بعد أن استولى الظاهر بيبرس المملوكي على أنطاكية ١٢٦٨م، حيث هجرها البطارقة إلى أن جاؤوا إلى دمشق ١٣٧٧م، في عهد مرقس الأول أو خلفه باخوميوس الأول، وهكذا أصبحت دمشق منذ تلك الفترة مركز أبرشية البطريرك الخاصة^(١). وفي ١٧٩٩م تعين لأول مرة على هذه البطريركية مطران عربي، وهو المطران الدوماني، وانتهت منذئذ سيطرة البطارقة اليونان، وتعربت بعدئذ الكنائس الأرثوذكسية التابعة لها^(٢)، ولقد لاقى الأرثوذكس احتراماً من ولاية دمشق والهيئة الحاكمة فيها طالما أن الدولة العثمانية ليست في حالة حرب أو صدام مع روسية الأرثوذكسية، وطالما أن حال السلطة العثمانية مستقر في اليونان ومناطق الروملي الأرثوذكسية. إلا أنه بنشوب ثورة اليونان ضد الدولة العثمانية، ومطالبتها بالاستقلال عنها، انصب غضب الدولة العثمانية على الأرثوذكس، وأوعزت إلى والي دمشق بقتل بطريركها، وتصفيه رجال دينها والتضييق على أتباعها، في حين نرى حالة معاكسة لذلك عندما وقعت بلاد الشام في قبضة إبراهيم باشا وكانت روسيا إلى جانب الدولة العثمانية، فلاقى الأرثوذكس قبولاً من الدولة العثمانية، وبعد إجبار قوات المصريين على الخروج من سورية، بدعم من الإنكليز — والروس عام ١٨٤١م، لاقى بطريرك الأرثوذكس أمتوديوس إكراماً كبيراً من والي دمشق العثماني، وعندما توجه هذا البطريرك إلى الشخصية الثانية آتخذ في دمشق وهو الدفتردار، قام الأخير بالاحتفاء به، مع أنه كان يونانياً لا يعرف لغة أهالي دمشق^(٣).

أما الملة الثانية من المسيحيين في دمشق، والتي اعترفت بها الدولة العثمانية، فهي ملة الأرمن، وكان الاعتراف بها عشية سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م. وكان مطران الأرمن الأرثوذكسي يستقر في اسكودار، وكان بطريركاً على جميع المسيحيين بما فيهم الأرمن، حيث كان بعضهم يستقرون في حي خاص بهم في دمشق^(٤). وكان لهم خمسة رؤساء دينيون في أوائل القرن التاسع عشر، ويرأسهم في دمشق بطريرك، ولقد قام بزيارته ١٨٣٣م الشاعر الفرنسي لامارتين ويصفه بقوله: «شخص معتبر ذو ثقافة عميقة وواسعة، ولقد اعتمده إبراهيم باشا المصري رئيساً على ملته في دمشق، وممثلاً لها في المجلس البلدي، ولم يغادر دمشق

(١) انظر: الذكرى المئوية الأولى لوفاة السعيد الذكر البطريرك مكسيموس الثالث المظلوم ١٨٥٥ — ١٩٥٥م. ص ٩٨.

(٢) انظر: قدامة، أحمد. معالم وأعلام في بلاد العرب. ج ١. القسم الأول. ص ٢١.

(٣) انظر: مجهول، حسر اللثام عن نكبات الشام. ص ٢٢٣.

4 - Lamartine, Voyage en Orient partie.2, PP.7.9.

على الإطلاق إلا أنه مع ذلك مفاهيمه محددة **ومدرك بشكل عقلائي** حالة أوروبا السياسية، وخاصة الوضع في فرنسا. وله إطلاع على حركة الفكر الإنساني، ومدرك لطبيعة التغيرات في الحكومات الحديثة، ومتبصر بما سيؤول إليه مستقبل الحضارة، ومامن شبيه له في أوروبا، لديه مثل هذه النظرات العميقة، إلا القلة، بالإضافة إلى أنه يتقن اللغتين اللاتينية واليونانية^(١). إلا أنه كان فريداً بين كهنة الأرمن، الذين كانوا بشكل عام يغوصون في لجة الجهل. أنا رهبانهم فكانوا أكثر علماً وثقافة. وكان الأرمن أكثر أبناء الطوائف المسيحية تمسكاً بدينهم في مدينة دمشق^(٢)، وكانوا يختارون رجال دينهم من أبناء طائفتهم. ويمكن تفسير ذلك بأنه لم يكن تمسكاً منهم بالدين فحسب بل كان تمسكاً قومياً شأن الأقليات العرقية آنئذ.

أما الكاثوليك فقد برزوا بوفاة تيودوسيوس الكبير عام ٣٩٥م، حيث تأصل الانقسام في الكنيسة المسيحية، وبدأ النفور بين الكنيسة الشرقية في القسطنطينية والكنيسة الغربية في روما في القرن الحادي عشر^(٣)، وذلك قبل بدء الحروب الصليبية، واعتبر اللاتين الأرثوذكس غير مؤمنين كالمسلمين^(٤).

وبقي الكاثوليك ملة ملحقة بإحدى الكنائس الأرثوذكسية أو الأرمنية في ظل الدولة العثمانية، ولم يكن تعداد الكاثوليك كبيراً بين المسيحيين في دمشق حتى الربع الأول من القرن الثامن عشر، إذ بدأت حركة التبشير الأوربية بدعم الموازنة، وقام هؤلاء بنسل العديد من أبناء الطائفة الأرثوذكسية وضمهم إلى صف الكاثوليكية، وتم الانشطار علناً بانسلاخ شريحة كبيرة من الأرثوذكس في عهد المطران جراسيموس سمان عام ١٧٢٧م، الذي التحق بالكنيسة مع أتباعه، ويقول الخوري بطرس روفائيل: «لقد لعبت فرنسا والكرسي الرسولي عن طريق الموازنة دوراً في ارتداد الكثير من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية إلى الكنيسة الكاثوليكية في سورية. وكانت البداية عندما وحد اساقفة الكاثوليك صفوفهم وهم: ناوفيطس نصري أسقف صيدنايا وبرفانيوس أسقف بعلبك وسليفتروس دهان متروبوليت بيروت وبرثانيوس

1 - Ibid. PP.6,7.

2 - Douin .G. op.cit. Troisieme. partie. P.209.

(٣) انظر: مجلة المشرق. ص٧٧. الحاشية. من العدد الأول لعام ١٨٩٨م.

(٤) انظر: قاسم، قاسم. أهل الذمة في مصر في عصر سلاطين المماليك، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة في التاريخ الإسلامي. ص١٠٢ — ١٠٣ مارس — آذار — ١٩٧٥م القاهرة.

أسقف ديار بكر وباسليوس أسقف بانهايس وأفثيموس فاضل — فأقاموا عليهم في ١٧٢٤م بطريركاً باسم كيرلس السادس طاناس، وضموا بذلك ١٣ ألف إلى الكنيسة الكاثوليكية، وعقد الأساقفة مجمعاً في دمشق، فانتخبوا الأب سارافيم طاناس بطريركاً وهو بن أخت أفثيموس صيفي وكانت رسامته في ٢٠ أيلول ١٧٢٤م، فتوطدت بذلك الكتلكة رسمياً^(١).

وكان رد فعل الأرثوذكس قوياً فقاموا بانتزاع العديد من الكاثدرائيات واضطر البطريرك الكاثوليكي لمغادرة سورية ولبنان تلافياً لشر عظيم قد يصيبه، واضطر الكهنة الكاثوليك لإقامة صلواتهم في البيوت الخاصة، وكانوا يقيمون اجتماعاً أسبوعياً لتنظيم أحوالهم الرعوية في مدينة دمشق. وفي أواخر عام ١٧٢٥م قدم سيلفستروس إلى دمشق، وقام بالبطش باتباع الكتلكة بشدة. مما دفع بالعديد من الكاثوليك لترك دمشق أو التراجع عن الطقوس الكاثوليكية، وانتحل البعض الآخر الطقس اللاتيني طمعاً في حماية الدول الأجنبية. فلجأ بطريرك الأرثوذكس للسلطة المركزية في استانبول يستعديها عليهم باتهامهم أنهم أتباع للإفرنج وأنهم متواطئون معهم لتخليكهم البلدان العثمانية، فقامت الدولة العثمانية باضطهادهم وأوعزت إلى ولاية دمشق للقيام بذلك، واستغل ولاية دمشق هذا الإيعاز لابتزاز الأموال من الكاثوليك والأرثوذكس على حد سواء، وإيقاد نار الفتنة بينهما^(٢). ولقد اعترضت سبيل الكاثوليك مشاكل عدة من جراء عدم اعتراف الدولة العثمانية بهم، كملة منفصلة عن الكنائس الأرثوذكسية، فأجبروا على استخدام الكنائس الأرثوذكسية وطقوسها في صلواتهم، مما دفعهم للجوء إلى بيوتهم الخاصة، لإقامة شعائرهم الدينية، ولم يستطيعوا إقامة كنائس خاصة بهم، لأن القوانين العثمانية الإسلامية لا تسمح بإقامة كنائس جديدة للمسيحيين، مما دفعهم للاتصال بالقضاة المسلمين والولاة لانتزاع بعض الكنائس من يد الأرثوذكس، وتخصيصها لصلواتهم في ساعات معينة^(٣). كما ضيق إكليروس الروم على الكاثوليك فاحتكروا حق دفن موتاهم والقيام بمراسم جنازاتهم، وتوزيع تركتهم مع قاضي الإسلام، وذلك استناداً إلى التحويل القانوني بموجب فرمانات سلطانية^(٤).

(١) انظر: مجلة المشرق. العدد ٢٥. عام ١٩٣٧م.

(٢) انظر الذكرى الثوية الأولى لوفاة السعيد الذكر مكسيموس الثالث المظلوم ١٨٥٥ — ١٩٥٥م. ص ٧٧

ص ٧٨ ص ١٣٠ ص ١٣٥ ثم: Burckhardt, J.L., op.cit. P.28

3 - Koury .G, op.cit, PP.158,159.

(٤) انظر: المخلصي، قسطنطين الباشا، استشهاد سمعان جبوز ويطرس ثمريب. ص ١١.

وفي عام ١٢٣٢هـ/ ١٨١٦ - ١٨١٧م أصدر الباب العالي فرماناً إلى والي دمشق لمنع الكاثوليك من التبشير بين أتباع الكنيسة الأرثوذكسية، والحظر على الأرثوذكس الدخول إلى الكنائس الكاثوليكية، والحظر على رجال الدين الكاثوليك ومبشرهم الدخول إلى بيوت الأرثوذكس^(١). ولقد صدر هذا فرمان بمداخلة بطريرك الأرثوذكس في القسطنطينية لدى السلطات العثمانية بعد أن تزايد عدد التاركين للأرثوذكسية لصالح الكاثوليكية.

ولقد حاول الكاثوليك الاعتماد على بعض المتنفذين من كتاب ولاية دمشق الكاثوليك لتوفير الحماية لهم، وحصل في عهد صالح باشا المعدنلي (١٨١٩ - ١٨٢٠م/ ١٢٢٤ - ١٢٢٥هـ). إلا أنه بعد عزله تغير حال الكاثوليك، ولكنهم لم يياسوا بل سعوا لتوفير الدعم لأنفسهم من الدول الأوربية الكاثوليكية، وسعوا لانتزاع اعتراف الدولة العثمانية بهم، كاملة منفصلة عن أخواتها، واستطاعوا بعد ذلك أن يعينوا ناظراً عاماً لهم، وفي عام ١٨٣٣م انتخب المطران مكسيموس الثالث المظلوم بطريركاً على الكرسي الأنطاكي للروم الكاثوليك، وأعلن ولاءه للبابا في روما. وبعد توقيع معاهدة كوتاهية عام ١٨٣٣م، والتي منح بموجبها محمد علي باشا ولاية مصر وصيدا وطرابلس ودمشق وحلب، أصبحت الفرصة مواتية للكاثوليك في دمشق لبناء كاتدرائية خاصة بهم، ووافق ابراهيم باشا على ذلك في ٥ نيسان ١٨٣٤م. وفي حزيران ١٨٣٤م أعلن كوب تشوكوريان بطريركاً مديناً على الطوائف الكاثوليكية. وفي ٣١ تشرين الأول ١٨٣٧م صدر فرمان من الباب العالي في استانبول يقر بموجبه مكسيموس الثالث المظلوم رئيساً شرعياً على الكاثوليك، وفي ٧ كانون الثاني ١٨٤٨م استطاع مكسيموس هذا أن ينتزع من السلطان العثماني فرماناً يعترف بموجبه بسلطته المطلقة على كنيسته، ثم قام ببناء كنيسة للكاثوليك في باب المصلى والقرشي من الميدان، والمدرسة البطريركية في الحي المذكور^(٢).

أما المذهب الماروني فكان له أتباع في مدينة دمشق آنذ، وكان لهم حي خاص بمحلة باب توما داخل أسوار دمشق. ولكن الكتلة الأساسية من الموارنة كانت تسكن في جبال لبنان، ووجد عدد منهم في المدن الشامية، كحلب واللاذقية وبعض قرى جبال العلويين^(٣).

1 - Koury .G. op.cit. P.159.

(٢) انظر: الذكرى القوية لوفاة السيد الذكر البطريرك مكسيموس الثالث المظلوم عام ١٨٥٥م - ١٩٥٥م. ص ١٣٠ ص ١٣٥.

3 - Wright. Thomas. Early Travels in palestine, P.389.

ولم يقر هؤلاء بسيادة البابا في روما في الأمور الدينية إلى عام ١٤٣٨م / ٨٤٢هـ، وكان معتمدتهم من أشهر المقاومين للقول بعصمة البابا . ولقد شكل الموارنة شوكة في جنب الدول الإسلامية المتعاقبة على حكم بلاد الشام فتآمروا مع أعدائها وسببوا لها المتاعب .

وفي العصور الحديثة اهتم بهم ملوك فرنسا بدءاً من القرن السابع عشر ، حيث أرسل لويس الرابع عشر منشوراً إليهم ييسط حمايته عليهم ، وفعل فعله لويس الخامس عشر ولقد سعت فرنسا لتأمين مصالحها اعتماداً عليهم في بلاد الشام «فعد الموارنة أنفسهم من جملة الفرنسيين وهم إلى هذا اليوم ، يكرمون هذه الدولة ، ويحبونها حباً كبيراً ، ويتظاهرون بالانتماء إليها ، ولقنصل فرنسا نفوذ الكلام في بلادهم»^(١) . ولم يكن للموارنة شأن كبير في دمشق ، كما لم يكن لهم شأن يذكر في المجالات الاقتصادية المختلفة في القرن الثامن عشر . إلا أن حالهم قد تغير بعد ذلك بفعل المساندة القوية لهم من الباباوية وفرنسا على حد سواء ، فلعبوا دوراً كبيراً في نسل العديد من أبناء الطائفة الأرثوذكسية وجلبهم إلى صف الكاثوليكية ، وتحسنت أوضاعهم بانفتاح دمشق على الغرب . فحصل العديد منهم على حماية الدول الغربية ، وأعطاهم ذلك قصب السبق على غيرهم ، خاصة في المدن الساحلية وفي المدن التي وجد بها قناصل وتجار أوريون^(٢) ، وأصبح بعضهم قناصل محليين لدول أوربا .

كنائس النصارى وأديرتهم في دمشق

كان لكل طائفة من طوائف النصارى في دمشق كنيسة أو أكثر ، وكانت معظم هذه الكنائس تقع ضمن أسوار دمشق . فكان للأرثوذكس ثلاث كنائس اثنتان منهما في المدينة والثالثة في حي الميدان . وأكبر كنائسهم كانت كنيسة مريم العذراء أو الكنيسة المريمية ، وكانت تضم كنيستين متجاورتين ، الأولى على اسم السيدة ، والثانية فكانت كنيسة مارنقولا . أما الكنيسة الثانية فكانت كنيسة مار يوحنا الدمشقي ، وتقع إلى الشمال الشرقي من الكنيستين المذكورتين على مسافة قليلة ، وكلها كانت في حي الآسية من دمشق ، وكان هذا الحي مقراً للقنصل الروسي . أما كنيسة الأرثوذكس التي تقع خارج أسوار دمشق ، فهي كنيسة الميدان في محلة القرشي ، وهي صغيرة وكانت فيها مدرسة للذكور .

(١) انظر : مجهول . حسر اللثام عن نكبات الشام . ص ٦٣ .

(٢) انظر السيوفي ، حبيب سورية ولبنان وفلسطين بالقرن الثامن عشر كما وصفها أحد مشاهير الغربيين (فولتي) . ج ١ . ص ١٢ .

أما الكاثوليك فكان لهم كنيسة واحدة في حي الزيتون، كانت في الأصل معبداً يهودياً. وكان لهم بالإضافة إلى ذلك كنيسة في حي الميدان. ولقد أقيمت هذه الكنائس في القرن التاسع عشر وسعى في بنائها أحد كتاب النصارى الكاثوليك (بحري بك) لدى ابراهيم باشا وكان بناؤها ما بين عام ١٨٣٣ — ١٨٤٠ م. وكان أكبر هذه الكنائس كنيسة السيدة التي بني بجانبها دار للبطرك خانة في إحدى زواياها. وبنيت إلى جانبها مدرسة للذكور طائفة الكاثوليك. أما الكنيسة الأخرى فكانت في حي الميدان، الأولى منهما في محلة باب مصلى على اسم القديس جاورجيوس، والثانية في محلة القرشي على اسم سيدة النياح، وهما صغيرتان. ثم كنيسة للسريان الكاثوليك باسم مارجرجس الحبشي، وكانت تقع على الطريق السلطاني، بالقرب من الباب الشرقي خارج أبواب دمشق، ورغم صغرهما كانت جميلة وبنائهما مركز للبطرك خانة ومدرسة لهذه الطائفة، ثم كنيسة مار سركيس التي تقع بجانب الباب الشرقي ملاصقة للسور، وهي مختصة بطائفة الأرمن القدماء. وهي قديمة العهد وكانت في دائرتها مدرسة صغيرة للذكور هذه الطائفة، ويقع بالقرب منها بيت يسكنه (مرتبت الطائفة).

ثم كنيسة السريان اليعقوبيين، وتقع في حارة حنانيا وهي كنيسة صغيرة؛ ثم كنيسة الأرمن الكاثوليك، وتقع أمام دير الرهبان العازاريين في شرق المدينة، وهي صغيرة جداً، وقد أنشئت بعد عام ١٨٦٠ م على اسم القديس غريغوريوس.

أما البروتستانت فلم يكن لهم من كنائس في فترة دراستنا هذه، لأن أتباعهم كانوا قليلين جداً، لا يتجاوز عددهم السبعين فرداً حتى منتصف القرن التاسع عشر، وأنشئت أولى كنائسهم في دمشق بعد عام ١٨٦٤ م^(١).

ورغم وجود معلومات تشير إلى أن نشاط البعثات البروتستانتية في بيروت وبلاد الشام بدءاً من عام ١٨١٨ م، إلا أنها لم تحقق نجاحاً يذكر. ولقد جوهت من قبل الموازنة والسلطات العثمانية على حد سواء. وانتعشت تلك البعثات في ظل الحكم المصري، وزادت من نشاطها. ولم يقتصر نشاطها على بيروت، بل امتد نشاطها إلى خارجها، وفتحت المدارس وجلبت المطابع لطباعة كتبها باللغة العربية للدعاية والتبشير، وعبر تأثيرها إلى حوران

(١) انظر: القسطلي، نعمان. الروضة الغناء... ص ١٠١ و ١٠٢ و ص ١٠٣.

ودمشق، وعين أحد أعضاء البعثات التبشيرية الأمريكية قنصلاً لأميركا. ومع ذلك لم تحقق تلك البعثات الأهداف المرجوة منها، وجُلّ ماحققته من أهداف، أن روجت البضائع الأوربية ووضعت الأسس الراسخة للأفكار الغربية^(١)، ولم تبرز آثارها في دمشق إلا في منتصف القرن التاسع عشر^(٢) حيث وجدت لها مجموعة صغيرة في سورية وفلسطين في الفترة الواقعة ما بين عام ١٨٣٠م وعام ١٨٤٠م^(٣).

ومن جهة أخرى فإن الأديرة في دمشق، كانت جميعها للطوائف المسيحية الباباوية. وتحتوي تلك الأديرة على كنائس شهيرة وحسنة، في حين كانت أديرة الطوائف المسيحية الشرقية خارج دمشق، كصيدنايا ومعلولا وغيرها. وأنشأ الأديرة في دمشق، في فترات مختلفة، مرسلون ومبشرون من العازاريين والكبوشيين والفرنسيسكان، كما أنشأوا إلى جانبها مستشفيات. ففي دير الكبوشيين كان يعمل البادري وما أقام فيها منذ عام ١٨١٥م وحتى مقتله على يد اليهود في سنة ١٨٤٠م، وكان يلقح الناس ضد الجدري، وكان معروفاً لدى الجميع من أهل دمشق وريفها. كما أقام الأرثوذكس مدارس لهم ألحقوها بكنائسهم^(٤) فيما بعد.

وبالرغم من تخفيف بعض القيود عن أهل الذمة، فقد استمروا بدفع مال البدل عن الخدمة في الجيش العثماني، الذي حرم عليهم الانخراط في صفوفه، وبقيت بعض القيود مفروضة عليهم إلى سنة ١٨٥٥ — ١٨٥٦م^(٥). كما أن سياسة التسامح الديني التي طبقتها ابراهيم باشا، ومحاولته نشر فكرة المساواة بين الطوائف الدينية، صعب العودة إلى التمييز الطائفي بعد رحيله من بلاد الشام وكان لا بد من إلغاء الفروق بين المسلمين وأهل الذمة.

اليهود في دمشق

شكل اليهود بشكل عام أكثر من إحدى وسبعين فرقة، كل واحدة منها تفضل

1 - See: Polk .W. op.cit.P.163.

(٢) انظر: القساطلي، نعمان الروضة الغناء في دمشق الفيحاء. ص ١٠٣.

3 - See: Maoz, Moshe. op.cit. P.212..

4 - See: Renaudin «histoire des relation in termaionales». partie.5.P.266.

5 - See: Chevallier. dominique, western. development and eastern crisis in ninteeth century.PP.208-348.

الأخرى^(١). وارتكزت الاختلافات بينها على ادعاء كل فرقة على أنها أكثر التزاماً بأصول الدين اليهودي، واختلفت حول الاعتراف بأسفار التوراة (العهد القديم) والتلمود. وكان منهم في دمشق آتخذ أربع طوائف هي: طائفة الربانيين — والقرائين — والسامرة — والمستعرب^(٢). ويعتقد أن طائفة المستعرب كانت من أصول غير عربية، وكانت قليلة إذا ماقيست بالطوائف اليهودية الأخرى، وأكثر الطوائف عدداً كانت فئة الربانيين. وهجر القراؤون دمشق قبل ١٨٣٢م، وبقي كنيسهم في حيهم (الزيتون) مهجوراً إلى أن جاء أحدهم وقام ببيعه للنصارى الكاثوليك في دمشق عام ١٢٤٨هـ^(٣)، فأقام الكاثوليك كنيسهم مكان الكنيس اليهودي، وضموا حارة القرائين إلى كنيسهم في عهد إبراهيم باشا المصري^(٤)، وقد أثار ذلك خلافاً بين علماء المسلمين^(٥). وسكنت كل طائفة من طوائف اليهود المذكورة في حي خاص من دمشق، وأطلق على كل حارة اسم الثلاث^(٦). وكان أكبر أحياء اليهود يقع في جنوب شرق دمشق وخارج أسوارها حين قام نور الدين زنكي بتطويقه بسور المدينة بما فيها كنائسهم. ولم يبق من كنائسهم خارج هذا السور سوى كنيسهم الأهم في جوهر الذي كانوا يقيمون فيه صلواتهم^(٧).

وكان الربانيون أو الربيون طائفة من اليهود معروفة، وكانوا الأكثرية اليهودية في دمشق. وسما بالعبرية (ربانيم) وتعني الأجبار أو الفقهاء. وقد عربت هذه الكلمة ووردت في القرآن الكريم في قوله تعالى: «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأجبار بما استحَقُّوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء»^(٨).

-
- (١) انظر: زيات، حبيب — مجلة المشرق العدد ١ — ٣٦/ص ١٥٠ عام ١٩٣٨م.
 - (٢) انظر: سجل رقم ٢٦ / القسم العسكرية بدمشق. ص ١٥٨.
 - (٣) انظر: ابن عابدين. رد المختار إلى الدر المختار. ج ٣. ص ٣٧٦.
 - (٤) انظر: القساطلي، نعمان. الروضة الغناء في دمشق الفيحاء. ص ١٠٣.
 - (٥) حيث طلب من ابن عابدين الاتفاق في جواز ذلك فرفض وقال: (إن ذلك غير جائز فكتب لهم بعض المتهودين طمعاً في عرض الدنيا) انظر: كتابه السابق. ج ٣. ص ٣٧٦.
 - (٦) انظر: رسم، أسد، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا. ص ٥.
 - (٧) كرد علي. مقالة له تحت عنوان (الغوطة) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق — المجلد ١٦. ص ١٦٩. عام ١٩٦١م.
 - (٨) سورة المائدة الآية ٤٢.

ويعتقد أيضاً أن أبناء هذه الطائفة قد أخذوا تسميتهم تلك نتيجة لاتباعهم تفاسير علماء اليهود وفقائهم في المشنا والتلمود^(١).

وكانت السامرة الطائفة الرابعة من اليهود، وكانت قليلة العدد (تعد بالعشرات) في مدينة دمشق آنئذ، وكان يرأسهم الرئيس ولم يعتبرهم القراؤون والربانيون منهم. إلا أنهم عوملوا من قبل السلطات العثمانية على أنهم فرقة يهودية ومن أهل الذمة. وأصل هذه الفرقة يعود إلى فترة تدمير مملكة إسرائيل في فلسطين، والتي انشقت عن سليمان بعد وفاته، على يد ملك آشور (تقلت فلاسر) عام ٧٣٨ ق. م. كما قام الملك الآشوري بإجلاء اليهود عن فلسطين إلى نواحي شمال إيران الحالية، وأحل محلهم بعض القبائل في سكن عاصمة المملكة، وهي مدينة السامرة القديمة، التي بنيت على أنقاضها مدينة نابلس فيما بعد^(٢). ولهذا اعتبرتهم بقية فرق اليهود على أنهم حثالة من الأجانب المتعاونين مع أعداء اليهود، كما اعتبروهم وثنيين ومشركين وأطلقوا عليهم اسم (شومارونيم) أي السامرة. ولكن السامريين حرفوا هذه الكلمة إلى كلمة (شمرونيم) أي المحافظين بدعوى أنهم أصحاب الدين الموسوي الأصلي^(٣).

وانقسم اليهود السامرة إلى طائفتين، إحداهما تعترف بنبوة موسى وهارون ويوشع وتجنّد من عداهم من النيبين، أما الطائفة الثانية منهم فتعتقد بنبوة كل الأنبياء ماعدا عيسى ومحمد عليهما السلام^(٤). وقام السامرة ببناء هيكلهم فوق جبل جرزيم أيام السبي البابلي عام ٥٨٦ ق. م. وحين أذن قورش لليهود بالعودة إلى فلسطين عام ٥٣٨ ق. م، بدأوا في تجديد هيكل القدس (أورشليم) عام ٥٢٠ ق. م، وسعى آنئذ السامرة في تأخير بناء الهيكل، مما أحنق اليهود عليهم فحرموا الزواج منهم. وتعرض السامرة لنقمة اليهود في أكثر من مناسبة خلال تاريخهم^(٥).

ولقد اتخذ السامرة جبل جرزيم قبلة لهم ومحجاً، وكانوا يقدمون عليه الأضاحي بدلاً من تقديم ذلك على صخرة بيت المقدس، لاعتقادهم بأن الله كلم موسى على هذا الجبل.

(١) انظر: قاسم، قاسم. المرجع السابق. ص ١٣٠ و ١٣١.

(٢) انظر: قاسم، قاسم. أهل الذمة في مصر في عصر سلاطين المماليك. ص ١٣٣.

(٣) المصدر السابق. ص ١٣٤.

(٤) انظر: زيات، حبيب — مجلة المشرق العدد ٣٦/ ص ١٥٠ و ص ١٥١ عام ١٩٣٨ م.

(٥) انظر قاسم، قاسم — المصدر السابق. ص ١٣٤.

وهم شديداً الحرص على حرمة السبت، وكانت لهم لهجة عربية ولغة مخاطبة مغايرة لبغية اليهود يدعون بأنها من عهد موسى عليه السلام^(١)، ولا يعتبرون غير كتب موسى الخمسة^(٢).

سكن السامرة في دمشق في حي خاص بهم فوق العنابة بالقرب من برج الروس، ووجد في دمشق درب يسمى بدرب السامري. وكان لهم كنيس خاص بهم في ذلك الوقت، إلا أننا لا ندرى موقعه بدقة، وإن كان من المرجح وجوده في حارة العنابة^(٣).

وعمل أحد السامرة كاتباً أولاً في حكومة ابراهيم باشا المصري في دمشق، وكان لهم كاهن رئيس في دمشق، وطلبوا من فرنسا وضعهم تحت الحماية في القرن التاسع عشر، رغم أن عددهم لم يكن ليتجاوز سبعين شخصاً في دمشق^(٤). وأبرز كنائس اليهود في دمشق كان في حارة اليهود القرائين في حيهم الخاص بهم، والمعتقد أنه كان لطائفة الربانيين، وكان يشرف عليه في عام ١٨٤٠م الحاخام يعقوب عينتاني الذي كان (رئيس) لديانة اليهود في الشام. ولم يكن هذا الحاخام ليعرف الكتابة العربية. ومن حاضراتهم المشهورين أيضاً في عهد ابراهيم باشا المصري ميشون بيخار يهودا وميشون أبو العافية، الذي أسلم إثر حادثة مقتل البادري توما في حي اليهود عام ١٨٤٠م^(٥).

وكان اليهود في دمشق آخذين يستخدمون لغتين: العربية وهي لغة الحياة اليومية بينما ظلت العبرية مرتبطة إلى حد كبير بترائهم الديني والعقائدي. ولقد استخدمها بعض صيارفهم الذين عملوا في مالية ولاية دمشق وذلك في كتابة سجلات المالية حتى أصبحت هذه السجلات طلاسماً لا يفكها سواهم، وكان ذلك منهم حيلة ليجهروا ولاية دمشق على

(١) المصدر السابق. ص ١٣٥.

(٢) انظر: مجهول. حسر اللثام. ص ٦.

(٣) انظر: نيات حبيب. المصدر السابق. ص ١٧٠.

4 - Douin, Georges, op.cit. P.187.

(٥) انظر: رسم، أسد، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا. ج ٥. ص ٤ و ص ١٧ و ص ١٩ و ص ٢٤. ثم انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ١٢٢٠/١٢٠١ - ١٢٠٢ هـ. ص ٤٥١ و ٤٩٤. ثم سجل محكمة الميدان رقم ٣٣٦/١٢٥٠ - ١٢٥١ هـ. ص ٥٢.

عدم الاستغناء عن خدماتهم في هذا المجال ، ولينحكموا باقتصاد الولاية ، وبرز من اليهود أسرتان كبيرتان لعبتا دوراً كبيراً في الحياة الاقتصادية والإدارية ، وهما أسرتا آل فارحي وأسرة السكرج^(١) .

أما من حيث علاقة اليهود الاجتماعية مع بقية الطوائف الأخرى في دمشق ، فكانت محدودة جداً ، إذ كانوا مغلقين على أنفسهم ، ولا يتزوجون من الطوائف الأخرى . وكان على رأسهم زعيم ديني يطلق عليه اسم الحاخام أو الربّي كما أطلق على بقية كهنتهم بشكل عام لقب الحاخام ، ويميز الحاخام عن بقية أبناء اليهود بزيه الخاص ، وحجم ولون التريان الذي يعتمره ، كما تميز بأحكام جفته الطويلة والواسعة ، وكان له سلطة دينية ودنيوية وقراراته محترمة في معظمها ، أكثر مما نراه عند رجال الدين المسيحيين ، رغم أن أحكامه القضائية المدنية كانت محدودة للغاية والخصومات غالباً ماتعرض على المحاكم الشرعية الإسلامية^(٢) . ودخل العديد من اليهود في حماية الدول الأجنبية خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر شأن المسيحيين ، وعندما دخلت البعثات التبشيرية إلى دمشق ، وأقامت الأديرة والمدارس فيها ، أصاب اليهود نصيب من ذلك ، فوجدت بعثة تبشيرية عام ١٨٥٠م استقبلت في مدارسها أبناء اليهود ، إلا أنها لم ترفض تعليم المسيحيين الدماشقة . وكانت تقيم الصلوات بلغتين أولاهما العبرية والثانية الإنكليزية كل يوم . وقد أنشئ في دمشق في فترة متأخرة مدرسة لبنات اليهود ، حوت أربعين طالبة يهودية وعدداً قليلاً من غير اليهوديات . وكان معظم مدرسي هذه المدرسة أجنبان ومن أصول أمريكية^(٣) .

أما أبرز الأسر اليهودية في دمشق فكانت (آل هراري — وأبو العافية — وشناعة — واللاطي — ولنداوا — والفتال — وسلانيكي — ولزبونا — وفارحي — واسلام بولي — ويبجوتو — ونحماد^(٤) — وشمعة — والشلاح — وكومان — وشحادقة — وقوشة — كوراع

(١) انظر : غراية ، عبد الكريم . مقدمة تاريخ العرب الحديث . ج ١ . ص ٦٥ .

2 - Russell, op.cit, VOL.2,P.64.

3 - Porter, J.L. five years in Damascus .P.146.

(٤) انظر : رسم ، أسد . الأصول العبرية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا — المجلد ٥ / ص ٦ و ص ١٧ و ص ٢٠ و ص ٢٢ و ص ٢٣ و ص ٢٤ .

— والأزهرلي — وأوديك — ودويك — وخطوب — وزقزوق — وميرو — والشماع — ومراد — واللاوي — والترك — والرمانة — والحلبى^(١) .

ويلاحظ أن هذه الأسر تعود إلى أصول مختلفة محلية وأجنبية . فمثلاً أسرة الفارحي كانت من أصل أندلسي حيث هاجر أجدادهم إلى الأناضول أثر حوادث التفتيش (محاكم التفتيش) التي أقامها الأسبان للمسلمين واليهود في الأندلس بعد ١٤٩٢ م، مما دفع باليهود للهجرة من الأندلس إلى البلدان الإسلامية وخاصة المغرب العربي أو البلقان فالأناضول .

ولقد عمل بعض اليهود كتاباً للحكومة في عكا ودمشق وعمل بعضهم كصيافة وفي المجالات المالية المختلفة في الأستانة نفسها . وبلغ هؤلاء درجة من النفوذ مكنتهم من تقديم الدعم لأبناء جلدتهم في دمشق^(٢) خاصة في الظروف الحرجة .

ومن جهة ثانية لم يكن يهود دمشق في هذه الفترة على درجة واحدة من الثراء المادي والنفوذ السياسي . ونلاحظ أن البعض منهم كان محترماً قبل مجيء إبراهيم باشا المصري إلى دمشق . ولم يكن منهم إلا القليل ، من يملك رأسمالاً كبيراً ويعمل في التجارة^(٣) ، في حين كان قسم كبير منهم يعمل في حرف متواضعة لا بل محترقة في دمشق كالبريجية^(٤) والمغنين في المقاهي ، أو المعززين لحفر قاذورات المساكن والبيوت أو الجامعين للخرق البالية من المزابل وأقنية الماء والخارات ، فيأخذونها ويغسلونها ويعملون منها أكياساً تباع للعطارين لصنع الأرز والسكر والملح ونحوها ، أو يبيعونها للصنماياتية ليجعلوها حشواً للصرامي^(٥) وكان منهم السمكري (لحام التنك) ومنهم يبيع الصوفان أو الأمشاط المصنوعة من الحديد في أسواق

(١) انظر : سجل رقم ٢٥٠ / محاكم دمشق / ١٢١٦ — ١٢١٧ هـ / ص ٢٣٣ و ص ١١٠ و ص ١٤١ و ص ٢٢ ثم : سجل القسمة البلدية بدمشق رقم ٣٢٧ / ١٢٤٧ — ١٢٤٩ هـ / ص ١٣٩ . ثم سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢٠ / ١٢٠١ — ١٢٠٢ هـ / ص ٢٨ و ص ٤٥ .

(٢) انظر : المعلوف ، عيسى . مجلة الجمع العلمي العربي بدمشق — المجلد الخامس . ص ٦ و ص ٢٢٩ و ص ٢٣٠ / عام ١٩٢٦ م .

3 - Douin. George. op.cit. P.214.

(٤) انظر : القاسمي ، محمد سعيد . قاموس الصناعات الشامية . ج ٢ . ص ٢٢٠ حيث يقول : كان شباب اليهود يدورون بالأسواق ومجتمعات الناس حاملين صندوقاً من خشب ضمنه أنواع الفرشايات والبوية متنوعة الألوان كالأسود والأصفر والأبيض وأنواع الزيوت كزيت السمك واللوز ومسحون النعال بأجر معلوم .

(٥) المصدر السابق . ج ٢ . ص ٢٣٠ .

دمشق^(١). وعمل البعض الآخر في حرف أخرى، كالنسيج والنقش على النحاس (الظاهرى) وتنزيل الفضة فيه وفي الصناعات الخشبية كالموازيك. وكان منهم الصباغ والعقاد والشماع والطحان والصبان^(٢) ... الخ.

وكان اليهود متكاتفين بطبيعة انعزالهم وانغلاقهم على أنفسهم، ولهم صلات قوية مع أبناء جلدتهم خارج دمشق، وعلى مستوى الدولة العثمانية والدول الأوربية، فإذا ما وقع أحدهم في مأزق كان الجميع يمدون له يد العون والمساعدة، فعندما قتل البادري توما في دمشق عام ١٨٤٠م على يد اليهود ووقع الجناة منهم بيد السلطة المصرية، سعى أبناء جلدتهم من الإنكليز لدى والي مصر محمد علي باشا لانقاذ أبناء دينهم من الإعدام. وترتب على ذلك أن أصدر أوامره إلى دمشق فحواها «لا أحد يضرب اليهود ولا يقارشهم وإن دعوتهم تنقام عند قونسولوس النمسا بالاسكندرية»^(٣).

فأنقذ هذا التدخل قتلة البادري توما اليهود في الوقت المناسب من الموت المحقق. ويقول الدكتور ميخائيل مشاقة: أن المحامي الإنكليزي اليهودي قد اشترى حرية المتهمين من محمد علي باشا بستين ألف كيس^(٤).

ومن جهة أخرى فقد برز عدد من اليهود في القرن التاسع عشر في المجالات الاقتصادية والتجارة الخارجية، وفي الصيرفة وفي الإدارة المالية التابعة لولاية دمشق. فمسكوا سجلاتها وقاموا بالتزام أموال الجمارك وبعض الضرائب الأخرى. وقام بعضهم بالعمل في مجال الربا. فأقرضوا الشعب الأموال بفوائد عالية. وما أن أزف الثلث الأول من القرن التاسع عشر حتى أصبح اليهود أغنى أبناء دمشق على الإطلاق، وأصبح لهم نفوذ الكلمة لدى ولايتها، وامتلكوا الجوارى^(٥). وأصبح أبناء دمشق يرددون قول الشاعر فيهم:

(١) المصدر السابق. ج ٢. ص ٢٣٩ و ص ٢٧٤.

(٢) انظر: سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١ / ١٤٥ و ص ٢٠٨ و ص ٢٨٩ و ص ٢٩٣؛ ثم سجلها رقم ٢٤٠ / سنة ١٢١١ - ١٢١٦ هـ / ص ٢٤٦.

(٣) انظر: رسم، أسد. الأصول العربية لتاريخ سورية ... ص ٣٧.

(٤) انظر: مشهد العيان في حوادث سورية وبنان ص ١٢١.

(٥) انظر: رسم، أسد. الأصول العربية ... ج ٥. ص ٨٠.

يهود هذا الزمان قد بلغوا
المال منهم والجاه عندهم
يأهل ذا العصر قد نصحتكم

غاية آمالهم وقد ملكوا
ومنهم المستشار والملك
تهودوا قد تهود الفـ ملك ^(١)

ولا غرابة في هذا القول إذا ما علمنا أن صيارفة اليهود أصبحوا يتحكمون بمالية دمشق ويتصرفون بها كما يشاؤون، مما دفع أهالي دمشق لرفع شكوى ضدّهم إلى السلطان العثماني محمود الثاني، فاستجاب السلطان لشكواهم، وأصدر أوامره بعزل صيارفهم من ديوان السرايا، والاستعاضة عنهم بغيرهم ممن يحسنون العمل في هذا المجال. ولقد حاول ولاية دمشق تنفيذ ذلك، إلا أنهم عجزوا لكون حسابات ولاية دمشق مكتوبة باللغة العبرية ولا يوجد من يتقن هذه اللغة إلا أبناءها، فغدت دفاتر الديوان كأنما كتبت بالقلم القلطيّري^(١). وعندما حاول الوالي سحبها من بين أيديهم، وقع في الحيرة والعجز، فاضطرّ مكرهاً لإبقائهم خوفاً من أن تقع مالية الولاية وحسابات الديوان في التشويش، خاصة وأن هذا الوالي سيقع تحت رحمة هؤلاء الصيارفة عندما يعزل إذ كان بيدهم الإيراد والمصرف وبالتالي سيسببون له شراً كبيراً حينئذ.

أما بالنسبة لمعاملة اليهود والنصارى من قبل السلطات، فلم تكن سواء بل كانت معاملة اليهود أفضل. ويمكن تفسير ذلك بكون اليهود لا يرتبطون بروابط دينية مع الدول الأوربية المسيحية المعادية للعثمانيين شأن النصارى. ولعبت تركة الحروب الصليبية ومطامع الدول الأوربية في الممتلكات العثمانية دوراً في ذلك. ولهذا لا نرى من اليهود من يترك دينه ويسلم، كما كان يحصل لبعض النصارى في دمشق، إلا في القليل والناذر. وتطالعنا سجلات محاكم دمشق بعباراتها المهينة التي كانت تستخدمها عند ورود أسماء أهل الذمة مثل (الصعلوك، الذمي الهالك) (١٧).

(١) انظر: مجلة المجمع العلمي العربي، ج ١١ - المجلد ٩، ص ٦٤٢ / ١٩٢٩م / جمادى الأولى جمادى الثانية ١٣٤٨هـ.

(٢) هو خط اليهود الذين يكتبون به التعاويذ والرقى بآيات من التوراة وأطلق هذا التعبير على كل ماله علاقة بالطلاسم والرموز من الكتابات. انظر: مجلة المجموع العلمي العربي بدمشق. ج ١١ — المجلد ٩. ص ٦٤٤/١٩٢٩م.

(٣) انظر : سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٤٠/١٢١١ - ١٢١٦. ص ٤٤. ثم انظر : سجلها رقم ٢٣٩/١٢١٠ - ١٢١١. ص ٦٠.

إلا أن النصارى لم يعاملوا في كل العهود بطريقة واحدة . بل اختلفت معاملتهم من والٍ إلى آخر ، ففي عهد أسعد باشا العظم يقول ميخائيل بريك الدمشقي : « قرأت في تواريخ دمشق منذ حين تسلمها الإسلام إلى هذا الزمان فما رأيت تاريخاً يخبر بأن صار لهم (لنصارى) عز وجاه وسيط وسطوة وذكر مثل مدة العشر سنين الماضية في حكم أسعد باشا بن العظم^(١) . وكذلك الوالي محمد باشا العظم «عمل لهم حماية ورعاية كافية»^(٢) في حين نرى عكس ذلك في عهد الكنج يوسف باشا حيث عاملهم معاملة سيئة اعتقاداً خاطئاً منه أن التضييق على أهل الذمة هو من الدين . وكذلك الوالي درويش باشا الذي أوعز إلى حاكم صيدنايا عام ١٢٣٩هـ / ١٨٢٣م بمنع النصارى فيها من تقليد المسلمين في لباسهم فأرسل مرسوماً إليه ليعيدهم إلى ما كانوا عليه^(٣) . أما معاملة أهل الذمة على المستوى الشعبي في دمشق ، فكانت سيئة إذ عاملهم جهلة المسلمين أحياناً بالسوء . فمثلاً أجبروهم على (الإشمال) أي السير عن يسار المسلم ، أو على الطورقة أي السير في الطاروق (الطاروق منخفض مابين الرصيفين تسير فيه الحيوانات ، وغالباً ماكان مملوءاً بالمياه الآسنة) كما استخدموهم في أعمال السخرة^(٤) . ولكن عقلاء المسلمين كانوا يدفعون عنهم الأذى بقدر ما استطاعوا ، في وقت سادت فيه روح التعصب الديني بين الناس جميعاً . وبشكل عام كانت معاملة اليهود من أهل الذمة أفضل من النصارى . ويقول الحاخام موسى سيمسون الذي عاش في دمشق إبان الحكم المصري : « إن المسلمين يضطهدونا ككل الناس بسبب طبيعتهم الجافية ، في حين أن المسيحيين يضطهدونا عمداً »^(٥) .

وكثيراً ما انعكست علاقة الدولة العثمانية بالدول الأوربية على معاملة المسيحيين . فإبان الثورة اليونانية عام ١٨٢١م / ١٢٣٦هـ ، انصبت الكوارث على الأرثوذكس من النصارى ، واعتبر رجال دينهم مسؤولين عن هذه الثورة ، فأعدم بطركهم في حي الفنار في استانبول ، كما أعدم معه بعض المطارنة والقساوسة شنقاً في «أحد الفصح» من ذلك العام . وأصدرت السلطات العثمانية أوامرها إلى درويش باشا والي دمشق بأن يقتل ساروفيم بطرك الشام .

(١) انظر : تاريخ الشام . ص ٦٢ .

(٢) المصدر السابق . ص ١١٠ .

(٣) انظر : مجهول . حسر اللثام عن نكبات الشام . ص ٤٣ .

(٤) مجهول . المصدر السابق . ص ٧١ .

ويصف حالة الأرثوذكس أحد الاخباريين الدمشقيين في تلك الفترة بقوله : « انكسرت شوكة الروم وبطركهم بسبب حادثة المورة »^(١). كما كان يقام على أهل الذمة الحد عندما يخالفون الشروط التي بموجبها أصبحوا في ذمة المسلمين .

الأقليات الأوربية وقناصلها في دمشق

بدأت دمشق عهداً جديداً في ظل الحكم المصري بالنسبة للقناصل الأجانب^(٢) ، وبالنسبة لعلاقاتها التجارية والاقتصادية وغيرها . فجاءها قنصل من النمسا وهو السنيور ميولاتو^(٣) . ثم أرسلت الولايات المتحدة الأمريكية قنصلاً عاماً في عام ١٢٤٩هـ / ١٨٣٧م وهو المستر جاسبر تشاسو (JASPER CHASSEAUD) ، وشملت صلاحياته سورية بكاملها خاصة إيالاتي دمشق وطرابلس ، وأقام له وكيلين أحدهما في صيدا وهو المعلم ابراهيم نخلة والثاني في دمشق وهو الخواجة مراد بدور^(٤) . وقامت فرنسا بتعيين قنصل عام لها بدلاً من وكيل القنصل السابق . وحضر قنصل روسيا وقام أبناء الزيداني بحرق الكنيسة الأرثوذكسية

(١) النظر : الدمشقي ميخائيل ، تاريخ حوادث الشام ولبنان . ص ٤٦ .

(٢) كانت دمشق مغلقة في وجه الأوربيين وقناصلهم تقريباً قبل عهد ابراهيم باشا المصري . ولم يسمح لأحد منهم بالإقامة فيها إلا لوكيل قنصل فرنسا المسيو (بودان) والذي كان يتكلم العربية ويرتدي زي أهلها . وأولى المحاولات التي قامت بها دول أوربية لتعيين قناصل لها في دمشق كانت في سنة ١٧٨٧م / ١٢٠٢هـ / عندما وصل قنصلاً روسية والنمسا إلى صيدا فلم يقبلوهم أهل الشام فاثبتن هذه باب الكعبة فخرجوا من صيدا . النظر : (الدر المصروف في تاريخ الشوف) . ص ٤٠٨ . ثم انظر :

DOUIN. OP.CIT. PP.222,257.

وحصل الإنكليز بدورهم على موافقة ابستانبول لفتح قنصلية عامة في دمشق وعينوا المستر (فان) لهذا المنصب في سنة ١٨٢٦م / ١٢٤٢هـ . وأعطى الإيعاز إلى والي دمشق عبيد الرؤوف باشا (١٢٤٤ — ١٢٤٦هـ) ثم من بعده لمحمد سليم باشا (١٢٤٦ — ١٢٤٧) وقام محمد سليم باشا بعرض ذلك على أعيان دمشق ولكن هؤلاء قاموا بنشر هذا النبأ بين عامة دمشق ليثيروا بذلك غضبهم ضد الوالي الذي حاول تطبيق النظام الجديد وجمع ضريبة الصداق فاثرت ثائرتها وقتل محمد سليم باشا ولم يدخلها أي قنصل غربي حتى احتلالها من قبل ابراهيم باشا المصري انظر : حول ذلك ماجاء في مذكرات تاريخية .

ص ٢٥ و ص ٦٨ ص ٦٩ تحقيق أحمد عدنان سبان . ثم انظر : DOUIN. OP.CIT. P.257.

(٣) انظر : رسم ، أسد (الأصول العربية ...) ج ٥ . ص ١٤ .

(٤) انظر : المصدر السابق — المجلد ٢ . ص ٩٧ ص ١٠٠ . ثم المجلد ٥ . ص ٧٤ و ص ٧٥ ثم انظر :

Douin, op.cit, partie.3. PP.222,257.

ثم انظر : مجهول . مذكرات تاريخية . ص ٢٤٨ .

فيها احتجاجاً على ذلك. وكانت العادة في دمشق أن يذهب القنصل الجديد أو وكيل القنصل، سواء أكان أجنبياً أو محلياً، بصحبة ترجمانه ليقدّم نفسه للوالي ويبلغه أمر تعيينه، وتتم هذه العملية أيضاً في حال انتقاله إلى مكان آخر أو في حال ترك وكيل القنصل عمله وانتقاله إلى دولة أخرى.

ولم يكن نفوذ القناصل على درجة واحدة، بل لعبت فيه عوامل عدة، كان أبرزها قوة الدولة العثمانية وولايتها وقوة ونفوذ دولة القنصل فمثلاً: في عهد أحمد باشا الجزائر الذي كان يتمتع بشخصية قوية والذي أصبح أكثر من مرة والياً على دمشق وصيدا في وقت واحد، لم يستطع القناصل الأوربيون أن يتمتعوا في عهده بما تتمتع به أقرانهم في مدينة حلب. وكثيراً ما فرض هذا الوالي إرادته على استانبول في ما يخص هؤلاء القناصل. ففي عام ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م صدر فرمان من السلطان العثماني يعيد بموجبه بعض قناصل أوروبا إلى عكا، إلا أن الجزائر لم يمتثل للأمر، في حين نرى الصورة معكوسة في حلب في نفس الفترة إذ أسهم بعضهم في عزل واليها جطلي علي باشا عام ١١٨٩هـ/١٧٧٥م^(١). ونسوق مثلاً آخر ما بلغه ريتشارد وود القنصل الإنكليزي في دمشق من نفوذ لدى السلطات العثمانية، لم يبلغه غيره من القناصل، ووصل ذروة نفوذه عشية إخراج إبراهيم باشا المصري من سورية، حيث منح القنصل المذكور تفويضاً من الحكومة العثمانية بمراقبة أعمال مأموريها في دمشق. ولم يكتف بذلك، بل قام بعزل الوالي العثماني علي باشا^(٢). ولا غرابة في ذلك إذا ما علمنا أن الحكومة البريطانية تزعمت عملية إجبار إبراهيم باشا على الانسحاب من سورية، وعودتها إلى السلطة العثمانية.

ولقد كان القنصل الإنكليزي مبعوثاً فوق العادة لدولته، وكان يعادل في منصبه مرتبة وزير في وطنه. ولم يمنح هذا المنصب إلا لأصحاب الكفاءة. وكانت قنصليته تلك بمثابة حكومة مصغرة أنيط بها تأمين مصالح بريطانيا من دمشق إلى بغداد ومن نابلس إلى حلب، وكان عليه تأمين تجارة إنكلترة عبر الصحراء، وتأمين المسافرين الإنكليز والمبعوثين والمبشرين المقيمين فيها، وتأمين المدارس التابعة لهم وحماية رعايا وطنه. كما كان عليه إقامة علاقات

(١) انظر: الصايغ، فتح الله. الارتداد في تاريخ حلب وبغداد. ص ٦١ الصورة المخطوطة في مكتبي الخاصة.

(٢) انظر: مشاقة، ميخائيل. مشهد العيان بمحادث سورية ولبنان. ص ١٣٧. ثم مجهول، مذكرات تاريخية ص ٢٤.

جيدة مع بدو الصحراء والدروز في حوران واللجاة وغيرها. وهكذا نرى أن مهامه لم تكن سهلة، ناهيك عن كونه يقع تحت مراقبة والي دمشق العثماني، خاصة وأن دمشق عاصمة سورية، وفيها مقر قيادة الجيش وعناصر السلطة الحاكمة^(١). ومن جهة أخرى هناك صورتان متعاكستان يراهما المرء في معاملة قنصل إحدى الدول في فترتين مختلفتين فمثلاً: قنصل النمسا في دمشق عومل معاملة مختلفة، نرى الأولى منهما متمثلة في (الكافيلر لابي) يقول في رسالة له مؤرخة ١٤ آذار عام ١٨٣٩م، أن مشاكل بلاده التي هي أكثر صعوبة، وأمكن حلها مع أحمد باشا الجزائر رغم أنه كان أكثر شراسة من جميع ألباشوات المعروفين في سورية^(٢)، في حين نرى الصورة الثانية في قول القنصل النمساوي (الكافيلر بيتشوتو) الذي كان في دمشق قبل عام ١٨٣٩م إذا يقول: أن الطريقة التي تمشي عليها الحكومة الحالية المصرية في سورية قد تضطرننا لقرع أبواب كثيرة. ومع ذلك ترفض العديد من طلباتنا^(٣).

أما ابراهيم باشا المصري فقد حاول قدر إمكانه عدم الإساءة للقناصل في دمشق استرضاء منه لدولهم. ونلمح العديد من الإشارات إلى تلك السياسة في كتب الإخباريين فمثلاً فتح الله ابن أنطون الصايغ «صاحب المقترّب في حوادث الحضر والعرب» والذي عمل ترجماناً لدى وكيل قنصل فرنسا في اللاذقية ثم لدى القنصل العام المسيو لاسكاريس في طرابلس يقول: «إن ابراهيم باشا المصري كان دائماً أوامره متواصلة إلى متسلميه ورؤساء عساكره بالتواصي والتشديد في عدم التماهل والاستهتار في مصالح أغراض الأورالية ويفضلوا قضي أموادهم على جميع الأشياء وكذلك دائماً التواصي إلى جميع متسلميه بالامتزاج والحبّة مع الإفرنج وكامل الرعايا»^(٤).

وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على أن ابراهيم باشا، لم يكن ليبريد استعداد الدول الأوربية عليه، خاصة وأنه في حاجة لظروف مواتية دولية لحسم الموقف مع الدول العثمانية لصالحه، وتحقيق طموحاته في عزها عن مساندة الدول الأوربية، إلا أن العواطف لا تتحد

١ - See: Burton, Isabel the inner Life Syria. PP.28,29.

(٢) انظر: قرأ بي، بولس. فتوحات ابراهيم باشا المصري في فلسطين ولبنان وسورية. ص ٤٤ و ص ٤٥ و ص ٥١.

(٣) انظر: المصدر السابق. ص ٦٥.

(٤) انظر: الصايغ — فتح الله — المراتد ... ص ٧٦.

طبيعة علاقات الدول بل مصالحها الدائمة هي التي تحددها، فلطالما تضررت مصالح بعض الدول الأوربية بوجود قوات ابراهيم باشا في بلاد الشام وامتدادها إلى الأناضول وتهديدها للسلطة العثمانية في استانبول وأن ذلك سيؤدي إلى إقامة دولة عربية مصرية فتية قد تؤثر بدورها على مصالح هذه الدول الأوربية على مطامعها في الممتلكات العثمانية. فلا غرابة إذا ما كاد الإنكليز والتمساويون والروس والبروسيون لابراهيم باشا، ونشط قناصلهم في دمشق لتقويض حكمه مما أجبره لإقامة الرقباء عليهم^(١).

ومن جهة أخرى، كانت علاقة القناصل فيما بينهم، تحددها علاقة بلدانهم مع بعضها البعض، ولم يحصل أن اجتمعت كلمتهم في دمشق على أمر إلا إبان أحداث ١٨٦٠م في دمشق، حيث فتح جميع القناصل بيوتهم لإيواء النصارى، كما كلفوا قنصل اليونان فيها للاتصال بوالي دمشق وتبليغه رغباتهم لأن (قنصل اليونان يتقن التركية)^(٢).

أما رواتب القناصل فكانت تختلف بحسب دولهم، وكانت تعطى لهم على شكل نقود، وكانت رواتبهم ترتفع بارتفاع الأسعار، وكانوا يتحملون مصاريفهم الذاتية، كما كانوا يمنحون رسوماً قنصلية بنسبة ٢٪ من ثمن بضائع شركاتهم الوطنية عند مرورها بالمدن المقيمين فيها أو التابعة لمهام قنصلياتهم^(٣).

معيشة القناصل وحماياتهم

بقي القناصل الأوربيون في البداية يعيشون حياتهم الخاصة مع أسرهم في أماكن محددة من المدينة، ولم يستطيعوا إنشاء علاقات ما، أو المشاركة في الحياة الاجتماعية إلا فيما ندر، مع أنهم كانوا يعملون جواسيس لبلدانهم^(٤)، وأقيمت قنصلياتهم في البداية في الأحياء المسيحية واليهودية من دمشق، كي لا يتعرضوا مع أسرهم للإيذاء فيما لو سكنوا في الأحياء

(١) انظر : مشافة، ميخائيل. مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان. ص ١٢٦ و ص ١٣٢.

(٢) انظر : مجهول. حسر اللثام عن نكبات الشام. ص ٢٢٤.

3 - Wood, A.C. history of the Levant company, P.248.

4 - Ibid, P.235.

(٥) انظر : مشافة، ميخائيل، حيث يقول في كتابه. مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان. ص ٦ و ص ١٢٦ : إن القنصل الإنكليزي ريتشارد وود هو جاسوس للدولة السكسونية.

الإسلامية منها . فمثلاً سكن وكيل قنصل فرنسا ثم قنصلها فيما بعد في حي النصارى . وأقام أول قنصل للإنكليز وهو المستر فارن في حي اليهود بالقرب من بيت هارون هراى اليهودي الذي يقع بدوره بالقرب من زقاق القميم والقميلة^(١) . وقنصل روسية كانت قنصلتيه ودار سكنته في حي الآسية بالقرب من الكنيسة المرمية^(٢) . ولكن بعد تعود الدمشقيين على وجودهم ، قام القناصل بتبديل أماكن قنصلياتهم لخارج تلك الأحياء . ففي أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر أصبحت القنصلية الإنكليزية خارج أسوار دمشق وبالقرب من سرايا الوالي^(٣) .

ومن جهة أخرى كانت القنصليات عبارة عن بيوت دمشقية ، أجرت لهؤلاء القناصل ، فرفعوا أعلام بلادهم عليها ، ووضعوا على أبوابها آرمات للدلالة عليها^(٤) .

أما فيما يتعلق بمعيشة القناصل الأجانب وحياتهم اليومية مع أسرهم ، فليست لدينا معلومات كاملة عن ذلك ، وحسبنا هنا أن نورد مذكرته إحدى نساء القناصل التي عاشت مع زوجها في دمشق في القرن التاسع عشر وهي «المسز إيزابيل بورتن» زوجة القنصل الإنكليزي . وتصف هذه المرأة بيت سكنها في دمشق قائلة «إنه عبارة عن بيت دمشقي به فسحة سماوية مزروعة بأشجار الياسمين وعرائش الكرمة وشجرات الكباد والليمون والبرتقال ، وقد شكلت هذه الأشجار مظلة وارفة الظلال للساحة . وتردف قائلة : إنها قامت بنزع المصبغات عن الشبابيك ، التي كانت تستخدم في البيوت الدمشقية آنئذ ، لتحجب رؤية السابلة عما في داخل المنزل . ولقد أقامت قناً في حديقة بيتها لتربية الدجاج البلدي والرومي والأوز والبط والغرغر «دجاج فرعون» ، كما قامت بتربية العديد من الحيوانات الداجنة وغيرها في الاسطبلات التابعة للبيت ، وكان منها الماعز والحیول نصف الأصيلية وثلاثة أرباع الأصيلية أو الأصيلية ، وكان منها الجمال ، وحمار جلده أبيض كالثلج ، بالإضافة إلى قطرة فارسية

(١) انظر : رستم ، أسد . الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا . ج ٥ . ص ٥ . ويذكر صاحب مذكرات تاريخية . أن القنصلية أقيمت في بيت قزنها الذي قدام قناية الخطيب انظر : ص ٦٩ من الكتاب المذكور .

(٢) القساطلي ، نعمان الروضة الغناء في دمشق الفيحاء . ص ١٠٢ .

(٣) انظر المصدر السابق ص ٨٩ من ٩٠ ثم :

See: Burton, Isabel, the Inner life of Syria. PP.26.27.31.

(٤) القساطلي ، نعمان . المصدر السابق . ص ٨٩ و ٩٠ .

بيضاء وكليين، الأول من نوع «برانديلد» والثاني من نوع «بانورو»، بالإضافة إلى حمل كان مدلاً لديها، وغمر أصبح كالاله الوثني على حد قولها يسيطر على جميع هذه الحيوانات، فكان يقفز على ظهور الخيل والجمال فتفر منه أفراد الماعز مدعورة لترمي بنفسها في النهر^(١). وكان الاعتناء بهذا الحشد الكبير من حيواناتها يأخذ جانباً كبيراً من وقتها. ولقد اهتم القناصل وأسرههم بإنجاز أعمال دولهم الموكلة إليهم، وقضى بعضهم ماتبقى من وقته في الكتابة والمطالعة. وتقول إيزابيل بورتن إنه إذا ماتوفر لها الوقت مع زوجها بعد كل ذلك، تقوم بالتنزه في أرياض دمشق. وكى لا يتعرضا للمخاطر في طريقهما اعتماداً في حماية نفسيهما على عناصر محلية جنداهما لخدمتهما ومنحاهما حماياتهما.

ولم يكن عدد الأوربيين كبيراً في دمشق حتى عام ١٨٥٠م، إذ لم يزد عددهم على ٣٠ أوربياً، وندراً ما كان بينهم إنكليزي بل كانوا في معظمهم من جنسيات أوربية أخرى. ونلاحظ حجم عمل قنصل الإنكليز في دمشق من خلال قول إيزابيل بورتن، إذ ذكرت أن زوجها كان يحتاج لأكثر من ٢٤ ساعة في اليوم لإنجاز أعماله المكلف بها. وساعدت زوجها في ذلك، وتقول المسز بورتن على الرغم من ضخامة عملها في النهار، كانت تقضي الليالي قلقة يحفو عينها الكرى، خاصة في ليالي الشتاء الطويلة، ويؤنسها في وحشتها صوت الأذان المنطلق من مآذن المدينة، أو نباح الكلاب في البساتين المجاورة، أو عواء بنات آوى المنبعث من سفوح جبل قاسيون، أو نقيب البوم المتهادي إليها من الأشجار المحيطة ببيتها، أو زفزة الريح بين الفجاج أو عنين النواوير المتعبة المقامة هنا وهناك على فروع بردى، أو أصوات شجار النسوة الدمشقيات في البساتين أو الحمامات المجاورة^(٢).

ومن جهة أخرى فقد شكل عدم إتقان اللغة العربية أو التركية حائلاً، دون اتصال القناصل وأسرههم المباشر مع أبناء دمشق، فاعتمدوا في ذلك على التراجمة والحمايات والقواصة الذين عملوا لديهم، من نصارى ويهود ومسلمي دمشق بتسميات مختلفة^(٣)، وكان نعمة الحضييرة أول من عمل مترجماً في دمشق، وكان على جانب من الذكاء والغنى بين المسيحيين، فاستخدمه قنصل إنكلترة لديه وبقي في عمله حتى وفاته سنة ١٨٣٨م^(٤).

١ - See: Burton Isabel. op.cit. PP.26.27.31.

٢ - Ibid. P.31.

٣ - Russell. op.cit. P.227.

(٤) انظر: القساطلي، نعمان. الروضة الغناء في دمشق الفيحاء. ص ٨٩ ص ٩٠.

ولقد سمحت الدولة العثمانية للقناصل في دمشق بتوفير الحماية للرجال الذين كانوا يعملون لديهم، فكان لكل قنصل حق في توفير الحماية لـ (٨ — ١٠ أشخاص) وكان هؤلاء يحصلون على البراءات من الدولة العثمانية عن طريق القناصل. إلا أن القناصل قد زادوا في عدد من يوفرون لهم الحماية، واستخدم البراءاتلية الامتياز الممنوح لهم من الدولة العثمانية استخداماً سيقاً للتهرب من دفع الضرائب للسلطات العثمانية، وحتى الامتناع عن الامتثال أمام محاكمها.

وأبرز موظفي القناصل أصحاب البراءات الذين كانوا يعملون في القنصلية هم — ترجمان أول — وترجمان ثاني — وكاتب القنصلية ويسقجي وخدام وعدد من القواصة^(١). ثم كخيخة القنصل وخزنداره وعبيد للخدمة^(٢)، إلا أن القناصل زادوا في توفير الحماية لأكثر من هؤلاء حتى بلغ عدد البراءاتلية لكل قنصل يتراوح ما بين ١٥ — ٥٠ شخصاً، مما أضر بمصالح الدولة، فاضطرت بدورها لتحديد عدد الحماية لكل قنصل، وتركت لكل قنصل ترجمانين وقواسين و٦ خدام ومازاد عن ذلك رفعت عنهم الحماية وعاملتهم معاملة الرعية^(٣).

ولقد كان للمتغيرات الاقتصادية في الساحة الأوربية، بقيام الثورة الصناعية، إنعكاس سلبي على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الدولة العثمانية بشكل عام، وعلى دمشق بشكل خاص، وأدى ذلك كله إلى سعي العديد من أبناء دمشق للحصول على حماية القناصل والعمل لديهم. فقد عمل عدد من الانكشاريين كقواصة لديهم. وكان القناصل يختارون من هؤلاء من كان يتصف بالأمانة والصيانة والهئية اللطيفة. وكان قواص القنصل يقوم بحراسته وحراسة أسرته. وإذا ما اضططر القنصل أن يسير في شوارع دمشق لسبب ما إما ركباً أو ماشياً، كان القواص يتقلد سيفه ويسير أمامه وإذا ماركب القنصل العربة كان يجلس القواص

(١) انظر: رسم، أسد. الأصول العربة لتاريخ سورية — المجلد ٣ — ٤ / ص ١٠١ و ص ١٠٢. ويقول وليم بولك: إن المعاهدة التجارية المعقودة مع تركية في سنة ١٨٣٨م أعطت فرص التنافس بين التجار الأجانب والمحليين، ولم تكن أية حكومة محلية قادرة على مقاومة أي تاجر مرتبط مع القنصل، وفي حالات النزاع مع التجار المحليين، كان التاجر المرتبط بالقنصل فوق القانون العثماني، وكان سفير بلاده جاهزاً لمقابلة

السلطان في استانبول نيابة عن القنصل. See: the opening of south Lebanon. P.224

(٢) انظر: مجهول. مذكرات تاريخية. ص ٦٨.

(٣) انظر: مجلة المشرق. العدد ٥٥ / ص ٥١٤. عام ١٩٦١م.

أمامه في العربة إلى جانب العربي (الحوزي) ^(١) مرتدياً ثياباً محصاً، ويتكون هذا الزي من قماش ملون ومذهب وسراويل كبيرة وطماق مطرزة وحزام (نطاق) يثبت في وسطه خنجره أما سترته فكانت مفتوحة بحيث يظهر ماتحتها من ثياب ويتدلى من وسطه مسدس مفضض والخنجر من الطرف الآخر ويثبت صندوق الذخيرة لمسدسه بالإضافة إلى بعض الأدوات الشخصية الأخرى ^(٢). واعتبرت مرتبة القواص أرق درجات الخدم لدى القناصل ومعاشه ثلاثمائة قرش أو أكثر ^(٣). وبرز في سنة ١٢٥٤هـ من القواصة في دمشق عمر آغا بن حسين معدنلي ثم حسين قواص بن محمد الأدرمني ^(٤).

ولم يحصل الانكشاريون على الحماية وحدهم فحسب، بل حصل عليها مسيحيو ويهود دمشق، وقام هؤلاء بارتداء الأزياء الأوربية وبخلق لحاهم كالغربيين. كما حصل بعض الحرفيين (كمعلمي البناء والنجارة والفواخيرية) على الحماية من القناصل ^(٥). ووفر القناصل الحماية لعناصر البريد الذين كانوا يحملون بريدهم كي لا يعترض طريقهم. أي معارض ^(٦). واستطاعت الحمایات والتجار الأجانب اللجوء في خصوماتهم إلى المحكمة التجارية التي أقيمت في عهد ابراهيم باشا المصري، ولم يكن لبيت في الدعاوي التي يكونون طرفاً فيها دون وجود أعضاء في المحكمة يحددهم القنصل. وإذا لم تستطع المحكمة التجارية في دمشق البت في ذلك تستأنف الدعوى إلى الاسكندرية للنظر فيها ثانية ^(٧). كما حصلت البعثات العسكرية على حماية ودعم قناصل دولها في دمشق. في العهد المصري في حين لم يتوفر لها مثل هذا الدعم والحماية قبل عام ١٨٣٠م، مما أثر على نشاطها، وتوقف بعضها عن العمل من جراء ذلك ^(٨).

الرقيق

شكل الرقيق (الأمهتد والأبيض) فئة متميزة في مجتمع دمشق، رغم قلة ماورد منه إلى

(١) انظر: القاسمي. قاموس الصناعات الشامية. ج ٢. ص ٣٦٨ و ص ٣٦٩.

2 - Burton Isabel.op.cit.P.24.

(٣) انظر: القاسمي. المصدر السابق. ج ٢. ص ٣٦٩.

(٤) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٣٤٠ / سنة ١٢٥٠ - ١٢٥٤هـ. ص ١١٩.

(٥) انظر: رسم، أسد. الأصول العربية.... ج ٣ - ٤. ص ٢٤٧.

(٦) المصدر السابق - المجلد ٥. ص ٥٤ و ص ٥٥.

(٧) المصدر السابق. ص ٦٣.

8 - See: Polk, op.cit. PP.163.164.

دمشق في هذه الفترة، مضافاً إلى ماتبقى منه من الفترة السابقة، وما جاء منه إلى دمشق كان (خلسة)^(١) ولقد أثر وجوده على بنية دمشق العرقية والاجتماعية.

ويلاحظ في دمشق أن عدداً غير قليل من الرقيق (الأبيض والأسود) قد شق طريقه صعباً في السلم الاجتماعي حتى وصل إلى أعلى المراتب الإدارية العسكرية بعد إسلامه، فأحمد باشا الخزار البشناقي الأصل باع نفسه رقيقاً في استانبول وجيء به إلى مصر وتدرج في المراتب العسكرية حتى أصبح (بكاً) ثم أصبح والياً على صيدا ودمشق وكليةها معاً ولادة خمس وعشرين سنة^(٢)، ثم والى دمشق الكنج يوسف باشا كان كردي الأصل «شراه ملا اسماعيل وأخيراً فاق سيده»^(٣) وأصبح عدد من الرقيق أغوات في أوجاق الانكشارية، واستلم بعضهم متسلمين على المقاطعات التابعة لولاية دمشق، كحسن آغا العبد «الزنجي» الذي أصبح حاكماً على البقاع في عهد والي دمشق درويش باشا (١٢٣٦ — ١٢٣٩)، ثم والد أحمد بن شاهين القدسي، الذي كان والده من جزيرة قبرص، اشتراه بعض الأمراء وتبناه وجعله من أجناد دمشق، حتى صار أحد الأعيان^(٤) فيها.

ولقد عمل أناس عديدون في تجارة الرقيق^(٥) في دمشق كالنخاس والياسرجي

(١) ويلكر: ابراهيم بن عبد الرحمن الخياري الذي زار دمشق في القرن الثامن عشر أن تجار الرقيق كانوا يدفعون ضريبة للدولة في طريق عودتهم من الحجاز في مكان يطلق عليه اسم الخربة. انظر: رحلة الخياري المسماة (تحفة الأدباء وسلوة الغرباء). ج ١. ص ٥٢ و ص ٥٣. كما يقول محمد سعيد القاسمي الذي عاش في دمشق في أوائل القرن التاسع عشر (إن تجارة الرقيق قد بطلت الآن بحمد الله تعالى وأصبح من يختلس الإتجار بالرقيق نادراً جداً كعوض من يذهب إلى الحجاز في موسم الحجاج فرما يأتي بعبد أو أمة بصورة لا يشعر بها ثم يبيعها لمن يرغب شرائها ومن شعر به تجارهم ويحرق ذلك الرقيق) انظر: قاموس الصناعات الشامية. ج ٢. ص ٤٨٠.

(٢) استلم ولاية الشام لأول مرة سنة ١١٩٨هـ وعزل عنها في ١٢٠٠هـ ثم استلمها ثانية ١٢٠١هـ ثم عزل عنها في سنة ١٢٠٥هـ ثم ثالثة في ١٢١٣هـ عزل عنها ١٢١٤هـ ثم رابعة ١٢١٨هـ إلى وفاته سنة ١٢١٩هـ انظر: سالتامة در العثمانية — سورية ولايتي — الولاة.

(٣) استلم ولاية دمشق سنة ١٢٢٣هـ وعزل عنها في ١٢٢٥هـ. ثم انظر: مجهول. تاريخ حوادث الشام ولبنان ص ٣٦. ثم: الشدياق، طنوس. أنصار الأعيان في جبل لبنان. ج ٢. ص ١٦٢.

(٤) انظر: المحبي. خلاصة الأثر... ج ١. ص ٦٢ و ص ٢١٠.

(٥) وجد في دمشق سوق لبيع العبيد كان يقع بالقرب من خان الجمرك إلى الجنوب الغربي من الجامع الأموي وكان ملاصقاً لسوق الحرير (البراز) وبقي هذا السوق قائماً حتى أوائل النصف الثاني من القرن التاسع

عشر انظر: Porter, op.cit, P.59

والمكاس^(١) وغيرهم. وحصل تجار الرقيق على الممالك والجواري والعبيد بثلاثة طرق رئيسة هي: الخطف^(٢) ، ←

(١) النخاس: هو تاجر الرقيق — أما الياسرجي: فهو دلال الرقيق — والمكاس: كان غالباً من اليهود وهو بائع الممالك. انظر: السيوفي. حبيب. المصدر السابق. ج. ١. ص ٩١ و ص ٩٢.

(٢) وكانت عملية الخطف تتم بالنسبة للممالك البيض من مواطنهم في مقاطعات الكرج وجورجيا والبلقان وكان يقوم بعملية الخطف أقوام يطلق عليهم اسم (أوي) حيث يقوم هؤلاء بخطف الأطفال والذهب بهم بعيداً عن أوطانهم ويقومون ببيعهم إلى تجار الرقيق. انظر: الآنسة تولي. عشرة أعوام في طرابلس، ص ٤٨٣.

وكانت أفريقية مصدر الرقيق الأسود حيث كانوا يصطادون اصطياداً من مواطنهم ضمن الأدغال المكتظة بالأشجار أو يباعون من قبل أسرهم الذين غلبوهم في إحدى المعارك لتجار الرقيق إذا ما عجز المأسور عن دفع الدية لأسره. ويتم نقل الرقيق إلى أسواق النخاسة في أماكن عدة من موانئ المتوسط والبحر الأحمر. انظر: تولي. مصدر السابق. ص ٢٨. وقبل وصولهم إلى أحد الموانئ المذكورة يشكل هؤلاء قافلة كبيرة سير تحت حراسة سادتهم لنقلهم على ظهر السفن إلى الأماكن المطلوبة. وكان في أواسط أفريقية عدد من المدن التي يتجمع فيها الرقيق مثل مدينة تمبوكتو في مالي من المناطق الغربية في أفريقية أو منطقة شندي في أعالي النيل وهي هامة جداً حيث تتفرع منها طرق عدة أحدها يسير وادي النيل إلى مصر والآخر يصل إلى شواطئ البحر الأحمر عبر أثيوبية إلى المتمة فغندار فشندي وإلى الشمال حيث الطرق تصل الراحة بعد الأخرى عبر الصحراء الكبرى. وكانت شندي أهم مركز للنخاسة في السودان الأوسط وعندما زارها «بوركهات» شاهد تجارة النخاسة ووصف ذلك بقوله: (كان يمر من شندي خمسة آلاف عبد كل سنة يجلبون من سائر القبائل على طول ضفاف النيل إلا أن الأثيوبيين كانوا أرق صنف من هذه الأجناس جميعاً فالنساء الحبشيات كن في مرتبة أعلى من سائر نساء أفريقية السوداوات جمالاً ويتمتعن بحجارة أجسادهن ومودتهن وللاهن لساتهن. أما ذكور الأحباش فكانوا أفضل من يقومون بخدمة البيوت أو الأعمال الكتابية وكان المشترون الرئيسيون تجاراً يأتون من ساحل البحر الأحمر محملين بالبضائع الهندية التي يستبدلون بها العبيد والإماء في شندي وكذلك الخيل والذهب ويعودون محملين بالعبيد إلى ميناء سواكن على ساحل البحر الأحمر من أرتيريا وتذهب السفن بهم إما شمالاً إلى مصر أو شرقاً إلى الجزيرة العربية وفارس أما الطريق الآخر لتجارة الرقيق فكان يسير وادي النيل إلى القاهرة فالاسكندرية حيث يشحن العديد من العبيد إلى تركيا عبر المتوسط ولقد حصل أن اشترى العبيد وبيعوا مراراً عبر محطات القوافل وهكذا ترتفع أثمانهم باضطراد كلما اقتربوا من الموانئ. وغالبية العبيد العظمى المعروضة للبيع في سوق شندي كما يقول بوركهات: «كانوا في سن دون الخامسة عشر من العمر وكان ثمن العبد الذكر يصل إلى خمسة عشر ريالاً إذا لم يكن في وجهه آثار الجدري أما إذا كان وجهه مصاب بالجدري فينخفض ثمنه إلى ثلث هذا المبلغ. أما ثمن الأمة فكان آخذ خمسة وعشرين ريالاً. وكان بوسع المرء أن يشتري عبداً أو أمة تحت التجربة لمدة ثلاثة أيام وكان معظم تجار الرقيق يقومون بتأجير الإماء للبناء وكان من عادة هؤلاء التجار أن يضاجعوا الإماء بحيث نادراً ما تنصل أية أمة إلى الساحل وهي باكر وكان من أحب الأمور على تجار الرقيق في شندي أن يعضوا ليالي حمراء فيها مع تلك الفتيات الصغيرات فيسكروهن حتى الثمالة ويمضون ليلهم المانجة في أحضانهن» انظر: النيل الأزرق. ص ٢١٩ و ص ٢٢٠ و ص ٢٢١ و ص ٢٢٢.

..... ← أو الشراء^(١) أو الأسر (في القرصنة أو الحروب) من أبناء (دار الحرب) المعادين للمسلمين كأبناء أوروبا غير المسلمين.

ولقد دخلت الإماء والجواري والخصيان إلى أسر دمشق، وعوملوا كأفراد الأسرة تقريباً واستخدمت الجواري والإماء في عملية التسري، وإذا ماشریت إحداهن صغيرة كانت ترى في الأسرة حتى تبلغ أشدها فتعامل حينئذ كزميلاتها، وإذا ماكانت على جانب من الحسن والجمال والذكاء وتتقن الغناء والموسيقى فضلت على غيرها. وبشكل عام فضلت البيضاوات على الإماء السوداوات. خاصة في فترة دراستنا، لقلة ما جلب منهن إلى دمشق بسبب سقوط مواطنهن بيد الروس^(٢)، وغيرهم. فاستعاض الدماشقة عنهن بالإماء السوداوات اللواتي زاد

ورغم التقولات الكثيرة من قبل المؤرخين الغربيين المفرضين على أن تجار الرقيق كانوا من العرب والمسلمين، إلا أن الحقيقة تخالف ذلك فكان تجار الرقيق من مذاهب مختلفة فمنهم اليهود ومنهم المسيحيون ومنهم المسلمون. وكانوا من قوميات مختلفة كالإنكليز والفرنسيين والإسبان والأمريكيين وكذلك العرب حيث كان هؤلاء يعملون وسطاء. انظر: مورهد، آلان. النيل الأبيض. ص ١٩ الحاشية. ترجمة محمد ندر الدين خليل. وكان من عادة المسلمين إذا مااشترؤا أجروا له عملية الختان وأطلقوا عليه اسماً عربياً، ومع ذلك فإن هؤلاء العبيد لم يتعلموا القراءة أو الكتابة ولكنهم يصبحون متدينين متزمتين أشد تمسكاً بالإسلام من سادتهم. انظر: مورهد، آلان. النيل الأزرق. ص ٢٢١.

وكانت تجرى عملية أخرى فظيعة في نوعها للعبد الأسود وهي عملية الخصى ويذكر «آلان مورهد» نقلاً عن الرحالة بوركهارت أن محمد علي باشا أمر بخصي الأعضاء التناسلية لمائتين من عبيد دارفور صغار السن ثم أرسلهم هدية إلى السلطان العثماني وكانت تصل نسبة الوفيات بين الغلمان المخصيين من جراء هذه العملية إلى ٢٠٪ ويمكن التعرف على الخصيان دائماً بمنظرهم الذي يشبه الهياكل العظمية وكان لا يصل من هؤلاء سنوياً إلى القاهرة أكثر من ١٥٠ شخصاً إلا أنهم يعتبرون من السلع الغالية إذا ماقيسوا بالعبيد الآخرين. انظر: مورهد، آلان. النيل الأزرق. ص ٩١.

(١) كانت القسطنطينية من أكبر أسواق الرقيق الأبيض، كما بيع هذا الرقيق في حلب ودمشق وموانئ المتوسط.

(٢) يرى الرحالة الإنكليزي فريزر الذي كان في تبريز سنة ١٨٣٤م أن سبب تناقص المجلوب من الجوارى يعود إلى الحملات المتلاحقة من الروس ضد الأباطرة بنية استتصالحهم من جهة ولأن الأمهات الكرجيات كن يجهلن تربية أطفالهن تربية صحية وسليمة وكان معظم الأطفال يموتون قبل إكمالهم الثالثة من العمر لجهل أمهاتهم بطريقة التغذية الصحية حيث كن يحشين بطون الأطفال، بالحلوى والأطعمة دون مراعاة القواعد الصحية. انظر: رحلة فريزر إلى بغداد عام ١٨٣٤م. ص ٨٥ و ٨٦. الطبعة الأولى.

إلا أن هذا التفسير من فريزر يشوبه الضعف فاحتلال لروس لتلك المناطق لم يغيرها إلى الأسوأ بحيث سادها الحال بين الأمهات ولكن الأكثر منطقية في تقديره -وه الظاهرة هو أن تلك الأقاليم قد أصبحت بيد الروس وكان عليهم أن يمنعوا تجار الرقيق من الدخول إليها. كما لعبت اتفاقية فينا في سنة ١٨١٥ دوراً في هذا التحريم خاصة وأن روسيا كانت إحدى أعضاء هذا المؤتمر.

عدد دهن في دمشق مع العبيد السود . ويمكن ملاحظة ذلك في سجلات محاكم دمشق المختلفة ، وارتفعت أسعار الجوّاري وفاقّت أسعار الإماء إلى درجة كبيرة طبقاً لقانون العرض والطلب .

وكانت العادة في دمشق أن يمنح الرقيق اسماً عربياً ويكنى بـابن أو بنت « عبد الله » كما ينسب المملوك أو العبد إلى السيد المالك فيقال (فلان عبد فلان أو تابعه) ، كما كان يكنى بعد عتقه بمعتوق فلان ، وتكنى الجارية بمستولدة فلان . وتطالعنا سجلات محاكم دمشق بالعديد من أسماء الجوّاري مثل (زهرة — فاطمة — حليلة — أسمهان — سعادة) أو أسماء مركبة مثل : (كل يموت — ونجمة الصباح — وقدم خير) ، وقصد من إطلاق هذه الأسماء كيد الحساد أو التيمن بالخير باقتنائهن . كما أطلق عليهن بعض الأسماء غير العربية مثل (شهنواز — وقونمة)^(١) . وتحدد تلك السجلات لون الجارية وأحياناً قوميتها مثل (السوداء أو السوداء اللون أو الزنجية أو الكرجية) ... الخ .

ولقد تمكنت بعض الجوّاري من التربع على عرش قلوب أسيادهن بفضل ما يملكنه من ذكاء وجمال ، خاصة إذا ما أخلصن لهم وحنن شرفهم . وكان من الطبيعي أن يفعلن ذلك لأنهن مقطوعات الجلود في مجتمع دمشق ، فلا ملاذ هن سوى أسيادهن . وكان ينظر إلى الأمة أو الجارية كإحدى أفراد الأسرة ، واعتبرت الإساءة إليها كالإساءة لمن يملكها . وأحدث التعلق بالجوّاري والسراي في بعض الأحيان خللاً في الأسرة وأدى إلى تمزقها ، ففي سنة ١١٦٢هـ / ١٧٤٨م — ١٧٤٩م كان لقاضي قضاة دمشق بشمقه جي زادة عدد من الزوجات ، إلا أنه كان مغرماً بسريره فطلق إحدى زوجاته لأنها أساءت لسريته ، فكادت له زوجته المطلقة وتمكنت من عزله من منصبه ونفيه إلى قبرص^(٢) .

ونتج عن وجود الرقيق مشاكل اجتماعية عديدة تتعلق ببيعه أو عتقه أو وراثته ، أو

(١) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦ / ص ١٣٩ و ص ٢٧٠ و ص ٢٢٣ و ص ٣٢٦ و ص ٣٦٣ ثم: سجلها رقم ٤٠٩ / سنة ١٢٦٤ — ١٢٦٥هـ / ص ١٩ و ص ٢٠ .

(٢) انظر: البديري . حوادث دمشق اليومية ، ص ١٣١ .

ما يتعلق بالتسري بالإماء والجواري^(١) بعد وفاة سيدهن، وتنفيذ وصيته لهن بعد وفاته فيما يتعلق بمنحهن الحرية^(٢) وبعض من تركته.

ومن أمثلة ذلك ما حصل للأمة «مبروكة بنت عبد الله السوداء اللون الزنجافية الجنس بأن سيدها قبل وفاته أشهد عليه شاهدين بأنها تكون حرة بعد وفاته، وأن تأخذ مبلغاً مالياً من تركته، فعارضها في ذلك ورثته بعد وفاته في حريتها وأخذها للمبلغ المذكور، فرفعت دعواها إلى القاضي في دمشق، فأمر بإحضار الشاهدين فأقراها بما ادعت، فحكم لها القاضي بعقها وإعطائها المبلغ المذكور، وعدم معارضتها في ذلك من قبل الورثة»^(٣).

ولقد رفع مجتمع دمشق من مكانة الجارية أو الأمة لإنجابها الأولاد، وكثيراً ما أدى ذلك بها إلى عتقها من قبل سيدها فتتال لديه الخطوة والمحبة. وإذا كانت عاقراً تحط أهميتها بعد أن يدوي جمالها إلى درجة الإهمال. وقد تتزوج الجارية بعد عتقها. وإذا كان زوجها الجديد فقيراً فتقاسمه أعباء الحياة وتكافح معه من أجل كسب لقمة العيش^(٤).

وكانت عملية عتق الرقيق تتم في إحدى محاكم دمشق ومحضور السيد والعبد وشاهدين. ونورد مثلاً على ذلك ما حصل في سنة ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢ - ١٨٣٣ م. حيث قام خورشيد آغا النظام بعتق عبده المسمى سليم الأسمر بمجلس الشرع الشريف وجاء في النص مائلي: «حضر فخر الأغوات خورشيد آغا يوزباشي من آلاي عشرة نظام وأعتق لوجه الله

(١) يقول الشيخ محمد عبده: «إنه لا بد من التنبيه إلى مسألة يجهلها العوام وقد سكت عن بيان الحق فيها جماهير علماء الإسلام وميرت في ذلك القرون والأعوام وهي: أن الاسترقاق الشائع المعروف في ذلك العصر أو العصور السابقة كان غير شرعي. سواء ما كان منه في بلاد السودان أو ما كان في بلاد البيض كبنات الشراكسة اللواتي كن يبعن في الاساتنة جهراً قبل الدستور ومع ذلك كنا نرى العلماء ساكتين عن بيعهن والاستمتاع بهن بغير عقد نكاح وذلك من أعظم المنكرات وحتى لو سألت الفقيه عن حكم مسألة لأتني بأن هذا الاسترقاق محرم وربما قال لك بأن ذلك يساوي الكفر». نقلاً عن آلان، مورهد. النيل الأبيض. ص ١٩. الحاشية.

(٢) تذكر الأنسة تولي: أن الجواري المعتوقات كن أول الناديات على سيدهن المتوفى. فكان يلبسن طرايشهن بصورة مقلوقة يخرجن باطنها إلى ظاهرها ويحرصن في مثل هذه الحالة أن تكون مظاهرهن رثة عنواناً على حزنهن على فقد سيدهن. انظر: عشرة أعوام في طرابلس. ص ٢٢ و ١٦٢ و ص ١٧٨.

(٣) انظر: سجل القسمة العسكرية بدمشق رقم ٢٦ / ص ١٢٩.

وابتغاء مرضاته عبده الرقيق المدعو سليم الحاضر معه في المجلس المعترف بالرق بقوله أنت حر لوجه الله تعالى « كما ورد في النص تخصيص جميع ما يملكه من المال لعبده بعد وفاته^(١) .

وكان عتق الرقيق يتم ككفارة عن قتل مؤمن عمداً أو ظلماً أو كفارة الظهار^(٢) ، أو كفارة عن الإفطار في رمضان متعمداً خاصة على محرم كالخمر أو الزنا . ثم كفارة الحنث في العهد أو /اليمين / أو حنث النذر أو كفارة جز المرأة لشعرها أو خدشها لوجهها في المصاب أو شق الرجل لثوبه في المصاب أو كفارة الملك^(٣) أو السرايا^(٤) أو المكاتب^(٥) أو التزبير^(٦) أو العوارض^(٧) أو إسلام أسرى الحرب^(٨) .

ولقد تناقص عدد الرقيق الوافد إلى دمشق في أوائل القرن التاسع عشر^(٩) ، نتيجة

- (١) انظر : رسم، أسد. الأصول العربية ... — المجلد ٢ . ص ٤٠ . وبطالعنا السجل رقم ٣٤٠ من محاكم دمشق / سنة ١٢٥٠ — ١٢٥٤ هـ/ أن زوجة حافظ أفندي معاون حكمदार باشا أوصت قبل وفاتها لجارياتها (زهرة بنت عبد الله) بعتمها ومنحها ٣٠٠ قرشاً من تركتها . انظر : ص ٤٣ من السجل المذكور .
- (٢) كأن يقول المسلم لزوجته أنت علي كظهر أمي وكان هذا القول موجباً للطلاق والحرمة الأبدية في الجاهلية ولكن الإسلام أجاز للزوج الرجوع إلى زوجته بعد أداء الكفارة . انظر : الشيخ محمد حسن آل ياسين . (الإسلام والرق) . ص ١٣ .
- (٣) ويقصد بذلك ما لو ملك الرجل أو المرأة أحد الأبوين وإن علواً ، أو أحد الأولاد وإن نزلوا ، وقد شرع الإسلام انقاض هذا المملوك بمجرد تملكه من أحد أبويه أو أولاده كما شرع الانقاض فيما لو ملك الرجل إحدى المحرمات عليه نسباً كالإخوات والعمات والحالات وماشاكلهن . انظر : الشيخ محمد آل ياسين — المرجع السابق — ص ١٤ و ١٥ .
- (٤) معناها أنه لو تشارك اثنان في تملك عبد لهما ثم أعتقه أحدهما كان هذا العتق نافذاً في حصته ويسري في حصة شريكه أيضاً فتقوم حصة الشريك ويسعى العبد في دفع حصة قيمة تلك الحصة من نتيجة سعيه وعمله . انظر : الشيخ محمد آل ياسين — المرجع السابق . ص ١٨ و ١٩ .
- (٥) المكاتب: هي أن يقول السيد لعبده كاتبك على أن تؤدي لي مبلغاً معيناً من المال بعد مدة معينة يتفق عليها الطرفان وبعد أن يعمل ويحصل على المبلغ يقدمه لصاحبه ليصبح هذا العبد حراً طليقاً انظر : الشيخ محمد آل ياسين . المرجع السابق . ص ١٩ و ٢١ .
- (٦) كأن يقول السيد لعبده أنت حر بعد وفاي وتنفذ وصية السيد — المرجع السابق . ص ٢١ .
- (٧) العوارض: كان العبد يصاب بالعمى أو الجزام فإن ذلك سبب لانعتاقه وكذلك الإقعاد فهو سبب قهري للانعتاق ومنها ما لو أسلم العبد في دار الحرب قبل مولاه المصير على الكفر فإنه يعتق بمجرد إسلامه . ومنها تعذيب العبد أو التثليل به كما لو أمر السيد بمجذع أنف مملوكه . المرجع السابق . ص ٣٠ ، ص ٣١ .
- (٨) انظر : المرجع السابق . ص ١٣ .
- (٩) وازداد تناقص الرقيق في النصف الثاني للقرن التاسع عشر بالإضافة إلى ما ذكر أعلاه بسبب فرض نظام

للمظروف الدولية، ففي سنة ١٨١٥م قامت الدول المشتركة في مؤتمر فيينا بتحريم الرقيق، وكان على رأس الدول المطالبة بإلغاء تجارته وتحريمه إنكلترا وفرنسا، وذلك خشية خلو مستعمراتها في إفريقيا من اليد العاملة الوطنية المستخدمة في الزراعة، وجمع المواد الخام اللازمة لصناعاتهما. وقامت الامبراطورية البريطانية في ثلاثينات القرن التاسع عشر بمكافحة تجارة الرقيق، كما قامت سفنها مع السفن الحربية الفرنسية المراقبة على سواحل البحر الأحمر والمتوسط لمراقبة السفن التي كانت تشحن العبيد على ظهرها. ومع ذلك لم تتوقف تجارة الرقيق نهائياً حيث كان النخاسون يترصدون تلك السفن ويقومون بعملية إخفاء الرقيق في أماكن محددة من سفنهم، ويستغلون هبوط الظلام للقيام بعملية نقل الرقيق من الأدغال الإفريقية إلى شواطئ البحر الأحمر، حيث يقومون بشحنهم فيها إلى شواطئ الجزيرة العربية، ومنها إلى مدن الحجاز فبلاد الشام وغيرها.

ولكن جهود الدول الأوربية تلك لم تذهب هدراً، بل تقلص عدد الرقيق وتناقص المعروض منه في أسواق النخاسة، وأصبح عدد الرقيق الأسود يتراوح بين ٢٠.٠٠٠ / ٤٠.٠٠٠ في العام، وذلك في أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر، وأدى ذلك إلى ارتفاع أسعاره، مما أغرى عدداً كبيراً من تجار الرقيق بالمجازفة، بحشدهم عدداً كبيراً من الأرقاء على سفنهم، وأن يضعوا سطحين فوق بعضهما البعض في السفينة الواحدة، ولا يفصل بينها أكثر من ١٨ بوصة. كما لم توفر السفن للعبد الواحد أكثر من ١٢٥ ر. من الجالون من الماء.

وارتفع أيضاً سعر الجوارى البيض إلى درجة أصبح امتلاكهن وفقاً على أفراد الهبة الحاكمة والثرية^(١). ورغم دخول تجارة الرقيق في دمشق في دور الانحطاط في العهد المصري^(٢)، إلا أن أسواق دمشق شهدت في هذه الفترة بعض عمليات بيع الرقيق، وشاهدت محاكمها عمليات عتق لهم. ولم ينته الرق في دمشق إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

التجنيد الإجباري على أبناء الامبراطورية العثمانية طبقاً للنظام الجديد الذي فرضه السلطان محمود الثاني والسلطان عبد المجيد. فحل هؤلاء الأبناء محل الممالك والعبيد في سد حاجة المؤسسة العسكرية للرجال وانحطت تجارة الرقيق مع الزمن.

(١) انظر: مورهد، آلان. النيل الأبيض. ص ٨١ و ص ١٩ و ص ٢٠.

2 - See: Polk. William. the, openig of south Lebanon. 1788-1840. ١٩, 164.

فهرس الجزء الأول

الإهداء.....	١١
تقديم.....	١٣
المقدمة.....	١٧
دراسة في مصادر البحث.....	٤٩

الفصل الأول

دمشق

ومنشآتها العمرانية

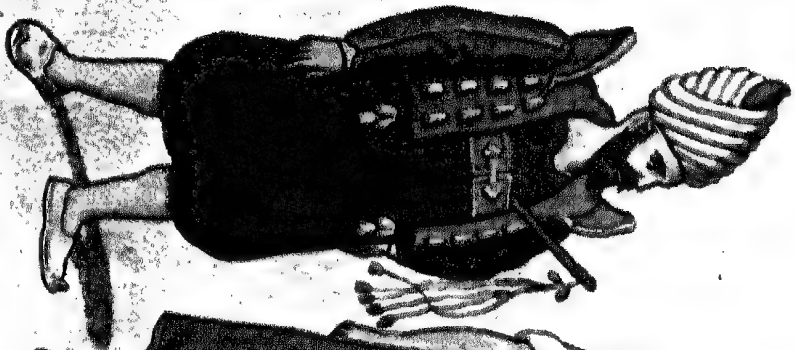
دمشق لمحة تاريخية.....	٦٧
المنظر العام لمدينة دمشق في أواخر القرن الثامن عشر وحتى منتصف	
القرن التاسع عشر.....	٧٣
سور دمشق.....	٧٦
حارات دمشق.....	٧٥
سكان دمشق.....	٨٦

٩٣	شوارع دمشق وطرقاتها.....
٩٨	أسواق دمشق.....
١٠٣	تعداد أسواق دمشق وأماكنها.....
١١	منتزهات دمشق.....
١٢٢	حمامات دمشق.....
١٣٠	الحمام كظاهرة اجتماعية.....
١٣٣	البيمارستانات في دمشق.....
١٤١	الطب ومدارسه في دمشق.....
١٤٩	بردى والسقايات في دمشق.....
١٥٩	التكايا.....
١٦٤	الزوايا.....
١٧٠	الفنادق والقيساريات والخانات والوكالات.....
١٨١	هندسة الخانات.....
١٨٨	المنابر الطائفية وهندسة القبور وكيفية دفن الموتى.....

الحاكمون والمحكومون

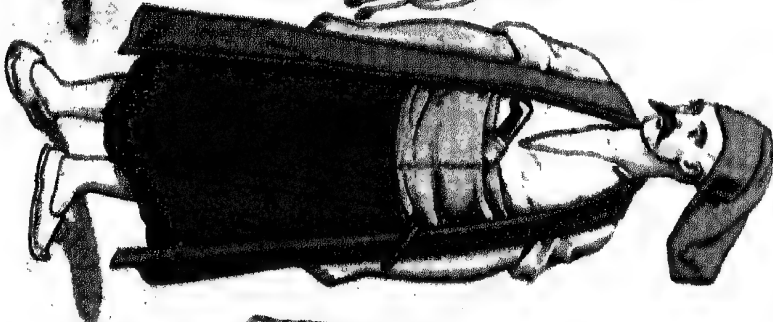
في مجتمع دمشق

٢٠١	تمهيد.....
٢٠٤	أ — الهيئة الحاكمة.....
٢٦٣	ب — هيئة المدعومين.....



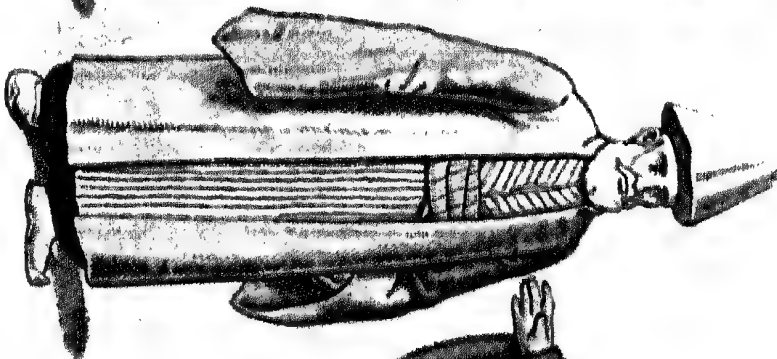
سكان باغي

مؤسس بولوك السكانية.



بوسنجي باغي

يشرف على التبرعات السلطانية
مقره سرايا اليوزار.



صوفائي

يشرف على نقابة شوارع المدينة
راؤفيا زانجيا قائم راحة المواطنين.



عسس باغي

تشبه مهمته مهمة الصوفائي ولكن
إلية بالدرجة الأولى وثانية. وقت
إموره عناصر كثيرة تشبه ذلك.



بولوك باغي

هو من القضاة مهمته إحصاء
مركبي الجرائم إلى آغا الإنكشارية
تشبه الأحكام القاطعة بهم.

أبناء عثانية رسمية



فلقه جي باغي

رئيس مقررة زالقى العدم
الانظم وكمره وقيل القوية بن
يولد.

آغا باغي

تابع آغا الانكشارية ورئيس عددا
من العوام.

يكجوي آغا

آغا الانكشارية.

باش جارش

هو أحد ضباط الانكشارية وقت
إسرة الآغا ويحرف على الرسم في
داره.

تكمه لي

من ضباط الأجناس كان يعمل في
دائرة شيخ الإسلام.

قول أرغل باش جارش

باش شاهنش عبيد السلطان الذين
هم في الأصل من أبناء الأتاجم وكان
يكلف بالإشراف على انضباطهم.

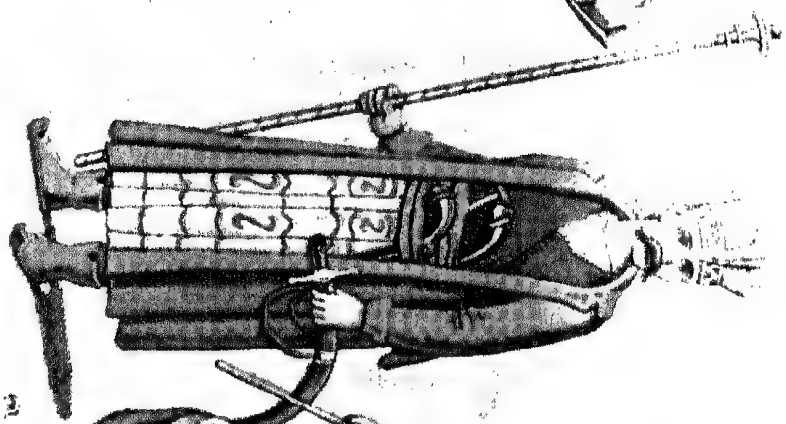
أبناء ضباط الانكشارية



حويه جي

سلام دين يڪجوري

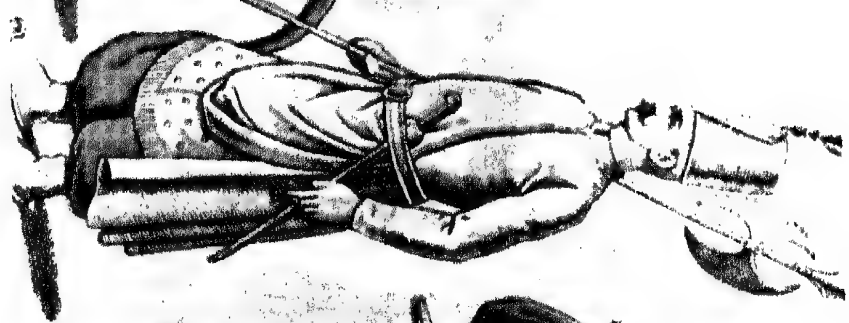
نود من بركات الانكشارية وابق الانغا
وحد من الحرس العظم وكلف عهدهم
ووزراءه وهم قائلهم الخاصة.



البيسي

كجيه لي يڪجوري (ملاسلق)

نود من وحدة الشرطة السلطانية.



مولاقي

هو نود من المشاة من حرس السلطان
الشخصي الذين كانوا يرافقونه أثناء
السلام والحرب.



عارفة كورن يڪجوري

هو نود مهمته تأمين متطلبات
الجيش من المال وتوزيع الراتب على
الجنود.

جولاني

هو أحد أفراد الباشاوية.



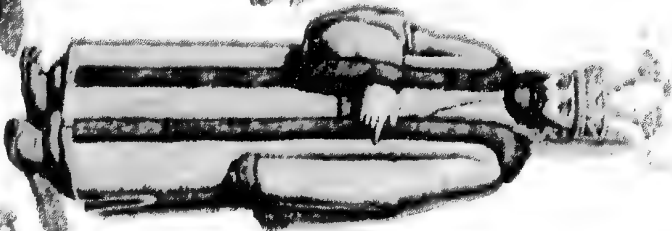
أرطة باشي

هو مساعد الجولاني يعمل على ضبط الأرطة وتأمين طماهمها وكسائها بياض معها في القوة.



كحدا بك أو كحدا سي

هو العبد الذي لا يفر الإكشائية.



أرزة جاريش

هو ضابط من ضباط الإكشائية مسؤول عن تنفيذ الأوامر وتأمين جند الإكشائية وتطبيق العقاب.



صالة جولاني

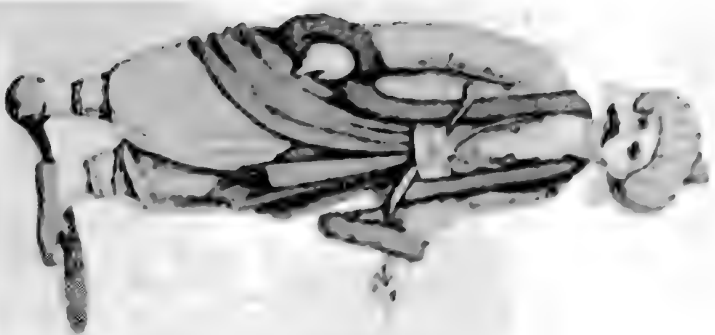
هو جنابة قائد الشرطة العسكرية يسهر على انضباط الجند قبل مهام في الشوارع وأحوالات العامة.



زاولي شفر

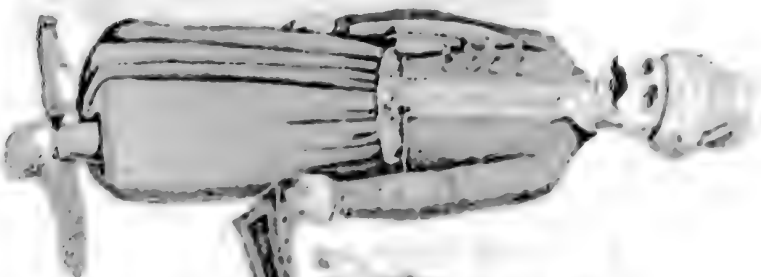
هو من السجدة أو الشدة.

أبناء قادة إحدى وحدات الإكشائية (الأرطة)

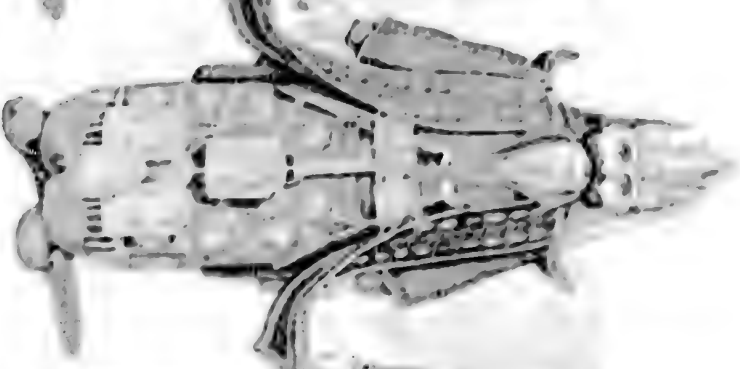


بركي أوزبك ملك آخسي أوسه سي

هو حاكم مدينة أوزبك الأولى في
أجزاء الإقليم وكان يرأسهم
(أخيه الصغير).

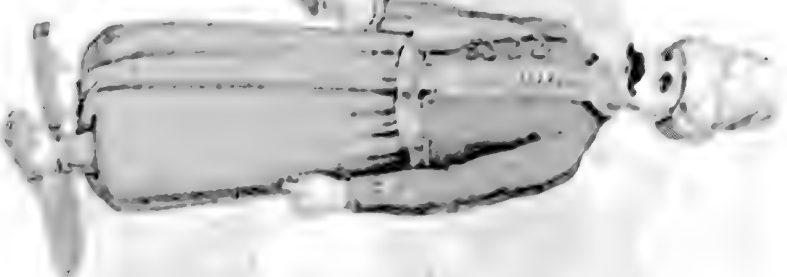


فرد فوئيدسي

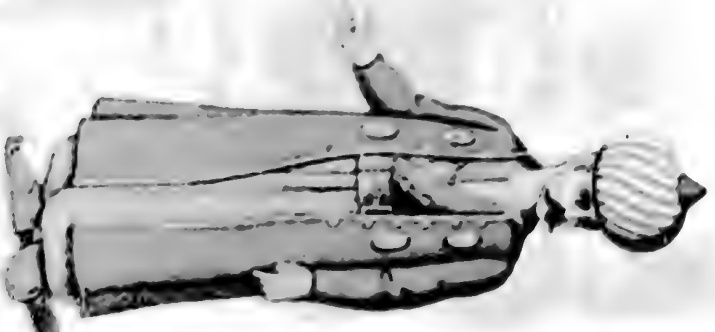


أوزر بكيت آخسي أوسه سي

هو رئيس مدينة أوزبك في
الجزء من حدود الإقليم، هو يرأس
جميع ممتلكات المدينة.



فرد فوئيدسي



آخسي أوسه سي

هو حاكم المدينة وكان يحكمها في
الجزء من الحدود، هو يرأس
مدينة أوزبك في (أخيه الصغير).

أبناء دجبة



تشریفاتی القدي

مدیر امور

دوله كنجده بك القدي حميرزي

بكر عبدالرحمن

شيعات حلیه سي القدي

القدي شيريندات مسعوديه

مصب اوله خلد خواجهكان حلفت

اكسا ايندو پليس

مفتي اجرا اولوب حلفت اكسا

سپه عودت ايند خواجهكان

مجمع آبي كوت جده مسعوديه من
فيل مسعوديه

مجمع آبي كوت من مسعوديه
مجمع عسكيه

توزيع اطلع من قبل مندوب السلطان



برك توكو جي أفندي أمدي أفندي بكلكجي أفندي جازيش باهي آغا باغالي آلاي باهي جازيشي
 مدير مكتب العالي مفوض المجلس (المدونات) رئيس موفتي لدى الصدر الأعظم آغا الشيرازي في الخرس (في المدونات) رئيس شيوخ الباب العالي (الجيش العالي)
 (الضابطون)

البناء أصحاب المراتب العلمية والإدارية



سر عظم

GRAND-VEZIR

رئيس الوزراء



باش قره قوللقجي

رئيس القرقوللقجية .

قره قوللقجي

خادم القرقوللقجي .

أورثة سقامس

سقاء الأورطة .

وحدة سقايتي الجند

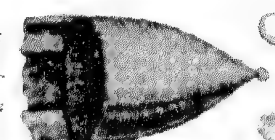
التي تلبسها سائر حريمه مخموري

قاروق



(فدوي حصي حشر طيرس)

مخمر (جريدة)



مخمر (جريدة غريسة)

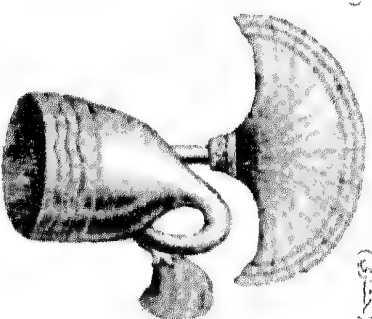
بكمري صاغتاني قاروقي أوقات عازية مخموري



(قاروق حشر لا كشيته بزمه في لأوت بعدية)

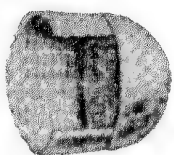


بكمري قاروقي (قاروق اكشاري)



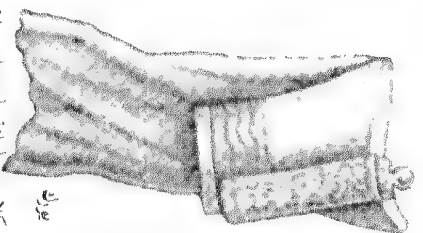
بكمري صاغتاني كلاهي (كلاه حشر لا كشيته بزمه في ليه اجندل ايم س)

مخمر (جريدة)

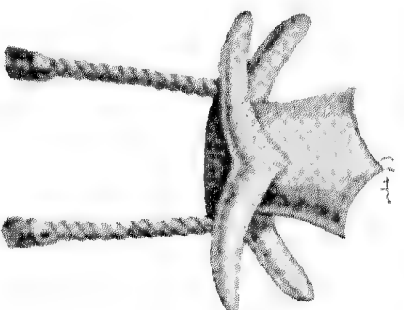


مخمر (جريدة)

يورك



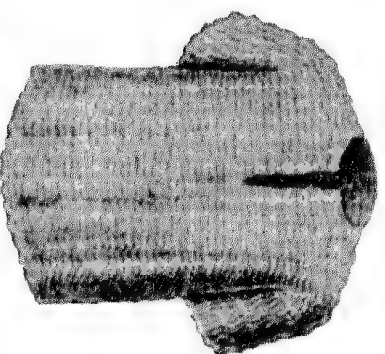
(كلاه مع لباده بلسها حشدي لا كشيته عي زانه و الايسف)



مخمر (جريدة)

(قاروق ايم ري قطين خازن)

رود كوفك

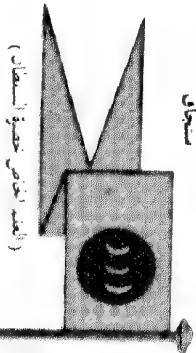


(افسح مخمر بزمه اناكس)

أبناء مختلفه للرأس والصدر

ذات حضرت بادشاہی بمخصوص

5



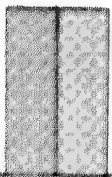
بشاره مخصوص سنجاق (علم بانگوت)



(۱) (۲) (۳)



(عنه) (عنه)



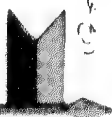
(عَلَمُ الْمُتَضَرِّعِينَ)



دليل طالب انجليزي
(على الادلة)

سرای مزراخی
(روح خیال)

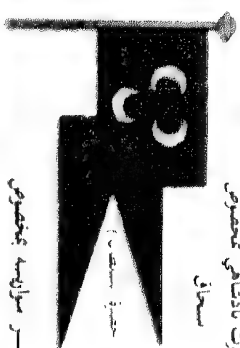
三



(۱) (۲) (۳) (۴) (۵) (۶) (۷) (۸) (۹) (۱۰) (۱۱) (۱۲) (۱۳) (۱۴) (۱۵) (۱۶) (۱۷) (۱۸) (۱۹) (۲۰) (۲۱) (۲۲) (۲۳) (۲۴) (۲۵) (۲۶) (۲۷) (۲۸) (۲۹) (۳۰) (۳۱) (۳۲) (۳۳) (۳۴) (۳۵) (۳۶) (۳۷) (۳۸) (۳۹) (۴۰) (۴۱) (۴۲) (۴۳) (۴۴) (۴۵) (۴۶) (۴۷) (۴۸) (۴۹) (۵۰) (۵۱) (۵۲) (۵۳) (۵۴) (۵۵) (۵۶) (۵۷) (۵۸) (۵۹) (۶۰) (۶۱) (۶۲) (۶۳) (۶۴) (۶۵) (۶۶) (۶۷) (۶۸) (۶۹) (۷۰) (۷۱) (۷۲) (۷۳) (۷۴) (۷۵) (۷۶) (۷۷) (۷۸) (۷۹) (۸۰) (۸۱) (۸۲) (۸۳) (۸۴) (۸۵) (۸۶) (۸۷) (۸۸) (۸۹) (۹۰) (۹۱) (۹۲) (۹۳) (۹۴) (۹۵) (۹۶) (۹۷) (۹۸) (۹۹) (۱۰۰)



(附)



5

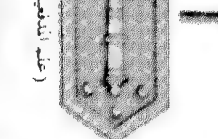
(continued)

طوبى لفلان

سجاق



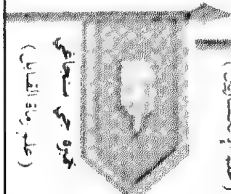
(عَلَى رَأْسِ طَبَقَةٍ)



(۱) (۲) (۳) (۴) (۵) (۶) (۷) (۸) (۹) (۱۰) (۱۱) (۱۲) (۱۳) (۱۴) (۱۵) (۱۶) (۱۷) (۱۸) (۱۹) (۲۰) (۲۱) (۲۲) (۲۳) (۲۴) (۲۵) (۲۶) (۲۷) (۲۸) (۲۹) (۳۰) (۳۱) (۳۲) (۳۳) (۳۴) (۳۵) (۳۶) (۳۷) (۳۸) (۳۹) (۴۰) (۴۱) (۴۲) (۴۳) (۴۴) (۴۵) (۴۶) (۴۷) (۴۸) (۴۹) (۵۰) (۵۱) (۵۲) (۵۳) (۵۴) (۵۵) (۵۶) (۵۷) (۵۸) (۵۹) (۶۰) (۶۱) (۶۲) (۶۳) (۶۴) (۶۵) (۶۶) (۶۷) (۶۸) (۶۹) (۷۰) (۷۱) (۷۲) (۷۳) (۷۴) (۷۵) (۷۶) (۷۷) (۷۸) (۷۹) (۸۰) (۸۱) (۸۲) (۸۳) (۸۴) (۸۵) (۸۶) (۸۷) (۸۸) (۸۹) (۹۰) (۹۱) (۹۲) (۹۳) (۹۴) (۹۵) (۹۶) (۹۷) (۹۸) (۹۹) (۱۰۰)

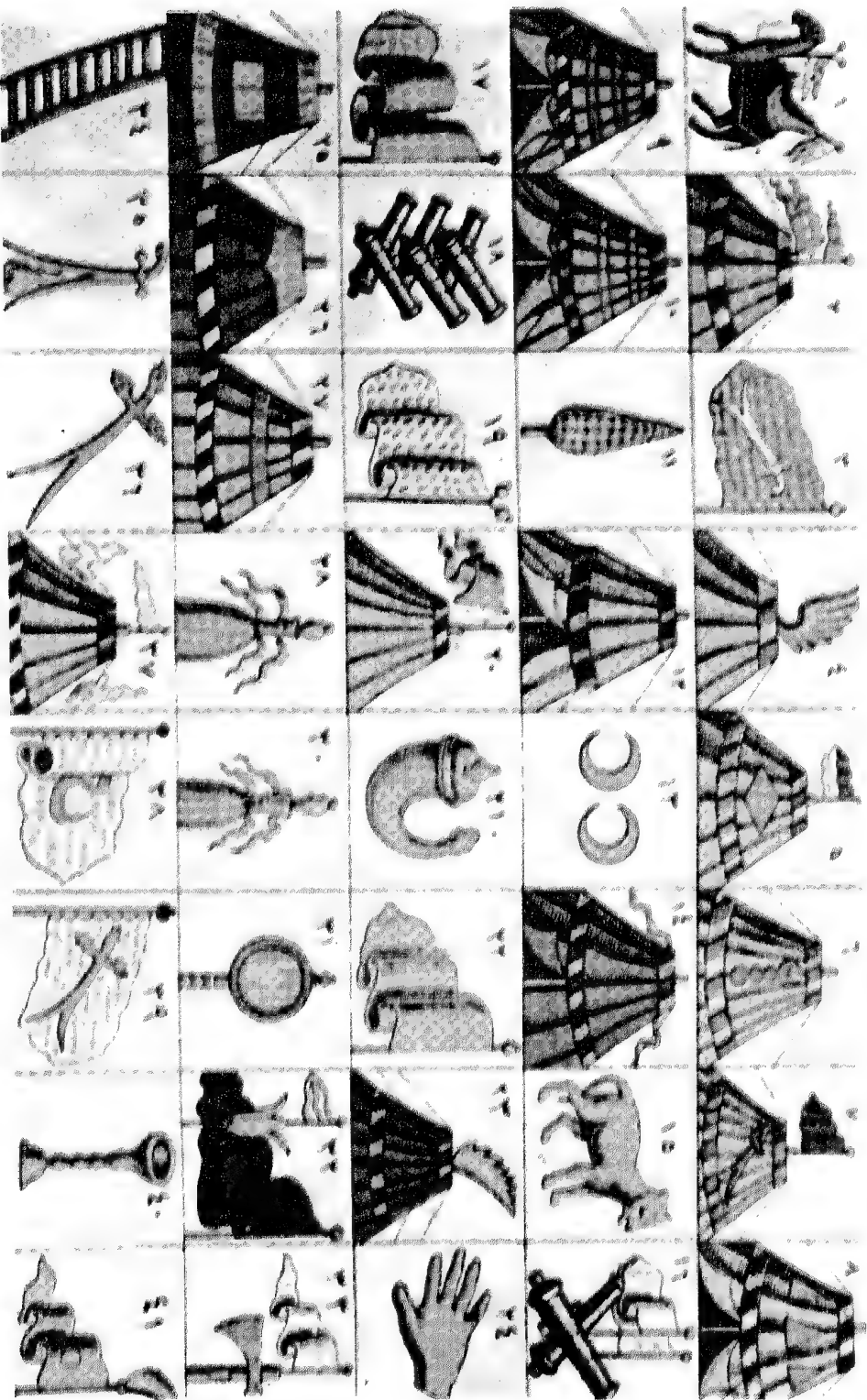


(عبد بنو نصر)



(عليه راحة الله)

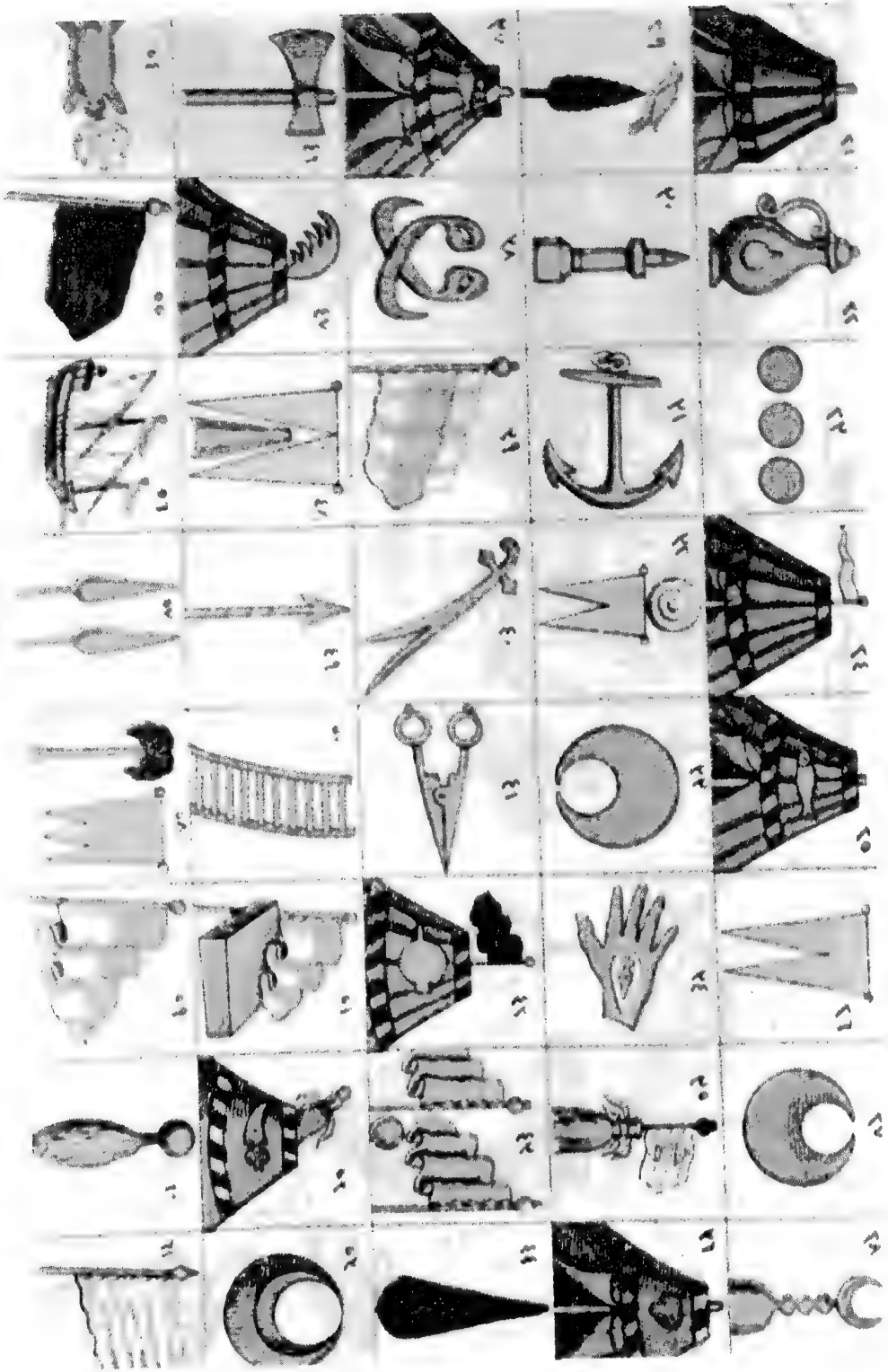
اعلام وریات خلفه



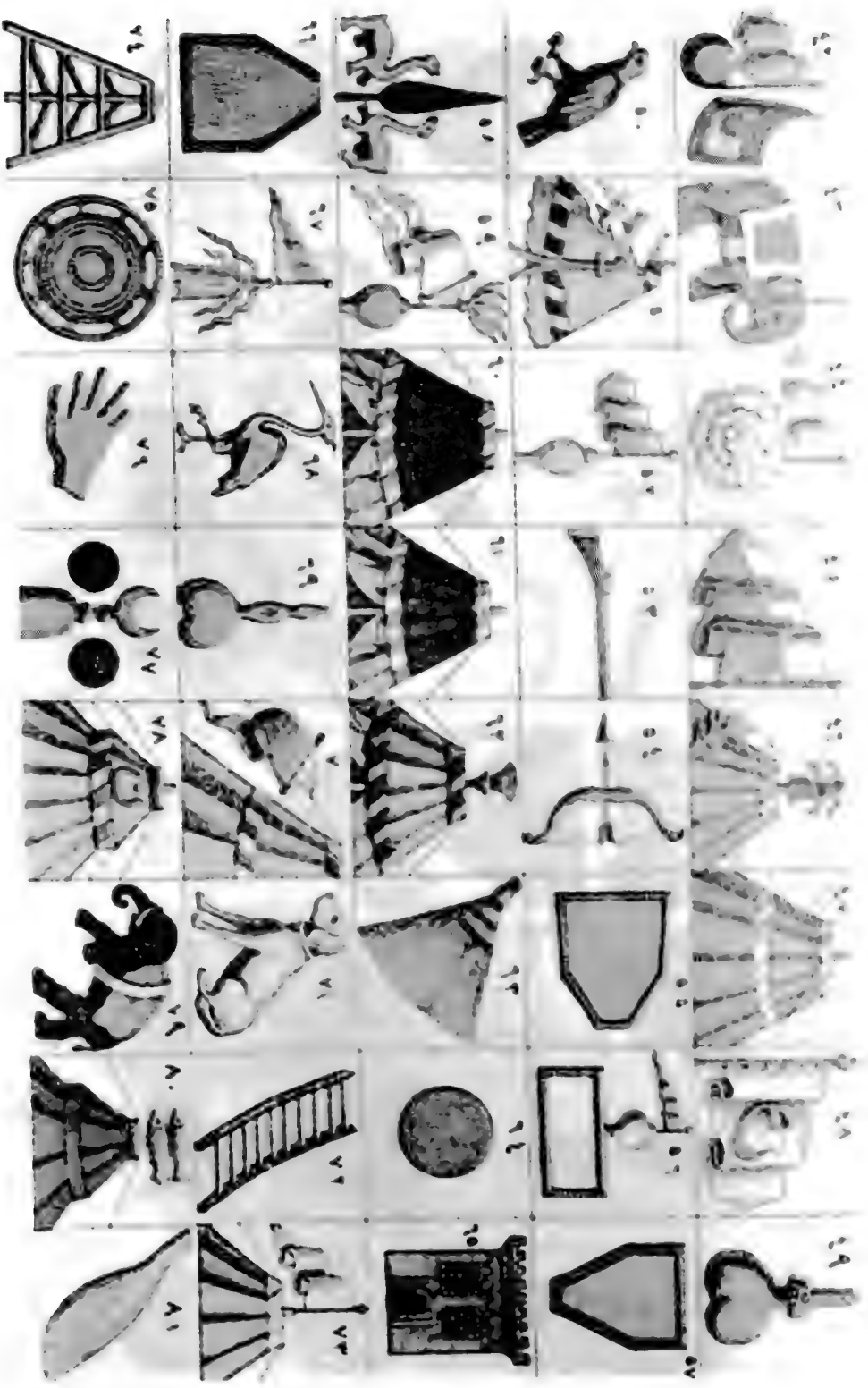
الشميات التي كانت تطلق على جماعات أروحات الإكشائية من ١ - ٤١ كل وحدة منها بهلاميا المبرقة.

رموز وشعارات الوحدات العسكرية العمانية المختلفة

والرقم الوارد في الصور هو رقم الوحدة وإلى جانبها رمزها،

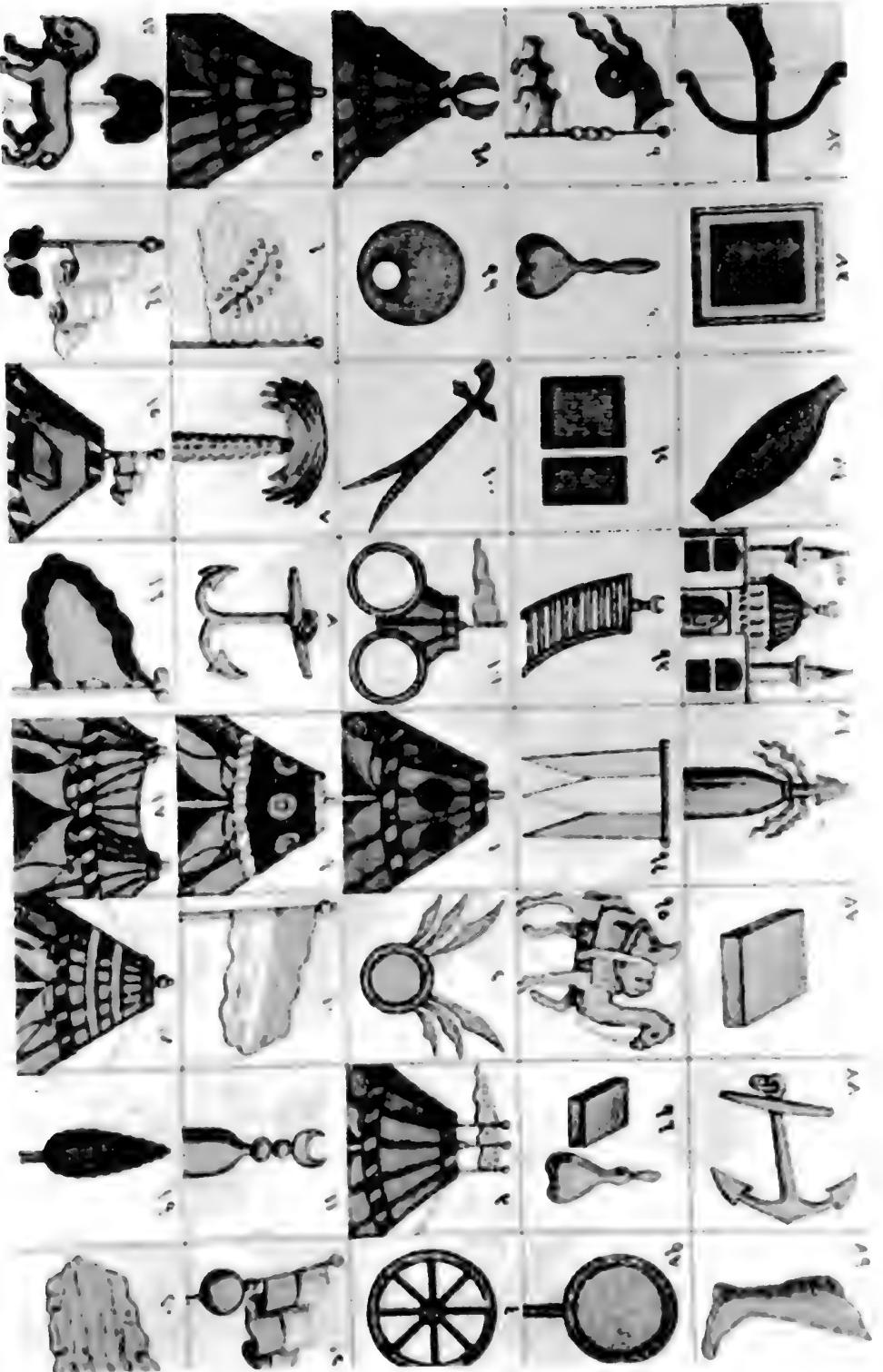


رموز وشعارات الوحدات العسكرية الثمانية الخلفه
والرقم الوراء في الصور هو رقم الوحدة وإلى جانبها رمزها»



رموز وشعارات الوحدات العسكرية العراقية المختلفة

«الرقم الوارد في الصور هو رقم الوحدة وإلى جانبها رمزها»



رموز وشعارات الوحدات العسكرية العراقية المختلفة

«الرقم الوردي في الصور هو رقم الوحدة وإلى جانبها رمزها»

مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين ١١٨٦ — ١٢٥٦ هـ
١٧٧٢ — ١٨٤٠ م / يوسف جميل نعيسه. ط. ١ —
دمشق: دار طلاس؛ ١٩٨٦. — ٢ ج. (٨٢٦ ص):
موضح؛ ٢٤ سم.

١ — ٩٥٦١ ن ع ي م ٢ — العنوان ٣ — نعيسه

الجزء الأول ع — ٤٧٥ / ٥ / ١٩٨٦

